Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



39141

PT 60 - 107 Khamyc 12/2/93
2 vols
Bud 12
C
18

لجنة التأليف والترجمة والنشر

طه حسين

مع المتنبي

— ١ —

AIBHUJOO
YTIBƎIVIHU
YAAƎIL

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٦

893.7M98
DH
20.in1

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

AS-30141 Schwarzkopf, 1942 EM/MF

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صدقه الله أيتها الزوج الكريمة وتمت كلمته ، ففى ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفى ذرى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول . وانه قلبى ليملؤه البر ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبدينه وتعيدينه فيه ، أثناء ذلك ، من حث لى على الراحة ، ورغبة الحّ فى الترويح ، والحاح علىّ فى الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة فى جبال (الالب) ، وما كنت ألقى به عطفك من اباء واعتراضه ، وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والاشفاق . وانى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسيا جافيا ، ولكنى أعلم أنى مدين لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب ، فأذنى لى فى أن أقدمه اليك لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرينه

الكتاب الأول

١

لا أريد أن أدرس المتنبى ، فأنا لم أترك القاهرة ، ولم أعبر البحر ، ولم آو إلى هذه القرية للبحث والدرس ، وإنما اصطنعت هذا كله طلباً للراحة ، وإيثاراً للفراغ الذى أخلو فيه إلى نفسى .

فقد طالما شغلت عنها فى القاهرة بأحداث الحياة الخاصة والعامة . وقد طالما اشتقت إلى أن ألقاها وجهاً لوجه ، وأدير بينها وبينى ألوان الحديث . وأفر فيه من نفسى فأنا كثير السأم لها والضيق بها ، كما قلت فى غير موضع . لا أكاد أقبل عليها حتى أنصرف عنها ، وأفزع منها إلى كتاب من هذه الكتب التى تدعونى وتلح فى الدعاء ، فلا أكاد أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين .

لا أريد إذن أن أدرس المتنبى ، فإنى قد فررت بنفسى وأهلى من الدرس والبحث والتحصيل . ولقد صحبت المتنبى طوال العام الجامعى أدرس شعره مع الطلاب وأتحدث عنه إلى جمهور الناس ، حتى سئمت درسه والتحدث عنه .

وكما أكره لابْنَيَّ أن يُقبلا أثناء الصيف على ما كانا يقبلان عليه فى عامهما الدراسى ، فأنا أكره لنفسى أن أمضى فى درس المتنبى بعد أن أنفقت فيه ما أنفقت من الليالى والأيام .

ومع ذلك فقد طلبت إلى صاحبى حين كان يجمع ما ينبغى أن نحمله من الكتب ألا ينسى ديوان المتنبى . ولم أطلب إليه أن يحمل ديواناً آخر من دواوين الشعر القديم أو الحديث ، وإنما طلبت ديوان المتنبى وحده . وأراد صاحبى أن يحمل ما فى مكتبى من الشروح التى كتبها القدماء والمحدثون يفسرون بها هذا الديوان ، وأراد أن يحمل ما فى مكتبى من البحوث التى تناول بها القدماء والمحدثون حياة أبى الطيب وشعره ، فأبيت عليه هذا كله ، وتقدمت إليه فى أن يكتفى بأيسر طبعة من طبعات المتنبى ؛ لأنى لا أريد درساً ولا بحثاً وإنما أريد صحبة ومرافقة ليس غير .

وليس المتنبى مع هذا من أحب الشعراء إلىّ ، وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب أو الإيثار . ولقد أتى علىّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطر لى أنى سأعنى بالمتنبى أو أُطيل صحبته ، أو أديم التفكير فيه . ولو أنى

أطعت نفسى وجاريت هواى لاصطحبت شاعراً إسلاميا قديماً عسيراً كالفرزدق أو ذى الرمة أو الطرماح . أو شاعراً عباسيًّا من هؤلاء الذين أحبهم أو أُوثرهم ؛ لأنى أجد عندهم لذة العقل والقلب ، أو لذة الأذن ، أو اللذتين جميعاً ، كمسلم ، وأبى نواس ، وأبى تمام ، وأبى العلاء . ولكنى لم أطع نفسى وإنما عصيتها ، ولم أُجار هواى وإنما خالفته أشد الخلاف وطلبت إلى صاحبى على كره منى أن يصطحب المتنبى .

وأكبر الظن أنى إنما فعلت ذلك لأن المتنبى كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين ، ولأنى حاولت وما زلت أُحاول أن أستكشف السر فى حب المحدثين له ، وإقبالهم عليه ، وإسرافهم فى هذا الحب والإقبال ، كما أسرف القدماء فى العناية به حبًّا وبغضاً وإقبالاً وإعراضاً .

وأكبر الظن أيضاً أنى إنما فعلت ذلك لأنى أحب أن أُعاند نفسى وآخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر . وقد قلت فى غير هذا الموضع إنى لست من المحبين المتنبى ولا المشغوفين بشخصه وفنِّه ، فلم أجد بأساً فى أن أشق على نفسى أثناء الراحة ، وأثقل عليها حين تبغض الأثقال عليها .

نعم لم أجد بأساً فى أن أقطع عليها لذة الحياة فى فرنسا بين هذه الربى الجميلة ، وفى هذا الجو الحلو ، و بين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التى تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد ، والتى أغرق فيها إلى أُذنى كلما عبرت البحر .

لم أجد بأساً بأن أثقل على نفسى أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبى والتحدث عنه ، والاستماع له ، والنظر فيه ، والناس يعرفون أنى شديد العناد للناس ، فليعرفوا أيضاً أنى شديد العناد لنفسى كذلك .

لا أُريد أن أدرس المتنبى إذن ؛ فالذين يقرءون هذه الفصول لا ينبغى أن يقرءوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ، ولا ينبغى أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد . و إنما هى خواطر مرسلة تثيرها فى نفسى قراءة المتنبى فى قرية من قرى الألپ فى فرنسا .

قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة ، وعلى غير نسق منسجم . إنما هى قراءة متقطعة متفرقة ، أقصد إليها أحياناً لأنى أريدها ، وأقصد إليها أحياناً أخرى لأن نفسى تنازعنى إلى كتاب من كتب الأدب الفرنسى ، فأُعاندها وأُمانعها

وأكرهها على أن تسمع للمتنبي أو تتحدث إليه .

هي قراءة إن صورت شيئاً فإنما تصوِّر طغيان المرء على نفسه ، ولعبه بوقته ، وعبثه بعقله ، وعصيانه لهواه ، وطاعته لهذا الهوى أحياناً .

وقل ما تشاء في هذا الكلام الذي تقرؤه . قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذي به صاحبه هذياناً . قل إنه كلام يصدر عن رأي وأناة ، وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح . فأنت محق في هذا كله ؛ لأني مرسل نفسي على سجيتها . ونفسي كغيرها من النفوس من سجيَّتها الأناة ، ومن سجيتها العجلة ، ومن سجيتها الجد ، ومن سجيتها اللهو ، ومن سجيتها التفكير ، ومن سجيتها الهذيان . وما يمنعني أن أرسل نفسي على سجيتها بين وقت ووقت إذا طلبت إلى صاحبي أن يأخذ الورق والقلم ويسطر ما يملي عليه .

إني مثلك آخذ نفسي بأشد القيود وأثقل الأغلال ، أكثر العام حين أحيا في مصر ، وأنهض بما تفرضه الحياة من تكاليف ، وآخذ نفسي بأشد القيود وأثقل الأغلال أربعة أخماس الوقت الذي أنفقه يقظان في فرنسا حين أعاشر الناس

وأخالطهم ولو كانوا أقرب الناس وألصقهم بى ، ولا أتحلل من هذه القيود والأغلال إلا فيما بينى و بين الضمير أحياناً . ولعلى أكره ذلك فآباه إباء شديداً . فلنطلق أنفسنا من هذا العقال الاجتماعى بعض الشىء . ولنخلّ بينها و بين الحرية بعض الوقت ولنرسلها على سجيتها لحظات ، ولنصورها كما هى فى غير تحرُّج ولا إسراف فى الاحتياط ؛ فإن هذا من حقها علينا ، وهو قبل كل شىء من حق الأدب العربى على الأدباء . وما أظنّنى أعرف أدباً مقيداً مسرفاً فى التحرج غالياً فى الاحتياط كأدبنا العربى الحديث ، الذى ينشئه أصحابه وهم يفكرون فى الناس أكثر مما يفكرون فى أنفسهم ، حتى أطمعوا الناس فيهم وأصبحوا عبيداً للجماعة وخدماً للقراء .

فلنتمرَّد على الجماعة ولنثر بالقراء ، ولننبذ الاحتياط كله إلا هذا الذى يثير الشر أو يؤذى الأخلاق .

٢

وقد تعود الناس أن يؤمنوا بأن المتنبى رجل عربى خالص النسب . ينتهى من قبل أبيه إلى جُعْفِىٍّ ، ومن قبل أمه إلى هَمْدَانَ وهما حيّان من أحياء اليمن فيما يقول المؤرخون والنسّابون .

وجائز جداً أن يكون المتنبى عربيًّا ، وجائز أن يكون من عرب الجنوب ، جُعْفِىَّ الأب ، هَمْدَانِىَّ الأم . ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن ديوانه لا يثبت هـذا ولا يؤكده بل لا يسجله ولا يذكره . ومن يدرى لعل ديوانه ينفيه ، ولعله ينفيه نفيا هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح .

أكان المتنبى يعرف أباه ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبى شيئاً . فأنت تقرأ ديوانه من أوله إلى آخره وتقرؤه مستأنياً متمهلاً ، فلا تجد فيه ذكراً لهذا الرجل الطيب الذى أنجب للقرن الرابع شاعرَه العظيم .

لم يمدحه المتنبى ، ولم يفخر به ، ولم يرْثه المتنبى ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات ! أكان ذلك لأن المتنبى لم يعرف أباه ؟

أم كان ذلك لأن المتنبي عرف أباه ولكنه لم ير له خطراً ، ولم ير في ذكره ما يرفع من شأنه و يرد عنه كيد الكائد وحسد الحسود . أم كان المتنبي يزدري أباه و يكبر شعره عن أن يقف عنده ماذحاً أو هاجياً ونادباً أو راثياً ؟

كل ذلك ممكن ، ولكن الشيء المحقق أن المتنبي كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح ، و إلى الحرب والبأس ، على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذي سماه المؤرخون الحسينَ ، ونسبوه إلى جُعْفِيٍّ من عرب الجنوب .

أكان المتنبي يعرف جده ؟ لا يحدثنا ديوانه بشيء ، ومن أعرض عن ذكر أبيه لا يستغرب منه أن يعرض عن ذكر جده . ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده ! إذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أنهم كانوا يعرفون أبا المتنبي و يسمونه حسيناً فإنهم لم يتفقوا على جده ، ولم يجمعوا على الاسم الذي يلصقونه به . فهو الحسين حيناً ، وهو عبد الصمد حيناً آخر . ومهما يكن من شيء فقد كان للمتنبي أبٌ ، وكان له جد ؛ لأننا لا نعرف إنساناً ليس له أب ولا جد . لا نستثني من ذلك إلا اللذين استثناهما الله عزّ وجل حين قال : « إِنَّ مَثَلَ عيسى

عند اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » .

كان للمتنبى أبٌ وجدّ ، ولكن المؤرخين والنسّابين لا يعرفون من أمر جده قليلاً ولا كثيراً ، ويكادون يختلفون فى اسمه كما رأيت .

أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئاً ، شيئاً يسيراً جداً . كانوا يزعمون أن أبا المتنبى كان سقّاء فى الكوفة . تحدث المؤرخون بذلك ، وهم بين متحدِّث به يريد أن يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان أبوه يبيع الماء على الناس ، وكان هو يبيع ماء وجهه على الممدوحين[1] .

وما أظن أن الذّين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا إلى إثبات الحق من حيث هو حق ، وتسجيل التاريخ من حيث هو تاريخ . وإنما قصدوا إلى ما ذكرت لك : إلى الرفع من شأن

---

(١) وإلى هذا أشار بعض الشعراء حين هجاه بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفض ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠ (طبع بولاق)

المتنبي أو الوضع من قدره ، فكأنهم إذن لم يصنعوا شيئاً وكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر أبي المتنبي إلا مثل ما عرفوا من أمر جده ، أي لم يعرفوا شيئا ما .

ولعل المتنبي نفسه قد عرف الكثير من أمر أبيه وجده ، ولكنه كان فيما يظهر غالياً في الغرور ، مسرفاً في الكبرياء ، وكان غروره فيما يظهر أكبر من شعره فأفسد عليه الأمر إفساداً .

والتاريخ أو القصص يحدثنا بأن أباجرير لم يكن شيئاً ، و بأن جريراً قد أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب ، حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو[1] ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ، وأن طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده

(١) حدث صاحب الأغاني قال : قال إسحاق وقال الأصمعي حدثني بلال بن جرير — أو حدثت عنه — : أن رجلا قال لجرير : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب ؛ فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ! اخرج يا أبت ؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته فقال : ألا ترى هذا ؟ قال نعم . قال : ألا تعرفه ؟ قال لا . قال هذا أبي ، أفتدرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قلت لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم فغلبهم جميعاً (أغاني ج ٧ ص ٥٨ طبع بولاق)

شعره ، وأعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً .

أما المتنبى فلم يستطع شعره أن يغلب غروره ، ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقا جديدا . ومن يدرى ؟ لعل مصدر ذلك أن جريرا كان يعرف أباه فصوّره كما أراد لا كما كان . وأن المتنبى لم يكن يعرف أباه فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان .

و بعد فليس يضع من قدر المتنبى عندى ألا يعرف لنفسه أباً . وليس يرفع من شأنه أن يكون أبوه من المجد ونباهة الذكر بحيث كان غالب بن صعصعة أبو الفرزدق وشيخ تميم .

وأنا أقبل من المتنبى فى إعجاب لا حدّ له هذه الأبيات التى هى من أروع ما قال من الشعر :

أنا ابنُ مَن بعضُــهُ يفُوقُ أبا الـ
ـباحِثِ والنَجْلُ بَعضُ مَن نَجَلَهْ
وإنَّمَا يذكرُ الجُــدُودَ لَهُم
مَن نفَرُوهُ وأنفَدُوا حِيَــلَه
فَخْراً لِعَضْبٍ أرُوحُ مُشْــتَمِلَهْ
وسَــهْوَرِيٍّ أرُوحُ مُعْتَقِــلَهْ

وَلْيَفْخَرِ الفخرُ إذ غَدَوْتُ بهِ
مُرْتَدِياً خَيْرَهُ ومُنتَعِلَهْ
أنَا الّذى بَيَّنَ الإلٰهُ به اُلـ
ـأقدارَ والمَرْءُ حَيثُما جَعَلَهْ
جَوْهَرةٌ تَفرَحُ الشِّرافُ بها
وغُصَّةٌ لا تُسِيغُها السَّفِلَهْ
إن الكِذَابَ الّذى أكادُ بهِ
أهوَنُ عِندى من الذى نقلَهْ
فلا مُبالٍ ولا مُدَاجٍ ولا
وَانٍ وَلاَ عاجزٌ ولا تُكَلَهْ
ودَارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقًى
فى المُلتَقَى والعَجاجِ والعَجَلَهْ
وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بقافيةٍ
يحارُ فيها المُنَقِّحُ القُوَلَهْ
وربَّمَا أُشْهِدُ الطعامَ مَعِى
مَنْ لا يُساوِى الخُبْزَ الذى أكَلَهْ

ويُظْهِـرُ الجَهلَ بى وأعرِفُهْ
والدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِـلَهْ

فالمتنبى كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس ، وإنما ينسب نفسه إلى متجزء له بعض يمتاز من كله ، وبعضه هذا يفوق آباء الباحثين عن نسبه المتقصين لأمره .

هو لا ينسب نفسه إلى رجل ؛ لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال ، وإنما ينتسب إلى الآباء والجدود من غلبـه المفاخرون وقهره المنافرون ، وقطعوا عليه السبل ، وسدوا عليه أبواب الحيلة ، فاتخذ الآباء والجدود تَعِلَّةً ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه ، ويستعير من أعمالهم ما لا يجد فى أعماله .

هو إذن لا ينتسب إلى الرجال لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد فى الانتساب إلى الرجال غناء . وإنما ينتسب إلى معنى بعضه يغنى عن كل غيره ، وقليله يغنى عن كثير سواه . هو ينتسب إلى البأس والشدة ، وإلى المروءة والنجدة ، وإلى ارتفاع الهمة وبعد الأمل وحسن البلاء . به يفخر السيف إن اشتمل السيف ، وبه يفخر الرمح إن اعتقل الرمح ، وبه يفخر

الفخر إن اكتساه ثوباً أو احتذاه نعلاً .

ثم هو بذلك حسن البلاء حين يجرد السيف ، أو يلاعب السِّنان . بهذا وذاك يصرع الأبطال الدارعين ، ثم هو بعد هذا وذاك ابن الشعر الذى يقهر به الشعراء مهما ينبغوا ، ويقهر به النقّاد مهما يبرعوا . وهو من أجل هذا وذاك يزدرى كثيراً من الناس ، أو قل إنه يزدرى الناس جميعاً . وما أقدره على أن يعلن ذلك ويجهر به ، لولا أنه يمدح أبا العشائر بهذه القصيدة ، وغير أبى العشائر بغير هذه القصيدة . فهو محتاج إلى أن يعان هذا الازدراء فى تحفظ واحتياط ، وهو يكتفى هنا بأن يزدرى قوماً يشهدون معه الطعام وهم لا يساوون الخبز الذى يأكلونه .

ولكن شيئاً واحداً يحتاج إلى أن نقف عنده لحظة هو هذا الكِذَاب الذى كان المتنبى يكاد به عند أبى العشائر والذى كان أهون عند المتنبى من ناقله والذى لم يحفل به المتنبى فأعان فى حزم أنه لا يبالى ولا يداجى ولا ينى ولا يعجز ولا يعتمد على أحد .

ما عسى أن يكون هذا الكِذَابُ ؟ أتراه يمس نسب المتنبى من قريب أو بعيد ؟

ليس فى ذلك عندى من شك فقد اتهم الرجل فى نسبه ، وسئل عن أبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد أن يجيب سائليه ، وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس وأن يزدرى الكائدين له والمرجفين به والمؤلبين عليه . ومع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير لأن هذا الإسراف فى الفخر والغلو فى التيه والإغراق فى ازدراء العائبين دليل فى حقيقة الأمر على العجز والنكول .

أقول مع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه ، فهى فى الوقت نفسه تصور قوة المتنبى وحسنَ رأيه فى نفسه ، وقوة إيمانه بهذه النفس ، وصدق معرفته للناس ، وشدة ازدرائه لهم ، واستهزائه بهم . لأنه قد علم من حقائقهم ودخائل أمورهم ما دفعه دفعا إلى هذا الازدراء والاستهزاء .

٣

وهل كان المتنبى يعرف أمه ؟ مسألة فيها نظر كما يقول الأزهريون . فديوان المتنبى صامت بالقياس إلى أمه صمته بالقياس إلى أبيه . فالصبى الشاب ، والرجل المكتهل ، والمتنبى راضياً وساخطاً ، ومسروراً ومحزوناً ، لايذكر أمه ، كما أنه لايذكر أباه . ولكن الخطب فى أمِّ المتنبى أعظم من الخطب فى أبيه . فقد سكت المتنبى نفسه عن أبيه ، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه فسموه الحسين ، وعرفوا له أباً اختلفوا فى اسمه بعض الاختلاف ، وعرفوا له صناعة هى السقاية فى الكوفة ، وهذا على قلته وضآلته كثير بالقياس إلى ما عرفوا عن أم المتنبى . لأنهم لم يعرفوا من أمرها شيئاً ، ولم يذكروا من أمرها شيئاً .

فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أباها ، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية . وكل ما نعرفه أن أمها قد عطفت على المتنبى ، وأحبته وكلفت به ، وعمرت حتى رأته رجلاً . وهذه السيدة التى قتلها حب حفيدها فيما يقال وكما سنرى

لانعرف لها اسماً ولا أبا ، و إنما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولون : إنها هَمْدانية صحيحة النسب ، و إنها كانت من صوالح نساء الكوفة . وهذا ما يعرفه عنها التاريخ . وهو كذلك كل ما يعرفه عنها ديوان المتنبي — أستغفر الله — فديوان المتنبي لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور وصاغته الكبرياء ، ووصفه جموح الشاعر فى غير موضعه من الرثاء ، وهو قوله :

ولو لم تَكُونِي بِنتَ أَكرَمِ والدٍ
لكانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كونُكِ لى أُمّا

فأقل ما فى هذا البيت أن المتنبى يذكر لنا أن جدته قد كانت بنت أكرم والد ، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدها . ولكن المتنبى لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الوالد الذى كان أكرمَ الناس . ومن الانصاف أن نلاحظ أن المتنبى لم يكن يقرر فى أكبر الظن أننا سنتشكك فى نسبه وسنلتمس وجه الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة . ولو أنه قدَّر شيئاً من ذلك لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط . ومن يدرى؟ لعله كان يزدرى شكَّنا ، كما كان يزدرى كيد المعاصرين .

ولعله كان يجيبنا بكل ما أجابهم به حين قال :

أَنا ٱبنُ مَن بعضُهُ يَفُوقُ أَبا ٱلْـ
ـباحِثِ والنَجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنَّمَا يَذكُرُ الجُـدُودَ لَهُم
من نَفَرُوهُ وأَنفَدُوا حِيَلَهْ

وإذا كان الكائدون للمتنبى من معاصريه قد عجزوا عن أن ينفروه وينفدوا حيله ، ويضطروه إلى أن يذكر لهم أباءه وجدوده فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين . فليس بين هؤلاء المعاصرين الباحثين وبين المتنبى منافسة ، ولا خصومة ، وليس هؤلاء الباحثون المعاصرون من العلم بأمر المتنبى ودخيلته بحيث كان خصومه ومنافسوه فى القرن الرابع . فليس من شك فى أن الذين عاصروا المتنبى وخاصموه كانوا يعرفون من سيرته ، ومن أمره جملة أكثر جدا مما نعرف ؛ لأننا لا نعرف شيئاً أو لا نكاد نعرف شيئاً . بل إن مضىَّ الزمن بيننا وبين المتنبى قد رفع الرجل عن الخصومات وصفاه من أكدار المنافسة ، ورفع بحثنا عنه ودرسنا له عن الأحقاد والضغائن . فنحن لا نُسَرُّ ، أو أنا على أقل تقدير لا أسر ولا أحزن إن ظهر أن

نسب المتنبي من جهة أبيه أو من جهة أمه ، قد كان صريحاً أو مدخولاً . ونحن نبحث ، أو أنا على أقل تقدير أبحث من أمر المتنبي عن شيء أبقى وأرقى وأقوم من نسبه العربي الصريح أوالمدخول : عن أدبه ، وفنه ، ومكانته من الأدباء ، وأصحاب الفن القدماء والمحدثين .

ونحن إذا انتهينا إلى قرارة الأشياء ، لا نكاد نشك فى أن المتنبي قد كان عربيًّا ، ولكن بشرط أن نفهم من لفظ العربى معنى أوسع وأعمق وأصدق مما كان يفهمه النسابون فى العصور الأولى ، ومما يفهمه المقلدون من الأدباء فى العصر الحديث .

فأين العقل العاقل الذى يستطيع أن يصدق ما كان يقال فى العصور الأولى ، وما لا يزال يقال فى كثير من المدارس الأدبيـة من أن العربى الصريح أو العربى الصليبة هو الذى يعرف له نسب صحيح إلى قبيلة من قبائل العرب فى الشمال أو فى الجنوب ؟

أين العقل العاقل الذى يصدق أن جميع سكان جزيرة العرب منذ العصور الجاهلية الأولى إلى هذا العصر الذى نعيش فيه قد حفظوا لأنفسهم أنساباً صريحة صحيحة ترفعهم إلى عدنان

أو إلى قحطان ؟ إنما حفظ الأنساب مزية قد اختصت بها طبقات من أشراف العرب وساداتهم فى بعض الأوقات ، ثم أصبحت سُـنة موروثة وعادة مألوفة ، ومظهراً من مظاهر الأرستقراطية . ثم فرضت على أصحابها أن يحفظوها ويتوارثوها ، ويبتدعوها ابتداعاً إذا غلبهم عليها النسيان .

ومن الحديث المعاد فى غير طائل ، بل من الحديث المعاد فى كثير من السأم والملل ، أن نذكر ما أثير حول الأنساب وصحتها منذ أقدم العصور العربية ، بل من الحديث المعاد الممل أن نذكر ما أثير حول صحة الأنساب عند الأمم القديمة كاليونان والرومان .

ليس من الحق إذن أن العربى لا يكون عربيًّا ، حتى يحفظ لنفسه أو يحفظ الناس له نسباً صحيحاً صريحاً ينتهى به إلى قبيلة من القبائل . ولو كان هذا حقًّا لتغير كثير جدا من القيم التاريخية والمعاصرة . فأكثر الذين كانوا يرون أنفسهم عرباً فى العصور القديمة ، لم يكونوا يحفظون أنسابهم فى أكبر الظن . والتاريخ لم يحفظها عنهم على كل حال . أفنجحد الآن أنهم كانوا عرباً ؛ لأن أنسابهم لم تصل إلينا ؟ وأكثر المعاصرين من الشعوب

العربية فى الشرق الأدنى ، لا يحفظون أنسابهم ، ولا يستطيعون أن يرقوا بها إلى عدنان أو قحطان ، أفنجحد تحدُّرهم من العنصر العربى الصريح ، وما هـذا العنصر الصريح ؟ وكيف السبيل إلى تحقيقـه ، واستخلاصه من العناصر المختلفـة التى لا تحصى ، والتى اتصلت به وأثرت فيـه على تتابع الأحداث ومرِّ العصور .

ولـكن ماذا ! ؟ أرانى أستطرد وأسرف فى الاستطراد ، وأكاد أثير مسألة الأجناس التى يثيرها بعض الساسة المعاصرين ، ويندفعون معها إلى كثير من الحمق ، وإلى كثير من الظلم أيضاً . والأمر أيسر من هذا ، فالتفكير فى نسب المتنبى ، والحديث عنه أهون من أن يدفعنا إلى أن نخوض هذه الغمرات .

كان المتنبى يرى أنه عربى ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأى ، ولعل هـذا الرأى كان أبلغ المؤثرات فى حياته العملية ، وهو أبلغ المؤثرات فى حياته الفنية على كل حال . وقد أنبأنا المتنبى برأيه هذا فى نفسه حين قال :

لا بِقَومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى
وبنفسى فَخَرتُ لا بجُدُودى

وبِهِم فخرُ كُلِّ مَن نَطَقَ الضَّا

دَ وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطَرِيدِ

فهذا البيت الثانى صريح فى أن المتنبى كان يعلن إلى الناس أنه لا يشرف بقومه وإنما يشرف قومه به ، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده ، وإن كان قومه فخر العرب ومجتمع خلالهم وخصالهم .

فما الذى يمنعنا من أن نصدق المتنبى ، ونرى معه أنه كان عربيًّا قحطانيًّا ؟ لا شىء إلا أنه لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ، فأمره فى ذلك أمر الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم . أفنجحد عربيتهم ؛ لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب . وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانية الناس ؛ لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول ، أو إلى الأناس الأولين ؟ إنما أفهم الشك فى عربية المتنبى لو أن المؤرخين رووا أن له نسباً معروفاً أو قريباً من المعروف فى أمة غير عربية ، وأنه قد جحد هذا النسب وتبرأ منه ، واصطنع لنفسه نسباً عربيًّا . ولكنى لم أر أحداً عاب المتنبى بهذا ، أو أضاف إليه نسباً أعجميًّا أو جعله عربيًّا بالولاء . وإذن فلنقبل من المتنبى ، ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب ، فذلك

لا يغير من العلم شيئاً ، وأكبر الظن أنه يلائم الحق .

أفهم أن ينسب ابن الرومى إلى اليونان ؛ لأن جده اليونانى قد حفظ اسمه ، وأن ينسب من قبل أمه إلى الفرس ؛ لأن أمه الفارسية قد كانت معروفة ، وأفهم أن ينسب بشار إلى الفرس لأنه كان يفاخر بذلك ولا يخفيه ، وأفهم أن تثار المناقشات إن زعم زاعم أن بشاراً كان عربيًّا ، بل أفهم أن تثار المناقشات حول طائية أبى تمام ، ثم حول عربيته لأن المعاصرين قد شكُّوا فى نسبه وغمزوه ببعض الهنات . ولكنى لا أفهم الشك فى عربية المتنبى ، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمة أعجمية ، وما دام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك ، وما دام هو ينبئنا بأنه عربى صريح .

ومن حقك أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبى ، وأظهر الشك فى معرفته لأمه ومعرفته لأبيه ، ما دمت لا أميل إلى الجدال فى عنصره العربى الصريح . من حقك أن تلقى علىّ هذا السؤال .

فاعلم يا سيدى أنى لم أُثِرْ هذه المناقشة الطويلة لأعرف أكان المتنبى عربيًّا أم أعجميًّا ، وإنما أثرتها لأنتهى منها إلى

حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبى لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ؛ ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه . التمس لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعنينى ، وإنما الذى يعنينى ، ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور المتنبى الصبى بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين قد كان العنصر الأول الذى أثر فى شخصية المتنبى ، وبغّض إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه ، وإنما كانت حياة يحيط بها كثير من الغموض ، ويأخذها كثير من الشذوذ .

رأى نفسه شاذًّا لأمر ليس له فيه يد ، وليس له عليه سلطان . ففكر تفكير الشاذ وعاش عيشة الشاذ ، ثم انضمت إلى هذا العنصر عناصر أخرى سيظهرها لنا شعره . فكوّنت هذه الشخصية التى لم نستطع أن نفهمها ، ولا أن نحللها إلى الآن .

ليكن المتنبى عربيًّا من قحطان أو من عدنان ، أو ليكن فارسيًّا ، أو ليكن نبطيًّا ، أو ليكن ما شئت ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أن هذا الصبى الذى نراه متى أخذنا فى قراءة ديوانه ، نبات شعبى خالص ، نشأ فى هذا الشعب الكوفى الذى

كان فى أوائل القرن الرابع مضطرباً أشد الاضطراب . فدَرْسُ هذه البيئة الشعبية الكوفية التى أنبتت هذا النبات الشاذ أقومُ وأجدى من البحث عن أبيه ، أكان من جعفىّ ، وعن أمه أكانت من همدان .

وتسألنى — ومن حقك أن تسألنى — عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبى ، وعن مواطن هذا الشذوذ الذى أخذها من كل وجه فى بيئته الكوفية . فلاحِظْ قبل كل شىء غموض الأمر فى نسبه ، ولاحظ بعد ذلك خلو ديوانه من ذكر أمه وأبيه ، أو الإشارة إليهما ، ولاحظ بعد هذا وذاك هذا الكِذَابَ الذى كان يكاد به عند أبى العشائر ، ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه ، ووجد الشوق إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء لم يستطع أن يدخل الكوفة ، فذهب إلى بغداد وكتب إلى جدته لتشخص إليه . فلما انتهى إليها كتابه فرحت به فقتلها الفرح .

أليس هذا كله دليلاً على أن شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبى .

لماذا احتاج المؤرخون إلى أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا

أو لم يريدوا أن يتحدثوا عن أمه ، ولم يتحدث هو عن هذه وذاك ؟

لماذا كاد الكائدون للمتنبى فى نسبه ؟ لماذا تعمد الغربة عن الكوفة وألحّ فيها ، وتجنب الحياة فى العراق ماوسعه هذا التجنب ؟ لماذا عجز عن دخول الكوفة حين خفّ للقاء جدته ، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدته أن تشخص إليه ؟

كل هذه حقائق واقعة لا نستطيع أن نشك فيها ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً . والمتنبى يحقق لنا هذه الأحداث فى هذه القصيدة الخالدة التى يرثى بها جدته ، فاقرأ معى هذه الأبيات ، ولكن قراءة المستأنى المتمهل الذى لا يمر بالشعر مرًّا ، والذى لا يشغله الجمال الفنى عن التماس نفس الشاعر ، وما يكن فى ضميره من العواطف المكظومة ، والأهواء المكتومة ، والخواطر التى لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح :

طَلَبتُ لها حَظًّا ففاتَتْ وفاتَنى
وقد رَضِيَتْ بِى لو رَضِيتُ بها قِسْما
فأَصبَحتُ أستَسقِى الغَمامَ لِقَبرِها
وقد كُنتُ أستَسقِى الوَغَى والقَنا الصُّمَّا

وكنتُ قُبَيلَ الموتِ أستعظمُ النَّوَى
فقد صارَتِ الصُغرَى الَّتى كانتِ العُظمَى
هَبينى أَخَذْتُ الثارَ فيك مِنَ العِدَى
فَكيفَ بأَخذِ الثار فيكِ منَ الحُمَّى
وما انسَدّت الدُنيا عَلَىَّ لضيقِها
ولكِنَّ طَرْفاً لا أَراكِ بهِ أَعْمَى
فَوا أَسَفا ألاّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً
لِرأسِكِ والصَّدْرِ الَّذَىْ مُلِئَا حَزْما
وأَلاّ أُلاقِى رُوحَكِ الطيِّبَ الَّذِى
كأنّ ذَكىَّ المِسكِ كانَ لهُ جِسما
ولو لم تَكُونى بِنتَ أكرَمِ والدٍ
لَكانَ أباكِ الضَخْمَ كَونُكِ لى أُمَّا
لَئِنْ لَذّ يَومُ الشامِتِينَ بمَوْتِها
لقَدْ وَلَدَتْ مِنى لِأَنْفِهِمِ رَغْما
تَغَرَّبَ لا مُسْتَعظِماً غَيْرَ نَفسِهِ
ولا قابِلاً إلاّ لِخَالِقِهِ حُكْما

ولا ســـالِـكاً إلاّ فُؤَادَ عَجـــاجةٍ
ولا واجِـــداً إلاّ لِمَكرُمةٍ طَعْما

يَقُولونَ لى ما أَنتَ فى كُلِّ بَلدةٍ
وما تَبتَغى ؟ ما أَبْتغِى جَلَّ أَنْ يُسْـــمَى

كأَنَّ بَنِيهِـــم عالِمُونَ بأَنّنى
جَلُوبٌ إليهِم من مَعادِنِهِ اليُتْما

وما الجمعُ بينَ المـــاءِ والنارِ فى يَدِى
بأَصعَبَ من أَنْ أَجمَعَ الجَـــدَّ والفَهْمَا

ولكِنَّنى مُسْتَنْصِرٌ بذُبابِهِ
ومُرْتَكِبٌ فى كُلِّ حالٍ بِهِ الغَشْما

وجاعِلُهُ يومَ اللِقـــاءِ تَحِيَّتى
وإلاّ فلستُ السَـــيِّدَ البَطَلَ القَرْما

إذا فَلَّ عَزْمى عن مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ
فأبعَـــدُ شىءٍ مُمْكِنٌ لم يجدِ عزْما

وإنّى لَمِنْ قَوْمٍ كأنَّ نفوسَهم
بها أَنَفٌ أنْ تَسْكُنَ اللَحْمَ والعَظْما

كَذا أنا يا دُنيـــا إذا شِئتِ فاذهبي
ويا نَفْسِ زِيدى فى كَرائِهِا قُدْما
فَلا عَبَرَتْ بى ســـاعةٌ لا تُعِزُّنى
ولا صَحبتنى مُهجةٌ تَقبَـــلُ الظُّلْمَا

فهو قد طلب لجدته حظا لم يدركه ، لأنها أسرعت إلى الموت ، ولأن هذا الحظ أبطأ على طالبه . وهو يسأل كيف يستطيع أن يثأر لها من الحمى التى قضت عليها . على فرض أنه استطاع أن يثأر لها من الأعداء الذين أساءوا إليها .

فمن حقنا أن نسأل عن هؤلاء الأعداء من هم ، ومن عسى أن يكونوا ؟ ومن حقنا أن نسأل عن هذه المساءة ما هى وما عسى أن تكون ؟ من حقنا أن نسأل ، ولكن المتنبى لم يقدر هذا السؤال فلم يجب ، أو قدَّره ولم يرد أن يجيب عليه لأنه آثر التلميح على التصريح ، ولأنه رأى ، ومن حقه أن يرى ، أن هذه أمور لا ينبغى أن تعنينا ، أو إنما هى تعنيه وحده ، وحسبه أن يعرف بعضها ناس من المعاصرين قليلون أو كثيرون .

هذا يدل من غير شك على أن سرًّا من الأسرار كان يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقة

الصلة التى كانت بينه و بين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السقاء و بين هذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تهمل أمَّ المتنبى إهمالاً تامًّا .

والمتنبى لا يكتفى بهذا التلميح الموجز ، و إنما يطيل فيه إطالة مقصودة تصور ما يملأ نفسه من الضغينة والحقد ، وما يفعم قلبه من الموجدة والبغض ، ولـكنه على هذه الإطالة لا يفصل هذا التلميح ولا يكشف عما يدل عليه من غموض .

فهو يحدثنا بأن قوماً قد يُسَرُّون بموت جدته ، و يشمتون به و بها ، ولـكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت وأعجزها الموت عن أن تكبتهم وترد كيدهم فى نحورهم ، فقد ولدته رغماً لأنوفهم ، وكبتاً لما فى صدورهم من الحقد والشنآن . ثم هو يصف لنا نفسه كما تعوَّد أن يصفها شديدة البأس ، قوية المراس ، أبية الضيم ، ممتنعة على الذل . ولـكننا نقف من هذا الوصف المألوف فى شعر المتنبى عنـد هذا البيت الذى لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفـكير .

تَغرَّبَ لا مُستَعظِماً غَيرَ نَفسِهِ
ولا قابِلاً إلاّ لِخَالِقِهِ حُـكْما

فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حبًّا فى الغربة ، ولكن إيثاراً لها ولمشقاتها وأخطارها على العافية فى الكوفة . وهو لأمر ما قد آثر هذه الغربة ، وتعرض لما قد تنكشف عنه من الأخطار والأهوال .

ولعلنا نغلو حين نقول لأمر ما ، فهو يبين لنا هذا الأمر أو هذه الأمور فى هذا البيت نفسه وفى الأبيات التى تليه . فهو تغرب لأنه لم يكن يستعظم إلا نفسه ، وهو تغرَّب لأنه لم يكن يقبل حكما إلا لخالقه . وما معنى هذا ؟ معناه فى أكبر الظن أنه تغرب منكراً للحياة فى الكوفة . وماذا عسى كان ينكر من الحياة فى الكوفة ؟ إنما هما أمران اثنان كانا خليقين أن ينكرهما المتنبى : أحدهما يتصل بالحياة الاجتماعية ، والآخر يتصل بالحياة السياسية . وليس من شك عندى — ولك أنت أن تشك — فى أن المتنبى لما تقدمت به السن قليلا قد عرف من أمر نفسه ، ومن أمر أسرته ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه فى الكوفة فآثر الرحيل .

فهذا هو الأمر الاجتماعى الذى يتصل بشخص المتنبى وأسرته ، ومكانه ومكان هذه الأسرة فى طبقته الاجتماعية .

فأما الأمر الآخر الذى يتصل بالحياة السياسية ، فأبيات المتنبى التى رويناها آنفاً ، تدل عليه أيضاً دلالة واضحة ، وسنتبينه بعد قليل فى شىء من الجلاء لا يحتمل اللبس . وهو عندى أثر من آثار الأمر الأول . فقد كان المتنبى ثائراً على نظام الحكم المستقر فى الكوفة ، ضيقاً به ، راغباً فى تغييره أو جادًّا فى هذا التغيير . ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعنى بأن طفولة المتنبى لم تكن طفولة عادية مألوفة ، و بأن صبى المتنبى لم يكن صبًى عادياً مألوفاً ، و بأن الكِذَاب الذى كان يكاد به عند أبى العشائر ، ويراه أهون عنده من ناقله لم يكن كذاباً كلّه ، و إنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظاً وحفيظة ويذوده عن الكوفة بل يبغض إليه الحياة فى العراق ويحمله على أن ينفق عمره غريباً مُجوَّلا فى الآفاق .

هذا كلّه يكفينى لأقتنع بأن مولد المتنبى كان شاذا ، و بأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها ، ولم يستطع أن يلائم بين نفسه الشاذة و بين البيئة الكوفية التى كان يراد له أن يعيش فيها . فما هذه البيئة ؟

٤

وهل تريدنى على أن أعيد عليك ما امتلأت به الكتب والصحف من تصوير الحياة العراقية خاصة ؛ والإسلامية عامة آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع . أظنك أرفق بنفسك وبى من أن تنتظر منى هذا الحديث المعاد ، ولكن لا بأس بأن نتذكر إن كنا قد نسينا أن هذه الحياةَ العراقية خاصة والإسلامية عامة كانت تنحل إلى ثلاثة أشياء ، كلٌّ منها خليق بالتفكير الطويل العميق ؛ لأن لكل منها أثراً بالغاً فى أحداث ذلك العصر على اختلافها :

الأمر الأول فساد السياسة ، والأمر الثانى الاقتصاد ، والأمر الثالث رقيُّ العقل . وما أظن أنك محتاج إلى أن أذكر لك فساد أمر الخلافة فى ذلك العصر ، فكل كتب التاريخ وكل كتب الأدب تصوِّر لك ما كان من انهيار سلطان الخلفاء وانحلال أمرهم ، وخضوعهم المطلق لعبث الجند ، وقادة الجند ، ولسلطان الخدم والنساء . وما نشأ عن ذلك كله من

عجز السلطان المركزى فى بغـداد عن أن يجمع أطراف الدولة ويحزم أمرها ، كما كان يفعل حين كان الخلفاء خلفاء ، وحين كانت الخلافة خلافة ، وحين لم يكن أمير المؤمنين لعبة فى يد خادم أو أَمَةٍ . ثم ما نشأ عن هذا كله من استقلال الأطراف ، وطموح الولاة إلى الملك ، وظهور القوميات الوطنية فى الشرق والغرب ، ونشوء عهد يشبه عهد الإقطاع فى أوربا أثناء القرون الوسطى .

أنت تعرف هذا كله ، ولست أحدثك بجديد إن أعدته عليك ، وهو من غير شك يصور لك فساد السياسة الإسلامية فى ذلك العصر . وفسادُ هذه السياسة الإسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الإسلامى . فما دام السلطان المركزى مضطرباً عاجزاً ، كثير التقلب ، فشؤون المال فى الدولة مضطربة مختلطة كثيرة الارتباك . وإذن فجباية الضرائب ، وتحصيل الدخل ، وملء الخزانة ، كل ذلك مضطرب أيضاً . وإذن فدافعو الضرائب على اختلافهم وتباين طبقاتهم ، معرضون لألوان من الظلم لا يمكن إحصاؤها . وإذن فالتعاون بينهم وبين السلطان منعدم ، وسوء الظن قائم مقام هذا التعاون :

السلطان محتاج إلى المال دائماً ، وهو معتقد أن الرعية قادرة دائماً على أن ترضى حاجته إلى هذا المال ، والرعية سيئة الرأى فى السلطان ، ترى ظلمه و بطشه ، وعجزه وعبثه بما تدفع إليه من مال ، فلا تطيب له نفسها عن شىء . فهى تظهر الفقر ، وتعلن الشكوى ، وتضمر البغض للحكومة ، وتجدّ فى أن تخفى عليها ما تملك . فالعداء مستحكم بين الراعى والرعية . كل يرى نفسه لصاحبه خصماً ، وكل ينتهز لصاحبه الفرصة و يتربص بصاحبه الدوائر . وعجزُ السلطان واضطرابه ، وعبث الجند والخدم ، يدفعه إلى شىء آخر غير ظلم الرعية ؛ يدفعه إلى ظلم أعوانه أنفسهم . فهو يأجر الجند إن استطاع ، فإذا أعياه ذلك لم يؤدِّ إلى الجند أُجورهم ، و إذن فسوء الظن قائم بينه و بين الجند ؛ يرى هو أنهم نهمون لا يشبعون ، و يرون هم أنه مستأثر دونهم بالمال ، يستغلهم ولا يؤدى إليهم أجراً . فسياسة السلطان للجند وطاعة الجند للسلطان يقومان على المكر والخداع ، أكثر مما يقومان على الصراحة والإخلاص . والأمر ليس مقصوراً على الجند وقادتهم ، ولكنه يتجاوز أُولئك وهؤلاء إلى أصحاب المناصب المدنية

على اختلافها . فهم أيضاً لا يتقاضون أُجورهم فى نظام ، وهم أيضاً مدفوعون إلى أن يسيئوا الظن بالسلطان ، والسلطان مدفوع إلى أن يسىء بهم الظن ، وهم مدفوعون إلى شر من هذا ، مدفوعون إلى أن يأجروا أنفسهم على حساب الرعية ، يظلمون ويغصبون ، يسرقون ويرتشون . والرعية ترى هذا وتتقيه ما استطاعت — وقلما تستطيع — فهى تنكر السلطان وجند السلطان ، وأعوان السلطان . وهى أيضا تريد أن تعيش وأن تعيش فى لين إن وجدت إلى ذلك سبيلا . والسلطان يضرب لها المثل وينصب لها القدوة . فما لها لا تظلم كما يظلم السلطان ، وما لها لا تغصب كما يغصب السلطان . وإذن فقوام الأمر كله الظلم والغصب ، وإفلات المرء بما يستطيع أن يفلت به من نعيم الحياة ولذاتها .

ومن هنا يوجد الأغنياء الذين لا تحصى ثروتهم ، والفقراء الذين لا يتصوَّر فقرهم ، والمضطربون بين الغنى والفقر الذين يواتيهم الحظ ؛ فيبلغون أقصى النعيم . ثم تخلفهم الأمانى وعودها ، فيهبطون إلى قرارة البؤس .

وما أظنك فى حاجة إلى أن أُؤكد لك أن هذه الصور

التى عرضتها عليك ليست صوراً قد اخترعها الخيال من عند نفسه ، وألفها تأليفاً ، مُؤْثِراً فى هذا التأليف الغلو والإغراق . إنما هى صور متواضعة ، أقل ما توصف به أنها أيسر وأهون ، وأقل بشاعة وسماجة مما نقرؤه فى كتب التاريخ الذى يعرض علينا فساد السياسة والاقتصاد مفصلا أقبح تفصيل وأشنعه . يعرضه علينا مكتوباً بالدم لا بالمداد .

أما رقىُّ العقل فى هذا العصر فليس أقل ظهوراً وجلاء من فساد السياسة والاقتصاد . فهو العصر الذى نضجت فيه الحضارة الإسلامية ، وأدركت رشدها ، واستكملت قوتها ، وأخذت تؤتى ثمرها طيباً لذيذاً فى كل فرع من فروع العلم ، والفلسفة والأدب والفن .

وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة . فيه التقت أكثر الأجناس التى تتألف منها الدولة الإسلامية ، أو على أقل تقدير أكثر هذه الأجناس استعداداً للحضارة ، وأحسنها بلاء فيها ، وأعظمها حظا من الإنتاج قديماً وحديثاً . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين . وفيه كان الفرس ومعهم

حضارتهم الساسانية المعقدة التى تمتاز بالترف المادى والعقلى معاً ، وفيه كانت أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود ، وتمثلوا تراث اليونان ، وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة ، ينقلون إليها تراث الأولين من أهل الشرق والغرب ، ويعينونها على أن تسيغه وتتمثله . ولن يخلو العراق من يونانيين انحدروا إليه وأقاموا فيه طائعين ، للاقتصاد والتماس المنفعة ، وكارهين بحكم الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين وبحكم الرق أيضاً .

ولن يخلو العراق من الهنود الذين كانوا يفدون طوعا أو كرهاً كاليونان . ثم لم يخل العراق ممن كانوا يمثلون الأقاليم والأطراف الغربية للدولة ، كانوا يفدون للتجارة ، وكانوا يفدون للسياسة ، وكانوا يفدون لطلب العلم أيضاً ، وكل هذه الأجناس كانت تلتقى متعارفة لا متناكرة ، ومؤتلفة لا مختلفة ، ومتعاونة لا متقاطعة ، قد زالت بينها الفروق ، وألغيت بينها الحجب ، وصبغتها الحضارة الجديدة صبغة واحدة ، وجعلت لها لغة واحدة هى اللغة العربية ، بها تتحدث ، وبها تكتب ، وفيها تدون ، وعن هذا كلّه نشأت الظاهرة التى تعنينا الآن ، وهى أن رقى العقل فى هذا

العصر قد انتهى إلى مالم ينته إليه قط فى العصور الإسلامية السابقة . فأحدث آثاراً غريبة أقل ما توصف به أنها كانت متناقضة أشد التناقض :

اختلطت الثقافات المختلفة وانتشرت فى الطبقات كلها ، فى الطبقات القوية ، وفى الطبقات الوسطى ، وفى الطبقات الضعيفة الخاملة ؛ ونشأ عن انتشار الثقافة وتغلغل العلم فى جميع الطبقات أن كل متعلم مثقف طمح إلى حال خير من حاله التى هو فيها ، وفتحت الثقافة المثقفين أبواب الحيل ، ومدت لهم أسباب النجح ، ومهدت لهم سبل الفوز . فأما الأغنياء وأصحاب الصولة فقد طمعوا وجهدوا فى أن يتزيدوا من الغنى والصولة ، وظفروا من ذلك بالشىء الكثير .

وأما أوساط الناس فقد طمعوا فى السيادة ، وسموا إلى المكانات العليا ، و بلغوا منها كثيراً مما أرادوا . وأما الطبقات الضعيفة الخاملة فقد طمعت فى أن ترقى درجة أو درجات ، وظفرت من ذلك بكثير مما أرادت أيضاً . ولكن الطمع الإنسانى لا حد له ، والطموح إلى الكمال لا يقف ، والأمور الاجتماعية لا تضطرد على هذا النمو السهل الذى يتصوره

العقل ، فكل طمع فى أى طبقة من الطبقات يصده طمع مثله ، وكل طموح يقاومه طموح مثله ، وكل ظفر ينتهى إليه فرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات ، انما هو انتصار على فرد آخر ، أو ظهور على طبقة أخرى ، فهو إن أرضى قوما يسخط آخرين ، والحياة الإنسانية لذلك دائما حرب متصلة ، وصراع مستمر ، وطموح لا ينقضى ، وآمال لا تحد وجشع لا يرضى ؛ فإذا أتيح لهذه الحياة سلاح من العقل الراقى ، والثقافة الواسعة ، والعلم الذى يفتق الحيلة ويرهف الحس ، ويذكى نار الشعور ، ويشحذ العزم ، لم يكن بدّ من أن ينتهى الأمر إلى الثورة وإلى الاضطراب ، وإلى مثل ما نشهده فى ذلك العصر من فساد السياسة ، والاقتصاد والخلق والشعور الدينى أيضاً . وإذا كنا قد لاحظنا ما لاحظناه من فساد السياسة الإسلامية فى ذلك الوقت وغليانها كما يغلى المرجل ، ثم انفجارها آخر الأمر وانتهاءها إلى ما انتهت إليه من الكوارث والأحداث .

فالثورة البابكية أو الخرّمية فى أول القرن الثالث ، وثورة الزنج أواسط هذا القرن وثورة القرامطة فى آخره ،

وفى أثناء القرن الرابع لم تكن إلا نتائج طبيعية لتفاعل هذه العناصر التى أشرنا إليها فى كثير من الإيجاز .

ولعل أخص ما تمتاز به هذه الثورات الثلاث أنها كلها كانت تقصد إلى تغيير الحياة الاقتصادية ، بحيث يغير توزيع الثروة بين الناس ، ويتحقق شىء من العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات ، وأنها كلها كانت تقصد كذلك إلى تقوية الشخصية الفردية ، وتحريرها من القيود والأغلال التى فرضها عليها النظام الدينى والسياسى والاجتماعى ، فقد كان الأفراد كما هم دائما يحتالون فى أن يتحللوا من هذه القيود بين الحين والحين ؛ فكانوا يحاولون اللهو والعبث ، واستباحة ما لم يكن مباحا ، يجهرون بذلك إن أتيحت لهم الفرص ، ويُسِرُّون ذلك إن حيل بينهم وبين الإعلان ، فإذا هذه الثورات تطالب لهم بالحق فى أن يجهروا من ذلك بما أحبوا ، وفى أن يأخذوا من ذلك ما أرادوا ، تعلن ذلك فى غير تحفظ حيناً ، وتعلن ذلك مع التحفظ والاحتياط حيناً آخر ، وهى على كل حال تملق أهواء العامة وشهواتهم وحاجاتهم إلى استباحة مالا يباح ، والاستمتاع بما لا يحل الاستمتاع به .

والثقافة تهون عليهم إثم ذلك من جهة ، وتفتق لهم الحيلة فى ذلك من جهة أخرى ، والغرائز المظلومة تستجيب لهذه الدعوات الجريئة الملحة المغرية ، والأمر يختلط بين الخاصة والعامة ، وبين العالم والجاهل ، وبين المقدم عن فهم ورأى ، والمقدم عن انتهاز للفرصة واستمتاع بالساعة التى هو فيها ، حتى فسد الأمر واختلط ، وحتى طغى السيل وكاد يكتسح كل شىء ، وقد قاومه المعتضد ، وأقام الجسور التى حصرته حيناً ، ولكن المعتضد لم يكد يموت حتى انهارت هذه الجسور ، واندفع السيل أمامه لا يلوى على شىء ، وعجزت الدولة الإسلامية عن مقاومة هذا الطوفان الخطر ، الذى أثاره ما كان من التفاعل بين هذه العناصر التى صورناها منذ حين .

فى هذا العصر الذى نحن بإزائه عظمت الشخصية الفردية حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط فى التاريخ الإسلامى ، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئاً يذكر ، ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة وتحكمت فى الأفراد وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم ، وامّحى الإيثار أو كاد

يَمَّحِى ، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التى تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة ، ولم يكن غريباً أن يمكر الصديق بصديقه ، ويغدر الخليل بخليله ، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغى الأخ على أخيه ، ولم يكن من الغريب أن تستباح الدماء التى عصمها الله ، وتنتهك الحرمات التى أمر الله أن ترعى .

ويجب أَن نلاحظ أَن كل هـذه الظواهر التى كانت حقائق واقعـة فى ذلك العصر لم تكن تتخذ طرقها ميسرة ممهدة مستقيمة . وإنما كانت تلتوى وتعوج وتدور حول الصعاب والمشكلات إذا لم تستطع أن تقتحمها ، وليس من شك فى أن كثيراً من التضليل والتغرير قد سلط على جماعات بريئة مطمئنة غافلة . فلبس لها الحق بالباطل ، وزين لها الشر حتى رأته خيراً ، ودفعها بألوان الإغراء العنيف حتى اندفعت أمامها فى هذه الصحراء تلتمس الرى من هذا المـاء الذى كانت تراه رأى العين وتركض إليه ؛ حتى إذا بلغته لم تجده شيئاً ووجدت عنده الخيبة والبؤس والشقاء .

فهذه الجماعات الضخمة التى ثارت مع بابك الخرّمى أَو مع صاحب الزنج ، أو مع دعاة القرامطة لم تكن كلها مقدمة عن

علم بما تقدم عليه ، وإنما ثارت تلتمس العدل الاجتماعى الذى تتطلبه النفس الإنسانية دائماً وتتطلبه ملحة شاكية كلما عظم حظها من البؤس والشقاء ، وقد عرف قادتها وسادتها كيف يلبسون عليها الأمر ويزينون لها الشر ، وعرف الحكام وأعوان الحكام كيف يبغضون إليها النظام القائم ويزهدونها فيه ، ويدفعونها إلى الثورة به والخروج عليه .

فى هذا العصر الذى نحن بأزائه ، وفى هذا الاضطراب المتصل والفساد الشائع ، كثر المغامرون والمخاطرون وأصحاب المطامع التى لا تحد . وظفر بعض هؤلاء المغامرين بما كان يريده كله أو بعضه ، ظفراً يطول حيناً ويقصر حيناً ، ولكنه ظفر على كل حال من شأنه أن يغرى بالمغامرة ويدفع إلى المخاطرة ، ويزيد أثرة الأفراد ، ويضيف فى حياة الجماعات فساداً إلى فساد .

فى هذه البيئة المنكرة التى لم نبالغ ولم نغل فى تصويرها ولد المتنبى . وأكبر الظن أن مولده كان أثراً من آثار هذا الفساد العظيم ، أو أنه لم يخل من تأثر به على كل حال .

ولد المتنبى فى بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين .

كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر . ولم يكن الدم وحده يصبغها ، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكراً من سفك الدم ، هو النهب والسلب واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين .

أضف إلى هذا الشر كله شرا آخر سياسيا جنسيا إن صح هذا التعبير ، وهو أن الأمة العربية التى أقامت هذا الملك الضخم ، وشيدت هذه الحضارة المزدهرة قد غلبت على أمرها وطردت من مستقر سلطانها ، فانحاز إلى الشام والجزيرة منها من انحاز ، وخضع للذل منها من أقام فى العراق ، ودفع إلى الجهالة والبداوة منها من انحاز إلى جزيرة العرب وأقام فيها .

وتسلط الغلمان والرقيق والمغامرون من الخدم وأشباه الخدم على الملوك والأمراء والخلفاء يعبثون باسمهم و يبطشون بسلطانهم ، و يظلمون دون أن يردعهم رادع أو يزعهم وازع أو يصدهم عن ذلك صاد ، فعامة الناس طامعون فى العدل العام ، وهم مع ذلك ينكر بعضهم بعضاً ، و يمكر بعضهم ببعض و يعتدى بعضهم على بعض . وخاصة الناس متنافسون متدابرون

لا يعرفون لما بينهم من التنافس والتدابر حدا ، ولا يعرفون لما يثيره التنافس والتدابر فى نفوسهم من الآمال والأهواء ، ومن المطامع والمآرب غاية ينتهون إليها .

ملك عظيم ينقض ، وسلطان هائل ينهار ، وقوم يتهالكون على فتات ذلك الملك وأنقاض هذا السلطان . فإذا ولد فى هذه البيئة صبى ذكى القلب مرهف الحس ، رقيق المزاج ، حاد الشعور ، ملتهب العاطفة ، قوى الخيال ، كان من الطبيعى أن يسير السيرة التى تكون منه هذا الشخص الذى يعرف بالمتنبى .

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن نصحب هذا المتنبى فى طريقه القصيرة التى سلكها منذ ولد سنة ثلاث وثلاثمائة إلى أن مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . وقد نجد غموضاً والتواء فى هذه الطريق ، ولكنها على كل حال أيسر من كثير من الطرق التى سلكها غيره من الشعراء ، لأنه هو يسرها لنا فأحسن تيسيرها .

٥

وطفولة المتنبى مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه . وليس فى ذلك شىء من الغرابة ، مادمنا نجهل من أمر أسرته الخاصة كل شىء ، أو نكاد نجهل من أمرها كل شىء ، وما دمنا لا نعرف شيئا عن أمه ، ولا نكاد نعرف أو لا نعرف شيئا عن أبيه . فطبيعى ألا نعرف عن طفولته شيئا ما .

والذى نعرفه عن صِبَى المتنبى ينقسم قسمين :

أحدهما ينبئنا به الرواة ، وأنا أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ، ولكنى لا أهمله ولا ألغيه .

والثانى ينبئنا به المتنبى نفسه ، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر الصبى . وأنا أطمئن إليه اطمئنانا ما ، وآخذه أخذ الناقد الذى لا يصدق كل ما يلقى إليه فى غير تفكير .

فأما الرواة فيحدثوننا أن المتنبى دفع إلى مدرسة من مدارس العَلَوِيين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين[1] . فبدأ

(١) خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٨٢ (طبع القاهرة) .

فى هذه المدرسة أو فى هذا المكتب تعليمه ، ولا يزيد الرواة على هـذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه . ولكن المتأخرين والمحدثين منهم خاصة يذهبون فى فهم هذا الخبر مذهبا أقل ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة . فهم يظنون أن هـذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة ، وهم بعـد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان فى تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العَلَوِية الأرستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة .

أما أنا فلست أدرى أكانت المدرسة العَلَوية هذه ممتازة أرستقراطية حقًّا ، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس ، ولكنها تعلم على مذهب الشيعة العَلَويين . فكان العلويون يؤثرون أن يرسلوا إليها أبناءهم ؟ فلفظ العَلَويين فى هذا الخبر عندى يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة ، وواضح جدًّا أن المدارس فى مدينة كمدينة الكوفة كانت تختلف باختلاف السكان لهذه المدينة . فللشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم ، وللسنيين منهم مدارسهم أيضاً . وجائز أن تسمى مدارس الشيعة مدارس عَلَوِية ، كما تسمى مدارس أهل السنة مدارس عباسية . وأكبر الظن عنـدى أيضاً أن الأرستقراطيين الممتازين

من الشيعة العلوية ومن أهل السنة ، لم يكونوا يرسلون أبناءهم فى طور الصبا إلى المدارس العامة . وإنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين . فإذا شبوا خَلَّوْا بينهم وبين الاختلاف إلى مجالس العلم فى الأندية والمساجد الجامعة . إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هذه المكاتب والمدارس .

للشيعة العلويين مكاتبهم ومدارسهم ، ولأهل السنة مكاتبهم ومدارسهم أيضاً . فاختلاف المتنبى إلى هذه المدرسة العلوية لا يدل عندى على امتياز ولا على استثناء . وإنما يدل على الاتجاه الدينى الذى وجه إليه الصبى . ويدل على أن الذين كانوا يكفلون هذا الصبى ويقومون على تربيته وتنشيئه كانوا من الشيعة العلويين .

ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبى فى هذه المدرسة التى اختلف إليها أيام صباه . فالراجح بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة ، وقرأ فيها القرآن كله أو بعضه ، وتلقى فيها أصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين . وسمع فيها الشعر ، وروى منه أطرافاً ، وتعلم فيها شيئاً من علوم اللغة والأدب بوجه عام .

وقد كان لهذه المدرسة تأثير ظاهر فى عقل هذا الصبى وقلبه ينبئنا به الديوان . فقد حفظ الديوان للمتنبى مقطوعات من الشعر قالها الصبى وهو يختلف إلى المكتب .

وليس يعنينا أن نؤرخ بالدقة هذه المقطوعات ، فقد لا تكون السبيل ميسرة إلى هذا التأريخ . ولكن الشىء الذى نستطيع أن نحققه هو أن ثلاث خصال تظهر لنا فى هذا الشعر :

الخصلة الأولى أن الصبى مقلد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة ، أو ما كان يسمع فيها من شعر القدماء ، ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعى فالأصل فى الابتداء الفنى التقليد بحيث يقلد المبتدئ واحدا أو غير واحد من الذين سبقوه فى الفن الذى يزاوله . يلتمس نفسه كما يقول الفرنسيون فى هذا التقليد حتى إذا وجدها استغل قواها وعواطفها واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته التى تنمو على مر الزمن وطول المران . فليس غريباً أن يكون فن المتنبى فى صباه فنًّا تقليديا ليست له قيمة خاصة .

والخصلة الثانية أن هذا الشعر ، شعر صبى متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة و بآراء الغلاة منهم خاصة ، وسنرى هذا بعد قليل .

والخصلة الثالثة أن هذا الشعر شعر صبى لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة وأخبارهم ، وعن كلفهم بسفك الدماء ، وشغفهم بالحروب والغارات . وقد يجوز أن نضيف إلى هـذه الخصال الثلاث ، خصلة رابعة ، وهى أن هذا الصبى كان طويل اللسان شيئا ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم الهجاء .

وكل هذه الخصال تدلنا على أن الصبى قد كان ممتازاً حقًّا ، فليس قليلاً على صبى لم يكن يتجاوز العاشرة أن يقول شعراً يروى ، وأن يمس بهذا الشعر الغزل والحماسة ، والمدح والهجاء وفلسفة الغالية من الشيعة .

والآن يحسن أن نقف عند هـذه المقطوعات لحظة لنرى أتصور حقًّا كل هذه الخصال التى أحصيناها ؛ فانظر إلى هذين البيتين اللذين يحدثنا الديوان بأنهما أول ما نظم من الشعر فى صباه . وليس يعنينا أكانا فى الحق أول ما نظم أم لم يكونا . وإنما الذى يعنينا أنهما من شعر الصبى وأنهما يصوران ما أشرت إليه من التقليد ، ويصوران الصنعة والجهد والتكلف ، ويصوران صبياً يريد أن يصنع الشعر ويحس فى نفسه الرغبة فى ذلك فيعمد إليه ، ولكنه لا يحسن التصرف فيه :

بِأَبِي مَنْ وِدِدتُهُ فافْتَرَقْنا
وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاكَ اجتماعا
فافتَرقْنا حَوْلاً فلَمَّا الْتَقَيْنا
كانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَداعا

فالفكرة الشعرية التى يريد الصبى أن يصورها فى أنه أحب شخصاً ، فلم يكد يحبه حتى فرق الدهر بينهما ، ثم طال انتظاره للقاء من أحب وأتيح له هـذا اللقاء ، ولـكنه لم يطل بل فرق الدهر بينهما مرة أخرى . فالصبى سيئ الحظ يحب ثم يحال بينه و بين من أحب قبل أن ينعم بعشرته . ثم يتاح له اللقاء فيقدر أنه سيستدرك ما فاته من نعم ، ولـكن قسوة الدهر تخيب أمله هـذا أيضاً . وأكبر الظن أن الفكرة التى حملت الصبى على أن ينظم هذين البيتين هى هذه التى توجد فى الشطر الأخير من البيت الثانى وهى :

كان تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَداعا

أعجب الفتى بهذا المعنى فأراد أن ينظمه ، وأن يصل إليه ، فتكلف لذلك بيتاً ونصف بيت . وأنت ترى مظهر التكلف فى قوله :

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُه فافْتَرَقْنا

فكلمة وددته هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار فى مكانها الذى هى فيه . أراد الصبى أن يقول أحببته فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلمة تؤدى له هـذا المعنى وتلائم هذا الوزن فلم يجد إلا « وددته » هـذه . ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاكَ اجْتِماعا

فستراه فى نفسه حسـناً مستقيما ولـكنه مع الشطر الأول قلق ، يظهر عليه التكلف الشديد لا لشىء فيما أظن ، إلا لأن الشاعر الصبى قد أعجل ولم يملك ما ينبغى له من الأناة ولم يتم معناه الذى ضمنه الشطر الأول . وإنمـا وثب منه وثوباً إلى هذا المعنى الثانى ، لأنه عجل يريد أن يصل إلى الشطر الذى ألقى إليـه ، والذى حمله على نظم هذين البيتين . وكذلك الشطر الأول من البيت الثانى يصور عبث الصبى واجتهاده ، وما كان يلقى من المشقة فى هذا الاجتهاد . فانظر إلى قوله « فافترقنا حولاً » بعد قوله « وقضى الله بعد ذاك اجتماعا » وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعاً ، فستظهر لك الصنعة والمحاولة ظهوراً لا يدع سبيلاً إلى

الشك فى أن الصبى قد أنفق جهداً ثقيلاً ووقتا طويلاً ، حتى استخرج من نفسه هذين البيتين .

وسواء أكان هذا الشعر جيداً أم رديئا مستقيماً أم ملتويا فانى أجد فى نفسى حبا له وميلا إليه ؛ لأنى أتمثل هذا الجهد العنيف الذى بذله هذا الصبى الذكى ، حتى استخرج هذين البيتين . ومن يدرى ؟ لعلى إنما أحب هذين البيتين وأعجب بجهد الصبى فى استخراجهما ؛ لأنى شهدت صبيًّا أحبه يبذل مثل هذا الجهد ، وينفق مثل هذا الوقت ويستخرج مثل هذا الشعر ، ولم أجد بدًّا من أن أثنى له على شعره وأهنئه بما انتهى إليه من الفوز . ولم أكن فى هذه التهنئة ولا فى ذلك الثناء متكلفا ولا غالياً ، وإنما كنت صادقا مرسلاً نفسى على سجيتها ، أصدر عن العاطفة أكثر مما أصدر عن الفن .

وانظر بعد هذين البيتين إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخرى التى قالها صبينا فى حداثته ، كما ينبئنا الديوان ، وكما تنبئنا هى أيضاً . فسترى من جهة أنها كالبيتين الأولين . أُلْقِيَ منها على الصبى بيت هو البيت الأخير ، وهو الذى حمله على أن يتكلف البيتين الآخرين ليصل إليه ، وكان هذا البيت الأخير كحظ ذلك الشطر

الأخير من البيتين السابقين ، حفظه الناس وأحبوه ، وتمثلوا به لأنه وحى الطبع البرىء وأهملوا ما قبله لأنه متكلف مصنوع :

أَبْلَى الهَوَى أسَفاً يومَ النَوَى بَدَنى
وفَرَّقَ الهَجرُ بينَ الجَفْنِ والوَسَنِ
رُوحٌ تَرَدَّدَ فى مِثلِ الخِلال إذا
أطارَتِ الرِّيحُ عنهُ الثَوْبَ لم يَبِنِ
كَفَى بِجِسمى نُحولاً أنَّنى رَجُلٌ
لَولاَ مُخاطَبَتِى إيَّاكَ لَم تَرَنِى

فواضح جداً أن بيت المقطوعة هو البيت الأخير وأن الفكرة التى يريد الصبى تصويرها هى الإغراق فى وصف النحول . فانظر اليه كيف تكلف الوصول إلى هذا البيت :

أبْلَى الهَوَى أَسَفاً يومَ النَّوَى بَدَنى

فأسفا هنا كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوها عن موضعها أظهر من أن يدل عليه . ولكننا مع ذلك نلاحظ شيئاً من الموسيقى قد وفق الشاعر اليه بين الهوى والنوى ، وهو يدل على شىء من الرقى فى صناعة النظم . وعلى أن

الصبى قد استطاع أن يتصرف شيئاً ما فى الألفاظ .

ونلاحظ كذلك أنه قد صرع فى هذا البيت بين البدن والوسن ، صنيع الشاعر الذى يريد أن ينشىء قصيدة طويلة . ولعله لم يستطع أن يتجاوز البيت الثالث فوقف عنده . ولعله تجاوزه وأتم قصيدته ، ولكنه لم يرض عما بعد البيت الثالث فأسقطه حين أراد أن يجمع الديوان . أما البيت الثانى فعبث الصبى ظاهر فيه وهو لا يخلو من ظرف وخفة روح . هو إعادة لقول الشاعر القديم :

وَلَوْ أَنَّ ما أَبْقَيْتِ مِنِّى مُعَلَّقٌ
بِعُودِ ثُمَامٍ ما تَأَوَّدَ عُودُها

ولكن الصبى اختصر الطريق وأراح نفسه وجعل جسمه عود الثمام لا شيئا معلقا بهذا العود . ثم انظر إلى قوله :

أطارتِ الرِّيحُ عنه الثوبَ لم يَبِنِ

فسترى فيه الطفولة الحلوة ، والحداثة العذبة . وليس من شك فى أن طبيعة الشاعر الحدث قد واتته أكثر مما واتته فى البيتين السابقين .

واقرأ هذين البيتين الآخرين وكأنه ارتجالهما ارتجالاً حين

قيل له وهو فى المكتب ما أحسن هذه الوفرة فقال :

لا تَحْسُـــنُ الوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى
مَنشُـــورَةَ الضَفْرَيْنِ يومَ القِتالْ
عَلَى فَـتًى مُعْتَقِلٍ صَـــعْدةً
يَعُلُّهَا من كُلِّ وافِي السِّـــبالْ

ولعلك تلاحظ معى أن فى هذين البيتين جزالة مطبوعة لا نلاحظها فى الأبيات السابقة . وأنهما بريئان البراءة كلها من الصنعة والتعمل ، ولكن لم أرويهما لهذا وحده ، وإنما رويتهما لما يصوران من نزاع هـذا الصبى الحدث إلى الحرب والقتال ورؤية الدم المسفوك . وما ينمان به من حفيظة تضطرب فى نفس الصبى ، وضغينة تضطرم فى قلبه الغض ، وتطاق لسانه بهذا الكلام الملتهب . ولك فى فهم هذين البيتين وجهان فيما يظهر . فهل كانت الوفرة التى استحسنت له وفرته هو ؟ وإذن فهو غير راض عن نفسه ولا مطمئن إلى حاله ، وإنما هو يتحرق شوقا إلى الشباب الذى يمنحه القوة والحرية ، وإلى الظروف التى تتيح له خوض غمار الحرب ، وعلى صعدته من دماء الأعداء ، أو هل كانت الوفرة وفرة تِرْب من أترابه فى المكتب ؟ فالصبى إذن

يهجو ولا يرضى عن هؤلاء الصبية المنعمين الذين يعنون بوفرتهم وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة .

ومهما يكن من شىء ففى هذين البيتين ريح البيئة الدامية التى كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبى ، بين تلك الغارات التى كانت تنتهى بالقرامطة إلى الكوفة وسوادها من حين إلى حين .

وتستطيع الآن أن تقرأ فى هذه الأبيات التى قالها الصبى يعبث فيها برجلين قتلا جرذا وأظهراه للناس :

لَقَدْ أَصْبَحَ الجُرَذُ المُستَغِيرُ
أَسِيرَ المَنايا صَرِيعَ العَطَبْ
رَماهُ الكِنانِيُّ والعامِرِيُّ
وتلاَّهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلاَ الرَّجُلَينِ أُتَّلَى قَتْلَهُ
فأَيُّكُما غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ ؟
وأَيُّكُما كانَ مِن خَلْفِهِ ؟
فإنَّ بِهِ عَضَّةً فى الذَّنَبْ

فظاهر أن هذا الشعر ليس شعر صبى يُقَرْزِمُ وإنما هو شعر شاعر قد راض نفسه على نظم الكلام ، وتعلم كيف يصرف هـذا الكلام كما يحب من وجوه القول ، بل تجاوز رياضة النفس على اجادة النظم إلى التماس الهجاء الممض والسخرية اللاذعة ، وإلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب .

فالشاعر الناشىء يقص علينا فى البيت الأول والثانى قصة مؤثرة فيها ما يحزن ، وفيها ما يثير الإعجاب . فى البيت الأول ما يحزن ويدعو إلى الرثاء لهذا الجرذ المسكين الذى أسرته المنايا وصرعه العطب ، وفى البيت الثانى ما يعجب من أمر هـذا الكنانى وهذا العامرى اللذين تعاونا على رمى الجرذ وتلاه للوجه كما يفعل العرب البواسل . وفى هذين البيتين تنتهى القصة ظريفة سريعة مضحكة ، بما فيهـا من رثاء مصنوع ، وإعجاب متكلف . ولـكن شاعرنا الصبى لا يكتفى بالقصة وإنما يريد أن يستغلها ويستثمرها ويستخرج منهـا الذخائر والـكنوز . فهو يحقق أن كلا الرجلين قد قتل الجرذ . فهل كانت للجرذ درع ؟ وهل كان له سيف ورمح ! وهل كانت له بيضة ودرقة ! وهل

كان يحمل ذهباً وفضة ومتاعاً ؟ كل هذه الصور يثيرها الشطر الأخير من البيت الثالث . ثم انظر إلى هذا البيت الأخير :

وأيُّكُما كانَ مِنْ خَلْفِهِ
فإنَّ به عضَّةً فى الذَّنَبْ

فلن ترى سخرية ألذع من هذه السخرية ولا هجاء أمضَّ من هذا الهجاء . ولن ترى أشد من هذا الازدراء للحضريين من أهل الكوفة المعاصرين له ، الذين استسلموا واستكانوا وقنعوا من الشجاعة والنجدة ، ومن المخاطرة وحسن البلاء ، بأن يتعاون اثنان منهم على قتل جرذ ، ثم يظهران ذلك للناس إعجابا به واختيالا ، على حين تضطرب البادية بما يملؤها من الأهوال التى يثيرها القرامطة ، وعلى حين تندفع البادية من وقت إلى وقت حتى تبلغ الحضر وتبلغ الكوفة نفسها ، فتمزق أهلها كل ممزق وتعلمهم كيف يكون البأس والنجدة ، وكيف تكون الشجاعة والبسالة فلا يتعلمون .

حقاً لقد مرن الصبى على قول الشعر وصح فيه قول جرير فى عمر بن أبى ربيعة إن صدقتنى الذاكرة : مازال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر[1] .

(١) أغانى جـ ١ ص ٣٨ (طبع بولاق) .

وللصبى مقطوعة أخرى فى الهجاء ليس لها حظ هذه المقطوعة من الجودة ولا من البراعة فى السخرية ولكنها تصور اتجاه الصبى إلى الصناعة اللفظية بعض الشىء . وهى هذه الأبيات التى قالها يهجو بها القاضى الذهبى :

لَمَّا نُسبتَ فَكُنتَ ابناً لِغَيرِ أَبِ
ثُمَّ اختُبِرتَ فلم تَرجِعْ إلى أَدَبِ
سُمِّيتَ بِالذَّهبِيِّ اليومَ تَسْمِيَةً
مُشتَقَّةً من ذَهابِ العَقلِ لا الذَّهَبِ
مُلَقَّبٌ بِكَ ما لُقِّبْتَ وَيْكَ بِهِ
يا أَيُّهَا اللَّقَبُ المُلقَى على اللَّقَبِ

وأظن أن قول أبى تمام فى بائيته المشهورة :

والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

هو المثال الذى صاغ الصبى عليه أبياته فى هجاء القاضى . وكل ما فى هذه الأبيات إنما هو ابتهاج الصبى بأنه قد استطاع أن يستنبط هذا المعنى فيجعل نسبة القاضى إلى شىء مشتق من ذهاب العقل لا إلى الذهب . والذى يعنينا من هذه الأبيات

إنما هو دلالتها على أن صبينا قد أخذ منذ طوره الأول يتجه بعض الاتجاه إلى مذهب أبى تمام .

قال الرواة : وقد خرج المتنبى من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها . وقد نما جسمه وعقله ، وفصح لسانه وأصبح فتى يملأ العين والأذن .

ومن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التى حملت الصبى على أن يرتحل إلى البادية . فهل ارتحل لمجرد التبدى والاستفادة لجسمه ولسانه وفنه الشعرى من الإقامة بين هؤلاء العرب البادين الذين كان العلماء يختلفون إليهم ويقيمون بين أظهرهم ، يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر والأيام والأساطير ؟ أم هل ارتحل الفتى إلى البادية لشىء آخر غير هذا يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية التى كانت محيطة به ؟ وبعبارة أوضح هل ارتحل الفتى إلى البادية كما كان يرتحل إليها المتعلمون التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه البيئة القرمطية التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ، تبعث الرعب فى قلوب فريق منه وتبعث الحب فى قلوب فريق آخر ، كما هى الحال بالقياس

إلى الشيوعية الروسية الآن التى تتصل أشد الاتصال بطبقات الشعوب المتحضرة فى أوروبا وفى غير أوروبا . فيتهالك عليها قوم ، ويتألب عليها قوم آخرون .

ليس من اليسير أن نقطع بشىء من هذا ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئون ، هو أن رحلة المتنبى إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ؛ فقد ربا جسمه ، ونما عقله وفصح لسانه ، وتعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معا . وشعر المتنبى فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، يبين لنا هذا أوضح تبيين وأجلاه .

فلننظر قبل كل شىء إلى هذه الأبيات التى استبقاها المتنبى فى ديوانه ، وهى عندى بقية من قصيدة لعلها كانت مطولة مفصلة ، فلما أراد المتنبى جمع ديوانه حذف منها أكثرها ، مداراة للظروف ، وإشفاقا من السلطان ، وهذه الأبيات الثلاثة التى استبقاها المتنبى كافية كل الكفاية لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من البادية القرمطية وهو قرمطى الرأى متحفز ليكون قرمطى السيرة أيضاً .

وفى هذه الأبيات الثلاثة جزالة بدوية لا تخفى :

إلى أىِّ حِينٍ أنتَ فى زِىِّ مُحرِمِ
وحَتَّى مَتَى فى شِقوةٍ وإلى كمِ ؟
وإلاّ تَمُتْ تَحتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا
تَمُتْ وتُقاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقاً باللهِ وثْبَةَ ماجِدٍ
يَرَى الموتَ فى الهَيْجاجَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

فانظر إلى هذا التحرق الذى يظهره الغلام إلى تغيير حاله والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة ، إلى حال أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة .

هو يكره لنفسه زى المحرم أى زى الرجل الوادع الذى يحرم ما حرم الله ، ويمتنع عن قتل الصيد ، وعما يمتنع عنه المحرمون بالحج . هو يريد أن يكون مُحِلاً ، وأن يتناول ما لا يتناوله الوادعون لأن حياة الدعة والإحرام لم تجن عليه إلا شقاء . فهو يريد أن يلتمس السعادة والعزة فى حياة البؤس والفتك ، وهو مطمئن إلى أنه إن لم يتعرض للبأس والفتك ، ولم يصطل نار الحرب اتقاء للموت كريماً تحت السيوف ، أدركه

الموت ذليلاً مهيناً فى ظل الدعة والإحرام .

وانظر إلى هذا البيت الأخير .

فثب واثقاً بالله وثبـــة ماجد

يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

فهو لا يريد بهذا الوثوب إلا الخروج على السلطان ، وشق عصا الطاعة والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف .

ليس عندى من شك فى أن هذه الأبيات تصور ما عاد به الغلام من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد ، المنتظرة من وراء هذا المذهب وانتشاره الخير كل الخير .

وتصور كذلك ماعاد به الغلام من البادية من هـذه الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسبه عذوبة نحس فيها ريح الصحراء .

وإذا كانت هذه الأبيات تصور تأثر المتنبى بالبيئة العملية القرمطية ، فان هناك قصيدة أخرى طويلة بعض الشىء تصور تأثر المتنبى بالمذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشـيعة . وهى هذه القصيدة التى مدح بها المتنبى — فيما يقول الديوان — رجلاً يعرف بأبى الفضـل ، وأراد أن يستكشف مذهبه ،

فيما يقول الديوان أيضاً ، وفيما يقول الرواة كذلك . وعندى أن المتنبى لم يرد أن يمتحن أبا الفضل ، ولا أن يستكشف مذهبه ، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل . وأن يمدحه بما كان هذا الرجل يحب أن يُمدح به . وسواء علىَّ أكان المتنبى مؤمناً بهذه الآراء التى أثبتها فى قصيدته أم لم يكن ، فحسبى أنه أثبت هذه الآراء ، وجهر بها ، وتقرّب بها إلى رجل ، والتمس بها العطاء .

ولست أروى صدر هذه القصيدة ، فقد أحتاج أن أعود إليه حين أستأنف الكلام عن فنِّ المتنبى . وإنما أكتفى برواية هذه الأبيات :

يا أَيُّهَا المَلَكُ الْمُصَفَّى جَوْهَرًا
من ذاتِ ذى المَلَكُوتِ أَسْمَى مَن سَمَا
نُورٌ تَظَاهَرَ فيك لاهُوتِيُّهُ
فتكادُ تَعْلَمُ عِلمَ ما لن يُعلَمَا
ويَهُمُّ فيكَ إذا نَطَقْتَ فصاحَةً
من كلِّ عُضْوٍ منكَ أَن يتكلَّما

أَنا مُبْصِرٌ وأظُنُّ أَنِّى نائِمٌ
مَنْ كان يحلُمُ بالإلهِ فأَحْلُما
كَبُرَ العِيانُ عَلَىَّ حَتَّى إِنَّهُ
صَارَ اليَقِينُ مِنَ العِيَانِ تَوَهُّمَا

فنحن هنا بإزاء رأى صريح فى الحلول ، فالمتنبى يرى أن صاحبه ملك قد صفى جوهره من ذات ذى الملكوت ، أى أن روحه قبس من ذات الله . وهو يرى أن هذا القبس نور لاهوتى قد استقر فى صاحبه ، فكاد يظهره على الغيب ، وهو يكبر ما يرى . فهو يقظان يرى الله ، وهو يظن أنه نائم ، ثم ينكر أن يكون نائماً ، لأن الله لا يرى فى الأحلام . وهو يكبر هذا العيان ، ويرى أنه أعظم وأجل من أن يثبت له أمثاله . فيرتاب فيما يرى ويكاد يتهم نفسه بالخيال والوهم . وهذا الكلام وحده صريح فى انحراف المتنبى عن الجادة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى الالحاد أقرب منها إلى شىء آخر .

ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فى الديوان زعم للرواة أو زعم الرواة له أنه إنما امتحن بهذه

الأبيات أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه . كلام يقصد به إلى الاعتذار وإلى التقيَّة أكثر من أى شىء آخر .

وعندى أن المتنبى حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها لا بالبيئة القرمطية العادية ، بل بداعٍ من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون فى البادية . ومن يدرى ؟ لعل هـذا الداعى كان أبا الفضل نفسه هذا الذى يمدحه المتنبى . ومن يدرى ؟ لعل المتنبى لم يعد إلى الكوفة من البادية مصطحبا أباه وجده ، وإنما عاد مصطحباً رجلاً آخر أو قوماً آخرين ، يريدون أن يستقروا فى الكوفة وأن يدعوا فيها لمذهب القرامطة .

ومهما يكن من شىء وسواء واتتنا النصوص التى بقيت لنا أم لم تواتنا ، فانى أجد فى نفسى شعوراً قوياً جداً بأن المتنبى قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة . وعلى كل حال فقد أغار القرامطة على الكوفة سنة ست عشرة وثلثمائة ، يقودهم إمامهم أبو طاهر فدمروا وحرقوا ونهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل[1] . وكانوا يقدرون أن الطريق ستخلو لهم إلى بغداد . ولكن الأمر لم يتم لهم كما أرادوا . فعذبوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٥٦

الكوفة وسوادها ، وأرهبوهما عاماً كاملاً ، ثم رحلوا بعد ذلك إلى البحرين .

وكان المتنبى حين أغار القرامطة على الكوفة فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان المتنبى حين جلا القرامطة عن العراق فى الخامسة عشرة من عمره .

ونلاحظ أنه فى ذلك الوقت بعد جلاء القرامطة عن العراق لم يستقر فى الكوفة . وإنما يحدثنا الرواة أنه ارتحل عنها وارتحل معه أبوه إلى بغداد . فلماذا ارتحل إلى بغداد بعد جلاء القرامطة عن الكوفة ؟ ألأنه كان يريد أن يذهب إلى بغداد ليتم الدرس ، وليشق طريقه إلى المجد الأدبى ، فأخرت غارة القرامطة رحلته شيئاً ما ؟ أم لأنه كان قد تورط وتورط معه أبوه ، وتورط معهما كثير من الناس فى فتنة القرامطة هذه ؟ فلما انهزم القرامطة وجلوا عن العراق لم يستطع المتنبى وأمثاله أن يقيموا فى الكوفة إشفاقا من السلطان ومن تتبعه للذين أعانوا القرامطة من قريب أو من بعيد .

كلا الأمرين ممكن ، ولكنى أرجح الأمر الثانى لأنه يلائم ما رأينا من نشأة المتنبى كلها . ولأن إقامة المتنبى فى بغداد

لم تتصل ، ولو قد كان المتنبى قصد إلى بغداد يلتمس العلم والأدب والمجد الشعرى ، لأقام فيها فأطال المقام ، ولاُتَّصل بالمعروفين من علمائها وأدبائها وأصحاب المكانة السياسية والاجتماعية فيها . ولكنه فيما نعلم لم يصنع من ذلك شيئاً ، إنما أقام ببغداد فترة قصيرة ، ثم ارتحل عنها إلى الجزيرة وشمال الشام ، ومعه أبوه فيما يقول الرواة .

هل ذهب المتنبى إلى بغداد هارباً من السلطان كما قلنا ؟ أم هل ذهب إليها هارباً من السلطان ومبتغياً شيئاً آخر ؟ فلو قد أراد الهرب وحده لكان فى البادية وصحراء السماوة مَفزع ومهرب من السلطان . ولكنه يترك الكوفة إلى عاصمة الخلافة ، حيث القوة المركزية التى كانت تصارع القرامطة أشد صراع وأعنفه .

أحب أن نذكر هنا أن أمور الشيعة والقرامطة لم تكن تجرى فى وضوح ويسر ، وإنما كان قوامها التكتُّم والتحفظ ، والجماعات السرية المبالغة فى حفظ السرّ وإخفائه . وما دُمتُ قد افترضتُ منذ حين أن المتنبى إنما ذهب إلى البادية ليتعلَّم على بعض دُعاة القرامطة ، فلأمض فى الفرض على طبيعته ،

ولأرجح كما قدّمت أن المتنبى عاد من البادية مع بعض دعاة القرامطة ، واشتغل فى الكوفة بنشر الدعوة القرمطية ، وأن المتنبى سافر من الكوفة بعد جَلاء القرامطة ، فقصد إلى بغداد لأمر يتصل بالدعوة . ولستُ أستبعد ، بل أنا أُرجِّح جدا أن يكون فى بغداد مركز قوى من مراكز الدعوة القرمطية . ذهب إليه المتنبى فأدَّى إليه شيئاً ، وتلقى منه شيئاً ، وترك بغداد قاصداً إلى الجزيرة ثم إلى الشام .

لست أدرى أتسعدنا النصوص التى بقيت لنا من شعر المتنبى أم لا تسعدنا ؟ ولكنى قوى الشعور بأن المتنبى لم يرحل إلى الشام طالباً للرزق فحسب ، وإنما ذهب إلى الشام داعية من دعاة القرامطة ، فى هذا القسم الشمالى من سوريا ، الذى لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطى ، كما أدرك غيره من أقسام الشام .

مهما يكن من شىء فلم يكد يبلغ المتنبى السابعة عشرة من عمره حتى كان قد هجر الكوفة ، وترك بغداد ، وانتهى إلى شمال الشام ، واستأنف حياة جديدة ليست من الصِّبا فى شىء ، وإنما هى حياة الشباب .

فلنستخلص من كل ما قدمنا أن المتنبى قد قطع المرحلة الأولى من طريقه ، مرحلة الصِّبا . ولم يكد يبلغ آخرها ، حتى كان قد تمّ له حظه من الشعر ، وتمّ له حظه من القرمطة ، وتمّ له حظه من القوة البدنية أيضاً . ويكفى أن ننظر فى هذه القصيدة التى قالها فى بغداد ، يمدح بها رجلاً رسميًّا — محمد بن عبد الله العلوى — لنرى منها أنه قد استكمل حظه من القدرة على نظم الشعر الجيد ، وإن لم يبلغ بعدُ ما قدِّر له من النبوغ :

أهلاً بِدارٍ سَباكَ أَغْيَدُهَا
أَبْعَدُ ما بانَ عنكَ خُرَّدُهَا

ظَلْتَ بها تَنْطَوِى عَلَى كَبِدٍ
نَضِيجَةٍ فَوْقَ خِلْبِها يَدُهَا

يا حادِيَىْ عِيسِها وأَحْسَبُنِى
أُوجَدُ مَيْتًا قُبَيْلَ أَفْقِدُها

قِفَا قَلِيلاً بها عَلَىَّ فلا
أَقَلَّ من نَظْرَةٍ أُزَوِّدُهَا

ففى فؤادِ الْمُحِبِّ نارُ جَوًى
أَحَـــرُّ نارِ الجحيمِ أَبْرَدُهَا
شابَ مِنَ الْهَجْـــرِ فَرْقُ لِمَّتِهِ
فصارَ مِثْلَ الدِمَقْسِ أســـوَدُهَا
بَانُوا بِخُرْعوبَةٍ لَهـا كَفَلٌ
يَكادُ عِنْـدَ الْقِيامِ يُقْعِدُهَا
رِبَحْلَةٍ أَسْـــمَرٍ مُقَبَّلُهَا
سِـــبَحْلَةٍ أَبْيَضٍ مُجَـــرَّدُهَا
يا عاذِلَ العاشِـــقِينَ دَعْ فِئَةً
أَضَلَّها اللهُ كيف تُرْشِـــدُهَا
لَيْسَ يُحِيـــكُ الْمَلامُ فى هِمَمٍ
أَقْرَبُهـا منكَ عَنْـــكَ أَبْعَدُهَا
بِئْسَ اللَّيالِى سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ
شَوْقًا إلى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا
أَحْيَيْتُهـا والدُمـــوعُ تُنْجِدُنى
شُـــؤونُها والظَّلامُ يُنْجِدُهَا

لا ناقتى تقبلُ الرَّديفَ ولاَ
بالسَّوْطِ يومَ الرِّهانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُها كُورُهَا ومِشْفَرُهَا
زِمامُها ، والشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا
أَشدُّ عَصْفِ الرِّياح يَسْبِقُهُ
تَحْتِيَ مِنْ خَطْوِهَا تأَوُّدُهَا
فى مِثْلِ ظَهْرِ الْمِجَنِّ مُتَّصل
بِمِثْلِ بَطْنِ الْمِجَنِّ قَرْدَدُهَا
مُرْتَمِياتٌ بنا إلى أَبْنِ عُبَيْـ
ـدِ اللهِ غِيطانُها وفَدْفَدُهَا
إلى فتًى يُصْدِرُ الرِّماحَ وقد
أَنْهَلَهَا فى القُلُوبِ مُورِدُهَا
لَهُ أيادٍ إلَىَّ سابقةٌ
أَعُدُّ مِنْها ولا أُعَدِّدُهَا
يُعْطِى فلا مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا
بِهَا ولا مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا

خَـــيْرُ قُرَيْشٍ أَبًا وَأَمْجَدُهَا
أَكثَرُهَا نائـــلاً وأجوَدُها
أَطعَنُها بِالقَنَاةِ أَضْرَبُهَـــا
بِالسَّـــيْفِ جَحْجاحُها مُسَوَّدُهَا
أفْرَسُهـا فارِسًـــا وأطوَلُهـا
باعاً ومِغْوَارُهَا وسَـــيِّدُهَا
تَاجُ لُؤَيِّ بْنِ غالِبٍ وبه
سَمَا لها فَرْعُها ومَحْتِـــدُهَا
شَمْسُ ضُحَاها هِـــلَالُ لَيْلَتِها
دُرُّ تقاصِـــيرها زَبَرْجَدُهَا
يا لَيْتَ بى ضرْبةً أُتيحَ لها
كما أُتيحت له مُحَمَّـــدُهَا
أَثَّرَ فيها وفى الحـــديدِ وَما
أثّرَ فى وَجْهِـــهِ مُهَنَّدُهَا
فاغْتَبَطَتْ إذْ رَأَتْ تَزَيُّنَهـا
بِمِثْلِهِ والجِراحُ تَحْسُـــدُهَا

وأيقَنَ الناسُ أنَّ زارِعَها
بِالمَكرِ فى قلبِـه سَيَحْصدُهَا

أصبَحَ حُسَّـــادُهُ وَأنْفُسُهُمْ
يُحْذِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْـــعِدُهَا

تبكى عَلَى الأَنصُلِ الغُمودُ إذا
أنذَرَها أنّهُ يُجَـــرِّدُها

لِعلمِها أنّها تَصِـــيرُ دَماً
وأنّهُ فى الرِقابِ يُغمِـــدُها

أطلَقَها فالعـــدُوُّ مِن جَزَعٍ
يَذُمُّها والصَّـــدِيقُ يَحمَدُها

تَنقدِحُ النَّارُ من مَضارِبِها
وَصَبُّ ماءِ الرِّقابِ يُخْمِدُها

إذا أضَلَّ الهُمامُ مُهجَتَهُ
يوماً فأطرافُهنَّ تَنشُـــدُها

قد أجْمَعَتْ هـــذه الخليقةُ لى
أنّك يا ابنَ النَّبِيِّ أوحَـدُها

وأنّكَ بالأمْسِ كُنتَ مُحْتَلِماً
شيخَ مَعدٍّ وأنتَ أمردُها
وكمْ وكمْ نِعْمَةٍ مُجَلِّلةٍ
رَبَّيتَها كانَ مِنكَ مَوْلِدُها
وكمْ وكمْ حاجةٍ سَمَحْتَ بها
أقربُ مِنِّى إلىَّ مَوعِدُها
ومَكرُماتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْ
بِرِّ إلى مَنْزِلِى تُرَدِّدُها
أَقَرَّ جِلْدِى بِها عَلَىَّ فلا
أَقدِرُ حَتَّى المماتِ أَجحَدُها
فَعُدْ بِها لا عَدِمتُها أبداً
خَيْرُ صلاتِ الكَرِيمِ أعودُها

فالقصيدة كما ترى طويلة قد بلغت الأربعين بيتاً ، وهى أطول ما حفظ ديوان المتنبى لنا من شعره فى هذا الطور . وهى كاملة الخلق قد استوفت حظها من النظام الفنى الموروث .

وهى تنقسم ثلاثة أقسام :

القسم الأول غزل من هذا الغزل الذى تعود الشعراء أن يفتتحوا به القصيدة . وقد طال نفس الشاعر فيه شيئاً فبلغ أثنى عشر بيتاً .

والقسم الثانى وصف من هذا الوصف الذى تعود الشعراء أن ينتقلوا إليه إذا قضوا حظهم من الغزل ، وأن يتخذوه طريقاً إلى الغرض الأساسى الذى يقصدون اليه . وقد قصر نفس الشاعر فيه فلم يتجاوز به خمسة وعشرين بيتاً . ومعنى هـذا كله أن الفتى قد أخذ يعقد شعره و يسلك إليه طريق غيره من الشعراء ، و يلم فى القصيدة الواحدة بغير فن من فنون الشعر لا يجد فى ذلك مشقة ولا حرجا ، ولا يحتمل فى ذلك جهداً ولا عناء . وأنت إذا أخذت القصيدة جملة رأيت طبيعة الشاعر سمحة سهلة مواتية لا تبخل عليه ولا تُعَنِّيه ، و إنما تمنحه كل ما يريد منها . فلسنا نحس تكلف المحصر ولا جهد المقل . ولعلنا نحس أن هذه القصيدة كانت تتدفق من نفس الشاعر كما يتدفق السيل ، وتنحدر منها انحداراً يوشك أن يكون عنيفاً . ولعل مصدر هذا الإحساس هذا البحر الذى اختاره الشاعر والذى تظهر فيه السرعة والانحدار ، وتدافع فيه أبيات القصيدة وألفاظ

البيت تدافع الموج . ولعل مصدر هذا الإحساس أيضاً هذه القافية التى اختارها الشاعر ، والتى جمعت بين خصلتين ظاهرتين : إحداهما المتانة والقوة ، والأخرى الرحب والسعة . فهذه الدال التى تسبقها حركة يسبقها سكون تصور المتانة والقوة . وهذه الهاء المطلقة تصور الرحب والسعة .

وأنت إذا أخذتها تفصيلاً استطعت أن تتبين فيها خصلتين فنيتين هما الآن — وسيكونان دائماً — القوام الفنىّ لشعر المتنبى ، يسرف فيهما أحياناً فيفسد شعره ، ويقتصد فيهما أحياناً فيجمل شعره ، ولكنه لا يكاد يخلص منهما فى وقت من الأوقات :

فأما الخصلة الأولى فهى المطابقة التى يحبها المتنبى أشد الحب ، ويستخرج منها فنوناً من الجمال نراها فاترة فى الطور الأول من شعره ، ولكنها تقوى وتشتد كلما استكمل الشاعر حظه من القوة ، فنونا من الجمال تؤثر فى العقل والذوق والحس جميعاً ، فتنشىء شيئاً من الموسيقى اليسيرة الحلوة فى أكثر الأحيان . ذلك أن المتنبى يحسن المقابلة بين الأضداد فى أنفسها ، كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التى يختارها ، ليدل بها على هذه

الأضداد ، فاذا تمت له المقابلة بين المعانى المتضادة وتم له الاختيار الحسن للألفاظ التى تدل عليها ، عرف كيف يضعها فى مواضعها من النظم ، وكيف يلائم بينها وبين ما يسبقها وما يلحقها من الألفاظ ، وتأتى له بذلك تحقيق شىء من الانسجام البديع يلهيك ويشغلك عما تكلف الشاعر من الجهد فى تحقيق هذا الفن .

ولست فى حاجة إلى أن أعيد عليك ما فى هذه القصيدة من الأبيات التى عمد فيها المتنبى إلى المطابقة فوفق أحياناً ، وأخطأه التوفيق أحياناً أخرى . فما أظنك إلا قد لاحظت هذه الأبيات أثناء قراءة القصيدة ، وليس عليك بأس من أن تعود إلى قراءتها مرة أخرى لتتحقق صحة هذه الملاحظة .

والخصلة الثانية المبالغة التى يعمد اليها المتنبى لأسباب سنوضحها فى هذا الموضع من الحديث . ولكنا نكتفى الآن بأن نلاحظ منها طبيعة المتنبى نفسه ، فهو قوى الحس ، حاد المزاج ، عنيف النفس ، مندفع بحكم هذا كله إلى الغلو والاسراف . وكذلك نلاحظ تقليد الشاعر لشعراء القرن الثالث الذين كلفوا بالبديع وأمعنوا فيه وعنوا منه بالمبالغة عناية خاصة .

ثم نلاحظ آخر الأمر انتشار مذهب المبالغة بين النقاد منذ

صوّره قدامة فى كتابه نقد الشعر[١] ، وأذاعه على أنه مذهب أرسطاليس وآثره فى الشعر كما كان يؤثره أرسطاليس على القصد والاعتدال[٢] ، فجمال الشعر عند المتنبى فى هذا الطور ، وفى الأطوار التى تليه ، راجع دائماً إلى هاتين الخصلتين الفنيّتين : المطابقة من ناحية ، والمبالغة من ناحية أخرى ؛ يجمع بينهما الشاعر حيناً ويفرق بينهما حيناً آخر ، فيعجبك مرة ويسوءك مرة أخرى .

فأما إذا أخذت أجزاء القصيدة الثلاثة ، وامتحنتها جزءاً جزءاً ، فلن تجد فيها للمتنبى شخصية قوية ولا معنى مبتكراً ، وإنما هى المعانى المألوفة فى الغزل والوصف والمديح ، حتى هذه المحاولة التى أراد الشاعر بها أن يظهر شيئاً من الجهد حين وصف نعله ، حيث يصف الشعراء إبلهم ، وأسبغ على هذه النعل من الصفات ما يسبغه الشعراء على الابل . هذه المحاولة نفسها ليست مبتكرة وإنما هى إطناب وتفصيل ، حيث آثر أبو نواس الاجمال والايجاز فى قوله :

إِلَيْكَ أبا العباسِ مِن دون مَن مَشَى
عليها أُمْتَطَيْنَا الحَضْرَمِيَّ المُلَسَّنَا

(١) كتاب نقد الشعر لقدامة ص ١٩ (طبع الجوائب)
(٢) Poètique II et XXIV

فلم يزد المتنبى على أن قال إنه سعى إلى ممدوحه ماشياً يركب نعليه كما قال أبو نواس ، ولكنه فصل ذلك ، فشبه أجزاء النعل بالأدوات التى يصطنعها راكب الناقة .

و إذا كانت هذه المحاولة تقليداً صرفاً من الجهة الفنية الخالصة ، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية ؛ لأنها على الأقل تنبئنا بأن الشاعر الفتى لم يسافر من الكوفة إلى بغداد راكباً ، و إنما ذهب إليها راجلاً ، وذهب إليها راجلاً مسرعاً يسابق الريح . فإذا صح هذا التقدير فإن الفتى قد أعجل عن الاستعداد للرحيل ، وفرّ من الكوفة فراراً كما قدمنا .

والمدح الذى يكوّن الجزء الثالث من القصيدة ، والجزء الأهم والأطول ، ليس أدنى إلى الابتكار ولا أقرب إلى التجديد من الجزأين الأولين . بل هو برىء من الابتكار الجدى إن صح هذا التعبير كل البراءة . هو مدح تقليدى بأوضح معانى الكلمة وأدقّها ، لا يتجاوز الشاعر به أن يصف ممدوحه ، بأنه أكرم قريش وأشجعها وأعظمها حظا من الخصال التى يمتاز بها الرجل حقا ، و بأنه كان أحلم قريش وأحكمها حين بلغ الحلم ، و بأنه ابن النبى ، و بأنه أوحد الخليقة وأجمعها

لصفات النبـــل والشرف إلى غير هذا من الأوصاف التى تعود الشعراء أن يرصّوها فى مدحهم رصًّا . ومع ذلك فقد حاول الشاعر أن يجدد فأخطأه التوفيق ، وظهر أنه لا يزال فى حاجة إلى ممارسة قول الشعر وتصريف الكلام ، وذلك حين أراد أن يذكر الضربة التى تلقاها ممدوحه فى وقعـة من الوقعات ، فزعم أن هذه الضربة شرفت ممدوحه ، ولم تلحق به ضرراً ولا أذى .

فهذا تفكير أطفال وحديث فتى يلغو . والمتنبى معتمد فى مدحه كما اعتمد فى غزله ووصفه على الطباق والمبالغة ، ويظهر ذلك ظهوراً واضحاً حين يحدثنا بأن الأغماد تبكى على النصول إذا علمت أنها ستجرد ، وبأن هذه النصول تغمد فى الأعناق والرءوس فتقدح النار ، ولكن الدماء التى تسفكها تخمد هذه النار التى تقدحها . فأنت ترى فى هـذا الكلام المبالغة والطباق معاً ، وتحس فيـــه محاولة الشاعر استغلال هذين الأصلين من أصول البديع وأنه إن وفق فى ذلك حيناً فما يزال يخطئه التوفيق كثيراً . لأنه على تقدمه فى الصنعة لم يستكمل بعد حظه من المهارة والإتقان .

على أن هذه القصيدة تدلنا على شيء آخر له قيمته من الناحية التاريخية . فالشاعر لم يمدح أحداً من رجال الحكم ، ولم يتجه إلى أحد من المتصلين بالسلطان العباسى القائم ، وإنما مدح رجلاً علويا ، فأوضح ما يستنبط من ذلك أن المتنبى حين وصل إلى بغداد كان محتفظاً بمذهبه السياسى ، منحرفاً عن السلطان العباسى القائم فى بغداد . ولكننا لا نرى فى القصيدة مذهب القرامطة ولا إشارة إلى نظرية الحلول . فلا أقل من أن نفهم من ذلك أن شاعرنا متحفظ محتاط ، وأنه لا يمدح هذا العلوى رغبة فى مدحه أو إخلاصاً فى حبه وحب العلويين ، وإنما يمدحه ملتمساً لنواله — يريد أن يستعين بهذا النوال على الرحيل من بغداد إلى الشام .

وأثناء إقامة المتنبى فى بغداد رأى الفتى من غير شك ما لم يره فى الكوفة ولا فى البادية من مظاهر الترف وألوان النعيم ، وفنون العبث واللهو . فزاد سخطه على النظام الاجتماعى ، وحنقه على توزيع الثروة بين الناس ، والغريب أنه لم يستبق مما رأى ومما سمع فى بغداد هذه المرة إلا ما ترويه لنا عنه الأخبار من أنه كان يمشى مرة فى بغداد ، ومعه

خمسة دراهم ، فرأى بطيخاً أعجبه لأنه كان باكورة ، فساوم فيه صاحبه حتى عرض عليه دراهمه الخمسة ، ولكنه لم يبلغ منه شيئاً . ووقف الفتى حزيناً ينظر إلى البطيخ وإلى الدراهم ، وإذا تاجر يخرج من خان مقابل لبائع البطيخ ، فينهض البائع إليه متملقاً مبالغاً فى التملق ، يدعو له ويعرض عليه بطيخه ، والتاجر يأبى ويمتنع ، والرجل يهبط بالثمن شيئاً فشيئاً حتى سمح التاجر وطابت نفسه عن شراء هذا البطيخ بدرهمين اثنين ، وأمر البائع أن يحمله إلى داره . فلما انصرف التاجر أظهر المتنبى عجبه لصاحب البطيخ من هذه الحماقة التى حملته على أن يرفض خمسة دراهم كان يعرضها عليه ويقبل من التاجر درهمين ، لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والعناء . فقال له التاجر : ويلك إنه يملك مائتى ألف دينار ! !

ويزعم الرواة على المتنبى أنه أحب المال منذ ذلك الوقت وكلف بالغنى ، وحرص على أن يملك مائتى ألف دينار .

ومهما يكن من أمر هذه القصة فلست أريد أن أحملها أكثر مما تحتمل ، ولست أرى فيها إلا رمزاً لما تأثَّر به

الشاعر الفتى أثناء إقامته فى بغداد من حماقة العامة واستكانتهم وطغيان الخاصة والأغنياء ، وإسرافهم فى استغلال هـذه العـامة الحمقاء المستكينة .

أقبل الفتى على بغداد قرمطيا منهزماً ، حانقاً على النظام الاجتماعى والسياسى ، وخرج من بغداد إلى الشام ، وأضاف حنقاً إلى حنق ، وسخطاً إلى سخط ، وازداد حظه من التمرد على السلطان والنظام . وإذا أضفنا إلى هذه القصـة قصة أخرى يرويهـا الرواة عن المتنبى الصبى أثناء إقامته بالـكوفة استطعنا أن نتبين العناصر الخلقية والعقليـة التى كوّنت شخصية هذا الفتى المندفع المخاطر والضارب فى الأرض يبتغى شيئاً لعله لم يكن يحققه ولا يعرفه إلا توهماً .

فقد زعم الرواة أن الصبى كان يختلف إلى ورّاق فى الـكوفة يجاس عنده وينظر فيما يحضره من الـكتب ، فأقبل ذات يوم رجل ، ومعه كتاب لأبى عبيدة فى اللغـة ، يقع فى ثلاثين ورقة ، وكان الرجل يعرض كتابه للبيع ، فأخذه الصبى وجعل يطيل النظر فيه حتى ضاق به البائع وقال له : يا هذا إنما جئت بهذا الـكتاب لأبيعه وأنك إذا أردت حفظه

واستقصاءه احتجت إلى أيام . قال الصبى فإذا كنت قد وعيت ما فيه ؟ قال البائع فهو لك . ثم امتحن القوم الصبى فإذا هو قد حفظ ما فى الكتاب .

لا أريد أن أحمل هذه القصة أيضاً أكثر مما تحتمل ، وإنما أرى فيها رمزاً لنشاط الصبى وحضور ذهنه وحدّة ذكائه . وإذن فقد أدرك الفتى نفسه وهو متميز من غيره بذكاء غير شائع فى الناس ، وهو مع ذلك فقير بائس يشتهى من لذات الحياة المتواضعة ما لا يستطيع أن يبلغه وإن بذل الجهد والمال ، والأغنياء البُله من حوله ينعمون ويترفون ويكرهون على النعيم والترف إكراهاً ، فلا غرابة فى أن يمتلئ هذا الفتى بنفسه وفى أن يشعر قلبه بعض هذه الحياة التى تجرى فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والحق والإنصاف . ولا غرابة فى أن يقصد إلى الشام وفى نفسه خواطر كثيرة مختلطة مضطربة ليس من اليسير تمييزها ، ولكنها على كل حال خواطر متشائم ساخط يريد أن تتغير الظروف من حوله لمصلحة الناس جميعاً ، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل فلا أقل من أن تتغير الظروف حوله لمصلحته هو خاصة .

وأكاد أعتقد أن حياة المتنبي بعد سفره من بغداد تمثل هذين النوعين من الأمل ، وهذين الفنَّين من المحاولة . فهو فى أول أمره مخلص صادق فيما بينه وبين نفسه ، معجب بنفسه من غير شك ، ولكنه ليس مسرفاً فى الأثرة ، يرى أنه قد يستطيع تغيير ظروف الحياة لمصلحة المظلومين والمستضعفين وسبيله إلى ذلك نشر الدعوة القرمطية وتغيير الأمور السياسية فى مكان بعيد بعض الشيء عن مركز السلطان ومستقر الخلافة . وقد اندفع الفتى فى ذلك وجهد فى أن يصل إليه مخاطراً يوماً متحفظاً يوماً آخر ، متجاوزا الحدود يوماً ثالثاً ، حتى أدركه الاخفاق ثم أدركه اليأس ، فلم يجد بداً من المرتبة الثانية التى تقوى فيها الأثرة بعد أن أخفق الايثار ، ويقوى فيها الطمع وحب النفس بعد أن أخفق الرفق بالناس والنصح لهم وحملهم على الاصلاح .

هنالك ظهر المتنبي على طبيعته الصحيحة التى أخفاها حينا كرم الشباب ، واندفاعه الطبيعى إلى الخير ، فلما أدركه الاخفاق وألمت به الخيبة انجلت عنه غمرة الشباب ، وظهر كما أراد الله له أن يكون شاعراً نابغة ، نابهَ الذكر مؤثراً لنفسه بالخير

مسرفاً فى إيثار نفسه بالخير لا يستبقى من آماله الأولى إلا الحقد على الجماعة والازدراء لها والبغض لما تقدم عليه من نظام وتخضع له من سلطان ، ولـكننا فيما يظهر نتعجل الحوادث بعض الشىء ، والخير فى أن نصطنع الأناة ونساير الشاعر فى طريقه حتى نقطع معه المرحلة الثانية انتى انتهت به إلى السجن ثم إلى اليأس والقنوط .

———

٦

وأول مسألة تعرض لنا فى هذه الطريق ، مسألة تاريخية بالطبع ، أو مسألتان تاريخيتان . فمتى ارتحل المتنبى عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التى قالها فى الشام قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟

فأما المسألة الأولى فليس إلى الجواب عنها من سبيل ؛ لأن المؤرخين لا يحدثوننا بشىء يعين الوقت الذى خرج المتنبى فيه من بغداد أو يقرِّبه . والديوان نفسه لا ينبئنا من هذا بشىء ، ولكنى أرجح خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير (١) أن إقامة المتنبى فى بغداد لم تطل ، وإنما مر الشاعر بها مراً لم ينفق فيها إلا الوقت الذى مكن له من أن يتهيأ للرحيل إلى الشام ؛ لأنه لم يكن آمناً فى بغداد كما لم يكن آمناً فى الكوفة . وعندى أنه خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير أيضاً لم يختلف إلى مجالس العلماء ، ولا إلى أندية الأدب ، ولم يتصل بأحد من

(١) R. Blachère : Abou t-Tayyib al-Motanabbî 35

الأشخاص الظاهرين فى بغداد إلا محمد بن عبد الله العلوى الذى مدحه بالقصيدة التى فرغنا من تحليلها آنفا ؛ وما أراه مدحه إلا ليستعين بنائله على الرحيل .

لم يكن المتنبى آمنا فى بغداد لأنه كما رأيت كان قرمطى الهوى ولأن بغداد كانت شديدة الاضطرابات بأحداث القرامطة الذين كانوا يغيرون عليها منذ وقت قصير . وما أرى إلا أن المتنبى قد أنفق ما أنفق من الوقت فى بغداد وجِلاً مضطرباً ، وخرج منها خائفاً يترقب ، وانتفع فى إقامته وسفره بأنه شخص مجهول لا ينم عليه اسم معروف ، ولا تفضحه مكانة ممتازة . وأكبر الظن أن خوفه واحتياطه هما اللذان حملاه على أن يخفى اسمه ونسبه إن كان له نسب على القبائل التى كان ينتقل بينها اثناء رحلته .

وأوضح دليل على أنه لم يطل الإقامة فى بغداد أن ديوانه لا يحفظ لنا شعراً قاله فى بغداد إلا مدحه لهذا العلوى . ولو قد أقام المتنبى ببغداد إقامة أمن وفراغ بال ، لما أعياه أن يقول كثيراً من الشعر فى كثير من الأشخاص وفى كثير من المشاهد التى شهدها فى دار السلام .

وأما المسألة الثانية فالأمر فيها مختلف بعض الشيء ، فقصائد المتنبي التي قالها بين خروجه من بغداد ودخوله السجن منثورة في القسم الأول من ديوانه على نحو يظهر أنه قصد به إلى كثير من التعمية والتضليل . فهناك قصائد مقدمة في الديوان وقد كان إنشاؤها متأخراً ، وهناك قصائد متأخرة في الديوان ، وقد كان انشاؤها متقدما . وما أشك في أن هذا التأخير والتقديم شيء أريد لأمر ليس في حاجة إلى التوضيح . وأكثر الأشخاص الذين قصد إليهم المتنبي بمدحه وثنائه في هذا الطور خاملون لم يعرفهم أو لم يكد يعرفهم التاريخ .

ومع ذلك فقد يخيل إليّ أن توقيت هذه القصائد إن لم يكن ممكنا كله فليس مستحيلاً كله ، ولي إلى ذلك التوقيت طريقتان .

فأما أولاهما فتتصل بنفس الشاعر ، وأما ثانيتهما فتتصل بطريق الشاعر حين اضطرابه في بلاد الشام ، فاما الطريقة الأولى : وهي الطريقة النفسية إن صح هذا التعبير فإني استنبطها من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التي كان يحياها المتنبي قبل أن تلم به الكارثة ، فقد رأيناه قرمطي الهوى في الكوفة

لا يتحفظ ولا يحتاط ، ورأيناه شيعيا فى بغداد متحرجا يصطنع الحذر ، ورأينا أنه فى أكبر الظن إنما سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إليها هناك . و إذن فلابد إن صح هذا الغرض من أن يمتاز شعر المتنبى فى هذا الطور من حياته بشيئين : أحدهما آراء قرمطية تظهر فى هذا الشعر من حين إلى حين لأنها هى آراء الشاعر ، وهى قوام حياته وتفكيره ونشاطه الخفى ، فلا يستطيع الشاعر أن يمحوها من آثاره الأدبية محواً . والثانى تحفظ واحتياط ، وايثار للعافية يدفع الشاعر إلى أن يخفى آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك ، وإلى أن يلمح بهذه الآراء إذا أمن أو طمع ، و إلى أن يجهر بما يمكن الجهر به من هذه الآراء إذا أمن واطمأن . فإذا استطعنا أن نتبين هاتين الخصلتين فى طائفة من قصائد المتنبى فأكبر الظن أن هذه القصائد قد قيلت فى هذا الطور . على أنى أكثر اعتماداً على الطريقة الثانية الجغرافية منى على هذه الطريقة الأولى النفسية ، فالظاهر أن المتنبى قد خرج من بغداد متابعاً طريق الجزيرة حتى انتهى إليها فأقام فيها وفى شمال الشام دهراً يتنقل بين القبائل البادية وبين المتحضرين فى المدن ، يمدح الرؤساء وسراة

الناس كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضاً ، وهو فى أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى الذى كانوا يخضعون له فى ذلك الوقت خضوعاً فيه غير قليل من التلون والاضطراب . فإن وجد عندهم استعداداً لقبول دعوته أذاعها فيهم وإن لم يجد كتم عنهم أمره ، وهو فى الحالين يعيش بما يأخذه منهم أجراً لما يهدى إليهم من المديح .

وأنت إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبى بعد خروجه من العراق رأيته ينقسم ثلاثة أقسام جغرافية إن صح هـذا التعبير :

القسم الأول قيـل فى الجزيرة وشمال الشام ، ومدح به جماعة من رؤساء البادية ، وأغنياء الحاضرة وأوساطها ، وأصحاب المناصب فيهـا . والقسم الثانى قيل فى اللاذقية وهو موقوف على التنوخيين الذين قد نطيل عنهم الحديث . والقسم الثالث قيل فى طرابلس .

يحدثنا الشاعر نفسه بذلك ، وأنت تفهم من سياق شعره فى التنوخيين ، أنه قد غاب عن اللاذقية حيناً ، فأقام فى طبرية

ثم عاد إليها . وإذن فيخيل إلىّ أن المتنبى قد جاء سوريا من شمالها فأقام فى هذا الشمال دهراً ، ثم مضى فأقام فى طرابلس حيناً قصيراً ، ثم انحرف إلى اللاذقية ، فأطال فيها المقام شيئاً ، ثم انصرف عنها إلى طبرية فأقام قليلاً ، ثم عاد إلى اللاذقية فجدد العهد بها وتهيأ فيها لما كان يريد أن يحدث من خطب ، ثم تركها إلى البادية غير بعيد عن حمص ، فلم يكد يعلن الدعوة إلى الثورة حتى أخذ ، وألقى فى السجن . ويجب أن يكون أخذه وإلقاؤه فى السجن ، فى سنة ثلاث أو أربع وعشرين وثلثمائة . فنحن نراه يمدح أحد التنوخيين ، ويبرئ نفسه إليه من تهمة رمى بها عنده ، وهى تهمة الهجاء له ؛ فيقول :

وما أَرْبَتْ عَلَى العِشرِينَ سِـــنّى
فكيفَ مَلِلتُ من طُولِ البَقَاءِ

وأقل ما يفهم من هذا البيت أن الشاعر قاله سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وسترى أنه مدح التنوخيين قبل أن يحدث الأمر الذى اضطره إلى السجن . وأظن أننا حين نستعين بهاتين الطريقتين نستطيع أن نوقت توقيتاً مقارباً تاريخ هذا القسم من شعر المتنبى ، وأن نمحو الغموض الذى أحيط به هذا

القسم عمداً فى الديوان ، بما اصطنع فيه من تقديم وتأخير .

ومهما يكن من شىء فإنى أفترض أن المتنبى قد سلك هذه الطريق التى رسمتها مع قليل أو كثير من الانحراف لا يؤثر فى صورتها العامة تأثيراً ذا خطر . و إذن فسأسْلك هذه الطريق نفسها فى درس شعره فى هذا الطور على النحو الآتى :

١ — شعره فى سوريا الشمالية .

٢ — شعره فى طرابلس .

٣ — شعره فى اللاذقية .

٤ — شعره حين كان يستعد للثورة فى البادية .

٥ — وأخيراً شعره فى السجن .

٧

وبين أيدينا فى الديوان — إن صح ما ذهبت إليه من الفرض ، وما عمدت إليه من الإحصاء — ست عشرة قصيدة ومقطوعة قالها المتنبى فى أول عهده بالشام ، حين كان فى الشمال متنقلاً بين أهل البادية وأهل الحضر .

وقد مدح بهذا الشعر أو بأكثره على الأقل جماعة من العرب ، ليس فيهم إلا مضرىٌّ واحد ، هو سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابىّ القيسى ، ومدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أَحيا وَأَيْسَرُ ما قاسَيتُ ما قَتَلا
والبَيْن جارَ على ضَعْفِي وما عَدَلا

ولبعض الكلابيين من رهط هذا الرجل ، قال هاتين المقطوعتين فيما أرجح ، وفيهما تلميح ظاهر إلى غرضه ، وإلى دعوته القرمطية :

إذا ما شربْتَ الخمرَ صِرْفاً مهنَّأً
شَربنا الذى من مثلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ
ألا حَبَّذا قومٌ ندامَاهُمُ القنا
يُسقونها رِيًّا وساقيهمُ العَزْمُ

***

لِأَحِبَّتى أنْ يملئوا
بالصافياتِ الأكْؤُبَا
وعليهمُ أن يبذُلوا
وعَلَىَّ أن لا أَشرَبا
حتى تكونَ الباترا
تُ المُسْمِعاتِ فأطْرَبا

وفيهم رجل واحد هو سيف الدولة . مدحه فى هذا الطور بميميته التى يقول فى أولها :

ذِكْرُ الصبا ومَرابعُ الآرامِ
جَلَبَتْ حِمامِى قبلَ وَقْتِ حِمامِى

وأما الآخرون فقحطانيون ، منهم الأزدى ، وهو

أبو المنتصر شجاع الأزدى ، وقد مدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ
وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

ومنهم جماعة من الطائيين ، هم على بن أحمد الطائى ، ومدحه بالقصيدة التى أوّلها :

حُشاشةُ نَفسٍ وَدَّعَتْ يومَ وَدَّعُوا
فلم أَدرِ أَىَّ الظاعِنين أُشَيِّعُ

وشجاع بن محمد الطائى ، وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما قوله :

عزيزٌ أَسًى من داؤُهُ الحَدَقُ النُّجْلُ
عَياءٌ به ماتَ المُحبُّونَ من قَبلُ

ومطلع الثانية قوله :

اليومَ عَهدُكمُ فأين المَوعِدُ
هيهاتَ ليسَ لِيَوْمِ عَهدِكُمُ غَدُ

وعبد الله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن البحترى الشاعر وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما :

بَكيتُ يا رَبْعُ حتى كِدتُ أُبكيكا
وجُدتُ بى وبِدَمْعى فى مَغانيكا

ومطلع الثانية :

أَرِيقُكِ أَمْ ماءُ الغمامةِ أم خَمرُ
بِفِيَّ بَرُودٌ وهْوَ فى كَبِـدى جَمرُ

ومدح أخاه بالقصيدة التى يقول فى أولها :

ما الشوقُ مُقتنِعاً مِنِّى بِذا الْكَمَدِ
حتَّى أكونَ بِلا قلبٍ ولا كَبِدِ

ونلاحظ أنه فى هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحترى الشاعر جدَّ ممدوحيه ولم يشر إليه ، ولعل هذا يلائم ما كان معروفاً عن المتنبى من الإمعان فى قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء ، والادعاء مع ذلك أنه لا يقرؤها ولا يحسن العلم بهما حتى افتضح فى ذلك[1] .

ومدح غير هؤلاء محمد بن زريق ، وكان على بعض العمل فى طرسوس بالقصيدة التى مطلعها :

---

(١) الصبح المنبى ص ٧٩ ، ٨٠

هٰذِى بَرَزْتِ لنا فهِجتِ رَسيساً
ثُمَّ انثنَيتِ وما شَفَيتِ نَسيساً

ولما أراد أن يرتحل من طرسوس استجداه بالأبيات التى أولها :

مُحَمَّدُ بْنَ زُرَيْقٍ ما نَرَى أَحَـدا
إذا فَقَدْناكَ يُعطِى قبلَ أن يَعِـدا

ومدح كذلك مساور بن محمد الرومى ، وكان حاجباً بقصيدتين يقول فى أولاهما :

جَلَلاً كما بِى فَلْيَكُ ٱلتَبْرِيحُ
أَغِذَاءُ ذا الرَشأ الأَغَنِّ الشِـيحُ

ويقول فى الأخرى :

أمُساوِرٌ أم قَرْنُ شمسٍ هـــذا
أم لَيْثُ غابٍ يَقدُمُ الأُسـتاذا

ومدح عبـد الرحمن بن المبارك الأنطاكى بالقصـيدة التى أولها :

صـــلَةُ الهَجرِ لى وهَجرُ الوِصالِ
نَـكَسَانى فى السُقمِ نَـكْسَ الهِلالِ

وكل هؤلاء الناس كان مقيما فى شمال سوريا حين مدحه المتنبى ، فمنهم من كان بأنطاكية ، ومنهم من كان بمنبج ، ومنهم من كان بطرسوس ، ولا يتعرض منزل واحد منهم للشك إلا أن يكون مساور بن محمد الرومى ، وأحسب المتنبى لقيه فى حلب أو قريباً منها .

ويرى الأستاذ بلاشير[١] والدكتور عبد الوهاب عزام[٢] ؛ أنه لم يمدح مساوراً إلا فى وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ؛ والذالية تؤيد هذا الرأى ، ولكنى مع ذلك أميل إلى ترجيح ما قدمته ، ولعله مدحه مرتين . مدحه بالحائية فى طوره هذا وبالذالية بعد موت ابن رائق ، وإن كانت إغارة المصريين على الشام قد تكررت .

وأنت إذا قرأت هذا الشعر كله لم تشك فى أنه الشعر الذى يلى ما قدمنا الحديث عنه فى الفصول السابقة ، أى أنه الشعر الذى قيل فى آخر الصبا وأول الشباب ، وعند وصول المتنبى إلى شمال الشام .

---

(١) R. Blachère : Abou t-Tayyib al-Motanabbî p. 109

(٢) ذكرى أبي الطيب للدكتور عزام ص ٥٨

فيه كل الخصائص التى تثبت هذا إثباتاً قاطعاً ، فالآراء القرمطية ظاهرة فيه كما سترى ، إلا أن يتحفظ الشاعر و يحتاط . والمذهب الفنى الذى ابتدأ الفتى به شعره ظاهر فيه كل الظهور تقليد للقدماء ، ولأبى تمام خاصة ، واعتماد ظاهر على الطباق والمبالغة ، يسرف فيهما إن استعصت عليه القريحة ، و يقتصد فيهما إن واتاه الطبع .

ثم ظاهرة أخرى نجدها فى هـذا العصر عند جماعة من الشعراء ولم يسلم منهـا المتنبى ، لا فى هـذا الطور ولا فى بعض الأطوار الأخرى التى تليه ، وهى تكلف القوافى التى لا تخلو من عسر والتى لم يكن المطبوعون من الشـعراء المتقدمين يتكلفونها ؛ فكافيته فى مدح البحترى ، وذاليته فى مدح مساور ابن محمد الرومى تدلان على أن الفتى كان يأخذ نفسه بشىء من الشدة ليظهر شيئاً من البراعة فى اصطناع القوافى ، والقدرة على استذلالها .

ثم أنت حين تقرأ هذا الشعر تكاد تحس فى ألفاظه ، ومعانيه ، وأساليبه بنمو طبيعة الشاعر ، وتقدم ملـكته الفنية نحو الرشـد والنضج شيئاً فشيئاً . ولولا أنى أكره الاطالة

والإملال فيما لا حاجة إلى الاطالة فيه والإملال به لاستقصيت هذا المقدار من شعر المتنبى ، ولدرسته قصيدة قصيدة ، ومقطوعة مقطوعة ، ولحاولت أن أستنبط من هذا الاستقصاء والدرس نمو الملكة الفنية عند هذا الشاعر الشاب ، ولكنى إن فعلت أثقلت عليك وعلى نفسى ، ولم أنته بك ولا بنفسى إلى غاية هذا الحديث . فخذ أنت هذا الشعر وقف عليه من وقتك أياماً ، فما أشك فى أنك ستصل إلى ما لا أريد أنا أن أطيل فيه . ولكنى واقف معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد فى أن تتذوقه لعلنا نتعرف أصول فنّ المتنبى فى شىء من التفصيل ، والوضوح ، ينفعنا حين نعبر هذا الطور من أطواره الفنيّة .

ولنأخذ لاميته التى مدح بها سعيد بن عبد الله ، فإنها خليقة ببعض التفكير لأنا نلتمس فيها صبا الشاعر وطفولته ، لا فى اللفظ وحده ، بل فى الشعور والتفكير أيضاً ، فاقرأ معى هذا الغزل الذى قدمه بين يديه :

أَحيا وأَيسَرُ ما قاسَيتُ ما قَتَلا

والبَينُ جارَ على ضَعفى وما عدلا

فانظر إليه كيف أراد أن يعبر عن أنه يحتمل من البين

ما لا سبيل إلى الحياة معه ، فدار حول هذا المعنى ، ولم يستطع أن يؤديه إلا فى شىء من التكلف ، فاصطنع هذا الفعل فى أول البيت ، ثم أضاف إليه هـذه الجملة الحالية ثم لم يستطع أن يؤدى هذه الجملة الحالية نفسها دون شىء من المعاظلة حين جمع بين هذين الموصولين فى قوله :

أيسر ما قاسيت ما قتـــلا

ولعله أشفق من التنافر الذى يأتى من كثرة القافات فآثر هذا التعقيد اليسير . ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

والبين جار على ضعفى وما عدلا

فسترى فيـه طباقا ظاهرا يخلب بعض الشىء ، ولـكنك ستحس أن الشطر كله لا حاجة إليه ، وأن القافية قد أكرهت إكراهاً وعتلت إلى مكانها عتلاً ، وأن الشاعر قد استوفى معناه الأساسى فى الشطر الأول ، ثم جاء بالشطر الثانى ليتم البيت . فإذا انتقلت إلى البيت الثانى :

والوَجْدُ يقْوَى كما تَقْوَى النَّوَى أَبَدًا

والصَّبْرُ يَنْحَلُ فى جِسْمِى كما نَحَلاَ

أحسست فى نفس الشاعر فرحا بهذه الملاءمة التى اهتدى إليها

بين قوة النوى وقوة الوجـد فى الشطر الأول ، و بين نحول الصبر ، ونحول الجسم فى الشطر الثانى . و بهذا الطباق البعيد بين قوة الوجد والنوى ، ونحول الصبر والجسم . ولـكن انظر إلى قوله : أبدا ، فسـترى أن هذه الـكلمة إنما جاءت لتقيم وزن الشطر لا لشىء آخر ، فإن لقوة النوى و إن كانت غريبة حدا يجب أن تنتهى إليـه فتنتهى معها قوة الوجد ، وانظر إلى الشطر الثانى كيف أعاد الضمير فيه على الجسم فى شىء من التكلف لا يخفى ، ثم انتقل إلى البيت الثالث :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ

لَهَا المَنَايَا إلى أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

فسترى فيـه مبالغة ظاهرها يخلب ، ولـكن تحقيقها يدل على أن صاحبها صبى ، لم ينضج تفكيره بعد ، ذلك إلى إرجاع الضمير فى لها على المنايا ، مع تقـدم الضمير وتأخر المرجع فى اللفظ ، وأنا أعلم أن هذا ليس خطأ ، ولست أذكره لذلك ، وإنما أذكره لأضع يدك على الجهد الذى يبـذله الصبى فى إقامة شعره .

واقرأ البيت الرابع :

بما بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفًا
يَهْوَى الحياةَ وأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلَا

فستنكر منه هذا الاستحلاف الذى يفجأك بهذه الباء تليها باء أخرى لا يفصل بينهما إلا هذا الموصول ، وهو حاجز غير حصين كما يقول النحاة . ثم أتم قراءة البيت فسترى فيه قصوراً فى الأداء لم يستطع الشاعر أن يخلص منه فاضطر إلى الحذف وإلى الاضمار . فهو يريد أن يقول لصاحبته : صلى دنفا يهوى الحياة ما وصلته ، فأما إن صددت عنه فليس يهواها .

والمتنبى مضطر بحكم الجهد إلى مثل هذا التكلف ، ولكنه سيمضى فيه وسيستجيزه ، ولعله كان يحس من الناس شيئاً من الإنكار فيأبى عليه عناده إلا أن يغيظ مخاصميه بالإلحاح فيما يكرهون ، وما دام النحو يجيز له مثل هذا فليس عليه بأس من الايغال فيه ، وكذلك ينتقل المتنبى من التكلف إلى التعقيد ، ومن التعقيد الذى تفرضه الضرورة إلى التعقيد الذى يصبح مذهباً من مذاهب الشعر ، وفناً من فنون الأداء .

مثل المتنبى فى ذلك مثل الفرزدق الذى كان يرى المعاظلة وسيلة من وسائل الأداء الشعرى ، ويتعمد تجاوز المألوف ليغيظ

خصومه من النحويين [١] ؛ ثم انظر إلى البيت الخامس :

إلاّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ
شَيْبًا إِذَا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلا

فقد صرف فيه الشيب تصريفا يكاد يذكر بتلاميذ المكاتب ، فجاء منه بالمضارع والماضى والمصدر ، ثم أسنده إلى الكبد . ثم لم يكفه ذلك حتى جعل السلوة خضابا ، وحتى جعل شيب هذه الكبد مستعصياً على هذا الخضاب .

أما البيت السادس فحلو مؤثر ، فيه حنين الفتى ، لا إلى صاحبته هذه ، بل إلى وطنه ذلك الذى هجره ، والذى ما زال يتنسم ريحه ، ويمسك على نفسه عقله بما يحمل إليه هذا النسيم :

يُجَنُّ شَوْقًا فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً
تَزُورُهُ فِي رِياحِ الشَّرْقِ ما عَقَلاَ

ولكن الشاعر لا يكاد يدع هذا البيت حتى يعود إلى التكلف والجهد فاقرأ البيت السابع :

ها فانْظُرِى أَوْ فَظُنِّى بى تَرَىْ حُرَقًا
مَنْ لم يَذُقْ طَرَفًا منها فَقَدْ وَأَلا

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧

فإنك واضع يدك على ما فى هـذا البيت من المشقة والعسر فهذه الهاء فى أول البيت ، وطلب الشـاعر إلى صاحبته أن تنظر أو أن تظن به أى أن تتخيله ، ثم إنباؤه إياها بأنهـا إن نظرت أو ظنت به فسترى به حرقا مهلـكة ، وانظر إليه كيف عبر عن هذه الحرق المهلـكة بأن من لم يذق منها طرفا فقد نجا . فما أظن أن التكلف ينتهى بشاعر إلى تقصير أشد من هذا التقصير .

ولـكن شاعرنا فى السادسة عشرة أو السـابعة عشرة من عمره فليس عليه من هذا الجهد بأس ، وسترى إذا أمضيت فى قراءة الديوان أن النسيب ليس من الفنون التى يحبها المتنبى أو يحفل بها ، وإنما هو يتكلفه على غير طبعه احتفاظاً بالسـنة المألوفة عند الشعراء .

وانظر بعد هذا الغزل كيف تخلص الشاعر إلى ممدوحه بهذا البيت الذى عابه عليه النقّاد ظالمين :

علَّ الأَمِيرَ يرَى ذُلّى فيَشْفَعَ لِى
إلى التى تَرَكَتْنِى فى الهوَى مَثَلا

فهم أنكروا على الفتى أن يجعل الأمير شفيعاً له عنـد

صاحبته ، ولكنهم نسوا أن الفتى يمدح رجلاً بدوياً ، وأن السُّنَّة كانت متصلة بأن قوماً أعظم خطراً من هذا البدوى قد شفعوا فى الحب للمحبين .

أو لم تحفظ الأخبار أن الحسين بن على شفع لقيس ابن ذريح عند أبى لبنى [١] ، وأن بعض عمال الأمويين شفع لقيس بن الملوح عند أبى ليلى [٢] ، وأن ابن أبى عتيق سفر بين عمر و بين الثريا [٣] ، فما يمنع المتنبى أن يشفع هذا الأعرابى الكلابى عند التى تركته مثلاً فى الهوى ؟

ليس على الشاعر بأس من هذا البيت ، وإنما البأس عليه من البيت الذى يليه والذى يمثل طفولة الشاعر وسذاجته حقاً .

أَيْقَنْتُ أَنَّ سَعِيدًا طالبٌ بِدَمِى
لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بالرُّمْحِ مُعْتَقِلا

فدع هاتين الباءين اللتين توشكان أن تلتقيا فى الشطر الثانى لولا هذا الضمير الضعيف الذى يحول بينهما ما استطاع ،

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١١٣ (طبع بولاق)
(٢) الأغانى جـ ١ ص ١٧٣ « «
(٣) الأغانى جـ ١ ص ٢٦ « «

وانظر إلى هـذا التكلف الشنيع ، إلى هـذا التكلف فى المعنى لا فى اللفظ . رأى الفتى ممدوحه ، وقد اعتقل الرمح فاستيقن أنه طالب بدمه . عند من ؟ عند صاحبته هذه التى تعنيه وتضنيه وتجعله مثلاً للعشاق المدنفين . ما أقسى قلب هذا الفتى الذى يحمد من أميره أن يهدد حبيبته بالرمح ، فلو أن الأمير طعنها بهذا الرمح فقتلها أكان يرضى عنه هـذا الغلام ؟ أم هو يريد حباً بالا كراه ، ويرى أن صاحبته غرة مثله إذا رأت الرمح خافت واسمحت بما كانت تبخل به ، وما موقف الأمير بين هـذين العاشقين ؟ قد كنا نحتمله شفيعاً ، فأما مخوفا ومكرها على الحب فلا . ولـكن الفتى لم يرد شيئاً من هذا ، وإنما هو عبث شاعر واحتيال فى الوصول إلى الممدوح مع شىء من الظرف والدعابة ، ما أرى إلا أنه وقع من نفس الممدوح الأعرابى موقعاً حسناً ، وإن لم يعجبنا نحن المتحضرين .

ويمضى الشاعر فى مدح عادى لصاحبه ، قوامه المبالغة فى وصف الكرم حتى يصل إلى هـذا البيت الذى لا بأس بما فيه من الموسيقى ، وإن كانت المبالغة فيه شنيعة حقاً :

تُرَابُهُ فى كلابٍ كُحْلُ أَعْيُنِهـا
وَسَيْفُهُ فى جَنَابٍ يَسْبِقُ العَـذَلاَ

فانظر إلى الملاءمة الموسيقية بين تراب وكلاب وجناب ، وانظر إلى نظمه للمثل السائر فى غير تكلف ولا جهد ، ولـكن ما رأيك فى قوم يكتحلون بالتراب .

وانظر إلى هذه الأبيات .

هُوَ الأَمِيرُ الذى بادَتْ تميمُ به
قِدْما وسَاقَ إليها حَيْنُها الأَجَـلاَ
لَمَّا رَأَوْهُ وَخَيْلُ النَّصْرِ مُقْبِلَةٌ
والحَرْبُ غَيْرُ عَوَانٍ أسلموا الحِلَلا
وضَاقَتِ الأَرْضُ حتى كان هارِبُهُمْ
إذا رأَى غـيرَ شىءٍ ظَنَّهُ رَجُلا

فالبيت الأخير منها يذكرك من غير شك بقول جرير للأخطل :

ما زِلتَ تحسبُ كل شىءٍ بَعْدَهُمْ
خيـلاً تَشُـد عليكمُ وَرِجالا

واقرأ هذا البيت :

فبَعْدَهُ و إلى ذا الْيومِ لوْ رَكَضَتْ

بالخيْلِ فى لَهَوَاتِ الطِّفْلِ مَا سَعَلا

فما رأيك فى هذا الطفل الذى تركض فى لهواته تميم بخيلها فلا يأخذه السعال ؟ ما عسى أن يكون هذا الطفل ؟ وما عسى أن تكون تميم وخيل تميم ؟

وعلى هذا النحو من الكلام الذى تتكلف فيه المبالغة فى المعنى والملاءمة بين الألفاظ يمضى الشاعر حتى يتم قصيدته . ونحن لا نكاد نخرج من هذه القصيدة بشىء ذى غناء ، إلا أننا نرى هذا الفتى يكلف نفسه ألوان الجهد وفنون العناء ، مبتهجاً بذلك غير محزون له ، ولا مظهر به ضجراً ؛ لأنه يستقبل فنَّه وأمله بنشاط الفتوة ومبعة الصبا ، وهذه الثقة التى لا يعرفها إلا الشباب .

ولم يصرح المتنبى فى هذه القصيدة بمذهبه القرمطى ، ولم يلمح له ، ولكنك رأيت أنه قد لمح لأقارب الممدوح فى المقطوعتين السابقتين ، وليس من شك فى أنه أقام مع هؤلاء الكلابيين ما أقام ، وقال لهم ما قال دون أن يجد عندهم غناء .

فلنقف لحظة قصيرة عند هذه القصيدة الأخرى ، التى مدح بها المتنبى أبا المنتصر شجاع بن أوس بن معن الرضى الازدىّ كما يقول الديوان ، فسنرى أن القراءة الأولى لهذه القصيدة تخالف القصيدة الماضية خلافاً ظاهراً من وجوه :

فى هذه القصيدة الثانية نحس للشاعر غناء صادقا ، يصور نفسه ويجلو عواطفه . وليس العشق فى هذا الغناء إلا رمزاً غامضاً لمعنى غامض ، هو الذى يتغنى الشاعر به دون أن يعرب عنه فى أول الأمر ، وإنما يتركه لك ، تفهم منه ما تشاء أو تفهم منه ما تستطيع . فإذا كنت ملماً بحياة الشاعر ، ظاهراً على دخائله مصاحبا له منذ نشأته الأولى ، شاهداً لما مازج صباه من حزن ، وما عرض له فى حياته من أسى وحسرة ، فأنت فاهم عنه ، محقق لما يتغنى به ، وإن كنت غريباً عن الشاعر تسمع له مصادفة وتقرؤه على غير علم دقيق بحاله ، فأنت تراه شاعراً كغيره من الشعراء يعشق كما يعشقون ، فينسب كما ينسبون . ويكفى أن تقرأ الأبيات الأولى من هذه القصيدة لترى صحة ما أشير إليه :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ ومِثْـلى يأْرَقُ
وَجَوًى يزِيدُ وعَـبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ
جَهْدُ الصَّبابةِ أنْ تكونَ كما أُرَى
عـينٌ مُسَهَّـدَةٌ وَقَلبٌ يَخْفِقُ
مالاَحَ بَرْقٌ أَوْ ترَنَّمَ طائرٌ
إلاَّ انثَنَيْتُ وَلِى فؤَادٌ شَـيِّقُ

فالشاعر فى هـذه الأبيات يتغنى كما ترى غناء غامضاً بعواطف مبهمة ، وإن ظهر منها أنها العشق ، ولـكن هذا الغناء صادق اللهجة قوى النغمة ، يصـدر عن قلب حزين وينتهى إلى القلوب فيثير فيها الحزن والأسى . فأرق الشاعر متصل يقفو بعضه أثر بعض ، والشاعر يقرر ذلك ولا ينكره ؛ لأنه يرى أن مثله خليق أن يأرق . فأما عامة الناس فيفهمون من هـذا الشطر الأول شدة العشق ، وحدة الحب ، ولوعة الهوى ، وأما العارفون بأمر المتنبى فيفهمون من هذا الشطر همَّ الشاعر الذى يطيل ليله ويضاعف أرقه ، وأمل الشاعر الذى يملأ قلبه ، ويبعد عن متناوله . والشاعر محزون يزيد حزنه كلما مرت الساعات

والأيام ، وقد ينتهى به هذا الحزن المتصل المتزايد إلى البكاء .

ثم انظر إلى البيت الثانى :

جَهْدُ الصَّبابةِ أن تكون كما أُرَى
عينٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلْبٌ يَخْفِقُ

فهل ترى غناء أصدق من هذا الغناء ، وأبلغ تأثيراً فى النفس ، ومع ذلك فليس فى البيت شىء جديد ، ولا معنى طريف ، ولكن صدق لهجة الشاعر ، والجمع بين تسهيد العين وخفقان القلب يشيع فى هذا البيت حزناً لا أدرى كيف أحققه ، ولكنى أعلم أنه شديد العدوى سريع الانتقال إلى سامعيه وقارئيه .

ثم انظر إلى هذا البيت الثالث :

ما لاحَ بَرْقٌ أو ترَنَّمَ طائرٌ
إلاّ انثَنَيْتُ وَلِى فُؤَادٌ شَيِّقُ

فسترى فيه مثل ما رأيت فى البيت السابق ، وستجد فيه حنين الشاعر إلى وطنه الذى لم تزل نفسه به متصلة لم تسل عنه بعد .

ثم اقرأ الأبيات الثلاثة التى تأتى بعد ذلك ، فسترى أن الشاعر قد أدرك نفسه فاخفى شخصه ، وتكلف ما يتكلف الشعراء من هذا النسيب المصنوع . فظهر تكلفه فى لفظه ،

وأسلوبه ومعناه ، فهو قد جرب من نار الهوى ما تنطفىء نار الغضا قبل أن ينطفىء ، وما تعجز نار الغضا عن إحراق ما يحرقه ، فالمعنى فى نفسه ليس شيئاً وليس أداؤه بخير منه :

جَرَّبْتُ من نَارِ الْهَوَى ما تَنْطَفِي
نارُ الْغَضَا وتَكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ

واقرأ البيت الذى يأتى بعد ذلك ، فسترى طفولة الشاعر قد عادت إلى الظهور ، وستحس رضى الصبى أو رضى الفتى عن هذا المعنى الذى يحسبه شيئاً ، وليس بشىء ، وإنما هو السخف الذى يخدع العامة ، وليس من ورائه طائل :

وعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ
فَعَجِبْتُ كيْفَ يَموتُ من لا يَعْشَقُ

يريد أن العشق وحده هو سبيل الموت ، وقد سبق المتنبى نفسه إلى هذا المعنى فى القصيدة التى حللناها آنفا حين قال :

لولا مُفَارَقَةُ الأَحبابِ ما وَجَدَتْ
لها المنَايا إلى أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

ولما عرف الشاعر أنه قد كان مخطئاً فى لوم العشاق قبل أن يذوق العشق لم ير بدًّا من أن يعذرهم ، ومن أن يعترف بأن

ما يلقى من ألم العشق وجواه ليس إلا جزاء له على ما قدم إلى العاشقين من ذنب :

وعَذَرْتُهُمْ وعرَفتُ ذَنْبِي أَنّنِي
عَيَّرْتُهُمْ فلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

فالشاعر كما ترى ممعن فى تكلفه ، راض عن هذا التكلف يحسب أنه قد استنبط معنى خطيراً ، فهو يتمه و يستوفيه ، ولعلك أحسست كما أحسستُ أنا أن الشاعر قد آذى نفسك حين بدأ صادقا فأرضاك ، ثم انحدر إلى التكلف فأسخطك . ولكن الشاعر نفسه قد أحس هذا التكلف وهو ضيق به لا يطيق المضى فيه ، وهو محزون حقاً ، ولا بد له من أن يعود إلى لهجته الأولى ، ومن أن يرسل نفسه على سجيتها ، ومن أن يتغنى حزنه العميق ، وهو فى هذا الغناء أوضح شيئاً منه فى الغناء الذى بدأ به القصيدة :

أَبَنِي أُبينَا نَحْنُ أَهلُ مَنازِلٍ
أَبدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيها يَنْعَقُ
نَبْكِى على الدُّنْيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فلَمْ يَتَفَرَّقُوا

أينَ الأكاسِرَةُ الجَبابرَةُ الأُلَى
كنَزُوا الكُنُوزَ فما بَقِينَ ولا بَقوا
مِنْ كلِّ من ضاقَ الفَضاءُ بجَيْشِهِ
حتى ثَوَى فحَواهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرْسٌ إذَا نُودُوا كأَن لمْ يَعْلَمُوا
أنّ الكلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقُ
فالموتُ آتٍ والنُّفُوسُ نَفائِسٌ
والمُستغِرُّ بما لَدَيهِ الأَحمَقُ
والمَرْءُ يَأْمُلُ والحَياةُ شَهِيَّةٌ
والشَيْبُ أَوْقَرُ والشَّبيبَةُ أَنزَقُ
ولَقَدْ بكيْتُ عَلَى الشَّبابِ ولِمَّتِي
مُسْوَدَّةٌ ولِمَاءِ وَجْهِي رَوْنَقُ
حَذَرًا عليه قبلَ يوْمِ فِراقِهِ
حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفْنِي أَشْرَقُ

اقرأ هذه الأبيات ؟ أرأيت ما فيها من الحزن ؟ ألحظت البيت الأول منها كيف يمثل اطمئنان الشاعر إلى هؤلاء

الذين يتحدث إليهم لأنهم بنو أبيه ليسوا مضريين ولا عجما ؟

أرأيت أنه يسجل أن القحطانية أهل منازل ينعب فيها غراب البين أبدا . فالهجرة من طبعهم ، والغربة معروضة عليهم ؟

ثم أرأيت كيف مضى الشاعر فى هذه الشكوى مفلسا فى سذاجة توشك أن تكون عامية ، بل هى أشبه بالوعظ منها بالفلسفة ؟ ولكن الذى ينبغى أن نفكر فيه هو أن هذه الفلسفة الساذجة أصل لهذه الشجرة التى ستنمو وتمتد أغصانها حتى تملأ شعر المتنبى مواعظ وحكماً وأمثالاً .

والذى ينبغى أن نفكر فيه أيضاً هو أننا نكاد نحس فى هذه الأبيات بدء التفكير الفلسفى الحزين عند هذا الفتى ، وأن هذا التفكير الفلسفى إنما يأتى من رجوع الفتى إلى نفسه أولاً وإلى قومه ثانياً .

فهو يرى نفسه غريباً مشرداً ، سىء الحال ، وهو يرى قومه بعد ذلك غرباء مشردين ، قد تسلط عليهم من كان ينبغى أن يتسلطوا هم عليه ، واستأثر بالأمر دونهم من كان ينبغى ألا يكون له من الأمر شىء . والطباق كما ترى فى هذه الأبيات ، هو القوام الفنىّ لشعر الشاعر لا يعدل

عنه ، ولا يكاد يعدل به أداة فنية أخرى .

وانظر إلى آخر هذه الأبيات ، وإلى بكاء الشاعر على الشباب ، وهو فى ريعان الشباب ، وإلى تعليل الشاعر لبكائه هذا على شباب لم يفارقه ، بل لم يكد يستقبله ، بالخوف من مفارقته التى ليس منها بد .

وأكبر ظنى أن الشاعر يتكلف التعليل هنا ، كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين ، واعتذاره بعد ذلك عنهم ، ولكنه هنا ليس فاحش التكلف ، ولعله هو لا يعرف لماذا يبكى الشباب ؟ ولا يرى أنه إنما يبكى الشباب لأنه فى حاجة إلى البكاء ليس غير ، كما هو يشكو العشق لأنه فى حاجة إلى الشكوى ليس غير . ولعل من أوضح الأدلة على صدق الشاعر فى هذه القصيدة أو فى القسم الأول منها أنه قد نسى أو كاد ينسى ممدوحه ، واندفع فى تفكيره وحزنه وغنائه لهذا التفكير والحزن حتى إذا قضى من ذلك أربه أو كاد ، ذكر أنه ينشئ قصيدة فى المدح والثناء ، لا فى الحزن والغناء ، فاقتضب التفكير والتعبير اقتضابا ، ولم يلتمس تخلصاً إلى المدح ؛ لأنه فارغ البال للتكلف والاحتيال ، فلجأ إلى أمّا وقال :

أمَّا بَنُو أَوْسِ بنِ مَعْنِ بن الرِضَى
فأَعَزُّ من تُحْدَى إليــه الأَيْنُقُ

ويمضى الشاعر فى مدحه لبنى أوس هؤلاء مبالغاً كدأبه مردداً ما قال الناس فى المدح ، ثم يخلص إلى محمد ممدوحه فيصفه بما لا يغنى ، ولكنى أحب أن تقف عند هذا البيت :

لم يخلُقِ الرَّحمنُ مِثــلَ مُحَمَّدٍ
أحَــدًا وظنّى أنه لا يَخْلُقُ

لترى ما فيــه من المبالغة الفاحشة التى لا تصدر عن الفن الخالص أكثر مما تصدر عن فساد الرأى الدينى عند الفتى ، وتأثره بهذه القرمطية التى تبيح للناس أو لبعض الناس على الأقل من الرأى والقول والعمل ما لم يكن يستباح .

فنحن بأزاء قصيدة لها خطرها فى تصوير نفس المتنبى حين كان يودع الصبا ويستقبل الشباب . هى نفس حزينة معنَّاة مؤرقة لأن لها همًّا بعيداً ، ولأنها قد أخذت تفكر فى الناس وفى نفسها ، وتستنبط من هذا التفكير أموراً لا تسر ولا ترضى ، وما زال الفتى قرمطيا ماضيا فى قرمطيته . وما زال الفتى معتمداً فى فنه على المبالغة والطباق .

فلندع هذه القصيدة ، ولننتقل إلى قصيدة أخرى يظهر أنها قيلت بعد هذه القصيدة بزمن مّا ، ولكنها قيلت حين كان المتنبى متنقلاً فى شمال الشام ، وهى هذه السينية التى مدح بها الشاعر محمد بن زريق الطرسوسى والتى بذل فيها الفتى كثيراً من الجهد وقال فيها كثيراً من الخطل . فلم ينل عليها فيما يقول ياقوت[1] إلا عشرة دراهم ، ثم شفع له شافع فنال عشرة دراهم أخرى . وما أرى إلا أنه قد زاد فى الشعر حين زيد فى العطاء . فقال الأبيات الدالية التى نجدها فى الديوان والتى يمدح فيها ابن زريق أيضاً .

فاقرأ هذه الأبيات التى قدمها الشاعر بين يدى المدح لترى التكلف فى أبشع صوره ، والتعمّل فى أشنع مظاهره ، ولترى كيف ينتهى الشاعر الفتى أحياناً من السخف إلى ما لا يطاق :

هذِى بَرَزْتِ لنا فهجتِ رَسِيسا
ثمَّ انثَنَيْتِ وما شَفَيتِ نَسِيسا
وجَعَلْتِ حَظِّى منكِ حَظِّى فى الكَرَى
وتَرَكْتِنِى للفرْقَدَيْنِ جَلِيسا

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٠٤

قَطَّعتِ ذَيَّاكِ الخُمارَ بِسَكْرَةٍ
وأَدَرتِ من خَمْرِ الفِراقِ كُؤُسا

فالكلام إلى هنا فارغ ولكنه محتمل آخر الأمر ، فإذا أردت سخف الأطفال . فانظر إلى قوله :

إن كُنتِ ظاعِنةً فإنَّ مَدامعي
تَكفِي مَزَادَكُمُ وتُروِي العِيسا

أترى إلى هذه الدموع التى يسفحها المتنبى ! فإذا هى من الغزارة بحيث يستطيع القوم أن يأخذوا منها ما يملأ مزادهم ليشربوا اثناء السفر ، وما يكفى لرى الابل اثناء السفر أيضاً .

ولكن المتنبى لم يسأل نفسه أتصلح دموعه لشرب صاحبته الحسناء ؟ أهى من العذوبة بحيث تلائم هذا الجسم الغضَّ البضَّ ، وتبعث فيه الجمال والحياة ؟ على أن ظن المتنبى بصاحبته ليس حسناً . فانظر إلى قوله :

حاشَى لِمِثلِكِ أَن تكُونَ بَخِيلَةً
ولِمِثل وَجهِكِ أَن يكون عَبُوسا
ولِمِثلِ وَصْلِكِ أن يكونَ مُمَنَّعاً
ولِمِثل نَيْلِكِ أَن يكونَ خَسِيساً

ولست أدرى بأى امرأة أراد المتنبى أن يشبِّب فى هذين البيتين ، وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء ؛ فالمرأة التى ترتفع عن البخل ، و يرتفع وصلها عن التمنع ، ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها . ولكن المتنبى لا يقف عند مثل هذا التفكير ، بل لا يكره أن ينقض هذين البيتين . فيصف صاحبته بالدل الذى يمنعها من أن تتكلم ، والخفر الذى يمنعها أن تميس فيقول :

خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِى وبَيْنَ عَوَاذِلِى
حَرْباً وغَادَرَتِ الفُؤَادَ وَطِيسا
بَيضـــاءُ يَمنَعُها تَـكلُّمَ دَلُّـها
تِيهاً و يمنَعُها الحيـاءُ تَميسا

فهى أرفع من البخل ، ووصلها أرفع من الامتناع ، ولكنها مع ذلك من الدل والتيه ، ومن الخفر والحياء بحيث لا تستطيع أن تتكلم ، ولا أن تميس . فهى بخيلة كريمة ، وهى ممنعة مبتذلة ، وهى حيية وقحة . وقد وجد الشاعر عندها آخر الأمر دواءه من كل داء ، فأعرض عن الأطباء وهانت عليه صفات زعيمهم العظيم :

لَمَّا وَجَدتُ دَوَاءَ دَائِى عِنْدَها

هانَتْ علىَّ صِفاتُ جالِينُوسا

ويظهر أن هذه الفتاة التى لا يكره المتنبى أن يرويها بدموعه والتى جمعت النقائض من صفات النساء قد شغلت فتانا حقا ، فأنسته التخلص إلى الممدوح . وإذا هو يقتضب الكلام اقتضاباً ، ويهجم على ممدوحه هجوماً لا رفق فيه ولا ظرف . فيقول :

أَبقى زُرَيقٌ للثُغُورِ مُحَمَّداً

أَبقى نفيسٌ للنَفِيس نَفِيسا

فانظر إلى هذه النفنفة ، أو إلى هذه الفسفسة ، أو إلى هذه النسنسة التى تأتى من تكرار النفيس ثلاث مرات فى شطر واحد ، واعذر محمد بن زريق إذا ضاق بصاحبه المتنبى أولاً ، وبهذا التكرار ثانياً ، وبما سيأتى من السخف ثالثاً . فلم يعط الفتى إلا عشرة دراهم ولم يزده إلا بعد أن شفع إليه الشافعون وزاد المتنبى فى المدح .

ولكن المهم من هذه القصيدة هى هذه الأبيات التى تظهر المبالغة القرمطية فيها أبشع مظهر ، لا من الناحية الدينية

وحدها ، بل من الناحية الفنية أيضاً .

فالمبالغة حسنة فى الشعر بشرط أن تكون معقولة يسيغها الذوق . فإذا تجاوزت هـذا الحد كانت سخفاً أو هجاء ، وكان من حق الممدوح أن يظن أن مادحه يسخر منه ويستهزئ به ، ولكن محمد بن زريق كان لحسن حظ المتنبى أجهلَ من هذا كله فيما يقول الرواة .

بَشَرٌ تصَوَّرَ غايةً فى آيةٍ
تَنْفى الظُّنونَ وتُفسِدُ التَقْييسا
وبه يُضَنُّ عَلَى البَريَّةِ لا بها
وعليهِ منهـا لا عليها يُؤسَى
لو كانَ ذو القَرْنَينِ أَعمَلَ رأْيَهُ
لَمَّا أتَى الظُّلُماتِ صِرْنَ شُمُوسا
أو كانَ صادَفَ رأسَ عازَرَ سيفُهُ
فى يومِ مَعرَكةٍ لأَعْيَا عيسَى
أو كانَ لُجُّ البَحر مِثْـلَ يَمينِهِ
ما انشَـقَّ حَتَّى جازَ فيهِ موسى

أو كانَ للنيران ضَـوءُ جَبينهِ
عُبِدَتْ فكانَ العالَمُونَ مَجوسا

وما أظن هـذه الأبيات تحتاج إلى شرح أو تعليق لنستخرج منها إغراق المتنبي فى المبالغة وإسرافه فى تجاوز الحدود الدينية الذى جاءه من قرمطيته . وأحسبه حين مدح ابن زريق قد ظن أنه كان يمدح أبا الفضل الكوفى ، ذلك الذى جعله فى صباه إلهاً يجل عن أن يرى فى يقظة أو منام .

ويظهر أن آخر شعر المتنبي فى شمال الشام ، أو من آخره على أقل تقدير ، قصيدته الميمية التى مدح بها سيف الدولة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة حين أوقع بعمرو ابن حابس و بنى ضبة فى رأس العين كما يقول الديوان .

و بعض الناس يفترض أن المتنبي قد ذهب إلى أوساط الشام ثم عاد إلى شمالها قبل الكارثة ، وفى زيارته الثانية للشمال قال هذه القصيدة ، وليس فى الديوان ولا فيما بين أيدينا من أقوال الرواة ما يدل على أن الفتى بعد أن فارق شمال الشام عاد إليه قبل خروجه من السجن .

وأنا أعتقد أنه قال هذه القصيدة فى زيارته الأولى للشمال

السورى ، ولعله لما لم يستطع أن ينشدها للأمير الفتى ولم يظفر عليها بجائزة استيأس من الشمال حقا ، وكان هذا اليأس باعثا له على الأيغال فى الشام والانتقال من ملك العباسيين إلى ملك الأخشيديين . وكان سيف الدولة فى مثل سن المتنبى وُلد فى نفس السنة التى ولد فيها الشاعر ، وكان قد أظهر نجابة ونباهة شأن ، وأبلى فى هذه الموقعة بلاء حسناً ، فلا يبعد أن يكون المتنبى قد طمع فى أن يجد من التقرب إليه والاتصال به ما يرفع شأنه ويقرّبه من أمله البعيد . فلما لم يظفر من ذلك بما كان يرجو استبدل أرضاً بأرض ، وقوماً بقوم .

وكان المتنبى فى التاسعة عشرة من عمره حين قال هذه القصيدة . وقد قدمت لك أنه ينبئنا بأنه مدح الحسين بن إسحاق التنوخى ولم تجاوز سنه العشرين . وإذن فقد كان فى اللاذقية فى أواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وأثناء سنة اثنتين وعشرين ، ثم غاب عنها ، ثم رجع إليها فى نفس هذه السنة أو فى أوائل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وهى السنة التى نكب فيها واضطر إلى السجن فيما نرى .

وليس فى قصيدته لسيف الدولة شىء يستحق العناية إلا هذا البيت الذى يدل على أن الفتى كان فى هذه القصيدة كما كان فى غيرها شديد التهاون فى دينه ؛ يتحدث عنه فى غير عناية ، ولا رعاية ، ولا حرج :

إنْ كانَ مِثْلُكَ كانَ أَو هُوَ كائنُ
فَبرِئتُ حِينئذٍ مِنَ الإِســـلامِ

٨

ويجب أن نمر مراً سريعاً بمقطوعات ثلاث قالها المتنبى فى طرابلس بعد أن فارق شمال الشام ، وليس من اليسير أن نعلم أقالها قبل أن يزور اللاذقية ويقيم بها . أم قالها بعد ذلك ؟ وأكاد أرجح أنه استقر فى اللاذقية أول الأمر ، وأطال الإقامة فيها لما وجد من بر التنوخيين به وإصفائهم له بالمعروف . ولهذه المودة التى نشأت بينه وبينهم ، فحملته على أن يكثر فيهم ما قال من الشعر ، ولعلها بعثت فى نفسه آمالاً إن لم يصرح بها ، فقد أشار إليها كما سترى . ثم من اللاذقية أخذ ينتقل فى مدن الشام وبيئاتها المختلفة يميناً وشمالاً . فزار حمص وبعلبك وطرابلس ، ولعله زار دمشق . وانتهى بعد ذلك إلى طبرية فأقام فيها حيناً ، ثم لم يرض عن أهلها فعاد إلى اللاذقية وإلى أصدقائه التنوخيين .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن المتنبى حين ترك شمال الشام طرق أرضاً جديدة ، فيها سلطان سياسى جديد لم يعرفه

ولم يخضع له من قبل . فقد خضع فى العراق للسلطان العباسى ، وخضع فى شمال الشام لسلطان مضطرب بين العباسيين والاخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه من حين إلى حين ، ومضطرب كذلك لهذه الغارات التى كانت متصلة بين المسلمين والروم على الحدود . ثم مضطرب آخر الأمر لهذا الطموح الذى كان يملأ نفوس الأمراء المتفرقين فى بادية سوريا الشمالية وحاضرتها ، والذين كانوا بحكم هذا الطموح ينزعون إلى السيادة والملك ، ويترددون بين السلطان العراقى والمصرى ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف أقليمهم المختلطة المضطربة .

ولم يجد المتنبى لنفسه أملاً ولا مطمعاً فى هذا الإقليم المضطرب الذى اشتدت به عناية السلطانين اللذين كانا يتنازعان القوة فى ذلك الوقت ؛ سلطان بغداد ، وسلطان الفسطاط ، والذى كانت تشغله غارات الروم ، والذى استيقظت فيه الأثرة الفردية والمنافسات بين القبائل البادية من العدنانية والقحطانية . فترك هذا الإقليم وأبعد فى السفر حتى انتهى إلى ملك الأخشيديين فأقام فيه ما أقام . ثم انتهى إلى الكارثة .

والحق أن هذا الشعر القليل الذى قاله فى طرابلس ليس خليقاً بشىء من العناية ، لولا أمران اثنان : أحدهما أنه يدلنا على أن المتنبى كان فى طرابلس هادئاً مطمئن النفس ، فارغاً لصغائر الأمور التى لا يفرغ لها الإنسان ، إلا حين ترفّه الظروف عليه بعض الشىء . وكأن شهرة المتنبى كانت قد بدأت تظهر وتشيع . فهو لا يأتى طرابلس كاسباً ملتمساً للرزق فيما يظهر ، وإنما يأتيها زائراً ويلقى من بعض أهلها ضيافة لا تخلو من عناية وبر وترف .

والأمر الثانى : أنا لا نجد المتنبى فى هذا الشعر الذى قاله فى طرابلس فارغاً لصغائر الأمور فحسب ؛ بل لصغائر الفن وسخفه أيضاً ، ولهذه التكاليف التى يخاطر بها الشعراء من أصحاب البديع ، ليظهروا براعتهم اللفظية ومهارتهم فى النظم .

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين اللذين يتكلف فيهما المتنبى ويكلف سامعه وقارئه شططاً ، لأنه لا يزيد فيهما على نظم الألفاظ ، كما سيغلو فى نظم الأفعال بين يدى سيف الدولة بعد ذلك بزمن طويل :

دانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ
أغرَّ حُلوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ
نَدٍ أبيٍّ غَرٍ وافٍ أخِي ثِقَةٍ
جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

والظاهر هو أن أبا الطيب لما بلغ طرابلس مدح صاحبه عبيد الله بن خلكان هذا بهذه السينية التى لا تغنى شيئاً . وكأن الرجل أعجب بها فأحسن ضيافة الشاعر وأهدى إليه طرفتين من هذه الطرف التى يظهر أن السوريين يحسنون اصطناعها وإهداءها من قديم .

الأولى : هدية ، كما يقول الديوان ، فيها سمك من سكر ولوز فى عسل ، والثانية : جامة فيها حلوى .

فأما الهدية الأولى فقد سحرت المتنبى وبهرته ، وإذا هو يتغنى بمدح صاحبه ويقدمه على حاتم الطائى ، ويجعله مثلا حيًّا للكرم والجود ، ويقول فى وصف هذه الهدية هذا البيت الذى ما أشك فى أنه أرضى المتنبى ، وفتن عبيد الله ابن خلكان :

أَقَلُّ ما فى أَقلِّها سَمَـــكٌ

يَسْبَحُ فى بِرْكةٍ من العَسَلِ

وأما الأخرى فلم تكن أقل إرضاء للمتنبى من الأولى ، ويظهر أن الفتى الكوفى كان (حلويا يحب الحلوى) فقد رد الجامة إلى صاحبها بعد أن كتب عليها بالزعفران هذه الأبيات :

أقصِرْ فلَسْـــتَ بزائِدِى وُدًّا

بَلَغَ المَـــدَى وتجاوَزَ الحَدَّا

أَرْسَلْتَهَـــا مملوءَةً كَرَماً

فَرَدَدتُها مملوءَةً حَمْـــــدا

جاءَتْكَ تَطْفَحُ وهِىَ فارِغةٌ

مِنْى بهِ وتظُنُّهَـــا فَوْدا

تَأْبَى خَلائقُكَ التى شُرُفَتْ

أَلاَّ تحِنَّ وتَذْكُرَ العَهْـــدا

لو كُنتَ عَصْرًا مُنْبِتاً زَهَرًا

كُنْتَ الرَبيعَ وكانَتِ الوَرْدا

فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى فى وصف السكر واللوز والعسل ، وفى الشكر على علبة حلوى . ومن حق المتنبى أن يستريح وأن يلهو بالصغائر ، ويرفّه بها على نفسه من هذه الهموم الثقال التى يطوف بها فى الآفاق ، ويفكر فيها آناء الليل وأطراف النهار ، ولكن راحة المتنبى وفراغه ، ودعابة المتنبى ومجونه ، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح ، كما سترى فى غير هذا الموضع من الحديث . فلم يكن المتنبى حلو الروح ولا خفيف الظل ، ولا جذابا ، وإنما كان مرآ غليظ الذوق فى أوقات الدعة والفراغ .

فلندعه غارقا فى بركته العسلية ، أو عاطفا عليها يصطاد سمك السكر واللوز ، ولنذهب إلى اللاذقية ، لننظر فى شىء من هذا الشعر الكثير الذى قاله هناك للتنوخيين .

٩

وشعر المتنبى فى التنوخيين كثير يعظم حظه من الجودة ، وينتهى أحياناً إلى الروعة ، وفيه البشائر بنضج الشاعر ، والطلائع المنبئة بنبوغه ، وفيه على ذلك مايدل على أن حياته مع التنوخيين قد أثارت فى نفسه آمالا وأمانى ، وخيلت إليه أنه قريب من غايته . وكانت حياة راضية على كل حال .

وقد ذكر فى شعره ثلاثة من التنوخيين :

فأما أولهما وهو محمد بن اسحاق التنوخى فلم يذكره إلا راثياً له باكياً أو متباكياً ومبكياً عليه ، كأنه لم يعرفه ، ولم تتصل المودة بينه وبينه ، وإنما مات قبل أن تطول إقامة المتنبى فى اللاذقية ، وقد رثاه بالرائية التى مطلعها :

إنّى لأعْلَمُ واللبيبُ خَبيرُ
أنّ الحَياةَ وإن حَرَصتُ غُرُورُ

وهى قصيدة عادية لا خطر لها ولا غناء فيها ، ولكنها أرضت أهل الميت فاستزادوه ، فزادهم على الوزن والقافية

هـــذه الأبيات التى يقول فى أولها :

غاضت أنامِـــلُهُ وهُنَّ بُحُورُ

وخَبَتْ مَكائِدُهُ وهُنَّ سَعِيرُ

وكأن أسرة أخرى كانت تنافس التنوخيين فى اللاذقية ، فأشاعت أن أبناء عم الميت لم يحزنوا عليه ، وأنهم قد شمتوا بموته فلجـأُوا إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى عنهم هذه الشماتة ، فقال على الوزن والقافية الأبيات التى أولها :

أَلآلِ إبراهِيمَ بعـــدَ مُحَمَّدٍ

إلاَّ حَنِـــينٌ دَائِمٌ وزَفِيرُ

وقد استزادوه فى هـذا المعنى كما استزادوه فى الرثاء ، وكأنه قد استنفد جهده فى هذا الوزن وهذه القافية ، فعدل إلى وزن آخر وقافية أخرى ، وقال هـذه الأبيات التى لا أقف منها إلا عند هذا البيت :

أليسَ عَجيباً أنَّ بين بَنِى أبٍ

لِنَجْلِ يهودىٍّ تَدِبُّ العَقارِبُ

وإنما أقف عند هذا البيت لأضع بازائه بيتاً آخر قاله

فى قصيدته التى استعطف بها والىَ حمص بعد أن سجن وهو قوله :

فلا تَسمَعَنَّ مِنَ الكاشِحِينَ
ولا تعْبَأَنَّ بِحَكْكِ اليَهُودِ

فهل أشار المتنبى إلى رجل واحد فى هذين البيتين ؟ ومن عسى أن يكون هذا اليهودى ؟ وهل لصلة المتنبى بالتنوخيين الذين كان ينافسهم هذا اليهودى أثر فى السعاية به حتى ألقى فى السجن ، أو أثر فى النكاية به حتى طالت إقامته فى السجن ، وما بال المتنبى بعد أن خرج من سجنه لم يعد إلى أصدقائه التنوخيين ، ولم يذكرهم فى شعره ، وهل بين هذا اليهودى الذى يذكره المتنبى فى هذين البيتين ، واليهودى الذى كان يحكم دمشق حين لجأ اليها المتنبى بعد أن فارق سيف الدولة صلة . أم هل هو رجل واحد ؟

كل هذه مسائل خليقة بالتفكير والعناية ، لولا أن النصوص التى بين أيدينا لا تعيننا على أن نجد لها جوابا مقنعاً . فلنحتفظ بها فقد تنفعنا بعد حين .

وقد مدح المتنبى رجلين من التنوخيين أحدهما الحسين

ابن اسحاق التنوخى ومدحه بقصائد ثلاث مطلع أولاها قوله :

هوَ البَينُ حتى ما تأَنَّى الحَزائِقُ
ويا قَلبُ حتى أَنتَ مِمَّن أُفارقُ

ومطلع الثانية :

أَتُنكِرُ يا ابنَ إسحقِ إخائى
وتَحسبُ ماءَ غيرى من إنائى

وهى التى ذكر فيها سنَّه ، وكأنه أرسلها إلى ممدوحه من بعيد . وأقل ما تصور هذه القصيدة أن أمر الشاب قد عظم فأصبح له حساد ومنافسون ، وأن الشاعر قد وثق بنفسه واطمأن إلى مخولته .

ومطلع الثالثة قوله :

مَلامُ النَوَى فى ظُلمِها غايةُ الظُلمِ
لَعلَّ بها مثلَ الذى بى من السُقْمِ

ومدح علىّ بن ابراهيم بن اسحاق التنوخى بثلاث قصائد أيضاً يقول فى أولاها :

أُحادٌ أم سُـــداسٌ فى أُحادِ
لُيَيْلَتُنا المَنُـــوطةُ بالتنادى

ويقول فى الثانية :

مُلِثَّ القَطْرِ أَعْطِشْها رُبوعا
وإلاّ فاُسْـــقِها السَّمَّ النَقِيعا

ويقول فى الثالثة :

أَحَقٌّ عاف بدَمعِـــكَ الهِمَمُ
أَحْدَثُ شىءٍ عَهداً بهـــا القِدَمُ

وقد قال هذه القصيدة بعد عودته من طبرية ، وكأن مودة خاصة كانت تجمع بينه وبين ممدوحه هذا . فقد كانت بينهما منادمة يصورها الشاعر فى مقطوعتين لم نحفل بهما لقلة خطرها .

ولا بد من الوقوف عند بعض هذا الشعر لنتبين مقدار نضج الشاعر فى فنه من جهة ومقدار دنوّه من الثورة والانفجار من جهة أخرى .

ولندع شعره فى الحسين بن اسحاق التنوخى لا لأنه

أهون من أن نقف عنده ، ولا لأنه يشبه ما قال المتنبى من الشعر قبل وصوله إلى اللاذقية ؛ فإن مدحه للحسين بن اسحاق يمتاز بأشياء ، يخيل إلى أنها طريفة مستحدثة ، و إن كنا نلمح أصولها فى الشعر السابق ، ولكنها فى هذا الشعر كثيرة شائقة توشك أن تكون القوام الفنى له ، وهذه الخصال هى جزالة اللفظ ورصانته ، وصحة المعنى واستقامته ، واعتدال الأسلوب وحسن انسجامه . إلا أبياتاً يضطرب فيها الشاعر هنا وهناك فى اللفظ وحده أو فى المعنى وحده ، أو فى اللفظ والمعنى جميعاً . وأنت واجد لذلك نماذج فى ميميته التى يمدح بها الحسين ، ولا سيما القسم الأخير منها ، وأنت واجد فى هذا الشعر كله إيثاراً ظاهراً للغة البادية ، واختياراً ظاهراً للألفاظ الضخمة التى تملأ الفم والأذن جميعاً ، ولا سيما فى القافية التى يمدح بها الحسين .

وأنا مع ذلك أدع هذه القصائد الثلاث ، لأنى أكاد أعتقد أن المتنبى كان أشد ميلاً إلى على بن ابراهيم وأصدق له حباً وأعظم به ثقة ، وهو من أجل ذلك صادق اللهجة حين يتحدث إليه ، لا يكاد يخفى عليه ميوله وأهواءه ، وكأنه كان ينتظر

منه معونة و إمداداً ، ومهما يكن من شيء فلست أستبعد أن يكون هؤلاء التنوخيون ، وعلىّ منهم خاصة ، قد شجعوا المتنبي سرا على ما كان يحاول من الوثوب . وآية ذلك عندى أنه لم يعد إليهم بعد النكبة ، ولم يذكرهم فى شعره ، إما إشفاقا عليهم و إما لأنهم هم أنفسهم قد أشفقوا منه وخافوه .

واقرأ معى داليته التى يمدح بها على بن الحسين ولا تطل الوقوف عند مطلعها الغامض البغيض الذى أنكره القدماء ورأوا فيه إلغازا وخطأ فى الحساب و بعداً عن الشعر[١] .

أُحادٌ أم سُـــدَاسٌ فى أُحادِ
لُيَيْلَتَنَا المُنَـــوطةُ بالتَنادِى[٢]

لا تقف عند هذا البيت السخيف الذى تجد مثله كثيراً فى أجمل شعر المتنبي وأروعه ، بل نجاوزه إلى ما قاله الشاعر

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٧٨ (طبع العرفان بصيدا) ، ويتيمة الدهر للثعالبي جـ ١ ص ١٢٤ (طبع اسماعيل الصاوى)

(٢) انظر : Massignon. Mutanabbi devant le siècle Ismaëlien de l'Islam. فى Mémoires de l'Institut Francais de Damas. Beyrouth 1936.

فانه يفسر هذا البيت بالبيت الذى يليه ويجعل العدد رمزاً لبنات نعش وهو رأى أقل ما يوصف به أنه طريف .

بعـده ، فسترى أنك لا تقرأ لفتى ناشىء يعالج الفن على غير علم به ولا قدرة عليه ، وإنما أنت بازاء شاعر ناضج قد تمت له أداة الشـعر واستكمل حظه من القـدرة على تصريف المعانى والألفاظ . وأنت كذلك بإزاء شاعر قد نفد صبره أو كاد . قد سئم السكون ورغب فى الحركة ، وقد ضاق بالهدوء وتحرق إلى الثورة ، وقد عجز حتى عن أن يخفى سره ، فهو ينادى الناس به فى غير تحفظ ، ولا تحرج ، ولا حذر :

كأنَّ بناتِ نعْشٍ فى دُجاها
خَرائدُ سافراتٌ فى حِـــدادِ

فما رأيك فى هـذا التشبيه الرائع البديع الذى يخلبك بلفظه ومعناه . ولـكن الشاعر ليس فارغ البال ليصف رهبة الليل ، وجمال النجوم ، وإنما هو مثقل بهمومه ، معجل عن التفكير فى جمال الطبيعة ، وعن تصوير هذا الجمال ، إلى التفكير فى معاقرة المنايا .

أُفكِّرُ فى مُعـــاقَرَةِ المنَايا
وقَوْدِ الخَيـــلِ مُشرِفةَ الهَوادى

زَعيمٌ للقنَـــا الخَطِّىِّ عَزْمى
بِسَفكِ دَمِ الحواضِرِ والبَوادى
إلى كم ذا التَخلُّفُ والتَـــوانى
وكم هـــذا التَمادِى فى التَمادِى
وشَغْلُ النَفسِ عن طَلَبِ المَعالى
بِبَيْعِ الشِعْرِ فى سُوقِ الكَسادِ
وما ماضى الشَـــبابِ بمُسْتَرَدٍّ
ولا يَوْمٌ يَمُرُّ بمُســـتَعادِ
متى لَحَظَتْ بياضَ الشَيبِ عَيْنى
فقد وَجَدَتْهُ منها فى السَـوادِ
متى ما ازدَدْتُ من بَعدِ التَناهى
فقـــد وَقَعَ انتِقاصى فى ازدِيادى

فهذا الشعر يعرب عن نفسه ، ويعلن إلى قارئه أو سامعه ما فيه من جمال وروعة ، وما فيه من قوة وحزم ، وما فيه من تحرق إلى الخروج من هذه الحال التى ضاق بها الشاعر أشـد الضيق ، كما أنه يعلن إلى قارئه أو سامعه أن عقل

صاحبه قد نضج و بلغ أشده ، وأصبح قادراً لا على التفكير المستقيم فحسب ، بل على استخراج المعانى الدقيقة وتصويرها فى أبرع اللفظ وأرقاه .

ولا أمضى فى تحليل ما يأتى بعـد ذلك من المدح ، و إن كان خليقاً بالعناية والتحليل ، و إنما أدع هذه القصيدة لأنتقل إلى قصيدة أخرى هى عندى أروع ما قال الشاعر فى المديح أثناء هذا الطور .

هى أروع هذا الشعر ، لأنها جمعت إلى الخصال التى لاحظت أن الشاعر قد استكملها فى شعره الذى قاله فى اللاذقية ، خصلتين خليقتين بالتفكير :

إحداهما سياسية ؛ فقد صرح لنا الشاعر فى هذه القصيدة بمذهبه السياسى . فإذا هو أعمّ وأشمل من القرمطية أو التشيع ، و إذا القرمطية أو التشيع عند المتنبى وسيلة إلى تحقيق هـذا المذهب السياسى الخطير : وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملـكهم وسلطانهم ، وأن يرد غير العرب من الخدم والرقيق إلى طورهم الذى كانوا فيه حين كان الملك عربياً صحيحاً .

والمتنبى فى هذه القصـيدة يذكرنا بشاعر قرشى قديم

اشترك فى الفتن الإسلامية ، وجاهد مع الزبيريين حتى انهزموا ثم استخفى دهراً ، ثم انتهى أمره إلى الاستئمان والاذعان لبنى أمية ، وهو عبيد الله بن قيس الرقيات الذى لم يكن يعنيه من هذه الفتن التى اصطلى نارها إلا أن تجتمع كلمة قريش ، وأن يعود إليها ملكها قويا متينا . ولذلك لم يأنف أن يثوب إلى بنى أمية ، وأن يمدحهم وينعم بجوار أمير من أمرائهم ، هو عبد العزيز بن مروان . كذلك المتنبى جاهد بلسانه وعرض نفسه للخطر . ولعله جاهد بسيفه ونفسه ، ثم انتهى أمره إلى السجن . فلما خرج منه أنفق بعض الدهر مشرداً بائساً ، ثم لم يلبث أن تعزى عن هذا كله حين خيل إليه أنه وجد أميراً عربياً يحيي الأمل ، ويرد إلى النفوس شيئاً من الرضى والثقة .

واقرأ هذه الأبيات التى تصور هذا المذهب السياسى للمتنبى أجمل تصوير :

أَحَقُّ عافٍ بدَمعِكَ الهِمَمُ
أَحْدَثُ شيءٍ عَهداً بها القِدَم

وإنَّما النـــاسُ بالمُلوكِ وما
تُفلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ
لا أَدَبٌ عِنـــدَهُمْ ولا حسَبٌ
ولا عُهـــودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ
تُرْعَى بِعَبْدٍ كأنَّها غَـنَمُ
يَسْتَخشِنُ الخزَّ حِينَ يَلْمِسُهُ
وكانَ يُبرَى بِظُفْرِهِ القَـــلَمُ

وقد قال المتنبى هذه القصيدة بعد أن ذهب إلى طبرية فأقام فيها ، ثم سخط فعاد إلى اللاذقية ، وسخطه ظاهر فى هذه الأبيات .

ولـكن إقامة أبى الطيب فى طبرية قد كشفت عن ناحية من نواحى ملـكته الشعرية ، لم تظهر واضحة فى شعره السابق ، وهى قدرته على الوصف وبراعته فى تصوير الطبيعة .

وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة التى يصف بها البحيرة :

لولاكَ لم أترُكِ البُحَيرَةَ والـ
غَورُ دَفِئٌ وماؤُها شَبِمُ
والمَوْجُ مِثلُ الفُحولِ مُزبِدةً
تَهْدِرُ فيها وما بها قَطَمُ
والطيرُ فوقَ الحَبابِ تحسَبُها
فُرسانَ بُلْقٍ تَخُونُها اللُّجُمُ
كأنّها والرياحُ تَضْرِبُها
جَيْشَا وَغًى : هازِمٌ ومُنهزِمُ
كأنّها فى نَهارِها قَمَرٌ
حَفَّ بهِ من جِنانِها ظُلَمُ
ناعِمَةُ الجسم لاعِظامَ لها
لها بَنَاتٌ وما لها رَحِمُ
يُبْقِرُ عَنهُنَّ بَطْنُها أبَداً
وما تَشَكَّى وما يَسِيلُ دَمُ
تَغَنَّتِ الطيرُ فى جوانِبِها
وَجادَتِ الأرضَ حَولَها الدِّيَمُ

فَهْيَ كاويَّةٍ مُطَوَّقَـــةٍ
جُرِّدَ عنها غِشاؤها الأدَمُ
يشِيمُها جَرْيُها عَلَى بَلَدٍ
تَشِـــينُهُ الأدعياءُ والقَزَمُ

كان المتنبى وهو يقول هذا الشـــعر الناضج قد أتم العشرين من عمره ، وأتم فى الوقت نفسه نضجه الفنى ونضج عواطفه الثائرة التى ستدفعه إلى الكارثة بعد قليل . وأنت قد لاحظت اضطرام نفسه ، فى كل ما قال من الشعر للتنوخيين ولاحظت أن مقامه فى طبرية بعد عشرته لهؤلاء العرب فى اللاذقية قد انتهى بهذا المرجل ، الذى كان يغلى فى صدره إلى الانفجار .

فلنترك هـذا الفتى الشاعر الذى كان يعدو فى التفوق والنبوغ عدواً ، ولنعد إلى الفتى الثائر فنستعرض ما قال من الشعر الحاد العنيف الذى انتهى به إلى السجن فى حمص .

١٠

فنحن حين نقرأ القسم الأول من ديوان المتنبى قراءة ممعن مفكر ، مضطرون إلى أن نلاحظ أن المتنبى ، صبيا وشابا ، كان يحيا لونين من الحياة مختلفين أشد الاختلاف فى أول الأمر . ثم غلب أحدهما على الآخر فامتزجا وانتهيا بالفتى إلى سجنه .

فأما اللون الأول من حياته ، فهو هذا الذى رأيته فى أكثر ما قدمت إليك من هـذا الحديث . هو حياة الشاعر العادى الذى يسلك سبيل أبى تمام والبحترى ، وغيرهما من الشعراء المعروفين . وهى سبيل قوامها طلب الرقى الفنى ، واتخاذ الفن وسيلة إلى الغنى والثروة ، و إلى ارتفاع المكانة والاستمتاع باللذات ، فقد سلك أبو الطيب هذه السبيل كما سلكها غيره . فقال الشعر فى صباه ناسباً وهاجياً ومادحاً . قاله للتمرين والتعلم فى أول الأمر . ثم قاله للكسب والارتزاق والتماس الشهرة بعد ذلك .

وقد رأيت كيف سلك طريقه هذه فى سرعة ما ، ولكنها

على كل حال ليست سرعة فذة ولا ممتازة ، فقد نبغ الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين فى مثل السن التى نبغ فيها ، بل فى مثل هذه السن التى كان يحاول فيها التفوق والامتياز .

وأما اللون الثانى لحياة المتنبى فهو هذا اللون الأحمر القانى ، لون الثورة الدامية أو الغارقة فى الدم . وقد أحسست من كل ما قدمت فى هذا الحديث أن فتانا قد عرف السخط منذ عرف نفسه ، واستطاع أن يفكر فى أمره شيئاً .

فهو قد شك فى أمر أسرته وسأل نفسه ، ولعله سأل جدته عن أمه وأبيه . وهو قد أنكر من أمر هذه الأسرة أموراً لم ينبئنا بها ، بل اجتهد فى إخفائها علينا . وكان يظهر الضجر والضيق والغيظ إذا أحس أن المعاصرين له كانوا يعرفون منها قليلا أو كثيراً . وهو فى الوقت نفسه قد نشأ فى بيئة شيعية ساخطة تنتظر الفرج . واتصل ببيئة قرمطية هادمة للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع ، وهو قد تأثر بهاتين البيئتين ، فكان فى حياته الظاهرة شيعة علويا ما أقام فى العراق . وكان قوله للشعر وتأثره بما يتأثر به الشعراء ، ربما نمَّ على دخيلة نفسه ، فأظهر قرمطيته العقلية فى مدحه

لأبى الفضل الكوفى . وأظهر قرمطيته العملية فى هذه الأبيات الثلاثة التى قدمتها لك :

إلى أىِّ حينٍ أنتَ فى زىِّ مُحرِمِ
وَحَتَّى مَتَى فى شِقوَةٍ وَالى كمِ
وَإلاّ تَمُتْ تَحْتَ السُيُوفِ مُكرَّمًا
تَمُتْ وَتُقاسِ الذُّلَّ غيرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقاً بالله وَثْبَةَ ماجِدٍ
يَرَى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النحلِ فى الفمِ

وقد رأيت أن جلاء القرامطة عن الكوفة وانهزامهم عن العراق ، وارتدادهم إلى البحرين قد حمل الغلام على أن يجلو هو أيضاً عن الكوفة لا إلى البحرين ، بل إلى الشام بعد أن مر ببغداد مروراً يسيرا . وأنا أعتقد أن الفتى أخفى قرمطيته بعد انهزام القرامطة ، واعتقد كما قدمت أنه ذهب إلى الشام مغامرا ، وداعياً إلى المذهب القرمطى .

ولكنه تعلم الحذر والاحتياط . ومنذ وصوله إلى الشام يظهر انقسام نفسه بين هذين النوعين من الحياة : حياة خارجية

يجارى فيها الناس ويداريهم ، وحياة داخلية يبغض فيها الناس أشد البغض ، ويمقتهم أشنع المقت ، ويضمر لهم ضغينة لا حد لها ، وعداء لا هوادة فيه .

وكان المتنبى إذا ألَمَّ بقوم من أهل البادية أو الحاضرة لم يظهرهم من دخيلة نفسه على شىء ، ولكنه مع ذلك ربما آنس من بعضهم ما يبعث فى نفسه شيئاً من الأمل فيلمح لهم تلميحاً شديد الغموض ببعض أمره ورأيه . ثم يرى من فتورهم أو قصورهم ما يرده إلى التحفظ والكتمان ، كالذى رأيت فى تلميحه لبعض الكلابيين بهاتين المقطوعتين :

إذا ما شَرِبْتَ الخمرَ صِرفاً مُهَنَّأً
شَرِبْنا الذى من مثلِهِ شرِبَ الكَرْمُ
ألا حَبَّذا قومٌ نَدامَاهُمُ القَنا
يُسَقُّونها ريًّا وساقيهِمُ العزْمُ

* * *

لِأَحبَّتى أنْ يَملأُوا
بالصافياتِ الأكوُبا

وعليهمُ أنْ يَبذُلوا
وَعَلَيَّ أَنْ لا أَشرَبا
حتى تكونَ الباترا
تُ المُسمِعاتِ فأطرَبا

وكان المتنبي مبغضاً للخمر أشد البغض ، ممتنعاً عنها أشد الامتناع ؛ يرى أن الإقبال عليها فضلاً عن معاقرتها لا يلائم ما يملأ نفسه من الأمل والجد — ويظهر هذا فى هاتين المقطوعتين . ويظهر فى مقطوعة أخرى قالها لصديق له يعرف بأبى ضبيس وهى :

أَلَذُّ من المُدامِ الخَنْدَرِيسِ
وأحلَى من مُعاطاةِ الكؤُوسِ
معاطاةُ الصفائحِ والعوالى
وإقْحامى خميسًا فى خَميس
فَمَوتِى فى الوَغى عَيشى لأَنّى
رأيتُ العيشَ فى أَرَبِ النُفوسِ

ولو سُقِّيتُها بِيَـــدَىْ نَديمٍ
أُسَرُّ به لَـكانَ أبا ضَبِيسِ

ويظهر كذلك فى مقطوعتين أُخريين قالهما لعـــلى بن إبراهيم التنوخى يقول فى أولاهما :

إذا ما الـكأْسُ أَرْعَشَتِ اليَدَين
صَحَوْتُ فلم تَحُلْ بَيْنى وبَيْنى

ويقول فى الثانية :

مَرَتْكَ ابنَ إبرهيمَ صافيةُ الخَمْرِ
وَهُنِّئْتَها من شاربٍ مُسْكِرِ السُكْرِ

وقد احتفظ المتنبى بإعراضه عن الخمر واقتصاده فى اللذات حياته كلها . لم يخرج عن هذا التحرج إلا كارهاً ، كالذى كان بينه وبين صديق له حلف عليـه بالطلاق ليشربن ، فشرب وقال :

وأَخٍ لنا بَعَثَ الطَّلاقَ أَلِيَّةً
لَأُعَلِّلَنَّ بهـــذِهِ الخرطومِ

فَجَعَلْتُ رَدِّيَ عِرْسَهُ كَفَّارَةً

مِن شُرْبِها وشَرِبْتُ غيرَ أَثيمِ

كان المتنبى إذن يلمح برأيه ولا يصرح به ما أقام فى شمال الشام ، وربما ظهرت آراؤه فى مدحه من حين إلى حين ، ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يستثمر هذه الآراء ويقويها وينضجها ، وكانت الحياة نفسها تعينه على ذلك وتدفعه إليه دفعاً . فهذا الاضطراب الداخلى فى هذا الاقليم ، وهذه الأثرة التى تملأ نفوس الناس ولا سيما السادة والأشراف ، وهذا التنافس بين العباسيين والإخشيديين ، وهذا البخل الأسود الذى كان يلقاه كلما مدح أميراً أو شريفاً أو رجلاً من أوساط الناس . كل ذلك كان يصور له الحياة سوءاً كلها ، ويصور له تفوقه وامتيازه ، وارتفاع نفسه عن نفوس هؤلاء الطغام .

فلما انتهى الأمر به إلى مدح على الحمدانى ، وكان لدة له ، ومكافئاً له فى السن ، ولم يبلغ منه شيئاً . امتلأت نفسه ضغناً وحفيظة ، ولعله سأل نفسه فى هذا الوقت ما بال هذا الفتى الحدث يعظم شأنه ، ويرتفع أمره ، ويقود الجند ،

ويغير على البادية والحاضرة . وأنا فى هذه الحال من الخمول والضعة . لا أكاد أبلغ ما أقيم به أودى ، مع أنى أبذل فى ذلك الجهد العنيف ، وما هو أقوم من الجهد العنيف ، فأمدح من أزدرى ، وأثنى على من أبغض ، وأدعو بطول البقاء وتأييد الملك لمن لو استطعت لسحقته سحقاً .

ولعل أبا سعيد الجيمرى لامه فى نحو هذا الوقت ، وحثه على أن يرحل بشعره إلى الملوك والأمراء وأشراف الناس . فلم يستطع أن يكتم ما كان يملأ نفسه من الضغن والحفيظة . فأجاب صاحبه بهذا الرجز المر الملتهب ، لأنه يصور نفساً مرة ملتهبة :

أبا سَعيدٍ جَنِّبِ العتابا
فرُبَّ راءٍ خَطَأً صَوابا
فإنّهم قد أكثَرُوا الحُجَّابا
واستَوقَفُوا لرَدِّنا البَوَّابا
وإنَّ حَدَّ الصارمِ القِرضابا
والذابلاتِ السُّمْرَ والعِرابا
ترفَعُ فيما بَيننا الحِجابَا

وعلى كل حال فقد ترك شمال الشام يائساً منه ومن أهله ، والتمس فى ملك الاخشيديين ما أعياه فى ملك العباسيين . وليس من شك فى أن مقامه فى اللاذقية قد قوى نفسه ، وبعث فى أمله حياة منعته من أن يبلغ من الحذر والاحتياط ما كان يبلغه من قبل .

وأنا أرجح أن هؤلاء التنوخيين الذين اتصل بهم كانوا يشعرون بعربيتهم ، وكانوا يرضون إن آل إليهم شىء من الحكم أو الجاه ، ويسخطون إن زال عنهم ذلك وانتقل إلى منافسيهم الذين أشرنا إليهم فى الفصل السابق . وكانوا من غير شك يتحدثون بما يشعرون به من رضى أو سخط ، وكان المتنبى يسمع منهم ويحفظ عنهم ، ولعله تحدث إليهم ملمحا أول الأمر ، ثم كاشفاً بعض الحجب عن نيته ، ثم راجعاً إلى الاحتياط . ولكن رحلته إلى طبرية قضت على كل حذر ، وأزالت عن نيته كل ستار ، فعاد إلى اللاذقية هائجاً مائجاً ، وثائراً مضطرباً ؛ لأنه رأى من أمر الأخشيديين وعمالهم ما أحفظه ، وظهر ذلك فى ميميته التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ظهوراً لا يحتمل شكا ولا جدالاً .

ومن يدرى ؟ لعل هؤلاء التنوخيين ، ولعل أحدهم علىّ بن إبراهيم خاصة ، قد أظهروا رضى عن ثورة المتنبى وتشجيعاً لها فى أحاديثهم أو فى صنيعهم مع المتنبى .

ولكن المحقق ما ينبئنا به الديوان من أن بعض الناس أشفقوا على الشاب من هذه الصراحة التى ظهرت فى مدحه للتنوخيين ، ومن هـذه الأحاديث الملتهبة التى كان يلقيها من هنا وهناك فى غير تحفظ . ومن هؤلاء أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل الذى نصح للمتنبى — فيما يظهر — بالحذر والاحتياط ، فلم يسمع له وإنما أجابه بهذه الأبيات :

أبا عبـــدِ الإلهِ مُعاذُ إنِّى
خَفِيٌّ عنكَ فى الهَيْجَا مَقامى
ذَكَرْتَ جَسِيمَ ما طَلَبى وَإنَّا
نُخَاطِرُ فيه بالمُهَجِ الجِسامِ
أَمِثْلِى تأْخُذُ النَّكَباتُ مِنْهُ
ويَجْزَعُ مِنْ مُلاَقاةِ الحِمَامِ
ولو بَرَزَ الزَّمانُ إلىّ شَخْصًا
لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسامى

وما بَلَغَتْ مَشيئتَها اللَّيالى

ولا سارتْ وفى يَدِهَا زِمامى

إذا اُمتَلَأَتْ عُيُونُ الخيل مِنِّى

فَوَيْلٌ فِى التَّيَقُّظِ وَالْمَنامِ

فى اللاذقية عرف المتنبى حسد الحساد وكيد الكائدين ، فقد ارتفع شأنه الفنى ، واستبق الناس إلى تضييفه وإيثاره بالخير أو إيثار أنفسهم بمدحه ، ولقى من أمن الحياة ولينها ما لم يلق فى شمال الشام .

قد ظهر المنافسون له ورأيت أن قومًا نافسوه عند التنوخيين ، وأن منهم من لم يتردد فى أن يصنع هجاء للحسين ابن إسحاق التنوخى ، ويضيفه إلى المتنبى فى غيبته ، ويضطر المتنبى إلى أن يدافع عن نفسه عند الحسين .

وفى اللاذقية وجد المتنبى لذة المودة وصداقة الأصدقاء : فهذا معاذ بن إسماعيل يشفق عليه وينصح له بالحذر . وهذا علىّ بن إبراهيم التنوخى يمنحه وده ، ولا يتمنى إلا أن يختص به نفسه ويتخذه نديماً . ولكن آماله أبعد من هذا كله .

وقد أخذ الناس يلهجون به ويتهمونه فى نسبه وفى رأيه . فقال هذه الأبيات التى أظنها قليلاً من كثير قد حذف :

أنا عَيْنُ ٱلْمُسَوَّدِ ٱلْجَحْجَاحِ
هَيَّجَتْنى كِلابُكُمُ بالنُّباحِ
أَيَكُونُ الهِجانُ غَيْرَ هِجانٍ
أم يكونُ الصُّراحُ غيرَ صُراحِ
جهلونى وإنْ عَمَرْتُ قليلاً
نَسَبَتْنى لهم رُءُوسُ الرِّماحِ

وكأن أعداء المتنبى وحساده قد مضوا فى النعى عليه . وألحّوا فى التشهير به ، وظلوا يستحمقونه ، فدفعوه بذلك إلى الثورة دفعًا . تدل على هذا لاميّته التى أولها :

قِفَا تَرَيا وَدْقى فهاتا المَخايلُ
ولا تَخْشَيَا خُلْفًا لِمَا أنا قائلُ

والتى يقول فيها :

تُحَقِّرُ عندى هِمَّتى كلَّ مَطْلَبٍ
ويَقْصُرُ فى عَيْنِي المَدَى المتطَاوِلُ
وما زِلْتُ طَوْدًا لا تزولُ مَنَاكِبى
إلى أنْ بدَتْ للضَّيْمِ فىَّ زَلازِلُ
فقَلقَلتُ بالهمِّ الذى قَلْقَلَ الحَشا
قلاقِلَ عِيسٍ كلُّهُنَّ قَلاقِلُ
إذا اللَّيلُ وارانا أرَتْنا خِفافُها
بقَدحِ الحَصَى ما لا تُرينا المَشاعِلُ

فهو إذن قد ارتحل عن اللاذقية ، مغاضباً فيما أظن ، منذراً بهذه الأبيات الخطرة :

ألاَ ليستِ الحاجاتُ إلاَّ نُفُوسَكُمْ
وليسَ لنا إلاَّ السُيُوفَ وسائِلُ
فما وَرَدَتْ رُوحَ امرىءٍ رُوحُهُ له
ولا صَدَرَتْ عن باخلٍ وهو باخلُ
غَثاثةُ عَيْشى أنْ تَغَثَّ كَرَامتى
وليسَ بِغَثٍّ أن تَغَثَّ المآكلُ

وكان المتنبى كما رأيت شابا قوى الحس ، دقيق الشعور ، عنيف الطبع ، حاد المزاج ، فجعل فيما أعتقد كلما ألح خصومه فى الغض منه والنعى عليه ، ازداد عنفاً وحدة ، وتصريحاً بما كان يخفى من أمره ورأيه ، حتى قال من الشعر ما أخاف منه السلطان ، ولا سيما إذا كان هذا الشعر قد روى وتناقله الناس ، ووقع فى نفوس هؤلاء العرب المتحضرين والأعراب البادين موقع النار من الهشيم كما كان ذلك منتظراً . ويكفى أن تقرأ داليته التى يقول فى أولها :

كم قَتِيلٍ كما قُتِلْتُ شَهِيدِ
لِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ

لترى أنها كافية لتعرض الشاعر لأشد الأخطار . فالشاعر فيها ثمل قد أسكره الغضب وملكت عليه الحفيظة أمره ، فلم يستمع إلا لشيطانه ولم ينطق إلا عنه . ولم يكن شيطانه أقل منه سكراً ولا انتشاء . فهو فى القسم الأول من القصيدة نشوان يتغنى صباه ووطنه ، ويستعيد أيامه الأولى ، ولا يتردد أن يندفع إلى هذا البيت يقوله فى وصف الحسان الكوفيات :

يَتَرشفْنَ من فِمَى رَشفاتٍ
هُنَّ فيهِ أَحْلَى مِنَ التوْحِيدِ

ثم يمضى حتى يقول :

ما مُقامِى بأَرْضِ نَحْلَةَ (١) إلاَّ
كمُقَامِ المسيحِ بين اليَهُودِ

ثم يصف نفسه الطامحة وأمله البعيد ، وجده فى تحقيق هذا الأملَ ، ويعرض بخصومه فى هذا البيت تعريضاً شنيعا :

بِسَرِيٍّ لِباسُهُ خَشِنُ القُطْـ
ـنِ ومَرْوِيٌّ مَرْوَ لِبْسُ الْقُرُودِ

ثم يقول :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأَنتَ كريمٌ
بَينَ طَعنِ القنا وخَفْقِ البُنودِ
فَرُءُوسُ الرِماح أَذْهَبُ لِلْغَيْـ
ـظِ وَأَشْفَى لِغِلِّ صَدرِ الحَقُودِ
لا كما قد حَيِيتَ غيرَ حَمِيدٍ
وإذا مُتَّ مُتَّ غَيرَ فَقِيدِ

(١) نحلة بالحاء . راجع معجم البلدان لياقوت

فاطلُبِ العزَّ فى لَظَى وَذَرِ الذُ
لَّ ولو كانَ فى جِنانِ الخُلودِ
يُقتَلُ العاجزُ الجَبانُ وقد يَعْ
جزُ عن قَطْعِ بُخْنُقِ المولُودِ
ويُوَقَّى الفَتَى المِخَشُّ وقد خَوَّ
ضَ فى ماءِ لَبَّـةِ الصِنديدِ
لا بِقَومى شَرُفْتَ بل شَرُفُوا بى
وبنفسى فخرتُ لا بجدُودى
وبِهِم فَخرُ كُلِّ من نَطَقَ الضَّا
دَ وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطَرِيدِ
إنْ أَكُنْ مُعجِباً فَعُجْبُ عجيبٍ
لم يَجِدْ فوقَ نفسِهِ من مَزِيدِ
أنا تِرْبُ النَدَى ورَبُّ القوافى
وسِمامُ العِدَى وغَيْظُ الحَسُودِ
أنا فى أُمَّةٍ تَدارَكَها اللَّـ
ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثَمودِ

فأنت ترى أن المتنبى قد أثم فى هذه القصيدة من وجوه :
فهو يذكر حلاوة التوحيد فى لهجة الساخر المستهزئ ، وهو يشبه نفسه مرة بالمسيح ، ومرة بصالح ، ويشبه المسلمين الذين كان يعيش فيهم مرة باليهود ، ومرة بثمود .

وهو بعد هذا وذاك يعلن الثورة والخروج على النظام ، ويلقى ذلك فى نفوس الناس بألفاظ ملتهبة ، توشك أن تثير فيها اللهب .

ثم هو لا يقف عنـــد هذا الحد بل يتجاوزه إلى الجهر بالقرمطية الصريحة التى تجحد الصلوات الخمس ، وتستحل دم الحجاج فى الحرم . وذلك فى ميميته التى أولها :

ضَيفٌ أَلَمَّ بِرَأْسِى غيرَ مُحتشِمِ
السَّيفُ أَحسَنُ فعلاً منهُ باللِمَمِ

وانظر إليه كيف يقول :

لُمِ اللَّيالى الَّتى أَخنَت على جِدَتى
بِرقَّةِ الحال واعـــذِرْنى ولا تَلُمِ
أَرَى أُناساً ومَحْصُولى على غَنَمٍ
وذِكرَ جُودٍ ومحصولى على كَلِمِ

ورَبَّ مالٍ فقيرًا من مُرُوءتهِ
لم يُثْرِ منها كما أثْرَى من العَدَم

سَيَصحَبُ النَصلُ منى مِثلَ مَضْرِبِهِ
وينجلى خَبَرى عن صِمَّةِ الصِمَم

لقـــد تَصَبَّرتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبرٍ
فالآنَ أَقحَمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحم

لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخيلِ ساهمةً
والحربُ أَقوَمُ من ساقٍ على قَدَمِ

والطَّعْنُ يُحْرِقُها والزَّجرُ يُقلقُها
حَتَّى كأَنَّ بها ضَرْبًا من اللَمَمِ

قد كَلَّمَتْها العَوالى فَهْىَ كالحةٌ
كأنما الصَّابُ مَذْرُورٌ على اللُجُمِ

بكُلِّ مُنصَلِتٍ ما زالَ مُنتظرِى
حتى أَدَلْتُ لهُ من دَولةِ الخَدَمِ

شَيْخٍ يَرَى الصَلَواتِ الخَمْسَ نافلَةً
ويستحِلُّ دَمَ الحُجَّاجِ فى الحَرَمِ

وكُلَّما نُطِحَتْ تحتَ العَجاج به
أُسْدُ الكتائبِ رامَتْهُ ولم يَرِمِ
تُنْسِي البلادَ بُرُوقَ الجوّ بارقتي
وتكتفي بالدَّم الجارى عن الدِيَمِ
رِدِي حياضَ الرَّدَى يا نَفْسِ واتّرِكي
حِيَاضَ خوفِ الرَدَى للشاء والنَعَمِ
إن لم أَذُدْكِ على الأرماح سائلةً
فلا دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجدِ والكَرَمِ
أَيَمْلِكُ المُلكَ والأسيافُ ظامئةٌ
والطّيرُ جائعةٌ لَحْمٌ على وَضَمِ
من لو رَآنى ماءً مات من ظمأٍ
ولو مَثَلْتُ لهُ فى النومِ لم يَنَمِ
ميعادُ كُلّ رقيقِ الشَفرتيْن غداً
ومَن عَصَى مِنْ مُلوكِ العُرْبِ والعَجَمِ
فإن أجابوا فما قَصْدِى بهم لَهُمُ
وإن تَوَلّوْا فما أرضَى لها بهمِ

ثم لا يقف أمر المتنبى عند هذا الحد ، وهو فى نفسه أبعد مما يطيق الدين والنظام ولكنه يتجاوز كل حد ممكن فيقول :

أَىَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِى
أَىَّ عظيمٍ أتّقِى
وكُلُّ ما قد خَلَق الْـ
ـلَهُ وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فى همتى
كشَعْرةٍ فى مَفرِقى

أترى أن المتنبى محتاج بعد ذلك إلى أن يخرج بالفعل على السلطان ، فيؤلّب الأعراب ويغير بهم على الحاضرة . أم ترى المتنبى فى حاجة إلى أن يزعم أنه نبى ليثور به السلطان ، فيأخذه أخذاً شديداً ويلقيه فى غيابة السجن .

لقد حبس الخلفاء والأمراء غير شاعر فى القرون الأولى لأمور أيسر جدا من هذا . ولقد قتل الأثينيون سقراط لأمور ليست أشد مما تورط فيه المتنبى . فهو فى لفظه مارق

من الدين ، خارج على السلطان ، منكر للنظام ، زار على الأمة كلها . وبعض هـذا لا يبيح للسلطان سجنه فحسب ، بل يبيح للسلطان دمه أيضاً .

وإذا اتفق القـدماء أو اختلفوا فى ثورة المتنبى ، وفى طبيعة هذه الثورة ، وفى مداها . وإذا ذهب المحدثون فى ذلك مذهب القدماء ، فإنى أنا مطمئن إلى أن ما حفظ المتنبى من شعره كاف لدفعه إلى السجن . فـكيف لو رأينا ما لم يحفظ المتنبى من هذا الشعر الملتهب . وما أشك فى أنه ألغى منه أكثر مما أبقى .

سجن المتنبى إذن فى أواخر سـنة ثلاث وعشرين أو أوائل سنة أربع وعشرين فى جريمة خطيرة من جرائم الرأى ، قوامها الردة ، والخروج على السلطان ، والدعوة إلى تسليط السيف على المسلمين .

فلنعرض عن كل هذه الأساطير التى نسجت حول سجنه ، فهى إلى غلو خصومه ومبالغتهم ، وإلى تعظيم الهين وتضخيم اليسير ، واختراع القصص ، أدنى منها إلى أى شىء آخر .

وكان أبو العلاء يملى رسالة الغفران بعد مقتل المتنبى بنحو

ستين سنة ، فكان يشك فى ذلك شكا ظاهراً ، و يروى بعض هذه الأحاديث الشعبية التى أثيرت حول سجن أبى الطيب .

وأنا لا أتردد فى رفض ما يروى من أنه ادعى النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها ، وضلل فريقاً من خاصة الناس وعامتهم ، فبايعوه واتبعوه ، كما لا أتردد فى رفض هذا السخف الذى ينبئنا بأن المتنبى زعم أن قرآنا أنزل عليه ، و بأن بعض الناس قد حفظ هذا القرآن .

فقد قيل مثل هـذا عن أبى العلاء أيضاً . وروى بعض قرآنه الموهوم ، وما ينبغى أن نجهل أن الرأى العام فى أوساط الشام وفى حمص خاصة كان خصما لأبى الطيب حين سجن ، وأن أبا الطيب بعد خروجه من السجن كان لا يكاد يستقر فى مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض وألوان الخصومات ، وحتى يدع هذا المكان مغاضبا لأهله أو هاربا منهم : هرب من بدر بن عمار ، وخرج من حلب مغاضباً لسيف الدولة ، وهرب من كافور ، ولم يستطع أن يطيل الإقامة فى بغداد حين عاد إلى العراق ، بل تعرض فيها لسخط رجال السياسة والأدب معاً . ثم لم تخل إقامته عند عضد الدولة من خوف

وإشفاق . ثم لم يكد يصدر عن عضد الدولة حتى قتل فى طريقه . ومن قبل ذلك فر من الكوفة فى صباه ، وخرج من بغداد خائفاً يترقب ، ولم يستطع أن يدخل الكوفة ليرى جدته قبل أن تموت . فهو قد غاضب الناس جميعاً وألّب الدولة الإسلامية كلها على نفسه . فأى غرابة فى أن يكبر من أمره ما صغر و يعظم من شأنه ما هان .

ونحن نرى فى هذه الأيام التى سهل فيها البحث والتقصى ، وروقبت فيها الاذاعة ونشر الدعوة ، ووضعت فيها القوانين الصارمة لعقاب الذين يسبون الناس و يقذفونهم ، و يقولون فيهم غير الحق ، و يحملونهم ما لم يحتملوا ، و يضيفون إليهم ما لم يقولوا .

نحن نرى فى هذه الأيام كيف يتهم الناس بما لم يقترفوا من الذنوب ، وكيف يحمل عليهم ما لم يحتملوا من الآثام . فكيف بعصر كعصر المتنبى ، لم يعرف فيه مثل ما نعرف من النظام . على أن فى هذه الأساطير التى نسجت حول سجن أبى الطيب فكاهة ما أحسب أن لها أصلاً واقعاً ، ولكنها مع ذلك رمز صادق دقيق لهذا الطور من تفكير المتنبى وسيرته فى الوقت الذى دفع فيه إلى السجن .

فقد يقال : إن أبا الطيب كان يزعم لبعض أتباعه أن الحديث الذى كان يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ويقال فى آخره : غير أنه لا نبى بعدى ، إنما يجب أن يقرأ برفع النبى ، على أنه خبر لمبتدأ هو لا وأن المتنبى كان يسمى نفسه لا . فهذا تكلف رجل من النحويين أراد العبث والتندر . ولكن هذا الاسم المشتق من النفى الخالص الشامل ، أشد الأسماء ملاءمة لحياة المتنبى العقلية والعملية فى ذلك الوقت . فهو كان ينفى كل شىء : كان ينفى الدين والسلطان والنظام والناس . ولم يكن يثبت إلا نفسه ، لم يكن قرمطيا فحسب ، بل كان داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها .

وما أرى إلا أن الذين ألقوه فى السجن قد أحسنوا إليه ، لأنهم كفكفوا من غلوائه وردوه عن بعض هذا الجموح . واضطروه إلى أن يهدأ ويطمئن ، ويفكر ويتدبر ، ويستقبل أمره فى أناة واطمئنان .

١١

ولم يحفظ لنا من شعر المتنبى منذ أخذ إلى أن أخرج من السجن إلا أقله ، وهو شىء يسير جداً . والمحقق أن فتى كأبى الطيب غزير المادة ، شديد الانفعال ، قليل الصبر على ما يكره ، أنشد شعراً كثيراً أثناء هذه المحنة ، ولكنه لم يثبته ولم يحرص على أن يرويه الناس ؛ فقد كان هذا الشعر قسمين : قسم قاله المتنبى قبل أن تهدأ ثورته ، ولم يكن من مصلحته أن يستبقيه أو يذيعه بعد أن تاب وجحد ماضيه . وقسم قاله بعد أن أحس الألم والذلة ، وتاقت نفسه إلى الحرية ، ولم يكن مما يلائم كبرياءه وكرامته أن يثبت هذا الشعر أو يذيع منه إلا أيسره وأهونه .

ومع ذلك فقد بقيت لنا نماذج من هذين النوعين ؛ فأما النوع الأول فقد بقى لنا منه نموذجان :

أحدهما هجاؤه للهاشمى الذى قيده وأسلمه إلى جند السلطان ، وهو قوله :

زعمَ المُقيمُ بِكوتكينَ بأنهُ
من آلِ هاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنافِ
فأجَبْتُهُ مُذْ صِرْتَ من أَبْنائِهِم
صارتْ قُيودُهُمُ من الصَّفْصافِ

فالشاعر فى هذين البيتين ، كما ترى يسخر من هذا الذى أسلمه وقيده سخرية لاذعة تدل على أنه ما زال من حدة الثورة بحيث لا يستطيع أن يقدر بشاعة ما هو مقبل عليه .

والنموذج الثانى هذه الأبيات التى قالها لرجل يعرف بأبى دُلف ، برَّه فى السجن وكان يغرى به السلطان ، وهى :

أَهْوِنْ بطُولِ الثَّوَاءِ والتلَفِ
والسجنِ والقَيْدِ يا أبا دُلَفِ
غيرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بى
والجوعُ يُرضِى الأَسُودَ بِالجيَفِ
كُنْ أَيُّهَا السجنُ كيف شئتَ فقد
وَطّنْتُ للموتِ نفسَ مُعْترفِ

لو كان سُكْنايَ فيكَ مَنقصةً

لم يكُن الدُّرُّ ساكِنَ الصدَفِ

ويجب أن يكون المتنبى قد قال هذه الأبيات قبل أن يطول عهده بالسجن ؛ فهو ما زال محتفظاً بكبريائه ، ولعله كان لا يزال محتفظا بآرائه ، معتزاً بها ، موطنا نفسه على الموت فى سبيلها . ولكن السجن طال عليه وثقل ، وأحاطت به الآلام والهموم وكاد ييأس . ثم أدركته العلة فتعرض للهلاك ، والله يجعل للناس من كل حرج فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا .

فهذا لؤلؤ الغورى والى الأخشيد على حمص يُستدعى من ولايته ، وهذا إسحاق بن كيغلغ يرد إلى حمص والياً بعد أن كان قد عزل عنها ، وهذا فتانا اليائس يستشعر شيئاً من الرجاء ، ويأخذ فى التوسل والاستعطاف والمدح . ولدينا من هذا الشعر نماذج ثلاثة : أولاها هذه المقطوعة البائية التى لا يزيد فيها المتنبى على الاستعطاف والتوبة ، وهى :

بِيَدِى أيها الأميرُ الأريبُ
لا لِشَيْءٍ إلاّ لأنِّى غريبُ
أَوْ لِأُمٍّ لها إذا ذكرتْنى
دَمُ قَلْبٍ بدَمْعِ عَيْنٍ يذوبُ
إنْ أَكُنْ قَبل أَنْ رَأَيتُكَ أَخْطأْ
تُ فإنى على يديكَ أتوبُ
عائبٌ عابَنِى لَدَيْكَ ومِنْـــهُ
خُلِقَتْ فى ذَوِى العُيوبِ العُيوبُ

فهو كما ترى ذليل مستكين ، يذكر غربته وجدته النائية ، ويتوب من خطأ إن كان قد تورط فيه ، وينكر هذا الخطأ .

وهذا البيت الأخير واضح فى أنه لم يؤخذ متلبسا بالجريمة كما يقول رجال القانون ، أو لم يؤخذ ثائرا ثورة مادية . وإنما سعى به ساع فنقل إلى الســلطان ما كان يقول من الشعر .

وكأن الأمير أعرض عنه أو أبطأ فى الاستجابة له فاستعطفه بالدالية المشهورة :

أَيَا خدَّدَ اللهُ وَردَ الخُدُودِ
وقَدَّ قُدُودَ الحِسانِ القُدُودِ

وهو فى هذه القصيدة ناسب ، مادح ، شاك ، مستعطف . ولكنى لا أقف منها إلا عند الأبيات الأخيرة التى يدافع الشاعر فيها عن نفسه ، وينكر ما اتهم به من الخروج على السلطان ، ويعترف بأنه هم ولم يفعل . ويزعم للسلطان أن لا عقاب على الإرادة ، وإنما العقاب على الفعل :

تُعَجِّلُ فىَّ وُجُوبَ الحُدُودِ
وحَدِّى قُبَيْلَ وُجوبِ السُجودِ

والشاعر هنا مبالغ يزعم أنه لم يبلغ الحلم ، ولم يستوجب الحد ، مع أن من المحقق أنه كان فى الحادية أو الثانية والعشرين .

وقيلَ عَدَوتَ عَلَى العالَمِيـ
ـن بَينَ وِلادِى وبَيْنَ القُعُودِ
فما لَكَ تَقْبَلُ زُورَ الكلامِ
وقَدْرُ الشَهادةِ قَدْرُ الشُهُودِ

فلا تَسْمَعَنَّ من الكاشحينَ
ولا تَعْبأَنَّ بِمَحْكِ اليَهودِ

وماحك اليهود هذا عندى هو كما قدمت ذلك الذى كان ينافس التنوخيين العرب ، ويسعى بينهم بالبغضاء . والذى ذمه المتنبى حين مدح التنوخيين ونفى أن يكون بعضهم قد شمت ببعض :

وكُنْ فَارِقًا بينَ دعوَى أَردتُ
وَدَعوَى فَعلتُ بشَأْوٍ بعيدِ

والشاعر فى هذه القصيدة كما هو فى الأبيات السابقة ذليل ضارع مستعطف ، ولكنه منكر للذنب الذى يحمل عليه أشد الإنكار .

وقد سمع الأمير له هذه المرة ، ولعله سمع لبعض الشافعين فيه ، ولعله أراد أن ينقذ سجيناً حبسه سلفه فجمع له فيما يقال جماعة من أصحاب الجاه والشرف والدين واستتابه ، فتاب وأشهد على نفسه أنه جحد ما كان من أمره وعاد إلى سبيل المسلمين .

ويظهر لى أن عفو هذا الأمير التركى عن المتنبى الشاب

الذى أنهكه السجن وأضناه قد ملأ قلب الفتى سروراً ورضى ، وأثار فى نفسه الأمل أيضاً فمدحه بالرائية التى يقول فى أولها :

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضَمائرُهُ

وغيَّضَ الدمعَ فانهلَّتْ بوادرُهُ

ولعله كان يرجو أن ينال بهذه القصيدة وأمثالها حظوة عنـد الأمير ، ما دام قد نال بالقصيدة الدالية عطف الأمير وعفوه . ولـكن الأمير أبى أن يستقبله أو يسمع منه ، وتقدم إليه فى أن يترك الإقليم قانعاً بسلامته وحياته . فخرج يستقبل حياة جديدة ليست أقل من حياته الأولى بؤساً وضنـكا وشقاء وبيعا للشعر فى سوق الـكساد .

١٢

ليست أقل من حياته الأولى بؤساً ، ولـكنها تخالف حياته الأولى فى جوهرها . فقد كان فى حياته الأولى شقيا بالأمل . وهو فى حياته الثانية شقى باليأس . وقد كان فى حياته الأولى يتحرق شوقاً إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال ، وهو فى حياته الثانية يؤثر العافية وما يكاد يظفر بها ، ويبتغى الراحة وما يكاد ينتهى إليها . وقد كان فى حيـاته الأولى شديد الثقة بنفسه ، عظيم الايمان بعزمه ؛ وهو فى حياته الثانية شاك فى نفسه أشد الشك ، قانط من عزمه أشنع القنوط . وقد كان فى حياته الأولى ساخطاً على ماضيـــه ، متبرماً بحاضره طامعاً فى مستقبل باسم فيه الرضى وتحقيق الآمال . وهو فى هذه الحياة الثانية نادم على ماضيه الذى جحده ، ملتاع على مستقبله الذى يئس منه ، ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق ولا ينبغى أن تظن بى الأطناب والأسهاب والالحاح فيما لا يحتاج إلى إلحاح ، والاطالة فيما لا ينبغى الاطالة فيـه .

فإن هذه الحال النفسية أبلغ الأحوال تأثيراً فى نفس الشاعر الحساس ، وأشدها إنضاجاً لهذه النفس . وهى من غير شك أخصب الأحوال التى تمر بنفس الشاعر ؛ لأنها تنضجها وتشد أزرها ، وتعلمها احتمال المكروه ، وتعلمها كذلك تذوق الألم والتفريق بين أنواعها المختلفة ، واستعذابها مهما تكن ممضة وتهيئة الشاعر الصحيح للنبوغ الصحيح .

ولكنها تفعل هذا كله سراً ومن وراء حجاب . تعمل فى النفس الخفية أكثر مما تعمل فى النفس الظاهرة ، وتؤثر فى الضمير أكثر مما تؤثر فيما يشهد الشاعر من أمر عقله وقلبه وملكاته المختلفة ، حتى إذا آن الأوان وسنحت الفرصة ، وتهيأت الظروف ، ظهرت الآثار القيمة الخصبة لما يلقى الشاعر من الألم والسقم والضيق .

ومهما يكن من شىء فإن المتنبى كان فى شغل من ضميره وسريرة نفسه ، ودخيلة قلبه ، حين خرج من السجن ، واضطر إلى مغادرة الاقليم بهذه المصاعب العاجلة السخيفة التى تعترض فتى يائساً بائساً قد صرم العون وفقد الصديق .

ونظر فإذا هو وحيد فى الحياة ليس له من يفكر فيه

أو يرثى له أو يعطف عليه ، إلا جدته تلك المقيمة فى الكوفة والتى انقطعت بينها و بينه الأسباب .

وهذه المصاعب التى تعترض له ليست مصاعب معنوية تأتيه من العزلة والوحدة ، ومن افتقاد الصديق فحسب ، ولكنها مصاعب مادية أيضاً وهى أشد ما يلقى الشاعر من المصاعب سخفاً وأبلغها فى نفسه أثراً .

فهو غريب مشرَّد ، لا يكاد يستقر فى مكان حتى يزعجه عنه الخوف والفزع ؛ وهو فقير معدم لا يجد ما يرضى به حاجة جسمه إلى الطعام والشراب واللباس ، فضلاً عما يستعين به على الفراغ الذى يمكنه من أن يرضى حاجة عقله وقلبه وعواطفه . و يستقبل الفتى أمره مفكراً متدبراً ، فإذا هو مضطر قبل كل شىء إلى أن يرحل عن هذه الأرض التى لا مقام له فيها : أرض الأخشيديين . فهو لا يستطيع أن يقيم فى حمص وما يجاورها من البلاد ، وهو لا يستطيع أن يعود إلى اللاذقية إشفاقاً على أهلها و إشفاقاً منهم ، وهو لا يستطيع أن يعود إلى طبرية التى خرج منها مغاضباً لأهلها ، ذاما لهم فى شعر قد سارت به الركبان ،

وهو لا يستطيع أن يدنو من مركز السلطان الأخشيدى بعد أن نفته أطراف هذا السلطان . فليس له بد إذن من أن يعود إلى شمال الشام ، هذا الذى كرهه وضاق به وفرّ منه حريصا على ألاّ يعود إليه .

وهو يعود إلى شمال الشام ليصنع فيه ماذا ؟ ليستأنف فيه تلك الحياة البغيضة التى سئمها ، وظن أنه قد خلص منها ، حياة التكسب بالشعر عند قوم لا يقدرون الشعر ، ولا يذوقون له طعما ، وعند قوم لا يقدرهم هو ولا يذوق لهم طعما ، وإنما يحتقرهم ويزدريهم أشد الاحتقار ، وأعظم الازدراء .

ليته يستطيع أن يجاوز شمال الشام هذا إلى العراق ، ليستأنف الحياة فى الكوفة حيث جدته وموطنه ، أو فى بغداد حيث الحياة العقلية الخصبة التى تبعث الخصب فى العقول والقلوب . ولكن من له بالعراق وقد تقطعت بينه وبين العراق الأسباب . وفيم يعود إلى الكوفة بائسا معدما ، وقد خرج منها يبتغى الأمل والغنى ؟ وفيم يعود إلى بغداد وقد أعجله الأمل والتماس الغنى عن الإقامة فى بغداد ؟ ليقصد

إذن إلى شمال الشام ، وليستأنف فيه حياته البائسة المضطربة ، ولينتظر فيه ما قد تتكشف عنه الأيام ؛ فالحياة فى هـذا العصر بعيدة كل البعد عن الاستقامة والاضطراد . ومن يدرى لعله يظفر فى شمال الشام بما لم يظفر به من قبل ، ومن يدرى لعـل الأمور أن تتغير ، وإذا هو يعود إلى أرض الأخشيد وقد زال عنها ملك الأخشيد .

ولسنا نستطيع أن نوقت الشعر الذى قاله المتنبى فى هذا الطور المظلم من أطوار حيـاته . ولـكنا نستطيع على كل حال أن نسلك فى توقيته طريقاً كالتى سلـكناها فى توقيت ما قال من الشعر فى الطور الذى سبق ما ألم به من الـكارثة . فطبيعة الأشياء تقضى بأن يكون الشاعر قد انتفع بالتجربة ، وتعلم الحذر والاحتياط ، أو عاد إلى ما كان يألف من الحذر والاحتياط .

وطبيعة الأشياء تقضى بأن يخفى الشـاعر ما ألم به من مكروه ، وما أدركه من خيبة ، وما تعرض له من خطر . وإذن فلن يجهر بقرمطيته وقد رأى ما جرته القرمطية عليه من شر . وإذن فلن يسرف فى وصف بأسه وشجاعته ونجدته

بعد هذه الخيبـــة التى بلا مرارتها . وإذن فلن يلم بالبادية ولن يمدح أهلها ، بعد أن ذاق من البادية وأهلها ما ذاق . ولـكنه على كل حال شاعر قد امتحن فى نفسه وفنـه وأمله . وهو ، مهما يتكلف من الاحتياط ، عاجز عن أن يخفى ما تركه هذا كله فى نفسه من المرارة .

وليس بشاعر إذا لم يستطع أن يشكو ما قاسى ويتغنى ما وجـد دون أن يفضح سره ، أو يعلن حقيقة أمره إلى الناس ؛ وإذن فيمتاز شعر الخيبة هذا بكثير جـدا من الاعتدال فى الأمل ، والرضى بالقليل ، والاقتصاد فى وصف الحرب أو فى وصف نفسه ، خائضاً غمار الحرب ، وتجنب القرمطية العملية والعقلية . ثم سيمتاز بهذا الحزن المظلم الذى لا نكاد نحققه ولا نشخصه ، ولـكننا نحسه مع ذلك غامضا ظاهراً مكتوماً مكظوماً . وهو مع هذا منبعث فى شعره وفى مقدمات قصائده خاصة . والشاعر يستطيع أن يشكو الزمان ومصائب الدهر ، ونوائب الحدثان ، ولؤم الناس ، وما أفسد أخلاقهم من المـكر والغدر ، ومن الجبن والنفاق . ففى هذا كله منفذ لهذا الهم الذى يغلى فى صدره ، ولهـذا

الحزن الذى يمزق قلبه تمزيقاً .

واقرأ معى هذه الأبيات التى قالها حين مر بقنّسرين فسمع زئير الأسد ، والتى لا تخلو من تأثر بما سبق إليه الشعراء القدماء ، ولا سيما امرؤ القيس (١) والفرزدق (٢) من مناجاة الذئاب والأسود .

أَجارُكِ يا أُسْدَ الفَراديسِ مُكرَمُ
فتَسكُنَ نَفْسى أم مُهانٌ فمُسْلَمُ
وَرَائى وقُدّامى عُداةٌ كثيرَةٌ
أُحاذِرُ من لِصٍّ ومنكِ ومنهُمُ
فهل لَكِ فى حِلْفى عَلَى ما أُريدُهُ
فإنى بأَسْبابِ المعِيشةِ أَعــلَمُ

---

(١) انظر قوله فى المعلقة :

وواد كجوف العير قفر قطعتــه
به الذئب يعوى كالخليع المعيل

وما يليه .

(٢) انظر نونيته المشهورة التى يقول فيها :

تعال فان عاهــدتنى لا تخوننى
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وانظر قصته حين هرب من زياد وقصد إلى الحجاز .

(نقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٨ وما يليها — طبع ليدن)

إذًا لأتاكِ الرزقُ من كلِّ وجهةٍ
وأثريتِ مِمَّا تغنمينَ وأغنمُ

فهل أحسست فى البيت الثانى ما أحسه أنا من امتلاء قلب الشاعر بالوحدة والعزلة والفراغ إن صح أن تمتلئ القلوب بهذه الأشياء . وهل رأيت الفتى كما أراه فى هذا البيت وحيداً شريداً فى فضاء الأرض الواسع ، وقد أطبقت عليه ظلمة الليل العريض ، وقد انصرف الفتى عن عدو وهو مقبل على عدو ، وهو يسمع زئير الأسد ، ويكاد يسمع خُطا قطاع الطريق ، ويكاد يرى أشخاص هؤلاء اللصوص الذين يأخذون السبيل على المجتمعين ، فكيف بهذا الشريد الطريد . وهل أحسست فى هذين البيتين الأخيرين ما أحسه أنا من هذا الندم اللاذع والحسرة الممضَّة ومن حزن الفتى لأنه لم يجد بين الناس من يعينه على تحقيق آماله . فإذا هو يود لو وجده بين هذه الأسود الزائرة الكاسرة . أسمعت الأسود لغناء هذا الحزين ؟ لست أدرى ولكن المحقق أنها لم تحفل به ، ولم تستجب له ، ولم تمض بينها وبينه هذه الحلف التى كان يتمناها عليها ، وحسبه أنها

قد تركت له طريقه لم تعرض له ولم تعتد عليه .

والشاعر ينتهى إلى شمال الشام ، فيقيم فى حلب إقامة غير آمن ولا مطمئن ، لأن حلب فى ذلك الوقت كانت موضع النزاع بين الأخشيديين والعباسيين ، فيرحل عنها إلى انطاكية وهناك يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس ، ولعل من خير ما قال فى أنطاكية ، هاتين القصيدتين اللتين مدح بهما المغيث بن على العجلى ، واللتين أراهما من شعره بعد الكارثة خلافا لما يرى الأستاذ بلاشير .

يقول المتنبى فى مطلع القصيدة الأولى :

دَمعٌ جَرَى فقَضَى فى الرَبعِ ما وَجَبا
لأَهْلِهِ وشَفَى أَنًّى ولا كَرَبا

ويقول فى آخرها وهو يصور ما بقى فى نفس الشاعر من حقد وحفيظة وغيظ لم يخمد بعد :

لَمَّا أَقمتَ بِإنطاكِيّةَ اختَلفَتْ
إلىَّ بالخَبَرِ الرُكبانُ فى حَلَبا
فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاأَلوِى على أَحَدٍ
أَحُثُّ رَاحِلَتَىَّ الفَقْرَ والأدَبا

أَذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا
لو ذاقَها لَبَكَى ما عاشَ وانتَحَبا
وإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحرْبَ وَالِدَةً
والسَّمْهَرِىَّ أخًا والمَشْرَفِىَّ أبا
بِكلِّ أَشْعَثَ يَلقَى الموْتَ مُبْتَسِماً
حتى كأنّ لهُ فى قَتْلِهِ أَرَبا
قُحٍّ يكادُ صَهِيلُ الخيل يَقْذِفُهُ
عن سَرَجِهِ مَرَحًا بالعِزِّ أو طَرَبا
فالموتُ أعذَرُ لى والصبرُ أَجملُ بى
والبَرُّ أوسَعُ والدنيا لمن غَلَبا

أما القصيدة الثانية ، فالقسم الأول منها أبلغ ماصور به المتنبى فى هذا الطور من حياته رأيَه فى الزمان والناس ، وسخطه على الحياة والأحياء . ولا بد من رواية هذا القسم كله ؛ لأنه يغنى عن كل شرح أو تفسير :

فُؤَادُ ما تُسلِّيهِ المُدامُ
وعُمرٌ مِثْلُ ما تَهَبُ اللِئَامُ

ودَهرٌ ناسُــهُ ناسٌ صِغارٌ
وإنْ كانتْ لهم جُثثٌ ضِخامُ

وما أنا منهُمُ بالعيشِ فيهم
ولـكن مَعدِنُ الذَهَبِ الرّغامُ

أَرانبُ غَــيرَ أَنَّهُمُ مُلوكٌ
مُفتَّحةٌ عُيونُهُمُ نِيــامُ

بأَجسامٍ يَحَرُّ القَتلُ فيها
وما أَقرانُها إلاّ الطَعامُ

وخَيلٍ لا يَخِرُّ لها طَعينٌ
كأنّ قَنَا فوارسِها ثُمامُ

خَليلُك أنتَ لا من قُلتَ خِلّي
وإنْ كَثُرَ التَجَمُّلُ والكلامُ

ولو حِيزَ الحِفاظُ بغــيرِ عَقْلٍ
تجنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الحُسامُ

وشِبهُ الشَيءِ مُنجذِبٌ إليــه
وأَشْبَهُنا بِدُنيانا الطَغامُ

ولَوْ لَمْ يَعْلُ إلاّ ذو مَحَلٍّ
تَعالَى الجيشُ وانحطّ القَتامُ
ولَوْ لَمْ يَرْعَ إلاّ مُستَحِقٌّ
لرُتبتِهِ أَســـامَهُمُ المُسامُ
ومَن خَبَرَ الغَوانى فالغوانى
ضياءٌ فى بَواطنِهِ ظَلامُ
إذا كانَ الشَبابُ السُكرَ والشَيْـ
ـبُ هِمًّا فالحياةُ هِىَ الحِمامُ
وما كُلٌّ بمعــذورٍ ببُخلٍ
ولا كُلٌّ عَلَى بُخلٍ يُلامُ
ولم أَرَ مِثــلَ جِيرانى ومثلى
لِمِثلى عِنــدَ مِثلِهِمِ مُقامُ
بأرضٍ ما اشتَهيتَ رأيتَ فيها
فليسَ يَفُوتُها إلاّ الكِرامُ
فهَلاّ كان نَقصُ الأهلِ فيها
وكان لأَهْلِها منها التَّمامُ

وتستطيع أن تلحق بهذه القصيدة قصيدة أخرى تشبهها فى الحزن والمرارة وشكوى الزمان . وهى عندى من شعر هذا الطور ، وإن خيل الديوان ، وظن كثير من الناس أنها متأخرة قيلت بعد انصراف الشاعر عن بدر بن عمار . وهى القصيدة التى يمدح بها أبا عبد الله محمد بن عبيد الله ابن محمد الخطيب الخصيبىّ ، وهو يومئذ يتقلد القضاء بأنطاكية وأولها :

أَفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لِذَا الزَمنِ
يَخلُو منَ الهمِّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ

وكذلك القصيدة المشهورة التى يمدح بها القاضى أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى . والتى أولها :

لَكِ يا مَنازِلُ فى القُلوبِ مَنازِلُ
أقفَرتِ أنتِ وهُنَّ عنكِ أَواهِلُ

والأخرى التى يمدح بها أخاه أبا سهل سعيد بن عبد الله ابن الحسن الأنطاكى ، وأولها :

قد عَلَّمَ البَيْنُ مِنا البَيْنَ أَجْفَانا
تَدْمَى وألَّفَ فى ذا القَلبِ أَحْزانا

والقصيدة التى يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأوّلها :

سِرْبٌ محاسِنُه حُرِمْتُ ذواتِها
دانى الصفاتِ بَعِيدُ مَوصوفاتِها

ومن هذا الشعر أيضاً فائيته التى يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى المالكى والتى مطلعها :

لِجِنِّيَّةٍ أَمْ غادةٍ رُفِعَ السِّجْفُ
لوَحْشِيَّةٍ لا ما لوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ

والبائية التى يمدح بها علىّ بن منصور الحاجب ، ويقول فى أولها :

بأَبِى الشُّموسُ الجانحاتُ غَوارِبا
اللابِسَاتُ من الحريرِ جلابِبا

والأخرى التى يمدح بها عمر بن سليمان الشرابى ، ويقول فيها :

نَرَى عِظَمًا بالبَيْنِ والصَّدُّ أعظمُ
ونتّهِمُ الواشِينَ والدمعُ منهُمُ

والتى يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبى الإصبع الكاتب وأولها :

أَرَكائِبَ الأحبابِ إنّ الأدْمُعا
تَطِسُ الخدودَ كما تَطِسْنَ اليَرْمَعا

وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الشعر كله فستجد فى قراءته من السأم والملل شيئاً كثيراً يلائم ما كان فى نفس الشاعر من السأم والملل حين كان ينشئه وينشده .

فهو مدح متصل متشابه معاد ، لا تجديد فيه ولا تغيير ، ولا صدق فيه ولا إخلاص ، إنما هو شعر يباع . ويجهد الشاعر فى تزيين سلعته وتحسينها ، فيبلغ من ذلك بعض ما يريد حيناً ، ويعجز عنه فى أكثر الأحيان .

وربما قسم الشاعر القصيدة بينه وبين ممدوحه قسمة عدلاً أو قسمة فيها شىء من الجور ، فاتخذ لنفسه الشطر الأول يشكو فيه ، ويذم الزمان والناس صراحة ، أو يرمز فيه بالغزل والنسيب إلى هذه الشكوى المرة المتصلة .

والحق أن شعر أبى الطيب لم يكد يرقى فى هذه الأعوام التى جاءت بعد خروجه من السجن إلا قليلاً ؛

فقد استوثق الشاعر من صناعته لكثرة المران ، واستطاع أن يذل الألفاظ ، وإن عجز عن أن يستذل المعانى . وقد أحسن التفكير فى الدهر وصروفه ، واستطاع أن يزن الأمور وزناً حسناً ، وأن يسند تشاؤمه القديم إلى العقل والتجربة والاختبار ، وأن يأتى فى ذلك بنغمات قوية مشجية باقية عامة ، تبلغ قلوب الناس جميعاً فتثير فيها الحزن ، وقد تنتهى بها إلى القنوط ، ولكن الشاعر آخر الأمر لم يضف إلى فنِّه القديم شيئاً فضلاً عن أن يضيف إلى الشعر لوناً لم يسبقه إليه غيره من الشعراء الذين تقدموه ، لا من حيث الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولا من حيث الأوزان والقوافى والموسيقى . إنما هو شاعر مقلد ينهج نهج المتقدمين ، ونهج أبى تمام منهم خاصة . فاذا ظهرت شخصيته من حين إلى حين ، فإنما تظهر فى أوقات العنف الذى ليس بعده عنف ، أو فى أوقات الحزن الذى ليس وراءه حزن . فما الذى كان ينقص هذا الفتى ليبلغ ما هو أهل له من التفوق الذى لا يحتمل شكا ، والنبوغ الذى لا يتعرض لخلاف .

كان ينقصه فيما أرى شيئان :

أحدها حياة راضية تشحذ العزم وتحيي الأمل . وقد رأينا أن شعره وثب وثبة بعيدة حين انتهى إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين ، فضمن لين العيش ، ورجا تحقيق الأمل . فقال فى هذا الوقت : أجمل ما قال من الشعر بين صباه و بين الخامسة والعشرين .

والثانى بيئة مثقفة ، قوية الثقافة ، رشيدة بصيرة بالأدب ، قادرة على النقد ، عالمة بألوان الكلام . وهذه البيئة لم تتح للمتنبى أثناء إقامته الأولى والثانية فى شمال الشام ، ولعلها لم تتح له أيضاً أثناء إقامته فى أواسط الشام ، ولعله استغنى عنها وقتاً ما بكثرة ما كان يقرأ من الكتب ويستظهر من علم القدماء وأدبهم ، ولكنه كان على كل حال ناقد نفسه ، وناصحها ومرشدها ، وكان فى حاجة إلى أن يأتيه النقد والنصح والإرشاد من قوم غيره يقدرهم ويحسب لهم فى الأدب حساباً .

ولم يكن للبيئة العربية فى الشام ذلك الوقت حظ ممتاز من الثقافة الأدبية والعلمية . وأكبر الظن أن هذه البيئة كانت تنقسم قسمين :

أحدهما بدوى وهو إلى الجهل والغلظة أقرب منه إلى الثقافة واللين ، والآخر حضرى ؛ وهو لين العيش ، ولكنه غليظ العقل ، قليل الحظ جداً من العلم .

و إنما كان المتنبى محتاجاً إلى البيئة المصرية التى نشأ فيها فن أبى تمام ، و إلى البيئة العراقية التى نضج فيها فن أبى تمام أيضاً ، والتى نشأت وأنضجت فن أعلام الشعر الإسلامى منذ العصر الأموى إلى أواخر القرن الثالث .

وقد ظهر فى الشام شاعر كأبى تمام ، ولكنك علمت أن شعره نشأ فى مصر ونضج فى العراق . وظهر فى الشام شاعر كالبحترى ، ولكنك تعلم أن الذى أنضج شعر البحترى ، إنما هو اتصاله بأبى تمام ، ثم ارتحاله إلى العراق .

فأما المتنبى فقد نشأ شعره فى العراق ، وحاول أن ينضج فى الشام فأدركه البطء ، ودبّ إليه كثير من الفساد ، وظهر فيه تكلف يمقته الذوق العربى الصريح ، ولا نجده حتى عند أشد الشعراء تكلفاً ، وهو أبو تمام .

ذلك لأن المتنبى قد نشأ فى غير مدرسة ، وتعلم على غير معلم ، ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد ، و إنما

أخذها عن الكتب والصحف وكان ينشد الجهال وأشباه الجهال ، فيسمع منهم إعجاباً كثيراً مصدره الجهل ، ويأخذ منهم مالاً قليلاً مصدره البخل . فيشتد إعجابه بنفسه لما يسمع من الثناء وما يرى من الإعجاب ، ويشتد حنقه على الناس لما يرى من البخل وما يقاسى من الحرمان .

وأنا أعلم أن اضطراب الخلافة فى بغداد ، وتسلط الترك على الدولة قد غض من أمر الشعر وقصر من همم الشعراء . وأن بغداد لم تكن فى القرن الرابع غنية بالشعراء المجيدين ، كما كانت فى القرن الثالث والثانى ، ولكنى أعلم مع ذلك أن بغداد خاصة ، وأمصار العراق عامة كانت لا تزال قلب الدولة من الناحية الأدبية ، إن كان ذلك قد أخطأها من الناحية السياسية .

ولست أشك فى أن المتنبى لو أقام فى العراق وجه حياته لأسرع إلى النبوغ ، ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرئ من كثير من العيوب التى أنكرت عليه ، ولاجتنب كثيراً من فساد اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التى سيعاب شعره بها آخر الدهر .

والأمر لا يقف عند المتنبى وحده ، فقد أصبح المتنبى كما تعلم إماماً للشعراء ، فأخذ الناس عنه فنه بما فيه من خير وشر ، وكذلك كان استقبال المتنبى شبابه فى الشام مصدراً لكثير من الضعف الذى ألم بشعره هو ، ثم بشعر الذين قلدوه .

ومهما يكن من شىء فقد استقبل المتنبى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو مضطرب فى شمال الشام ، يبيع شعره بيع الكساد كما يقول ، ولكنه على كل حال قد عرف كيف يصبر ويحتمل ، وكأن الزمان الذى كان المتنبى يذمه ويشكو منه قد رحمه ورق له ، وأراد أن يرفِّه عليه شيئاً ، وأن يتيح لفنه فرصة يثب فيها إلى الأمام .

فى هذا الوقت اضطرب الأمر بين العباسيين والأخشيديين ، وأقبل ابن رائق على قسم عظيم من سوريا الجنوبية . وجعل ابن رائق على حربه فى طبرية بدر بن عمار الأسدى ، وهنالك عاد إلى المتنبى شىء من الأمل ورغب فى أن يعود إلى تلك الأرض التى لم يكن له فيها مقام بعد زلته تلك . فترك شمال الشام وانتهى إلى طبرية واتصل ببدر

ابن عمار . وعند بدر بن عمار وجد الأمرين اللذين كان يحتاج إليهما : وجد الحياة اللينة الهادئة ، ووجد البيئة المثقفة الناقدة ، فلم يلبث أن أحس أثر الأمرين جميعاً ، وأن وثب فنه فى أشهر قليلة فبلغ من الرقى ما لم يبلغ بعضه فى الأعوام الثلاثة أو الأربعة التى أقامها فى شمال الشام .

الكتاب الثانى

١

ولم يتصل المتنبى ببـدر مباشرة ولا فجأة أول الأمر . وإنما سعى فى ذلك وجد وابتغى إليه الوسيلة فيما يظهر لى . والديوان لا ينبئنا فى صراحة . والرواة لا ينبئوننـا كذلك كيف سعى إلى بدر ، وكيف انتهى إليه . ولـكن قصيدة فى الديوان لا يعرف تاريخها توشك أن تدلنا على ما نحتاج إليه من ذلك . وهى هذه الهمزية التى مدح بها أبا على هارون ابن عبـد العزيز الأوراجى الـكاتب الذى كان يذهب فيما يقول الديوان ، وكما سنرى من القصيدة ، مذهب التصوف . والذى كان له شأن قبل ذلك فى قصة الحلاج[1] .

(فقد يخيل إلى ، بل أكاد أرجح أن المتنبى اتخذ هذا الرجل وسيلة إلى بدر بن عمار . ومن يدرى لعله كان يريد أن يتخذ بدر بن عمار وسـيلة إلى مولاه ابن رائق وأن يتخذ

---

(١) R. Blachère. — Abou t-Tayyib al-Motanabbi p. 90.
L. Massignon. — Al Hallaj martyr mystique de l'Islam p. 240,

ابن رائق نفسه وسيلة إلى قصر الخلافة فى بغداد) .

ولكن الأسباب تقطعت به ولما يبلغ من ذلك إلا بعض ما كان يريد .

هذه القصيدة تنبئنا بأن الشاعر قد أقبل يمدح أبا على الأوراجى من بعيد ، وقد جاز إليه جبال لبنان فى شىء غير قليل من المشقة والجهد . فأكبر الظن أن الأوراجى هذا كان فى ذلك الوقت متصلا بعمل من أعمال ابن رائق قريباً من بدر فى طبرية أو بعيداً عنه بعض الشىء فى دمشق .

فأقبل المتنبى من شمال الشام إلى جنوبها بعد أن جلت عنه جنود الأخشيد حتى انتهى إلى صاحبه هذا فمدحه بقصيدتين .

إحداهما هذه الهمزية التى يجب أن نقف عندها وقفة قصيرة ، والأخرى أرجوزة طردية على نحو أراجيز أبى نواس قالها مستجيباً لممدوحه حين طلب إليه ذلك ، وأثبتها فى الديوان مفاخراً بها ، ومفاخراً بأنه قد قالها فى سرعة توشك أن تكون ارتجالا . وقد نتحدث عنها فى غير هذا الموضع من هذه الفصول .

وللهمزية التى نحن بإزائها فيما أرى مكانة خاصة من شعر

المتنبى . فهى القصيدة الوحيـــدة التى يعمد فيها الشاعر إلى المذهب الرمزى ليرضى ممـدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف . وهى من هذه الجهة قيمة لأنها تبين عن علم المتنبى ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، بمذاهب المتصوفة فى الـكلام ومنهجهم فى الرمز والايماء . ولأنها تظهر لنا الشاعر الفتى وقد ملك ناصية الفن حقاً ، واستطاع أن يصرفه كما يشاء ويهوى دون أن يجد منه مقاومة وامتناعاً ، ولأنها بعد هذا وذاك تكشف لنا عن براعة المتنبى ، لا فى هـذا النحو من التكلف الفنى الذى كان مألوفاً فى ذلك العصر ، والذى كان يعتمد قبل كل شىء على أوجه البديع ، بل فى تكلف آخر لم يكن مألوفاً إلا عند المتصوفة والباطنية الذين يقصدون بالألفاظ والمعانى غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر من عامة الناس وخاصتهم .

والظريف أن هذا التكلف لم يفسد على المتنبى شـعره فى هذه القصيدة وإنما أسبغ عليـه جمالا غريبا لا نجده فى شعره العادى .

ومصدر هذا الجمال الغريب ما حاوله المتنبى من الملاءمة بين جهدين : جهد العقل وجهد الفن .

وأنت تستطيع أن تقرأ غزل هذه القصيدة فتستحسن فيه هذين الجهدين معا :

أَمِنَ ازْديارَكِ فى الدُجَى الرُقَباءْ
إِذْ حيثُ أَنْتِ من الظَلامِ ضِياءْ

وينبغى أن تغفر للمتنبى هـذا الجمع بين ظرفى الزمان والمكان فى أول الشطر الثانى . فهو قد أتعب النحويين تحليلاً وتعليلاً ، ولـكنه مع ذلك ظاهر المعنى . فالمتنبى لا يزيد على أن يقول لصاحبته : إن الرقباء مطمئنون إلى أنك لن تزوريني إذا أظلم الليل لأن وجهك يضىء الظلمة فينمّ عنك لأنك ضياء حيث كنت .

فالمعنى ظاهر ولـكن صيغته تعميه بعض الشىء . المعنى ظاهر ، ولـكن جهد الشاعر فى استنباطه والتعبير عنه ظاهر أيضاً . وأنت لا تلوم المتنبى ولا تعتب عليه إذا تكلف شيئاً من الجهد فى فهم هذا البيت لأنك تحمد عاقبة الجهد ، وترى أن من حق الشاعر الذى تعب فى استنباط المعنى وأدائه أن يكلفك شيئاً من التعب فى فهمه والوصول إليه ، ما دام المعنى آخر الأمر قيما خليقاً بما بذلت من الجهد . فنحن هنا فى بيئة

أخرى . فى هذه البيئة التى يحسن أبو تمام والمتنبى خلقها ، والتى توجد تعاوناً واشتراكاً بين الشاعر والقارئ أو المستمع إليه . وإنما تخلق هذه البيئة حين يُعنى الشاعر بمعانيه ، ويصدر فيما ينشئ عن عقله وفنه من جهة ، وعن احترامه لقارئه وسامعه من جهة أخرى .

وانتقل إلى ما بعد هذا البيت :

قَلَقُ المليحةِ وَهْىَ مِسكٌ هَتكُها
ومَسيرُها فى اللَّيْلِ وَهْىَ ذُكاءُ
أَسَفى عَلَى أسَفى الذى دَلَّهْتِنى
عن علمِهِ فيه عَلَىَّ خَفاءُ
وشَكِيَّتى فَقْدُ السَقام لِأَنَّهُ
قد كانَ لَمَّا كان لى أَعْضَاءُ

فالبيت الثانى توضيح وتفصيل وإطناب للبيت الأول ، ولكن فيه تعميما ليس فى ذلك البيت . فالمليحة قلقة فيما تدبر من أمرها لأنها مسك ينم عليها نشرها ، وشمس يفضحها ضوءها وإن سرت بليل . وتصور أنت هذا الطباق الذى

يأتيه من سرى الشمس فى الليل . فإذا تجاوزت هذا المعنى فانظر إلى هـذا البيت الثالث الذى ذهب الشاعر فيه مذهب المتصوفة الصريح ، حين يلوون الألفاظ عن أساليبها الطبيعية الظاهرة . فالشاعر يأسف على أسفه الذى هو محقق ، ولـكنه لا يعلم به لأن صاحبته قد دلهته عنه وأذهلته بما يحدث فى نفسه من أثر . والشاعر يؤكد لنا هذا المعنى تأكيداً فى البيت الرابع الذى ينبئنا فيه بأنه لا يشكو السقام ، وإنما يشكو فقد السقام . ذلك أنه كان يحس السقم حين كان له جسم يمسه السقم وتلم به الآلام . فأما وقد أفنى الحب جسمه وأعضاءه فهو لا يشكو سقماً ولا ألماً ، وإنما يشكو شيئاً أبلغ من السقم والألم وهو العدم الذى يمنعه أن يحس سقما وألما . وتصور أنت شاعراً يجد نفسه ، ويشعر بها ويعلم أنه معدوم ويشكو من هذا العدم . ولـكن لا تنس أن شاعرنا يقدم هذا الكلام بين يدى مدحه لرجل من المتصوفة فهو يصطنع له مذهب المتصوفة فى الكلام والتفكير أيضاً .

مَثَّلْتِ عَيْنَكِ فى حَشَايَ جِراحةً
فتَشابَهَا كِلتاهُما نَجْـــلاءُ

نَفَذَتْ عَلَيَّ السابِرِيَّ ورُبَّما
تَنْدَقُّ فيهِ الصَعْدَةُ السَمراءُ

وانظر إلى براعة الشاعر وقدرته على العبث بالألفاظ واتخاذ هذا العبث وسيلة إلى شعر لا يخلو من جمال . فالناس يقولون : عين نجلاء ، وهم يقولون طعنة نجلاء . فماذا يمنع المتنبى أن يشتق من هذا الاشتراك بين العين والطعنة فى النجل الذى هو السعة شبهاً بينهما ، فيجعل عين حبيبته فى حشاه لأن الطعنة التى مسته بها واسعة نجلاء كالعين التى حملت إليه هذه الطعنة . ثم هو يحقق هذا التشبيه تحقيقا بالبيت الأخير فيزعم أن عين حبيبته قد شقت عنه درعه ونفذت إلى قلبه . ودرعه مع ذلك صلبة محكمة تندق فيه الصعدة السمراء . فأصل المعنى كما ترى مألوف ، ولكن التعبير عنه جديد . وتصوره على هذا النحو طريف يخيل إليك أن الشاعر قد ابتكره ابتكاراً :

أنا صَخْرَةُ الوادِى إذا ما زُوحِمتْ
وإذا نَطَقْتُ فإنَّنى الجَوْزاءُ
وإذا خَفِيتُ على الغَبِىِّ فعاذِرٌ
ألا تَرانى مُقْـــلَةٌ عَمْياءُ

شِيَمُ اللَيالى أنْ تُشكِّك ناقتى
صَدْرى بها أفْضَى أمِ البَيْداءُ
فَتَبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِدًا فى نِيِّها
إسآدَها فى المَهْمَهِ الأَنضاءُ
أَنْساعُها ممْغُوطة وخِفافُها
مَنْكوحَةٌ وطَرِيقُها عَذْراءُ
يَتَلَوَّنُ الخِرِّيتُ من خَوْفِ التَّوَى
فيها كما يَتَلَوَّنُ الحِرْباءُ

والشاعر كما ترى فى هذه الأبيات يفخر بنفسه مقتصداً فى الفخر ، ولكنه اقتصاد لا ينبغى أن يخدعنا عن امتلاء الفتى بنفسه . فهو اقتصاد فى الألفاظ لا فى المعانى . فالشاعر صخرة تزحم من يزاحمها ، والشاعر نجم ، بل هو الجوزاء بين الشعراء . فإذا لم يفطن الأغبياء والجهال لمكانه فهو عاذر لهم . وهل على الأعمى حرج ألا يراه .

ولكن انظر إلى تصوير الشاعر لهمّه البعيد وأمله العريض وصدره الواسع كيف ذهب فيه هذا المذهب اللطيف

فأشرك ناقته فى التفكير، وأشرك الليل فى العمل ، وجعلنا بإزاء حركة معقدة ونشاط متصل . فهو بعيد الهم ، واسع الصدر ، عريض الأمل ، جاد فيما يبتغى ، والليالى مخلفة لظنونه ، مخيبة لآماله ، ولكنها لا تبلغ من جهده وصدره ولا تحد من نشاطه وجده ، فهو يكلف ناقته من الجهد والعناء ما يلائم هذه الخصومة المتصلة بينه وبين الزمان ويشق الأمر على ناقته ويعظم الخطب وتشتد المحنة . فهى تريد أن تفهم ما يلم بها ولن تخرج من حيرتها وهى تتساءل فى كثير من الشك ، أيهما أفضى بها : هذه البيداء التى لا تنتهى ، أم صدر صاحبها هذا الذى لا يعرف لهمه حداً ينتهى إليه .

والناقة مع ذلك ماضية فى قطع البيد واجتيابها مضى الهزال فى أثناء شحمها ، وقف عند هذا الاساد الذى تعمد الشاعر تكراره ، فجاء به مضارعاً ومصدراً واسم فاعل قصدا إلى الإغراب والالتواء بالمعنى ؛ ليلائم بين لفظه ومعناه وبين مقامه من هذا الرجل المتصوف الذى يمدحه :

بَيْنِى وبَيْنَ أبى علىٍّ مِثْلُهُ
شَمُّ الجِبَالِ ومِثْلَهُنَّ رَجاءُ

وعِقابُ لُبْنانٍ وكيفَ بقَطْعِها
وهوَ الشتاءُ وصَيْفُهُنَّ شِـــتاءُ
لَبِسَ الثُلُوجُ بها عَلَيَّ مَسالِكي
فكأنّها ببَياضِها سَـــوْداءُ
وكذا الكريمُ إذا أقامَ بِبَلْدَةٍ
سالَ النُّضارُ بها وقامَ الماءُ
جَمَدَ القِطارُ ولو رأَتْهُ كما تَرَى
بُهِتَتْ فلم تَتَبَجَّسِ الأنواءُ

وأنت ترى من هذه الأبيات أن الشاعر حريص على ألا يدع المذهب القديم الذى ألفه الشعراء ، فيذكر طريقه إلى ممدوحه ، ولكنه على احتفاظه بهذا الشكل التقليدى يغير الأسلوب والموضوع تغييراً . فانظر إليه كيف يخلص إلى ممدوحه هذا الخلوص العجيب ، بأن يجعل بينه وبين أبى على جبالاً تشبهه فى الضخامة والارتفاع ، وفى الثبات والاستقرار ، وفى الصعوبة والامتناع . فمن شأنها أن تبعده عنه ، ولكن الشاعر يجعل بينه وبين أبى على رجاء يشبه

هذه الجبال فى الضخامة والعظم والسعة والقوة . فمن شأنه أن يقرّبه منه ، وأى جبال مهما تعظم تستطيع أن تستعصى على هـــذا الرجاء العريض العنيف الذى لا حدَّ لسعته ولا لقوته .

ثم انظر إلى وصفه الموجز لصعوبة لبنان وما ينبث فيها من العقاب ، وما يجمد على هذه العقاب من الثلج الذى ينتشر بياضـــه حتى يضلل الشاعر عن مسالكه تضليلاً فكأنه ســواد الليل .

وما أُريد أن أمضى على هذا النحو فى تحليل القصيدة كلها ، وإن كانت القصيدة كلها تعجبنى ، ولـكنى أدع لك قراءة الشطر الأول من مدحه لأبى على ومشاركتى فى الرضى والإعجاب به ، والاعـتراف بأنه إن كان كغيره من مدح المتنبى فى جوهره وأصله ؛ فإنه ممتاز فى أسلوبه ، ومذهب الشاعر فى العناية به ، والتأنق فى ذاته ، ولـكنى مضطر أن أقرأ معك هذه الأبيات التى يختم الشاعر بها قصيدته :

لَعَمْتَ حَتى المُدْنُ مِنكَ مِلاءُ
ولَفْتَ حتى ذا الثناءُ لَفاءُ

ولَجُدتَ حتى كِدتَ تبخلُ حائلاً
للمُنتهى ومن السُرُورِ بُكاءُ
أَبدأْتَ شيئاً لَيس يُعْرَفُ بَدؤُهُ
وأعدتَ حتى أُنكِرَ الإبداءُ
فالفَخرُ عن تقصيرِهِ بِكَ ناكِبٌ
والمجدُ مِن أنْ يُستزادَ براءُ
فإذا سُئلتَ فَلا لأنَّكَ مُحْوِجٌ
وإذا كُتمتَ وشَتْ بكَ الآلاءُ
وإذا مُدِحْتَ فلا لتَكسِبَ رِفْعةً
للشاكِرِين على الإلٰهِ ثناءُ
وإذا مُطِرتَ فلا لأنَّكَ مُجْدِبٌ
يُسقَى الخصيبُ وتُمْطَرُ الدَأْماءُ
لم تَحْكِ نائِلَكَ السحابُ وإنما
حُمَّتْ بهِ فَصَبيبُها الرُحَضاءُ
لم تَلقَ هذا الوَجْهَ شَمسُ نَهارِنا
إلاَّ بوجهٍ ليسَ فيهِ حَياءُ

فبأيّما قدمٍ سعَيتَ إلى العُـلا
أُدُمُ الهِلالِ لأخْمصَيْكَ حِـذاءُ
ولَكَ الزمانُ مِنَ الزمانِ وِقايةٌ
ولكَ الحِمامُ مِنَ الحِمامِ فِداءُ
لو لم تكُنْ من ذا الوَرَى الذْ منكَ هُوْ
عَقِمَتْ بمَولِدِ نَسْلِها حَـوّاءُ

وما أراك فى حاجة إلى أن أدلك على هذه المبالغات التى أسرف الشاعر فيها إسرافا شديداً كعهده حين يبالغ ، ولا إلى أن أدلك على تعمده اصطناع مذاهب الصوفيـة واستعارته ألفاظهم ومعانيهم ، واضطراره من أجل هذا كله إلى أن يحمل ألفاظه أعباء ثقالا كما فى هذا البيت :

لو لم تكُنْ من ذا الوَرَى الذْ منكَ هُوْ
عَقِمتْ بموْلِدِ نَسْـلِهَا حـوّاءُ

ولـكنك توافقنى فيما أظن أن المتنبى قد جاوز فى هذه القصيدة طوره الذى رأيناه فيه قبل إنشائها حين كان مضطرباً فى شمال الشام يبيع شعره فى سوق الكساد ، تجاوز هذا الطور

إلى طور جديد وثب إليه وثوباً . ووثب إليه فجأة وعلى غير انتظار أو قل دفع إليه دفعاً . دفعه إليه انهزام الأخشيديين الذين لقى فى ظلهم ما لقى من المحن ، وذاق فى ظلهم مرارة الأسر والسجن والزمان ، ورجوع الأمر فى الشام إلى عربى مهما يكن أمره ومذهبه ، فليس تركيا ولا زنجيا كالأخشيد ، وابن كيغلغ وكافور . ولا شك فى أن هذا الأمل القوى الذى ملأ نفس المتنبى وقلبه قد رد إليه الثقة بفنه إن لم يكن رد إليه الثقة بنفسه . فهو مطمئن منذ الآن إلى أنه لن يبيع شعره فى سوق الكساد . وإذا لم تعد إليه الثقة بنفسه قائداً أو زعيماً أو سيداً عظيماً ، فلا أقل من أن الثقة قد عادت إليه بنفسه شاعراً بارعاً نابغة مقرباً إلى الأمراء ، ثم إلى الملوك ثم من الخليفة . من يدرى ؟

وقد رأيت كيف أثر اتصاله بالتنوخيين فى فنه فوثب به من طور إلى طور ، فكيف به الآن وهو يرجو أن يتصل بمن لا يقاس إليه التنوخيون قوة وبأساً ، وثروة وجاهاً ، وقرباً من الملوك والخلفاء . ومهما يكن من شىء فقد غلب المتنبى على أمره . غلبه فنه وغلبته سنة هذا الفن ؛ كان يظن

ويرجو أن يكون رجلاً مستقلا له رياسة وزعامة وسلطان . وكان يظن فى أول أمره أن يصلح بثورته كثيراً من شؤون الحياة ونظم الاجتماع . ثم كان يظن بعد ذلك أن يتخذ الثورة وسيلة إلى الحكم والسلطان إذا لم يستطع أن يتخذها وسيلة إلى الإصلاح .

ولكن التجربة علمته أنه لم يخلق لهذا ، وإنما خلق ليسلك طريق الشعراء من قبله فيمدح الطغام ، ثم أوساط الناس ، ثم أشرافهم ، ثم من يدرى لعله يصل إلى القصر .

غلبه فنه وغلبته طبيعة الشاعر ، وانهزم المتنبى المصلح ، وانهزم المتنبى الطموح إلى الاستقلال ، ولم يبق من كل تلك الآمال والمطامع إلا شاعر يلتمس الثروة والغنى ، ويجد فى سبيل اللذة المعتدلة والهدوء . وقد يقوى طمعه ، وقد تحدثه نفسه بالطموح إلى شىء من السلطان يوما ، ولكنه على كل حال لن يفكر فى الاستقلال ، ولن يتصور الحياة إلا فى ظل رجل عظيم من هؤلاء الذين كان يذمهم ويشهر بهم ، والذين سيذمهم ويشهر بهم أيضا فيما سيستقبل من أيامه .

كان كبر نفس المتنبى فى شبابه خداعاً وضلالاً ، لم يلبث

أن زال عنه حين تعرض للخطر الصحيح ، وسيبقى من كبر المتنبي هـذا ، وسيبقى من رغبة المتنبي فى الإصلاح وسخطه على الناس ، وانتقاضه على المألوف من نظم الحياة ، كلام كثير لا يخلو من قوة وروعة وجمال ، ولـكنه كلام لا أكثر ولا أقل .

ولست أدرى أكان الأوراجى هذا قريباً أم بعيداً من بدر بن عمار ، ولـكن المتنبي أقام معه حيناً على كل حال كما تدل على ذلك طرديته التى أشرنا إليها آنفاً ، ثم اتصل من طريق الأوراجى هـذا فيما أرى ببدر ، فلا تسل عن فرحه ومرحه ، ولا عن ابتهاجه وامتلاء نفسه بالغبطة والرضى ، ولا تسل عن ارتفاع فنه وانحطاط نفسه إذا لم يكن بد من أن تقلده مرة فتصطنع الطباق .

٢

ومع ذلك فبدر هذا الذى يقبل عليه المتنبى وقد امتلأ قلبه بالإقبال عليه بهجة وسروراً ، يعجز عن إخفائهما فيما سترى من شعره ، هو الذى هجاه المتنبى نفسه قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة ، حين ولى على حلب ، فأقبل إسحاق ابن كيغلغ من قبل الإخشيد ، فأزعجه عنها ورد إليها واليها السابق .

وذلك حين يقول المتنبى فى الدالية التى استعطف بها ابن كيغلغ وسأله فيها أن يعفو عنه :

رَمَى حَلَباً بنواصى الخُيُولِ
وسُمْرٍ يُرِقْنَ دَمًا فى الصَّعِيدِ
وبِيضٍ مُسافِرَةٍ ما يُقِمْـ
ـنَ لا فى الرِّقابِ ولا فى الغُمودِ
يَقُدْنَ الفَناءَ غَدَاةَ اللِقَاءِ
إلى كلِّ جَيشٍ كَثِيرِ العَدِيدِ

فوَلَّى بأشـــياعِه الخَرْشَنِيُّ
كَشاءٍ أَحَسَّ بزَأْرِ الاسُودِ

يَرَوْنَ من الذُعْرِ صَوتَ الرِياحِ
صَهيلَ الجِيادِ وخَفْقَ البُنُودِ

فقد كان بدر وأصحابه إذن غنما تشفق من زئير الأسود وكانوا هرابا تروعهم أصوات الرياح ، فيسمعون فيها صهيل الجياد وخفق البنود .

فأما سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة حين دارت الدائرة على الإخشيديين فى هذا القسم من بلاد الشام وحين أتيحت لبدر ولاية طبرية ، وأتيح للمتنبى أن يتصل به ، فانظر كيف يستقبله المتنبى وكيف يتحدث عنه :

أَحُلْمًا نَرَى أم زماناً جَـديدا
أَمِ الخَلْقُ فى شخصِ حَيٍّ أُعِيدا

تَجَلَّى لنا فأضـــــأْنا به
كأَنَّا نُجومٌ لَقِينَ سُـــعُودا

رَأَيْنا بِبَـــــدْرٍ وآبائِهِ
لِبَدرٍ وَلُودًا و بَدْرًا وَليـــدا

فالحياة كما ترى فى ظل بدر من الروعة والجلال ومن البهجة والجمال ، بحيث تخلط الأمر على الشاعر ، فيخيل إليه مرة أنها حلم ، ويخيل إليه مرة أخرى أن الزمان قد تجدد ، ويخيل إليه مرة ثالثة أن الله قد سمع لابى نواس ، فجمع الخلق كله فى شخص واحد . وهو يوضح هذا كله ويجمله بهذا البيت الثانى الذى يزعم فيه أن بدراً تجلى له وللناس ، فاكتسبوا منه ضوءهم وبهاءهم كأنهم النجوم قد لاقت سعودا .

وتستطيع أن تقول : إن هذا تلون الشعراء وتقلبهم ، كما تتلون الحياة ، وكما تتقلب صروف الأيام ، وما أخالفك فى ذلك ، وما أنكر عليه منه شيئاً ، وإنما ألاحظ أن صاحبنا شاعر قبل كل شىء ، يغلبه فنه وطبيعته الشاعرة المشبهة لطبيعة الشعراء المعاصرين له على ما ظهر فى صباه وشبابه من القوة والأيد ، ومن شدة البأس وصعوبة المراس والطموح إلى جلائل الأعمال .

فالذين يرون هذا الاضطراب فى حياة الشاعر الفتى ويحسون انهزام المصلح والفيلسوف ، وصاحب الحزم والعزم أمام الشاعر الذى يكسب حياته بالمدح الكاذب والثناء الباطل

وينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها ، ثم ينظرون إليه على رغم ذلك كما ينظرون إلى المصلح الفيلسوف ، وينتظرون منه على رغم ذلك ما ينتظرون من المصلح الفيلسوف ، يكلفون أنفسهم عناء لا يغنى ، ويكلفون العلم شططا لا يستطيع العلم له احتمالا . لقد ملك الفرح بلقاء بدر على المتنبى أمره ، كأنه المسافر قد أحرقه الظمأ ، حتى كاد يشرف على الهلاك ، ثم رأى الماء ، فأقبل عليه مندفعاً ، لا ينظر وراءه ولا يفكر فيما قد يتعرض له بعد أن يروى غلته ، ويشفى صداه . وكذلك اندفع المتنبى فى مدح بدر بهذه القصيدة الدالية التى أراها أولى مدائحه لهذا الأمير ، والتى أُعجل فيها الشاعر عن المقدمة والتمهيد ، فلم ينسب ولم يتغن وإنما هجم على المدح هجوماً فى غير تحفظ ولا احتياط . وما أرى أنه قد جدد فى فن المدح شيئا ، أو أحدث فيه ما لم يسبقه إليه الشعراء المادحون . ولكنى أحس فى هذه القصيدة قوة قوية مشتقة من أمل الشاعر ونشاطه ، ومن حدة نفسه وتهالكه على الراحة بعد التعب ، وعلى الرضا بعد السخط ، وعلى الغنى بعد الفقر ، وعلى الأمن والهدوء ، بعد الخوف والإشفاق .

وهذه القوة تفيض على القصيدة رونقاً يجرى فى أبياتها شيئاً من الإشراق المبتهج الذى يحببها إليك ، و يجذبك إليها و إن لم تجد فيها غناء . وهى تفيض على ألفاظ القصيدة جزالة لا تجحد ، ورصانة ليس فيها شك ، وما أرى إلا أن ما كان يملأ نفس الشاعر من فرح وأمل ونشاط ، هو الذى دفعه إلى هذا البحر المتقارب الذى يلائم اضطراب النفس بالأمل القوى حين تضطرب بالأمل القوى ، وغليان النفس بالحزن المضطرم حين تغلى بالحزن المضطرم .

واقرأ معى هذه الأبيات فسترى هذا كله واضحاً فيها أشد الوضوح :

طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَرْكِ الذى
رَضِينا لهُ فتَرَكْنَا السُّجُودا

أَمِيرٌ أَمِيرٌ علَيْهِ النَّدَى
جَوادٌ بخَيْلٌ بأَنْ لاَ يَجُودَا

يُحَدَّثُ عن فَضْلِهِ مُكْرَهًا
كأنّ لهُ منْهُ قلباً حَسُودا

وُيقْـدِمُ إلاّ عَلَى أن يَفِرَّ
ويَقْدِرُ إلاّ عَلَى أَنْ يَزِيدا

فانظر إلى الشاعر كيف يؤثر الإيجاز فى أبياته ويفر من التفصيل فراراً . يضمن كل بيت معنى مستقلاً ، وقد يضمن البيت معنيين يستقل بكل واحد منهما شطر من الشطرين . كأنما الشاعر عجل يريد أن يغلب الأمير على التفكير والروية ، فهو يرميه رمياً سريعاً جدا بهذه الأزهار المتلاحقة التى ليس بينها أناة ولا مهل ، حتى يبهر الأمير ويعجله عن أن ينظر فى هـذه الأزهار نظر الممتحن المتخير ، أو كأنه يريد أن يدفنه فى هذه الأزهار ، فهو يلح عليه بها إلحاحاً حتى يضطره إلى أن يقفه ، وأن يقول له حسبك فقد أرضيت وأربيت .

ولسنا نحن معجلين عن التفكير والروية ، ولسنا نخاف من الشاعر أن يدفننا فى أزهاره هذه ، فقد ذبلت هذه الأزهار بعد أن مضى عليها أكثر من عشرة قرون . ونحن إذن ننظر فيها على نحو من الأناة والمهل ، يكشف لنا عن نفس الشاعر الذى صاغها ووهبها هذا الأمير .

ونحن إذا نظرنا فى هذه الأزهار ، دلتنا على أن الشاعر

كان يريد أن يبهر ممدوحه من جهة ، وكان صادقا فى تصوير ما يملأ نفسه ويملكها من الفرح والمرح والسرور ، فهو يصطنع المبالغة ، ولكنه لا يتكلفها ليخدع بها الممدوح عن نفسه وماله ، وإنما تصدر عنه فى غير تكلف ؛ لأنها تصور نفسه الراضية المبتهجة الآملة . كان يريد أن يسجد للأمير ، ولكن الأمير كره أن يُعبد من دون الله ، فأرضاه الشاعر بترك السجود له . ولو أن بدراً طغى على نفسه وعلى الناس ، وخرج عن طوره ، ورضى من المتنبى وأشباهه أن يسجدوا له لما تردد المتنبى ، فيما أرى ، ولما كره أن يتقرب إليه بالسجود وأن يخرج له عن هذه الكبرياء ، التى صورته لنا فى شبابه عزيزا أبيا لا يقبل الضيم . وسنرى أن حياة المتنبى منذ ذلك الوقت ليست إلا سلسلة متصلة من بذل هذه الكبرياء ، للسادة والقادة والأمراء ، ثم البكاء عليها بعد أن يبذلها ويفرط فيها . وسنرى أن المتنبى لم يخرج لبدر وأشباهه عن كبريائه وحدها ، بل خرج لهم عن أشياء كثيرة أخرى ليست أقل من الكبرياء خطراً عند الرجل الكريم .

والمتنبى يرى أن بدراً هو الأمير كل الأمير لا يؤمر عليه

إلا الندى ، ويرى أنه الجواد ، كل الجواد لا يبخل على الناس إلا بالبخل . ويرى أنه إذا مدح كره المدح وضاق به ، كأنه يحسد نفسه ، ويرى أنه يقدم على كل شيء إلا الفرار ، ويقدر على كل شيء إلا على أن يزيد حظه من الفضيلة لأنه قد بلغ أقصاها الذى لا مزيد عليه .

والشاعر يمضى على هذا النحو إلى آخر القصيدة : معان قوية تستمد قوتها من المبالغة والطباق ، ومتلاحقة يدفع بعضها بعضاً ، وتحملها إلى أذن الممدوح ألفاظ خفيفة سريعة كأن لها أجنحة تشق بها الهواء . وهى مع ذلك متينة رصينة لا تؤذى السمع ولا تنبو عن الطبع . فإذا بلغ المتنبى رضا ممدوحه ، وأخذ من ماله حتى اكتفى ، وأمن بعد خوف ، واستراح بعد جهد ، وتغطى كما يقول أبو نواس من دهره بظل جناحه ، ثابت إليه نفسه ، وعاد إليه رشده ، وتقدم فى مدحه هادئاً مطمئنا ومفكرا مرويا .

ويجب أن نعتدل ونقتصد حين نذكر تفكير المتنبى وترويته ، فهو لا يفكر ولا يروى إلا فى فنه ، فأما فى طبيعة الأشياء ، وأما فيما يحسن وما لا يحسن ، وأما فيما يقال وما لا يقال .

فالمتنبي لا يعرف تروية ولا تفكيراً . وإنما هو إذا أقبل على بدر بالمدح بعد هذه القصيدة سلك طريقه المألوف ، واصطنع الأناة والمهل . فقدم النسيب والغناء بين يدى المدح والثناء ، ولم يندفع بمعانيه وألفاظه اندفاع السيل المنحدر من القمة العالية إلى القاع السحيق ، وإنما سار بها سيراً يختلف سرعة وبطئا ، ولكنه معتدل على كل حال . وهو غير معجل عن نسيبه حين ينسب ، ولا عن تشبيهه حين يشبه ، ولا عن وصفه حين يصف ، وهذا لا يمنعه من المبالغة والإسراف ، بل قد يدفعه إليهما دفعاً .

فانظر إلى هذه القصيدة التى مدح بها بدراً ، وقد أراد الطبيب أن يفصده فغلظ عليه وأذاه ذلك بعض الشىء ، فسترى أنه قد عاد فيها إلى مذهبه ومذهب غيره من الشعراء ، فقدم بين يدى المدح بهذا الغزل المصنوع الذى يظهر فيه جهد العقل والفن أكثر مما تظهر فيه حرارة العاطفة وقوة الشعور . ثم تغنى بعد ذلك بشىء يسير من أمره ومن خلقه ، وكأن صوابه قد ثاب إليه ، وكأنه يسترد من نفسه بعض ما أعطى ، فهو يتحدث بكثرة تنقله ، وبأنه إذا أنكر قوما

زال عنهم ، و بأن أرض الله واسعة وفيها للكريم مضطرب كما قال القدماء .

ثم هو بعد ذلك يمضى فى مدح بدر ، حتى يصل إلى خطأ الطبيب . فانظر إليه كيف يصور هذا الخطأ فى هذا التكلف الذى قد لا يخلو من سماجة تخفيها جزالة الألفاظ ورصانتها :

لم تُبقِ إلاّ قَليلَ عافِيـــــةٍ
قد وَفَدَتْ تَحْتَـــديكَهَا العِلَلُ
عُذْرُ المَلُومَين فيكَ أَنّهـــما
آسٍ جَبـــانٌ ومِبْضَعٌ بَطَلُ
مَدَدْتَ فى راحـــةِ الطَبيب يدًا
فما دَرَى كَيفَ يُقطَعُ الأَمَلُ
إنْ يكُنِ البَضْعُ ضَرَّ باطِنَهـــا
فرُبَّمـا ضَرَّ ظَهْرَها القُبَـــلُ
يَشُقُّ فى عِرقِهَا الفِصـــادُ ولا
يَشُقُّ فى عِرقِ جُودِها العَذَلُ
خامَرَهُ إِذْ مَدَدْتَهـــا جَزَعٌ
كأَنهُ من حَذاقةٍ عجِـــلُ

جازَ حُدُودَ اجتِهـــادِه فأَتَى
غَيرَ اجتِهـــادٍ لِأُمِّهِ الهَبَلُ
أَبلَغُ ما يُطلَبُ النَجـــاحُ بهِ ا
طَبعٌ وعِنـــدَ التعمُّقِ الزَّلَلُ
ارْثِ لَهَـا إنَّها بما مَلَـكَتْ
وبالذى قد أَسَلْتَ تَـنهمِلُ
مِثلُكَ يا بَدرُ لا يكونُ ولا
تصلُحُ إلاَّ لمثـــلِكَ الدُوَلُ

أما أنا فلا أرى فى هذا الكلام جمالاً ولا حسنا ، وإنما أرى فيه صنعة ثقيلة ، وتكلفا بغيضا ، وسماجة يخفيها الفن ويسبغ عليها زينة كاذبة ، وحيلة باطلة . وليس يعدل مافى هذا الكلام من السماجة الخفية إلا هذه السماجة الظاهرة فى بيت آخر من هذه القصيدة يسبق هذه الأبيات وهو قوله :

يا بَدرُ يا بَحرُ يا غَمـــامةُ يا
لَيْثَ الشَرَى يا حِمـامُ يا رَجُلُ

وما أشك فى أن المتنبى كان معجباً بهذا البيت ، وما أشك

فى أنه أنشده مقطعاً له ، واقفاً عند كل جزء من أجزائه . وقد ملأه التيه والغرور ، وما أشك فى أن إعجاب بدر بهذا البيت لم يكن أقل من إعجاب المتنبى . وما أرتاب فى أن كثيراً من الناس يعجبون به ويغلون فيه ، كما فعل المادح والممدوح . ولكنى لا أدرى لماذا يخيل إلىَّ أن هذا البيت يصور أسمج ما كان فى المتنبى حين كان ينشد بين يدى ممدوحيه من هذه الخيلاء التى لا تمثل إلا ذلة وضعة وضعفاً وسخفاً .

على أن أجود ما قال المتنبى فى بدر عندى هى لاميته ، التى يصف فيها ما كان بين بدر وبين الأسد من صراع ينتصر فيه بدر . فالمتنبى قد صور الأسد المصارع المدافع فى هذه القصيدة ، وصور هذا الصراع والدفاع تصويراً رائعاً بارعاً ، بز فيه نفسه ، وفاق فيه طاقته ، وخرج فيه عن طوره المألوف .

وأكاد أعد هذه القصيدة من آيات المتنبى ، بل أنا أعدها من هذه الآيات ، ولا سيما هذا القسم الوصفى منها ، لولا أن فيها سخفاً سخيفاً ورطته فيه المبالغة ، وردته إلى بعض ما كان يهذى به فى شبابه مما ينحرف عن الدين فى غير روية ولا تفكير ولا غناء فلسفى . فقد يحتمل من الشاعر

أو المفكر أن ينحرف عما يألف الناس وعما يحبون ويؤثرون حين يدعوه إلى ذلك لون من ألوان الجمال ، أو يغريه بذلك فن من فنون التفكير ، أو رأى من الآراء الفلسفية . فأما أن يتجاوز القصد وينحرف عن المألوف لا لشيء إلا ليزيد فى تملق ممدوحه ، ويزيد بذلك حظه من الجائزة ، فهذا هو الصغار الذى لا ترضاه إلا النفس الصغيرة . وهذا السخف الذى دفع إليه المتنبى فى هذه القصيدة هو قوله :

لو كانَ عِلْمُكَ بالإلٰهِ مُقَسَّمًا
فى الناسِ مَا بَعَثَ الإلٰهُ رَسُولا
لو كان لَفظُكَ فيهمُ ما أَنْزَلَ اللْـ
ـفُرْقَانَ وَالتوراةَ وَالإنجيـــلا

أفتراه طمع فى أن يستهوى بدراً إلى قرمطيته القديمة ؟ من يدرى ؟ ولكننا نتجاوز له عن هذا السخف فى سبيل هذا الوصف الرائع الذى لابد من روايته لأنه أجمل من أن يهمل :

أَمُعفِّرَ اللَّيثِ الهِزبرِ بِسَوْطِه
لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصارمَ المصْقولا

وَقعَتْ على الأرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ
نُضِدَتْ بها هامُ الرِّفاقِ تُلولا
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيرةَ شارباً
وَرَدَ الفُراتَ زئيرُهُ والنيلا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوارِسِ لابسٌ
فى غيلِهِ من لِبدَتَيْه غِيلا
ما قُوبلَتْ عَيْناهُ إلاّ ظُنَّتا
تحتَ الدُجى نارَ الفَرِيقِ حُلولا
فى وَحْدةِ الرُهبانِ إلاَّ أنهُ
لا يَعرِفُ التَحْريمَ وَالتَحليلا
يَطَأُ الثَرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تِيهِهِ
فكأنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَليلا
وَيرُدُّ عُفرَتَهُ إلى يافوخِه
حَتَّى تَصيرَ لرأسِهِ إكْليلا
وَتظُنُّهُ مِمَّا يُزمْجِرُ نَفسُهُ
عنها لِشِدَّةِ غَيْظِهِ مَشْغُولاً

قَصَرَتْ مَخافتُهُ الخُطَا فكأنَّما
رَكِبَ الكَمِيُّ جَوادَهُ مَشكُولا

أَلقَى فَريستَهُ وَبَرْبَرَ دُونَها
وَقَرُبْتَ قُرباً خالَه تَطفيلا

فتَشابَهَ الخُلُقانِ فى إقدامِهِ
وَتخالَفَا فى بَذْلِكَ المأْكولا

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيه فيك كِلَيْهِما
مَتْناً أَزَلَّ وَساعِداً مَفْتُولا

فى سَرْجِ ظامِئَةِ الفُصوص طِمِرَّةٍ
يأْبَى تَفَرُّدُها لها التَمثيلا

نَيَّالَةِ الطَلَباتِ لَوْلا أنَّها
تُعطِى مَكانَ لِجامِها مانِيلا

تَنْدَى سَوالِفُهَا إذا اسْتَحْضَرْتَها
ويُظَنُّ عَقْدُ عِنانِهَا محلولا

ما زال يَجْمَعُ نَفْسَهُ فى زَوْرِهِ
حتى حَسِبْتَ العَرضَ مِنْهُ الطُولا

وَيَدُقُّ بالصَدرِ الحِجارَ كأَنَّهُ
يَبْغِي إلى ما فى الحَضيضِ سَبِيلا

وَكأنّه غَرَّتْهُ عينٌ فادَّنَى
لا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجَليلَ جَليلا

أَنفُ الكريم من الدَنيئةِ تاركٌ
فى عَينِهِ العدَدَ الكَثيرَ قَليلا

وَالعارُ مَضّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
مِن حَتفهِ مَنْ خافَ مِمّا قيلا

سَبَقَ الْتِقاءَكَهُ بوَثْبَةِ هاجِمٍ
لو لم تُصادِمْهُ لجازَكَ مِيلا

خَذَلَتْهُ قُوَّتُه وقد كافَحْتَهُ
فاستَنصَرَ التَسليمَ وَالتَجديلا

قَبَضَتْ مَنِيَّتُهُ يَدَيه وَعُنْقَهُ
فكأنّما صادَفْتَهُ مَغلُولا

سَمِعَ ابنُ عَمَّتِه به وبِحَالِهِ
فَنَجا يُهَرْوِلُ أمس منك مَهولا

وأَمَرُّ مِمّا فَرَّ منهُ فِرارُهُ

وكَقَتْلِهِ أَن لا يَمُوتَ قَتِيلا

فهذا كلام يكفى أن تنظر فيه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة ، وترى فيه فتوة وقوة ، ما أرى إلا أن الشاعر قد استعارهما من نفسه ، وخلعهما على ممدوحه ، لا لأنى أجحد بلاء ابن عمار حين رد الأسد عن نفسه بالسوط ، بل لأنى أحس روح الشاعر يجرى فى هذا الكلام قويا فتيا مستجمعاً قوته وفتوته ، كأحسن ما استجمعهما فى شعره كله . وأنت تستطيع أن تقدر ما فى هذا الكلام من جزالة تلائم ما فيه من سهولة ويسر ، وأن تقدر ما وفق إليه الشاعر أحسن توفيق من وصف الناس ، والفرس ، والليث ، وما كان بين الخصمين من صراع ، ثم من الجمع بين وصفه المادى ، ووصفه المعنوى النفسى لليث إن صح هذا التعبير . ثم من حديث هذا الأسد الآخر الذى جعله ابن عمة الأسد القتيل ، فقد سمع بما ألم بابن خاله ، ففر وآثر العافية لنفسه .

وأنت معجب كذلك بهذه الأبيات التى ينثر الشاعر فيها حكما وأمثالاً أثناء هذا الوصف الرائع ، لا لأن هذه

الحكم والأمثال طريفة فى نفسها ، فهى مما ألف الناس ، بل لأن موقعها أثناء هـذا الوصف لا يخلو من الطرافة . فالناس إنما يفلسفون ويضربون الأمثال حين يتحدثون عن بلاء الانسان وما يحدث له من الخطوب . فإذا تحدثوا عن بلاء الحيوان وما يعرض له من الأمر ، فقلما يفلسفون لأن الحيوان نفسه لا يفلسف ولا يروى . ذلك إلى أن مكان هذه الحكم والأمثال يشيع فى هذا الوصف غناء يخرجه عن أن يكون وصفاً عادياً ، كما يخرجه عن أن يكون مدحا عادياً .

ولسنا نعرف دقائق حياة المتنبى عند بدر ، ولكننا نقدر أن هذا الشعر الرائع قد أرضى بدرا كل الرضى ، وأثار فى نفوس حاشيته شيئاً من الحسد ، لم تلبث آثاره أن ظهرت واضحة كل الوضوح . وقد أشار إليها المتنبى نفسه فى هذه اللامية الأخرى التى مدح بها بدراً ، والتى يقول فيها :

بَقائيَ شاءَ لَيسَ هُمُ ارتحالا
وحُسْنَ الصَبرِ زَمُّوا لا الجِمالا

فهو ينسب فى أول هذه القصيدة نسيباً مصنوعا كعهده منذ أقام عند بدر ، ثم ينتقل من هذا النسيب إلى غناء يذكر

فيه نفسه ، ولا شك فى أنه يعرض فيه بحاله الخاصة ، ويكاد ينبئنا بأنه سيضطر إلى الرحيل عن بدر . وذلك حيث يقول :

كأنَّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقلبى
فساعةَ هَجْرِها يجدُ الوِصالا
كذا الدُنيا على مَن كانَ قَبْلى
صُرُوفٌ لم يُدِمْنَ عَلَيهِ حالا
أَشَدُّ الغَمِّ عِندِى فى سُرُورٍ
تَيَقَّنَ عنه صاحِبُهُ انتقالا
أَلِفْتُ تَرَحُّلى وجَعَلْتُ أَرْضِى
قُتُودِى والغُرَيْرِىَّ الجُلالا
فما حاولْتُ فى أرضٍ مُقامًا
ولا أزْمَعْتُ عَنْ أرضٍ زَوَالا
عَلَى قَلَقٍ كأنَّ الرِيحَ تَحْتى
أُوجِّهُها جَنُوباً أو شَمالا

وكأنه أشفق أن يفهم عنه هذا التعريض على وجهه ، وأن

يشعر بما يدبر فى نفسه ، فجعل هـذا البيت الأخير تخلصا إلى صاحبه ، وزعم أنه يوجه هذه الريح إلى بدر ، ثم يمضى فى مدح بدر حتى يصل إلى هذين البيتين اللذين سيتمثلهما فى بغداد بعد أكثر من خمس وعشرين سنة ، حين يلح عليه شعراء العراق بالهجاء ، فيسأله أصحابه أن يرد عليهم ، فيزعم أنه سبق إلى الرد عليهم فى شبابه حين قال :

أَرَى المُتَشَاعِرِينَ غُرُوا بِذَمِّى
ومن ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ
يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُلالا

وقد أضاف ابن رائق السواحل إلى عمل بدر ، فهنأه المتنبى بمقطوعة تجدها فى الديوان ، ولكن بدرا حين سافر إلى السواحل ليتسلم ما أضيف إليه من الأقاليم ، لم يصحبه المتنبى فى سفره هذا . وانتهز خصومه هذه الفرصة ، فأغروا به الأمير وحرضوه عليه ، وكأن إغراءهم وتحريضهم قد وقع من نفس بدر موقعا ، فنحن نرى المتنبى يمدحه بعد عودته و يعتذر إليه من هذا القعود ، بل

يستغفره هـذا الذنب فى قصيدة نونية ليست فى نفسها شيئا . ولعـل روحا من السماجة يجرى فيها خفيا حينا وظاهرا حينا آخر . ولـكنا نروى منها هذه الأبيات التى يصرح فيها بذكر حساده وخصومه :

فَطَنَ الفؤادُ لَما أتيتُ إلى النوَى
ولِمَا تركتُ مخافةً أنْ تَفْطُنا
أضحَى فِراقُكَ لى عليـه عُقوبةً
ليْسَ الذى قاسَيْتُ منهُ هَيِّنا
فاغفِرْ فِدًى لك واحْبُنى من بَعْدِها
لتخصَّنى بعَطِيَّـةٍ منهـا أنا
وانْهَ المُشيرَ عليكَ فىَّ بِضَـلَّةٍ
فالحُرُّ مُمْتَحَنٌ بأولادِ الزِنَى
وإذا الفتَى طَرَحَ الكلامَ مُعَرِّضاً
فى مَجْلِسٍ أخَذَ الكلامَ الَّذْ عَنَى
ومكايدُ السُفهاءِ واقِعـةٌ بِهِم
وعداوةُ الشعَرَاءِ بِئسَ المُقْتَنَى

لعِنَتْ مُقارَنةُ اللِّئامِ فإنَّها
ضَيْفٌ يَجُرُّ منَ النَّدامَةِ ضَيْفَنا

غَصَبُ الحَسُودِ إذا لَقِيتُكَ راضِياً
رُزْءٌ أَخَفُّ عَلَيَّ مَنْ أَنْ يُوزَنا

٣

فما الذى هاج الحساد على المتنبى حتى وشوا به عند بدر ، وأخذوا يفسدون ما بينهما ؟ أهو ما قدمناه من أن المتنبى قد برع فى مدح بدر حتى أرضاه ، ومن أن بدراً قد جد فى إعطاء المتنبى حتى أرضاه أيضا ، فنشأ عن هذا ما ينشأ عادة فى نفوس المقربين من الأمراء وأصحاب السلطان ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الكيد لهذا الشاعر الطارئ ، الذى صرف عنهم الأمير شيئا ، وهم حراص على أن يخلو لهم وجهه ؟

ليس من شك فى أن شيئا من هذا قد هاج حسد الحساد على المتنبى ، وقد نستطيع أن نضيف إلى هذا ما يلائم طبيعة البيئة العراقية التى انتقلت مع بدر إلى طبرية . فقد كانت هذه البيئة ماهرة فى الكيد حقًّا ، تعيش فيه كما يعيش السمك فى الماء ، وتفسد حياتها إن خرجت من الكيد أو اضطرت إلى شىء من الصراحة والنقاء . وأيسر نظرة وأعجلها فى حياة القصر البغدادى ، تقنعنا بأن الكيد

كان قوام الحياة حول الأمراء ، وأصحاب المناصب فى ذلك العصر . فليس غريبا إذن أن يشقى المتنبى بهؤلاء الكائدين ، وألا يطول ابتهاجه بالإقامة عند هذا الأمير الذى كان يقدر أنه سيلقى عنده الأمن والهدوء وتحقيق الآمال . ولكن يجب أن نلاحظ شيئين ، بل أشياء :

الأول : أن المتنبى كان مفتونا بنفسه ، يظهر ذلك فى شعره وحديثه وسيرته ، ويستعلى على أصحابه عند الأمير .

الثانى : أن المتنبى لم يألف قبل ذلك الوقت معاشرة السلطان ولا حياة القصور ، وإنما ألم بشىء يسير جدًّا من ذلك مع التنوخيين فى اللاذقية ، ثم صرفته عنه المحنة ، ثم عاش مشردا يكسب حياته بمدح أوساط الناس وبالتنقل فى البادية . فلما اتصل ببدر استقبل حياة لم يكن قد هيِّئ لها ، فلم يحسن تعرف ما يحتاج إليه الأمير من شاعره . وليس أدل على ذلك من قعوده عن مصاحبة الأمير فى سفره إلى الإقليم الذى أضيف إليه ، والذى هنأه به المتنبى نفسه .

والثالث : أن الأمير قد أخلص فى حب المتنبى وإيثاره بالخير ، واصطفائه لنفسه ، حتى ألغى الحجاب بينه وبينه ،

واستطاع المتنبى أن يدخل عليه ، وقد حجب نفسه عن الناس[١] . ثم اشترك المتنبى معه فى لهوه وعبثه ومجونه ، ونحن نرى من الديوان أن صاحبنا لم يكن نديمًا يحسن المنادمة ، فهو كان يمتنع على الأمير إذا طلب إليه الشرب ، ولا يستجيب له إلا كارهًا . وهو كان يظهر من ذم الخمر والانصراف عنها مالا يرضى فتى ماجنا لاهيا من فتيان العراق . وكان المتنبى يأتى ذلك فى صراحة لا تعرف التحرُّج . ثم إذا ألح الأمير عليه فى الشرب شرب حتى سكر ، وحتى ذهل عما يأتى وعما يقول .

فليس غريبا أن يثقل هذا منه على الأمير ، وأن تنتهز حاشية الأمير الفرصة فتضيف كيداً إلى كيد . وكان المتنبى إذا خلا إلى الأمير فى ساعات لهوه أكثر من ارتجال الشعر لحاجة ولغير حاجة ، يريد أن يبهر الأمير ويسحره ، ويستعلى على حاشيته وندمائه حتى ظنت به الظنون ، وحتى زعم ابن كروس للأمير أنه يصنع هذا الشعر ويهيئه قبل أن يحضر المجلس . فامتحنه بدر فى القصة المعروفة[٢] التى تحدثنا بأنه

(١) انظر الواحدى ص ٢٣٨ .
(٢) « « ص ٢٤٣ .

أحضر لعبة تمثل فتاة قد وقفت على رجل ورفعت رجلها الأخرى وهى تدار على لولب . فإذا وقفت بحذاء أحد من المجلس نقرها فدارت عنه إلى غيره . فقال فيها المتنبى شعرا كثيرا لا يملك قارئه إلا أن يفكر فى أحاديث هوفمان .

وثبت لبدر ولابن كروس أن المتنبى يرتجل حقًّا . وكان المتنبى خليقا أن يكتفى بهذا ، ولكنه سجل انتصاره تسجيلا . وكذلك لم يكن المتنبى يحسن احتمال ما يلقى من الدعابة فضلا عن الكيد ، فكان ذلك يحفظ خصومه ، ويزيدهم مكرا به وحنقا عليه .

وقد أكره المتنبى على الشرب ليلة ، فشرب حتى سكر وذهل عن نفسه ، فلما أصبح غدا على الأمير ، فعرض عليه الشراب ، فقال هذه الأبيات التى تصور غلظته وخشونة طبعه ، وأنه إن صلح للمدح وللمدح الرائع ، فهو أغلظ روحا وأجفى طبعا من أن يصلح لمنادمة الأمراء من أهل العراق :

وَجَدْتُ المُدامةِ غَلّابَةً
تُهيِّجُ لِلقَلْبِ أشْواقَهُ

تسِيءُ من المَرْءِ تأْديبَهُ
ولـكن تُحسِّنُ أخلاقَهُ
وأَنفَسُ ما لِلْفتَى لُبُّهُ
وذو اللُبِّ يَـكرَهُ إنفاقَهُ
وقد مُتُّ أمسِ بها مَوْتةً
ولا يَشتَهِي المَوتَ مَن ذَاقَهُ

تقصير فى خدمة الأمير حين يجد الجد ، وقصور عن خدمة الأمير فى أوقات اللهو ، وجهل بحياة القصور ، وامتلاء بالنفس ، وازدراء للأشباه والنظراء ، ومن يدرى ؟ لعل لسان المتنبى لم يكن يستقر فى فمه إذا خلا إلى من كان يظنهم أصدقاءه وأصفياءه . فإذا أضفت إلى هذا كله كيد رجال القصور ، لم تجد غرابة فى أن يفسد الأمير على المتنبى كل الفساد ، وفى أن يتغير عليه قلب بدر ، ويعجز هو عن إصلاح أمره ، وينظر فإذا هو معرض للغضب ثم للخطر . وإذا هو مخير بين هذا الشر ، وبين شر آخر كان يظن أنه قد استراح منه إلى آخر الدهر وهو الفرار .

٤

وقد فر من جوار بدر فلم يبعد أول الأمر ، وإنما نزل فى جبل جرش [١] على صديق له يعرف بأبى الحسن على بن أحمد الخراسانى ، ومدحه بقصيدة أقل ما تدل عليه شيئان : أحدهما أن هذه المحنة الجديدة إن نالت من نفسه فإنها لم تنل من فنه بحال من الأحوال . فالشاعر مالك لأمره كله كعهده فى أحسن أوقات الرضى والأمن عند بدر ، لم يضعف فنه ولم يمسسه شىء من هذا الفتور ، بل من هذا الانحلال الذى أدركه بعد أن انجلت عنه محنة السجن . ومعنى هذا أن فن الشاعر كان قد نضج واستحصد ، وانتهى إلى حيث لا تفسده المحن ، ولا تزيده المصائب إلا قوة ونضجاً واستحصاداً

وهذا هو الذى يحملنى على أن أخالف بعض الذين أرَّخوا المتنبى من المحدثين ولا سيما الأستاذ بلاشير ، فأرد

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت

بعض القصائد التى قالها فى مدح جماعة من الأنطاكيين إلى عهد ضعفه وفتوره ذاك قبل أن يلحق ببدر . وسنرى حين نتبع المتنبى فى طريقه كلها ، أن المحن قد تضعف عزمه وتؤثر فى نفسه ، ولكنها لن تبلغ من فنه إلا مرة أو مرتين ، وسنجد لذلك علله الصحيحة التى ليس بينها و بين المحن صلة ، و إنما هى متصلة بنفس الشاعر أو بالموضوع الذى سيعالجه على غير استعداد للقول فيه . فهذه القصيدة التى نحن بإزائها متقنة كل الاتقان ، تصور الشاعر محتفظا بسلطانه الفنى ، وقدرته على تصريف الألفاظ والمعانى كما يريد .

والشىء الثانى الذى تدل عليه هذه القصيدة أن نفس الشاعر قد أوذيت حقًّا بهذه المحنة الجديدة ، وأوذيت فى أعماقها . فالشاعر محزون ، ور بما كانت هذه الكلمة أضعف من أن تؤدى ما كان يجد الشاعر من الألم بعد خيبة أمله فى بدر ، و إن شئت فقل : إن الشاعر فى هذا الوقت كان يجمع فى نفسه بين خصلتين متناقضتين ، أو بين خصال متناقضة : فهو قد أحس الذل وانكسرت له نفسه ، واحتمل مالم يتعود أن يحتمل من الضيم ، وهو يجد لذلك لذعا أليما لا يكاد يطيقه .

ثم هو يحس كأن نفسه الأولى قد ثابت إليه ، وكأن عزمه القديم قد راجعه ، وكان شيئا يناجيه من أعماق شبابه الماضى ، يدفعه إلى أن يثور آبيا للضيم نابيا على الذين أرادوا أن يضيموه وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن صغائر الأمور . وأنها أكرم عليه وأشرف عند الناس من أن تطمئن إلى ما أريد بها من الذلة والهوان .

ثم هو بعد هذا كله لم ينس التجربة القديمة ، ولم يغب عنه أثرها فيه وانهزامه لها ، فهو فى حاجة إلى كثير من الحذر والاحتياط ، والمهل والأناة ، لا يكاد يهم بالوعيد والنذير حتى يثوب إلى رشده ، ولذا هو يحول هذا الوعيد والنذير عن وجهه ، ويجعله أداة شعرية يتخلص بها إلى ممدوحه ليس غير . والشاعر فى هذه القصيدة مشغول النفس بهذا الحزن الذى يملأ قلبه عن النسيب والغزل ، وتكلف الصنعة الفنية . فهو إذا أراد أن يمدح لم يقدم بين يدى المدح إلا بهذا الغناء الذى يصور هذه الخصال التى حدثتك عنها آنفاً .

واقرأ معى هذه الأبيات التى يتغنى الشاعر فيها بآلامه وخيبة آماله ، فسترى أن أول ما يتغنى به من ذلك ، إنما هو

الذل الذى أحسه ، والندم الذى يحرق قلبه ، لأنه رضى هذا الذل وأقام عليه :

لا افتِخارٌ إلا لِمَنْ لا يُضامُ
مُـــدْرِكٍ أو محاربٍ لا ينامُ
ليسَ عزماً ما مَرَّضَ المرءُ فيه
ليس هَمًّا ما عاقَ عنه الظلامُ
واحتمالُ الأذَى ورُؤْيةُ جانيـ
ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى به الأجسامُ

كأنه حين أراد أن ينشىء هـــذه القصيدة استوحى شيطانه الشعر ، فأحس أن هذا الشـيطان يريد أن يدفعه إلى الفخر وأن يوحى إليه منه ألوانا كما تعوّد أن يفعل . ولـكن الشاعر لا يرى نفسه أهلا للفخر ولا خليقاً به بعد أن ذاق من الذل ما ذاق ، واحتمل من الضيم ما احتمل ، فهو يمتنع على شيطانه ويأبى أن يتلقى عنه هذا الوحى الذى لا يلائم حاله ، ولا يصور ما يجد فى نفسه . إنمـا الفخر لمن يأبى الضيم ويمتنع على الذل منتصراً على المحن والخطوب ،

قد ضحى فى هـــذه المقاومة بالراحة والنوم ، وآثر الجهاد والسهاد . وما فعلت من ذلك شيئا وإنما انهزمت للمحنة حين ألمت بى ، وآثرت الراحـة حين أتيحت لى ، وأنا أحس من نفسى عزماً ماضيا وهمًّا بعيدا ، ولـكن ما هذا العزم الذى يقصر صاحبه عن إنفاذه . وما هذا الهم الذى يرتد عنه صاحبه لأول ما يعرض له من العقبات .

كلا ! إنى أحس فى نفسى حاجة إلى شىء غير الفخر . أحس فى نفسى ألما ، وفى جسمى سقما ، وأكاد أندفع إلى أن أشكو وأبكى ، لا إلى أن أفاخر وأكاثر . لقد احتملت الأذى ، ورأيت من كان يجنيه علىّ ويلحقه بى ، فلم أدفع الأذى عن نفسى ، ولم آخذ من جانيه بحق ، وإنما أذعنت واستكنت ، وآثرت الخضوع والاستسلام .

والشاعر فى هـذا الكلام صادق اللهجة حقا ، تحس فى شـعره أن فؤاده يتفطر ألما ، وأن صدره يغلى غيظاً وحنقاً :

ذَلَّ من يَغبطُ الذليلَ بعَيْشٍ
رُبَّ عيشٍ أخَفُّ منه الحِمامُ

كلُّ حِلمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقتدارٍ
حُجَّةٌ لاَجِئٌ إليهـــا اللِّئَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ
ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

وكأن شيطانه قد جعل يعزيه ويسليه ، ويهوّن عليه احتمال الخطْب ، فزعم له أنه لم يحتمل ما احتمل ، ولم يرض ما رضى إلا ليبلغ ما كان يتوق إلى بلوغه من الثروة والأمن وخفض العيش . وكأن شيطانه جعل يذكره بأنه كثيرا ما أنكر أن ينعم الجاهلون ويشقى العاقلون . ثم يتحدث إليه بأن النعمة قد أتيحت له ، فسعى إليها واشتراها بثمنها ، فهو يجيبه بهذا البيت :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بعيْشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ منه الحِمَامُ

فإذا عجز شيطانه عن إقناعه من هذه الطريق ، سلك إلى إقناعه طريقا أخرى ، فزين له أنه لم يرض ذلاً ولم يقبل ضيما ، وإنما صبر وغفر وآثر العفو والحلم ، ولكن

هـذا الباطل لا يخدع الشاعر عن نفسه ، ولا يشغله عما يملأ قلبه من ندم ولوعة ؛ فهو يعلم حق العلم أنه لم يؤثر عفوا ولا حلما ، وإنما كان عاجزاً عن أن ينتقم لنفسه . ولن يكون الرضا حلما ، حتى تصحبه القدرة على الجهل ، ولن يكون الإغضاء عفواً حتى تصحبه القوة على البطش :

كلُّ حِـلمٍ أتَى بِغَيرِ اقتدارٍ
حُجَّةٌ لاجئٌ إليهـا اللِّئامُ

كلا ! إن النفس لم تصغر عليَّ إلى هذا الحد ، وإنى لم أيأس منها بعد ، وإنما أنا أجد بقية من الأمل وفضلا من الرجاء ! لست أحس الألم لما أدركنى من مساءة . لو كانت نفسى هينة لسهل عليها احتمال الهون ، كما أن الميت لا يؤذيه ما يلحق جسمه من جراح .

ثم يثب الشاعر من هذا الضعف والانحلال ، ومن هذا اللوم الذى كان يغمر نفسه به إلى شىء جديد من الأمل والنشاط ، بل إلى أكثر من الأمل والنشاط . فقد فتح له باب الرجاء ، واستيقن أنه ما دام لم يرض الذل ولم يحتمله

راضياً به غير متألم له ، فهو خليق أن يعرف نفسه وأن يسلك طريقه إلى المجد . فقد يكبو الجواد ، ولكنه ينهض من كبوته . وصاحبنا لا ينهض ، وإنما يثب وثوباً ، وإذا هو يسترد كبرياءه كلها ، وإذا هو يطاول الزمان ويغالب الدهر ، وإذا هو ينتهى من ذلك إلى سخفه الماضى وضلاله القديم :

ضاقَ ذَرْعًا بأنْ أَضِيقَ به ذَرْ
عًا زَمانِي واستكْرَمَتْنِي الكِرامُ
واقِفًا تحتَ أَخْمَصَىْ قَدْرِ نَفْسِي
واقفاً تحتَ أَخْمَصَّى الأنامُ

وما دام قد استرد كبرياءه كله وبدت له نفسه كما يراها ، فهو أعظم وأكرم وأشد بأسا ، وأمضى عزماً من أن يقر على ما أريد عليه من الهوان . وإذا هو يندفع إلى الوعيد كعهده قبل أن يجاوز العشرين :

أَقرارًا ألذُّ فوقَ شَرارٍ
ومَرَامًا أَبغِي وظُلْمِي يُرامُ
دُونَ أَنْ يَشْرَقَ الحِجازُ ونَجْدٌ
والعِراقانِ بالقَنا والشـــامُ

ولـكن بقية من عقل له أو لشيطانه ترده إلى الصواب ، وتحمله على الحذر والاحتياط . وإذا هو يعدل بهـذا الوعيد المخيف إلى المدح فيقول :

شَرَقَ الجَوَّ بالغُبارِ إذا سا
رَ عَلِيُّ بنُ أَحْمَـــدَ القَمْقامُ

وكأنه قد أحس أن بدراً يجدُّ فى طلبه مغيظا من هذا الهرب ، أو مغيظا من هذه القصيدة التى انتهت إليه .

ومن يدرى ؟ لعل بدراً لم يطلبه ولم يحفل به ، وإنما لعب الخوف بنفسه فظن أنه مطارد مطلوب . فلم يطل المقام عنـد صاحبه ، ولم ينعم عنده بأمن ولا راحة ، وإنما أعجل حتى عن وداعه واستئذانه فى الرحيل عنه ، ففر ، وقال معتذراً :

لا تُنكِرَنَّ رَحِيلِي عنكَ فى عَجَلٍ
فإنّنى لِرَحيـــلى غيرُ مُختارِ
ورُبَّمـا فارَقَ الإنسانُ مُهْجَتَهُ
يَومَ الوَغَى غيرَ قالٍ خَشْيَةَ العارِ
وقد مُنيتُ بجُسّادٍ أُحارِبُهُم
فاجْعَلْ نِداكَ عَلَيهِمْ بَعضَ أنصارى

ومهما يكن من شيء فقد دفع أبو الطيب إلى تلك الحياة البغيضة التى اصطلى آلامها ثلاثة أعوام أو أربعة قبل أن يتصل ببدر . فهو الآن مشرد ، يتنقل فى البادية خائفاً من السلطان ، لا يستطيع أن يدنو من أرض الاخشيديين . وقد كان بينه و بينهم ما انتهى به إلى سجن حمص . وقد كان منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر بن عمار ، ولا يستطيع أن يدنو من أرض ابن رائق فى الشام وأعالى الفرات ، وهو طريد بدر . و بدر كما رأيت أثير عند ابن رائق مقرب إليه . فليس له إذن أن يهيم فى البادية مخفيا نفسه على البدو ، و يستتر فى الحاضرة إن ألم بها منكراً نفسه على الحضر ، قد لفظته الأرض ، وضاقت به الدنيا ، وهو يصور لنا هذا أجمل تصوير وأروعه ، كما يصور لنا سخطه على الذى جنوا عليه هذه المحنة الثانية وذلك فى رائيته التى يقول فيها :

عَذِيرِى من عَذارَى من أُمور
سَكَنَّ جَوانِحى بَدَلَ الخُدُورِ
ومُبْتَسِماتِ هَيْجَاوَاتِ عصرٍ
عَنِ الأَسْيافِ ليسَ عن الثُّغور

رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمِى إليها
وكلَّ عُذافِرٍ قَلِقِ الضُفُورِ
أواناً فى بُيوتِ البَدْوِ رَحْلِى
وآونةً عَلَى قتَدِ البَعِيرِ
أُعَرِّضُ لِلرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِى
وأنصِبُ حُرَّ وَجْهِى للهَجِيرِ
وأَسْرِى فى ظَلامِ الليلِ وَحْدِى
كأنى منه فى قَمَرٍ مُنِيرِ
فَقُلْ فى حاجةٍ لم أَقْضِ منها
عَلَى تَعَبِى بها شَرْوَى نَقِيرِ
ونفْسٍ لا تُجِيبُ إلى خَسِيسٍ
وعَيْنٍ لا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ
وكَفٍّ لا تُنازِعُ مَنْ أَتانى
يُنازِعُنى سِوَى شَرَفى وخِيرِى
وقِلَّةِ ناصرٍ جُوزِيتَ عَنِّى
بِشَرٍّ منكَ يا شَرَّ الدُّهورِ

عَدُوِّى كلُّ شىءٍ فيكَ حَتَّى
خِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُدُورِ
فلو أنِّى حُسِدْتُ عَلَى نَفيسٍ
لَجُدْتُ به لِذِى الجَدِّ العَثُور
ولـكنِّى حُسِدْتُ عَلَى حَياتِى
وما خَـيْرُ الحياةِ بلا سُرُورِ

فأنت ترى فى هذه القصيدة اعترافه بالخيبة واستسلامه للمحنة ، وضيق نفسه بما يلقى من الشر ، ويأسه من تحقيق الأمل ، ولـكنه مع ذلك حفيظ على كرامته ، حريص على عزته ، لا يريد أن ينزل عن شرفه مهما تكن الأحداث . ثم هو يعدل إلى خصمه ابن كروس فيهجوه بهذه الأبيات اللاذعة :

فَيا ابْنَ كَرَوَّسٍ يا نِصفَ أَعْمَى
وإن تَفْخَرْ فيا نصفَ البَصيرِ
تُعادِينا لأنّا غَـيْرُ لُـكْنٍ
وتُبغِضُنا لِأَنّا غَـيْرُ عُورِ
فلو كنتَ امْرَأً يُهْجَى هَجَوْنا
ولـكنْ ضاقَ فِترٌ عن مَسِيرِ

٥

فماذا صنع المتنبى أثناء هذا الهرب ولم لبث مستخفيا ؟

لم يصنع شيئا ذا خطر فيما يظهر ، وإنما كان يلتمس النجاة ، فإذا ظفر بها التمس الأمن . وكان فى أثناء ذلك كثير الرجوع إلى نفسه ، ممعن التفكير فيما امتلأت حياته به من البؤس والشدة والشقاء .

وما أكاد أشك فى أن هذه المحنة الثانية قد أثارت فى نفسه ندما شديدا على ما أظهر من ضعف وخور ، ولعلها أحيت فى نفسه حنينا إلى الشباب ، وإلى ما كان فى الشباب من هـذه النزعات القرمطية التى إن جرّت عليه محنا وجشّمته أهوالاً ، فقد كانت تشـعره العزة والأنفة ، وتجعل لحياته وآلامه غاية سامية وغرضا شريفا .

ومن يدرى ؟ لعل هذا كله قد رده أو كاد يرده إلى قرمطيته الأولى ، ومهما يكن من شىء فأنا أرجح أنه فى أثناء هـــذا الاضطراب فكّر فى وطنه الأول غير مرة ،

وعرض له خيال جدته تلك التى طال بُعده عنها وفراقه لها . وما أرى إلا أن هيامه فى الأرض واضطرابه فى البوادى قد دفعاه إلى العراق ، وأنه همّ أن يدخل الكوفة للقاء جدته فلم يستطع ، لتلك الأسباب الغامضة التى تساءلنا عنها فى بدء هذا الحديث .

فانحدر إلى بغداد فيما تقول القصة ، أو لم ينحدر إليها فى أغلب الظن ، ولكنه كتب إلى جدته على كل حال لأنه هو ينبئنا بذلك فى قصيدته .

كتب إليها ينبئها بمقدمه أو بعجزه عن دخول الكوفة ويستقدمها للقائه . فلما انتهى كتابه إلى هذه الشيخة البائسة فرحت به ، فقتلها الفرح ، أو فرحت به فأخذت تقبله وتلح فى تقبيله باكية ، ودموعها تنهمل على الكتاب فتذيب المداد ، ولعل المداد هو الذى قتلها .

ومهما يكن من شىء فقد انتهى إلى المتنبى موت جدته ، فرثاها بهذه القصيدة التى روينا لك طرفاً منها فيما مضى ، والتى تصوره كما رأيت وكما تستطيع أن ترى من إعادة النظر فيها قرمطيا غاليا فى قرمطيته كأنه قد عاد إليها ،

وكاد يتورط فيها لولا أن هتفت به تجربته الأولى ، فأعادت إليه الحذر والاحتياط . وأنا أستغفر عشاق المتنبى والمؤمنين بشجاعته وإقدامه إن قلت إن المتنبى لم يصور أحداً كما صور نفسه فى هذا البيت المشهور :

وإذا ما خَلاَ الجَبَانُ بأرْضٍ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزالا

على أن الزمان الذى أسرف المتنبى فى ذمه قد أشفق على أبى الطيب من محنته هذه الثانية ، وكره له أن يتورط فى اليأس فيندفع إلى مثل ما اندفع له فى محنته الأولى . فلم يكد يمضى فى هربه عاماً أو بعض عام ، حتى تغير وجه السياسة فى بلاد الشام ، وفتح للهارب المستخفى باب من أبواب الفرج . فهذا ابن رائق فى أواسط سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، قد ترك الشام وعاد إلى بغداد ، وتركها معه بدر بن عمار ، ورفع الحرج الثقيل عن المتنبى ، وأصبح يستطيع أن يتنفس فى شىء من الحرية والأمن . فإلى أين ذهب ؟ وماذا صنع ؟

سؤال لا نظفر له بجواب واضح فيما بين أيدينا من

شعر المتنبى ، ولا فيما تحدث به الرواة .

على أن سنة ثلاثين وثلاثمائة لا تكاد تتقدم حتى يقتل ابن رائق ، يقتله ناصر الدولة أخو صديقه ومولاه بعد حين ، سيف الدولة الحمدانى . هناك ينهض الاخشيد لاسترجاع الشام ، وهنالك يظهر المتنبى فى غير إسراف فى التحفظ ، وأكبر الظن أنه لم يظهر ولم يدخل مدن الشام جهرة ، ولم ينشر فيها شعره مستظلا بظل الاخشيديين إلا بعد أن سعى فى ذلك فأطال السعى ، وجد فى ذلك فأمعن فى الجد . ونحن نراه يتقرب بشعره إلى عمال الدولة الاخشيدية وأصحاب المناصب المدنية والعسكرية فيها . وما أظن إلا أنه قد قال فى هذه المدة شعراً كثيراً مختلفاً ، تقرب به إلى أشخاص كثيرين مختلفين أيضا ، ولكنه ألغاه فيما بعد إلغاء ، مبتغيا مرضاة سيف الدولة ، كما يظن بلاشير أو مستخذيا من كثرة ما فيه من الاستعطاف الذى لم يكن يلائم مجده حين كان يملى شعره فى حلب ، أو فى الفسطاط ، أو فى بغداد . على أن ديوانه يحفظ لنا شيئا من هذا الشعر الذى تقرب به إلى عمال الاخشيديين . ونحن نذكر من هذا

الشعر قصائد خمسا ، هى على كل حال من جيد شعره وأرقاه .
الأولى : رائيته المشهورة التى يمدح بها على بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، ولعله كان عاملا للاخشيديين على أنطاكية والتى مطلعها :

أُطاعِنُ خَيْلاً من فَوَارِسِها الدهرُ
وَحِيدًا وما قَوْلِى كذا ومَعى الصَّبْرُ

وهى كما ترى بريئة من النسيب ، فإذا مضيت فى قراءتها رأيت الفخر الجزل الذى يصور غروراً وفتونا أكثر مما يصوّر شجاعة وحزما . ولكنى أقف من هذه القصيدة عند هذين البيتين اللذين يصل فيهما المتنبى إلى موسيقى تعجبنى ولعلها تعجبك ، وهما قوله :

ويَوْمٍ وَصَلْناهُ بِلَيْلٍ كأنما
عَلَى أُفْقِهِ من بَرْقِهِ حُلَلٌ حُمْرُ
ولَيْلٍ وَصَلْناهُ بِيَوْمٍ كأنما
عَلَى مَتْنِه من دَجْنِهِ حُلَلٌ خُضْرُ

وأقف كذلك عند هذا البيت الذى أرى فيه تعريضا بالمستأثرين بالأمر فى العراق :

وجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلاطينِ مَقْتُها

وما يقتَضِيني من جَماجِمِها النسْرُ

وهؤلاء السلاطين هم أهل الجور الذين أنذرهم فى بيت مضى من هذه القصيدة ، وهو قوله :

عَلَيَّ لِأَهْلِ الجَوْرِ كلُّ طِمِرَّةٍ

عليها غُلامٌ مِلْءُ حَيْزُومِه عَمْرُ

أما القصيدة الثانية فبائيته التى يمدح بها على بن محمد ابن سيار بن مكرم التميمى والتى أولها :

ضُرُوبُ الناسِ عُشّاقٌ ضُرُوبا

فأَعْذَرُهُمْ أَشَـــفُّهُمُ حَبِيبا

وكان هذا الرجل — فيما أرجح — من رجال الحرب . والديوان ينبئنا بأنه كان يحسن رمى النشاب . وأحب أن تقف من هـــذه القصيدة عند مقدمتها ؛ فهى تنقسم إلى قسمين :

أحدهما وهو القسم الأول يصف الحرب وقتل الأعداء وصفا رائعا ، وما أرى إلا أنه يشير إلى انتصار الاخشيديين

على أصحاب ابن رائق وطردهم عن بلاد الشام .

والقسم الثانى من المقدمة غناء حزين يذكر فيه المتنبى سوء حاله النفسية وضيقه بالحساد وبغضه للحياة ، لأنهم يشاركونه فيها . وهو فى هذا الغناء يصف الليل ونجومه أجمل وصف وأروعه وأرقاه .

والقصيدة الثالثة داليته التى مدح بها هذا الرجل نفسه ، والتى مطلعها :

أَقَلُّ فَعالى بَلْهَ أكثَرُهُ مَجْدُ
وذا الجِدُّ فيهِ نلتُ أَوْ لم أَنَلْ جدُّ

وما أرى إلا أنه قد احتذى بهذه القصيدة دالية الحطيئة :

ألا طَرَقَتْنا بعْدَما هجعوا هِنْدُ
وقد سِرْنَ خمْسا واتْلأَبَّ بنا نَجْدُ

فأحسن الاحتذاء والتقليد . والشاعر فى هذه القصيدة كعهده فى أيام الراحة والأمن ، معجب بنفسه كل الاعجاب ساخط على الناس كل السخط . واقرأ هذه الأبيات التى تصور سخطه على الناس ، بل غلوه فى هذا السخط ، والتى هى من أجمل شعر المتنبى لألوان التشاؤم التى ستنبثُّ

فيما سيقول من الشعر إلى أن يموت :

أَذُمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ

فأعلمُهُمْ فَدْمٌ وأحزَمُهُمْ وَغْد

وأكرمُهُمْ كَلبٌ وأبصرُهم عَمٍ

وأسْهَدُهُم فَهْدٌ وأشْجَعُهُمْ قِردُ

ومِن نكَدِ الدُنيا عَلَى الحُرِّ أن يَرى

عَدُوًّا لهُ ما من صَداقَتِه بُدُّ

أما القصيدة الرابعة ، فالزائية التى مدح بها أبا بكر على بن صالح الروذبارى ، ولعله كان عامل الاخشيد على دمشق ومطلعها :

كفِرِندِى فِرِنْدُ سَيفِى الجُرازِ

لذَّةُ العينِ عُدَّةٌ لِلبرازِ

ويقال — ويقبل بلاشير هذا القول (١) — إن المتنبى قد ظفر بما كان يريد ، فلقى محمداً الاخشيد فى دمشق وأنشده ، وأخذ جوائزه وظن أنه قد انتهى إلى

(١) بلاشير R. Blachère صفحة ١١٠ .

تحقيق أمله ، ولكن الأيام كذبت ظنه ، فمات الاخشيد فى دمشق سنة أربع وثلاثمائة ، قبل أن يتم اتصال شاعرنا به . والذى أثار هذا القول فيما يظهر أبيات رويت فى الصبح المنبى من قصيدة زعموا أن المتنبى رثى بها الاخشيد وهى :

هُوَ الزَمانُ مُشِتٌّ بالذى جَمَعا
فى كُلِّ يَوم تَرَى مِنْ صَرفِهِ بِدَعا
إن شِئتَ مُتْ أَسَفًا أو فابْقَ مُضطَرِباً
قد حَلَّ ما كُنتَ تَخشاهُ وقد وَقَعَا
لو كانَ مُمتَنِعٌ تُغنيهِ مَنعتُهُ
لم يَصنَعِ الدَهْرُ بالاخشيد ما صَنَعا

ولم يرو صاحب الصبح من القصيدة إلا هذه الأبيات . أما أنا فأرجح أن المتنبى لم يلق الاخشيد ، ولم يطمع فى لقائه ، فقد كان همه فى ذلك العصر أيسر من هذا وأهون ، ولو قد لقى الاخشيد لما قصر فى ذكر ذلك والافتخار به ، والموازنة بين الاخشيد وبين مولاه كافور ، ولا سيما حين غضب على كافور . وأنا أرى أن هذه القصيدة الزائية

قد قيلت فى وقت متأخر شيئا كما سترى .

أما القصيدة الخامسة ، فالدالية التى يمدح بها الحسين ابن على الهمدانى فيما يقول الديوان[١] ، أو المرى الخراسانى فيما يستظهر بلاشير[٢] ، وفيما يفهم من القصيدة نفسها وأولها :

لقد حازَنى وجدٌ بمَن حازَهُ بُعْدُ

فيا لَيتَنِى بُعدٌ ويا لَيْتَهُ وَجدُ

وإذن فقد جعل المتنبى يتقرب شيئا فشيئا إلى عمال الاخشيديين فى شمال الشام ، وهؤلاء يقبلون مدحه ويجيزونه ويقربونه إلى أمثالهم فى الجنوب ، حتى انتهى إلى عامل دمشق ثم إلى الحسين بن على هذا . ولعله كان فى طبرية أو قريبا منها حيث كان أبوه ، وانتهى آخر الأمر إلى أمير من أمراء الاخشيديين كان يقيم فى الرملة عاملاً عليها ومتوليا فى أكبر الظن لفلسطين . فألقى عصاه واستقرت به النوى عنـد هذا الشاب ، وهو قريب من مصر ، ولـكنه بعيد عنها . قريب

---

(١) انظر الواحدى ص ٣١٠

(٢) انظر بلاشير R. Blachère صفحة ١٠٠ — ١٠١ — ١١٠ وانظر كذلك معجم البلدان لياقوت مادة جرش .

من مصر يمدح عمالها وبعض أمرائها ، ولكنه بعيد عنها لم يمدح صاحبها أنوجور ولا وصيها كافور . وقد انتهى المتنبى إلى الرملة وظفر بحماية هذا الأمير الشاب وهو فى الثانية والثلاثين من عمره .

وقد لقى أهوالا وهموما ثقالا وآن له أن يستريح .

٦

على أنه لم يسترح وقتا طويلا فقد انتهى إلى أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فى الرملة فى أوائل سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فى أكبر الظن . ورحل عنه فى هذه السنة نفسها بعد أن أقام عنده أشهرا . وما أرتاب فى أن نفسه منّته أن يتجاوز الرملة إلى مصر ، ثم إلى الفسطاط ، وأن يتصل هنالك بالملك أو بالوصى . وما أرتاب فى أنه كان خليقا أن يحاول ذلك و ينفذه ، لولا أن الأمور السياسية قد جرت على ما حبب إليه الانصراف عن مصر والرجوع إلى شمال الشام .

فلننظر قبل كل شىء هذه الميمية التى مدح بها الأمير الاخشيدى الشاب . فهى من جياد قصائده ، وهى فى الوقت نفسه تصور لنا تردده بين مصر والشام تصويرا إن يكن بعيدا فإنه مع ذلك واضح جلى .

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول نسيب مصنوع متكلف كأكثر ما رأينا

وما سنرى من نسيب المتنبى ، والتكلف ظاهر لا فى معناه وحده ، بل فى معناه ولفظه أيضا . ويكفى أن تقرأ المطلع لتحس التكلف اللفظى والمعنوى :

أَنا لائمى إن كُنتُ وَقتَ اللوائمِ
علِمتُ بِما بى بَينَ تِلكَ المَعالمِ

فانظر إلى هذه الألف التى أثبتها فى الضمير أول البيت ليقيم الوزن . وانظر إلى هذا الحذف الذى اصطنعه بين المضاف والمضاف إليه فى آخر الشطر الأول ليقيم الوزن أيضا . فقد كان حقه أن يقول :

إن كنت وقت لوم اللوائم

والشاعر يذهب مذهب أبى تمام فى هذه الملاءمة اللفظية بين لائم واللوائم ، وبين علمت والمعالم ، ولكنه يعجز عن أن يبلغ ما كان يبلغه أبو تمام من العذوبة اللفظية التى تحبب إلى السامع والقارئ هذا الفن من البديع . وأنت واجد هذا التكلف الظاهر فيما يلى المطلع من الأبيات . بل أنت واجد فيها ذوقا غليظا يصنع الحب والغرام صنعا ، ويريد أن يكره أذواق الناس على قبول ما يصنع . ولكن قف عند هذين

البيتين اللذين وجدا من يعجب بهما إعجابا شديداً :

حِسانُ التثَنِّى يَنْقُشُ الوشْىُ مِثلَهُ
إذا مِسْنَ فى أجسامِهِنَّ النَواعِمِ
ويَبسِمْنَ عن دُرٍّ تَقَلَّدنَ مِثلَهُ
كأنَّ التَّراقِى وُشِّحَتْ بالمباسِمِ

فما رأيك فى هذه الأجسام التى رقت أبشارها ، وأسرفت فى الرقة حتى أن الوشى لينقش فيها حين تتثنى أو تميس . وما رأيك فى هذه التراقى التى كأنها حليت بالثغور ، لا لشىء إلا لأن بين الأسنان التى تبسم عنها الثغور و بين الحلى الذى تحمله الصدور شبها فى الرونق والصفاء . أما أنا فلا أرى فى هذا التشبيه إلا إغرابا ينتهى إلى السماجة .

أما القسم الثانى من القصيدة فهو غناء أدنى إلى الفخر ، وقد ألف المتنبى هذا النوع من الغناء والفخر ، حتى أصبح من الحق عليك أن تألفه وألا ترى فى ذكر المتنبى للحرب والبأس إلا وسيلة شعرية رأى المتنبى أنها تعجب الناس وتلائم حياة أهل الشام ، كما تلائم ميله وطبيعته . فأسرف فيها إسرافا شديدا . ولكن قف عند هذه الأبيات :

فمالى وللدُّنيا طِلابى نُجومَها
ومَسْعاىَ منها فى شُدُوقِ الأراقِمِ
مِنَ الحِلْمِ أَنْ تَسْتَعمِلَ الجَهلَ دُونَهُ
إذا اتَّسَعت فى الحِلْمِ طُرْقُ المَظالِمِ
وأَنْ تَرِدَ الماءَ الذى شطرُهُ دَمٌ
فتسْقَى إذا لم يُسْقَ مَن لم يُزاحِمِ

فأنت واجد فيها طبيعة المتنبى كلها التى سيصورها شعره إلى آخر ديوانه : جوع وأحاديث ، كما يقول المثل . وفلسفة فى الهواء ليس وراءها طائل ولا غناء .

ويمضى الشاعر حتى يبلغ صاحبه ، فيمدحه مدحا لا بأس به ، ليس خيرا ولا شرًّا مما ألفناه من مدحه للذين مدحهم ، غير بدر بن عمار ، حتى يصل إلى وصف الجيش فيحسن إحساناً ظاهراً فتن المتقدمين . وما أرى إلا أن تأثير بشار فيه ظاهر جدًّا ، وذلك قوله :

وَذِى لَجَبٍ لاذُو الجَناحِ أمامَهُ
بناجٍ وَلا الوحشُ المُثارُ بسالِمِ

تَمُرُّ عَليهِ الشَمسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ
تُطالِعُهُ من بَينِ رِيشِ القَشاعِمِ
إذا ضَوءُها لاقَى من الطَيرِ فُرْجَةً
تَدَوَّرَ فَوق البَيْضِ مِثْلَ الدَرَاهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الرَعْدُ والبَرْقُ فَوْقَهُ
من اللمعِ فى حافاتِهِ والهَماهِمِ

ثم اقرأ هذه الأبيات الثلاثة :

أرَى دونَ ما بَيْنَ الفُرَاتِ وبَرْقَةٍ
ضِراباً يُمَشِّى الخيلَ فوقَ الجَماجِمِ
وطَعْنَ غطاريفٍ كأنَّ أكُفَّهُمْ
عَرَفْنَ الرُدَيْنِيَّاتِ قبل المعَاصِمِ
حَمَتْهُ على الأعداءِ من كل جانبٍ
سيوفُ بنى طغْجِ بن جُفٍّ القَماقِمِ

فإن لها خطرها . فالمتنبى يشير فيها إلى ما كان من محاولة سيف الدولة أن يغير على جنوب الشام منتهزا موت الاخشيد ، لينقض ما كان قد تم بينهما من الصلح ، وما كان

من نهوض كافور لرده عن ملك الاخشيديين ، وإلزامه الحدود التى تم عليها الصلح مع الاخشيد . وما أتردد فى أن المتنبى كان ينتظر عاقبة هذه الحرب بين كافور وسيف الدولة ، ليمضى إلى مصر ، أو ليرجع إلى شمال الشام . ولعله كان يقدر أن كافوراً لن يكتفى بإكراه سيف الدولة على رعاية الصلح ، بل سينتهز الفرصة ليسترد شمال الشام ، ويمحق الحمدانى محقا . ولو قد فعل لما أبطأ المتنبى عن اللحاق به ومحاولة الانقطاع إليه ، ولكن كافوراً لم يزد على أن حمى المعاهدة واضطر سيف الدولة إلى رعايتها ، واحتفظ بالحدود التى أقرها الاخشيد .

وإذن فقد استقرت فى شمال الشام دولة عربية يظهر أنها قوية شديدة البأس ، مستقرها حلب لن يستطيع أولو الأمر فى بغداد أن يصلوا إليها لمكان ناصر الدولة فى الموصل . فالمتنبى متردد الآن بين الفسطاط ، حيث كافور الأسود وأنوجور التركى ، وبين حلب حيث الملك العربى الفتى ، وحيث البيئة العربية الخالصة . وقد أنفق المتنبى وقته عند هذا الأمير الاخشيدى الشاب فى الرملة ، منتظرا ومتفكرا

وكأنه قد انتفع بما لقى عند بدر بن عمار من المحنة ، وتعلم شيئا من حيـاة القصور ، ومعاشرة الأمراء . فهو ينادم الأمير الشاب منادمة الشاعر الفطن اللبق ، الذى يعرف هوى سيده فيسبق إليه ، والذى يحسن التملق ويسرف فى المدح ، وينزل عنـد رغبة مولاه يقول الشـعر حين تدعو الحاجة إلى قوله ، وحين لا تدعو إليـه حاجة . يكره الخمر ولـكنه يشربها إذا قال له سيده بحقى لتشربن هذه الكأس . ثم لا يتحرج أن يقول هـذا الشعر الذى قد يرضى الأمير الشاب ، ولـكنه يغضب الله ويغض من المروءة :

سقانى الخمرَ قولُك لى بحَقّى
ووُدٌّ لم تَشُـبْهُ لى بِمَذْقِ
يَميناً لو حَلَفتَ وأنتَ تأْتِى
عَلَى قَتْـلِى بها لَضَرَبتُ عُنْقِى

ثم يأخذ الكأس ويقول :

حُيِّيتَ مِن قَسَمٍ وأفدى مُقسِما
أمسَى الأنامُ لَهُ مُجِـــلاً مُعْظِما

وإذا طَلَبتُ رِضَى الأميرِ بِشُرْبِهَا
وَأَخَذتُهَا فَلَقَدْ تَرَكتُ الأَحْرَمَا

ولم يقصر المتنبى فى خدمة سيده الجديد ، فهو يغدو عليه مع الصبح ، ويروح إليه مع المساء ينادمه إذا استقر ويصحبه إذا انتقل إلى مكان قريب أو بعيد . ويحدثه ويحدث أصحابه بما يسليهم ويرضيهم ، وبما يفزعهم ويزعجهم أحيانا كالذى كان حين حدثهم عما رأى من إغارة القرامطة على الكوفة فى صباه ، فجزع الناس لهول ما سمعوا . فقال المتنبى هذه الأبيات التى تدل على أنه لم يصدف عن القرمطية إلا كارهاً :

أَباعِثَ كُلِّ مَكْرُمَةٍ طَمُوحِ
وفارسَ كُلِّ سَلْهَبَةٍ سَبُوحِ
وَطاعِنَ كُلِّ نَجْلاءَ غَمُوسِ
وعاصِيَ كُلِّ عَذَّالٍ نَصِيحِ
سَقانى اللهُ قَبلَ الموتِ يَوماً
دَمَ الأعداءِ من جَوفِ الجُرُوحِ

وكأن المتنبى قد اكتفى بهذه المنادمة ، وما كان يرتجل فيها من هذا المدح القصير ، ولكن الأمير كان يريد قصائد طوالا كاليمية . فعاتب المتنبى فى إعراضه عن مدحه ولم ينشط المتنبى لهذا المدح ، فاعتذر إليه بهذه الأبيات :

تَرْكُ مَدْحيكَ كالهجاءِ لِنَفْسِى
وقليلٌ لَكَ المَدِيحُ الكثِيرُ
غيرَ أنى تَرَكتُ مُقتَضَبَ الشِّعـ
ـرِ لأمرٍ مِثلى بهِ مَعـذُورُ
وسَجاياكَ مادِحاتُكَ لا لفْـ
ـظِى وجُودٌ عَلَى كلامى يُغِيرُ
فَسَقَى اللهُ مَن أُحِبُّ بِكَفَّيـ
ـكَ وأسقاكَ أيُّهذا الأَميرُ

وكان قريبا من هذا الأمير الشاب رجل من أشراف العلويين يعرف بأبى القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى . وكان أثيرا عند الأمير ، وكان يرغب فى أن يمدحه المتنبى ولا يبلغ من ذلك ما يريد فتوسط له الأمير عند الشاعر ،

وقبل الشاعر بعد امتناع . وهى فيما نرى أول مرة يحس المتنبى فيها أنه قد عظم فى أعين الناس وفى أنفسهم . وقد مدح هذا العلوى بالبائية التى مطلعها :

أَعِيدُوا صَبَاحِى فَهْوَ عِندَ الكَوَاعِبِ
وَرُدُّوا رُقَادِى فَهْوَ لحظُ الحَبَائِبِ

والتى لا أقف منها إلا عند قوله :

أَتَانِى وَعِيـــدُ الأَدعياءِ وأَنَّهُم
أَعَدُّوا لِىَ السُّودانَ فى كَفْرِ عاقِبِ
ولو صَدَقوا فى جَدِّهِم لَحَذِرْتُهُم
فهل فىَّ وَحْدِى قَولُهُم غَيرُ كاذِبِ
إِلَىَّ لَعَمْرِى قَصدُ كُلِّ عجيبةٍ
كأنى عَجِيبٌ فى عُيونِ العَجائِبِ

وهؤلاء الأدعياء هم الذين عرض بهم فى ميميته التى حللناها آنفا حيث يقول :

وفارقتُ شَرَّ الأَرضِ أَهلاً وتُربةً
بِهـا عَلَوِىٌّ جَـدُّهُ غيرُ هاشِمِ

بلا اللهُ حُسَّادَ الأمـــيرِ بِحِلْمِهِ

وأَجلَسَهُ منهم مَكانَ العَمائمِ

وكأن هذا العلوى وأصحابه كانوا فى طبرية وكأنهم كانوا شيعة للفاطميين يخفون بغضهم للاخشيد ، وكأنهم كرهوا من المتنبى قرمطيته القـديمة وقصده إلى الاخشيدى فى ذلك الوقت ، فأرادوا أن يصدوه عن الرملة وأرصدوا له السودان ليردوه أو ليقتلوه .

وأقف كذلك من هذه البائية عنـد هذا الشعر الذى يصور استهانة المتنبى بالدين ، وتلونه فى الرأى . وذلك قوله :

وأَبهَرُ آياتِ التهامىِّ أنَّهُ

أَبُوكَ وأَجدَى ما لكُم من مَناقِبِ

وواضح أن أبهر آيات النبى إنما هو القرآن لا أبوته للعلويين . ولا تقف عند تمحل الشراح لهذا البيت فإنه اعتذار لا غناء فيه ثم يقول :

إذا لم تَكُنْ نَفْسُ النَسيبِ كأصلِهِ

فماذا الذى يُغنِى كِرامُ المناصِبِ

وما قَرُبتْ أَشباهُ قَومٍ أباعِدٍ
ولا بَعُدتْ أَشباهُ قَومٍ أَقارِبِ

إذا عَلوِيٌّ لم يَكُنْ مِثلَ طاهِرٍ
فما هُوَ إلاّ حُجَّةٌ للنَواصِبِ

وفى هذا الكلام تعريض ظاهر بالفاطميين ثم يقول :

هُوَ ابنُ رسُولِ اللهِ وابنُ وصِيِّهِ
وشِبْهُهُما شَبَّهْتُ بَعْدَ التَجارِبِ

وقد عاد المتنبى هنا شيعة علويا كما كان فى بغداد حين مدح فى صباه محمد بن عبيد الله العلوى بداليته التى وصفناها فى أول هذا الحديث .

فالمذاهب السياسية والدينية عند المتنبى وسيلة لا غاية كما ترى ، وفى أثناء هذا الوقت كله استقر الأمر بين كافور وسيف الدولة على الصلح الذى أمضاه الاخشيد قبل أن يموت ، واستقر رأى المتنبى على أن يعود إلى البيئة العربية فى شمال الشام ، بعد أن كان يبغض هذه البيئة أشد البغض ، ولا يعود إليها ولا يقيم فيها إلا كارها . وقد

استأذن أميره الشاب فى الرحيل فأذن له . وانصرف المتنبى مودعا إياه بقصيدة لم يحفظ الديوان منها إلا هذه الأبيات :

ماذا الوداعُ وداعُ الوامِقِ الكَمِدِ
هذا الوداعُ وداعُ الرُوحِ لِلجَسَدِ
إذا السَحابُ زَفَتْهُ الرِيحُ مُرْتَفِعاً
فلا عدَا الرَملةَ البَيْضاءَ من بَلَدِ
ويا فِراقَ الأميرِ الرَحْبِ مَنزلُهُ
إنْ أنتَ فارَقتنا يَوماً فلا تَعُدِ

٧

مضى المتنبى من الرملة حتى انتهى إلى طرابلس فى طريقه إلى شمال الشام ، وما كان يقدر أنه سيلقى فى هـذه المدينة ما يؤخر سفره إلى حيث يريد . وما كان يقدر بنوع خاص طبيعة هذا العائق الذى سيمسكه فى طرابلس حينا . هو الآن فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره ، واختلفت عليه أحداث وخطوب منذ خرج من السجن لم ينتصر عليها وإنما انتصرت عليه . ولـكنى حدثتك ، وما أنت فى حاجة إلى هذا الحديث ، بأن الذى انهزم فى المتنبى ليست طبيعته الخالصة ، وإنما هى طبيعة تـكلفها الشاعر وخدعه عنها لفظه وغروره . فأما طبيعته الخالصة وهى طبيعة الشاعر المتهيئ للنبوغ ، فقد انتصرت من غير شك ، وكان ما حدث له فى طرابلس دليلا واضحا على أن انتصارها كان عظيما وفوزها كان مبينا حقا . وأنت تذكر أنه حين خرج من السجن مدح إسحق بن كيغلغ والى حمص للاخشيد ومخرجه من السجن بقصيدته الرائية التى يقول فيها :

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضَمائرُهُ

وغيَّضَ الدمعَ فانهلَّت بوادِرُهُ

ولم يستطع أن ينشده إياها فيما يقول الديوان لأن الأمير كره ذلك ، وتقدم إليه فى أن يبرح الأرض كما رجحنا . فقد كان إسحق بن كيغلغ هذا ما يزال على ولايته حين مر المتنبى بطرابلس ، وكان قد انتقل إليها من حمص ليبعد مستقره بعض البعد عن الحدود بين الاخشيديين والحمدانيين . فلما انتهى المتنبى إلى طرابلس وعرف الأمير مكانه رغب فى أن يمدحه كما مدح غيره من عمال الاخشيديين وقوادهم وأمرائهم . ونظر المتنبى فإذا هذا الأمير الذى كان يرغب عن شعره منذ اثنتى عشرة سنة يرغب فى شعره الآن . فلا تسل عن كبرياء الشاعر ، وما امتلأت نفسه به من الزهو والغرور ، وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذى رغب فيه ، ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفق ، وتشق عليه هذه الإهانة ، فيمسك الشاعر فى طرابلس لا يلقيه فى السجن ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجينا كالطليق ، وطليقا كالسجين . ولسنا ندرى كم أقام المتنبى على هذه

الحال فى طرابلس ، ولكن الظاهر أنه تغفل العيون التى أرصدت له ، فنفر من المدينة لا يقصد إلى الشمال مخافة أن يطلب فيؤخذ ، بل يقصد إلى الجنوب مشرقا ، وهو آمن أن يطلب من هذه الناحية .

وإذا هو فى دمشق بعد حين . ويخيل إلىّ أنه كان يريد الأمن والعافية أثناء إقامته فى دمشق ، حتى تتاح له الفرصة فيستأنف رحلته إلى الشمال ، وأنه من أجل هذا استجار بعلى بن صالح الروذبارى والى دمشق ، ومدحه بالزائية التى ذكرناها آنفاً . وهذه الزائية خليقة أن نقف عندها حينا ، لأنها تستحق شيئاً ولو قليلا من التأمل والتفكير . وحسبى أن ألفتك من أمرها إلى ثلاثة أشياء :

الأول والثانى منهما مشتركان بينها وبين أمثالها من هذه القصائد التى اختار لها المتنبى هذه القوافى الصعبة النادرة كذاليته فى مدح مساور بن محمد الرومى ، وقد مرت بك وكشينيته فى مدح أبى العشائر ، وستراها بعد حين .

والثالث مقصور عليها ، ولكن له خطره فى تصوير التزام المتنبى لرأيه حين يأمن ويستغنى ، وتضحيته بهذا

الرأى حين يخاف أو يطمع أو يحتاج . فأما الأمر الأول من هذه الأمور الثلاثة ، فهو أن صعوبة القافية وامتناعها يكلفان الشاعر شططا ، ويضطرانه إلى أن يصطنع ألفاظا ليست من لغة الشعر فى شىء ، وإنما هى إلى العامية المبتذلة أدنى منها إلى لغة الشعراء . ولكن ندرة القافية تضطر الشاعر إلى اصطناعها ، فيتورط فى ذلك لا مستخذيا منه ولا مستشعراً خجلا أو حياء .

وانظر إلى هذا البيت :

حَمَلَتْهُ حَمَائِلُ الدَهْرِ حتى
هِيَ مُحْتَاجَةٌ إلى خَرَّازِ

وإلى قافيته المبتذلة . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

شَغَلَتْ قَلبَهُ حسانُ المعَالى
عن حِسانِ الوُجوهِ والأَعجازِ

فهل تعرف أسمج من هذه القافية وأصفق من هذا الطباق . وانظر أيضا إلى هذا البيت :

تَقْضَمُ الجَمرَ والحَدِيدَ الأَعادى
دونَهُ قَضْمَ سُكَّرِ الأَهْوازِ

فلولا القافية وتحكمها فى الشاعر وامتناعها عليه ما احتاج هذا البيت إلى سكر الأهواز .

والأمر الثانى أن احتياج الشاعر إلى القوافى يستعبده للقافية ، ويكرهه على أن يستعبد الشعر ومعانيه للقافية أيضا . فهو يجمع الألفاظ التى تصلح قافية زائية أو ذالية أو شينية ، فإذا اجتمع له منها ما أراد ، نظم قصيدته على الزاى أو على الذال أو على الشين . وقد يضطر إلى معنى من المعانى ، لا لشىء إلا ليضع فى آخر البيت كلمة من الكلمات تصلح قافية . وانظر إلى هذا البيت :

سَلَّهُ الرَّكضُ بَعدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ
فتَصَدَّى لِلغَيْثِ أهلُ الحِجازِ

فلولا أنه محتاج إلى أن يقيم بيته على الحجاز لما ذكر نجدا ، ولما نظم البيت كله . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

مَلِكٌ مُنشِدُ القَرِيضِ لَدَيهِ
يَضَعُ الثَوْبَ فى يَدَىْ بزّازِ

فقد جعل ممدوحه ملكا و بزازا ، لا لشىء إلا لأنه لا يريد أن تفلت منه هذه الكلمة المبتذلة . وانظر أيضاً إلى هذا البيت :

ويَرَى أَنَّهُ البَصِيرُ بهذا
وهْوَ فى العُمْىِ ضائعُ العُكَّازِ

فالمعنى فى هـذا البيت كله يتبع العكاز ولا يستدعيه . ولست أدرى أين قرأت أن ڤكتور هوجو كان يجمع القوافى ويهيئها قبـل أن ينظم شعره . ولـكن الشىء الذى لا شك فيه أن ذوق ڤكتور هوجو كان يأبى عليه أن يذل للقافية حتى يتورط فى الابتذال . وما أظن إلا أن الشعراء جميعا يستعرضون ما قد يتهيأ لهم من القوافى ؛ ليختاروا منها لا ليحكموها فى أنفسهم وفى أذواق الناس .

ولعلى قصصت فى غير هذا الـكتاب ما رأيته من المرحوم زكى باشا حين كان يضع مقدمته لـكتاب التاج ، وكان يريد السجع ، فانتهى إلى كلمة المذكور أو المشهور لا أدرى ؛ ولم يجد لها مقابلا فالتمسه وأطال التماسه . فلما أعياه قرأ باب الراء كله من القاموس المحيط .

كذلك أو قريبا من ذلك صنع المتنبى فى هذه القصائد التى آثر فيها القوافى النادرة ، وكذلك أو قريبا من ذلك

صنع الصولى[1] فيما كان يحدث من الشعر لمولاه الراضى فى نفس هذا العصر أى أوائل القرن الرابع . وأنت واجد من ذلك فى كتاب الأوراق ما يرضيك و يغيظك معا .

أما الأمر الثالث فأشد من هذين الأمرين خطرا ؛ فقد مدح المتنبى قبل هذا الرجل جماعة من غير العرب ، ولكنه كان يتجنب التعرض لمدح أجناسهم الأجنبية و يكتفى بمدح أشخاصهم . فإن تجاوز أشخاصهم ، لم يعد ما لآبائهم من سابقة فى الإسلام وفى ظل الدولة العربية . أما فى هذه القصيدة فالمتنبى الذى اتخذ العربية لنفسه مذهبا سياسيا وفلسفيا يخرج عن مألوفه ، فيمدح هذا الرجل الفارسى ، و يمدح الفرس و يرقى بمدحه إلى الفرس قبل الإسلام . وانظر إليه كيف يقول :

لَيسَ كُلُّ السَرَاةِ بالرُوذَبارِ
يِّ ولا كُلُّ ما يَطيرُ بِبازِ
فارِسِيٌّ لهُ من المجدِ تاجٌ
كانَ من جوهَرٍ على أَبْرَوَازِ

(١) انظر وصيف الصولى لعلاقته بالراضى فى القسم الثانى من كتاب الأوراق

نَفسُهُ فوقَ كُلِّ أَصلٍ شَرِيفٍ
ولوَانىٍّ لهُ إلى الشمسِ عَازِ
شَغَلَتْ قَلبَهُ حِسانُ المعالى
عن حِسانِ الوُجوهِ والأَعْجَازِ

إلى أن يقول :

بكَ أَضحَى شَبا الأَسِنَّةِ عِندى
كَشَبا أَسْوُقِ الجَرادِ النَوازِى
وانثَنَى عَنِّى الرُدَيْنِىُّ حتى
دارَ دَوْرَ الحروفِ فى هَوَّازِ
وبآبائِكَ الكِرامِ التأَسِّى
والتسَلِّى عَمَّنْ مَضَى والتعازى
تَرَكوا الأَرضَ بَعدَ ما ذَلَّلوها
ومَشَتْ تَحتَهُم بلا مِهْمازِ

فالمتنبى هنا شعوبى صريح ، لولا أننا نعرف أنه شاعر ساخر بالناس وبممدوحيه خاصة ، أو بأكثرهم على أقل تقدير .

ومن دمشق هجا المتنبى إسحق بن كيغلغ بميميته اللاذعة المشهورة[1] والتى أولها :

لِهَوَى القُلوبِ سريرةٌ لا تُعْلَمُ
عَرَضاً نَظَرْتُ وخلْتُ أَنِّى أَسْلَمُ

وفى دمشق عرف المتنبى أن إسحق خرج للقاء الروم وتوعده . فقال فيه الأبيات التى أولها :

أَتانى كلامُ الجاهِلِ ابنِ كَيَغْلَغٍ
يَجُوبُ حُزوناً بَيْنَنَا وسُهولا

ثم بلغه أن غلمان إسحق عدوا عليه فقتلوه . فقال الأبيات التى أولها :

قالُوا لنَا ماتَ إسحقٌ فقُلْتُ لَهُم
هذَا الدَواءُ الَّذى يَشفِى مِنَ الحُمُقِ

وقد أعرض لهذا الهجاء فى غير هذا الموضع فحسبنا الآن

---

(١) وقد قال : إنه أنشأ هذه القصيدة فى طرابلس وتركها عند صديق له وكلفه أن يذيعها بعد أن يهرب ويبلغ مأمنه ، (انظر الواحدى صفحة ٣٣٩ .)

أن نلاحظ أنه يدل على أن عداوة المتنبي كانت باقية قاسية يعجز الموت نفسه عن محوها .

ولسنا ندرى كم أقام المتنبي فى دمشق ، ولكن المحقق أنه خرج منها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بعد مقتل ابن كيغلغ قاصدا إلى أنطاكية ، والديوان ينبئنا بأنه نزل ببعلبك ؛ فأكرمه حاكمها على بن عسكر ، وخلع عليه وأجازه ، وطمع فى مدحه ، ولكن المتنبي لم يزد على أن قال له هذه الأبيات :

رَوِينا يا ابنَ عَسكَرٍ الهُماما
ولم يَترُكْ نَداكَ بِنا هُياما
وَصارَ أَحَبُّ ما تُهدِى إلينا
لِغَيْرِ قِلًى وَداعَكَ والسَلاما
ولم نَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ المَوالِي
ولم نَذْمُمْ أَيادِيَكَ الجِساما
ولكنَّ الغُيُوثَ إذا تَوالَتْ
بِأَرْضِ مُسافِرٍ كَرِهَ الغَماما

وما أظن إلا أن هـذا البيت الأخير يصور ملل المتنبى وتبرمه لا بالعطاء ، فقد كان أحرص من أن يتبرم بالعطاء ، بل بهذا الإلحاح عليه فى طلب المديح . وقد مضى المتنبى من بعلبك حتى جاوز حدود الاخشيديين ودخل أرض الحمدانيين ؛ فاستقبل حياة جديدة ، مخالفة كل المخالفة لما ألف وما ألفنا من حياته .

وهو الآن فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وقد أصبح شاعرا عظيما يتحدث الناس به وبشعره فى شمال الشام وجنوبها ، وفى مصر عنـــد الاخشيديين ، وفى العراق عند العباسيين والبويهيين .

وهو يعرف هذه الشهرة ويقدرها ويغالى بها ، فلا يمدح إلا من يريد أن يمدح ، وقد يمتنع على قوم ربما ودَّ فى يوم من الأيام لو استمعوا له أو التفتوا إليه . ولعلك تلاحظ أن ظاهرة قد اطردت فى حياة هذا الشاعر . فهو لم يستطع أن يرقى بفنه إلا فى ظل حام يحميه ويعطف عليه ، وهو لم يستطع أن يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقى بفنه شيئا فشيئا إلا فى كنف الأشراف والسـادة والأمراء ، كأنه النبت الطفيلى

لا ينمو ولا يزهر إلا فى ظل الشجر الضخام المرتفعة فى السماء .

وثب فتُّه وثبته الأولى فى اللاذقية عند التنوخيين ، ثم وثب وثبته الثانية فى طبرية عند بدر بن عمار ، ثم استمسك واحتفظ بقوته أثناء المحنة الثانية . ولكنه أزهر ونما وتضوع نشره فى ظل الاخشيدى الشاب ، وها هو ذا الآن يتجاوز هؤلاء الأمراء والحكام الصغار إلى أمير خطير ، هو سيف الدولة ، ولكنه لا يبلغ سيف الدولة فجأة ، وإنما يتوسل إليه بابن عمه أبى العشائر فى أنطاكية ، فلنتبعه فى هذه المدينة لنرى ماذا يصنع فيها ، وأى وسيلة يبتغى إلى إرضاء هذا الحاكم ليرقى على أكتافه إلى سيف الدولة .

٨

ويظهر أنه لم يرحل من دمشق حين أراد الرحيل وحين أمنت له الطريق ، وإنما تأخر فيها عن رضى واختيار ، لا عن سخط وإكراه ، فقد بلغه فيما يظن أن حال أبى العشائر فى أنطاكية ليست على ما يحب ، وأنه قد انهزم لبعض المغيرين عليه ، وتعرض للخطر فلبث فى دمشق يريد أن يعلم على من تدور الدائرة ، كما انتظر فى الرملة يريد أن يعرف عاقبة الحرب بين سيف الدولة وكافور .

ودارت الدائرة على عدو أبى العشائر فكر هذا بعد الهزيمة منتصراً ، وانتهت أخبار فوزه إلى المتنبى ، فخف من دمشق ، وقد أعد فيها أولى مدائحه لهذا الحاكم ، وكأنه فى ذلك الوقت كان مشغوفاً بشوارد القوافى ، فآثر لقصيدته قافية الشين ، وخضع فيها لمثل ما خضع له فى زائيته التى مدح بها الروذبارى من الذل والصغار أمام تحكم القافية الصعبة ، ولست فى حاجة إلى أن أدلك على مظاهر هذا

فى هـذه القصيدة ، فحسبك ما قلت من ذلك فى القصيدة الماضية ، وأنت واجد فى الشينية للقراءة الأولى من ذلك ما تشتهى وما لا تشتهى .

ومطلع هذه القصيدة غريب لا يخلو من حأحأة وشأشأة ثقيلين مصدرهما تحكم القافية هذا وهو قوله :

مَبِيتى من دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِى
حَشاهُ لى بِحَرِّ حَشَاىَ حاشِ

ومن يدرى ؟ لعل المتنبى و بعض المعجبين به كانوا يجدون فى هذه الحأحأة والشأشأة جمالا وظرفا ، والله يهب حسن الذوق لمن يشاء ، ولست أقف من هـذه القصيدة إلا عند قوله :

أَتَى خَـبَرُ الأمِير فَقيلَ كَرُّوا
فَقُلْتُ نَعَمْ ولوْ لَحِقُوا بِشَاشِ
يَقُودُهُمُ إلى الهيْجَا لَجُوجٌ
يُسِنُّ قِتَالَه والكَرُّ ناشى
وأَسرَجْتُ الكُمَيْتَ فَناقَلَتْ بى
عَلَى إعقاقِها وعلى غِشاشى

فالمتنبي يتكثر فى هذه الأبيات ويزعم أنه لما علم بكر الأمير أسرع إليه يشاركه فى حسن البلاء . وأكبر الظن أنه كان خائفاً أن يبلغ أبا العشائر منهزما . فلما علم بانتصاره خف إليه . وقد وصل المتنبي عند أبي العشائر وهو مكبر لنفسه مستشعر عظمته وتفوقه على الشعراء . وهو من أجل ذلك يهاجم ، ولا ينتظر أن يضطر إلى الدفاع . فانظر إلى قوله :

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ المعَالِي
وسَارَ سِوَايَ فى طلَبِ المعَاشِ

ومدح المتنبي أبا العشائر بعد أن استقر عنده بقافيته المشهورة التى أولها :

أَتُرَاها لكثْرَةِ العُشَّاقِ
تَحْسَبُ الدَّمعَ خِلْقَةً فى المآقِي

وفى هذا البيت مظهر من جمال تبدو فيه صنعة وتكلف ولكن اقرأ ما بعده فسترى تكلفا لا يطاق :

كيْفَ تَرْثِي التى تَرَى كلَّ جَفْنٍ
رآها غيرَ جَفْنِها غيرَ رَاقِي

وما أرى إلا أنك تضيق مثلى بهـذا التكلف المرذول الذى يظهر فى هذا المعنى السقيم وفى هذا اللفظ المعقد الرث كأنه نسج العنكبوت ثم يقول :

أنتِ مِنّا فتَنْتِ نَفْسَك لـكِنّ
لكِ عُوفيتِ من ضَنًى واشتِياقِ

ولم يكفه ما مضى من سخف حتى أمعن فى هذا السخف الجديد ، فجعل صاحبته تعشق نفسها ، ولـكنها لا تشكو ألم العشق ؛ لأنها ظافرة من نفسها بما تريد من الوصال ، ثم يقول :

حُلْتِ دُونَ المزارِ فاليَومَ لو زُرْ
تِ لحَالَ النُحولُ دُونَ العِناقِ

وهو رجوع إلى المعنى الذى استخرجه فى صباه ورجع إليه كثيرا بعد ذلك وهو قوله :

كفى بِجِسْمِى نُحولا أننى رَجُلٌ
لولا مُخاطَبَتِى إياكَ لَمْ تَرَنى

وانظر إلى هذا البيت الذى يخاطب فيه ممدوحه والذى تتحكم القافية فيه تحكما ثقيلا :

لو تنكَّرتَ فى المَكَرِّ لِقَومٍ
حَلَفُوا أَنَّكَ ابنُهُ بالطلاقِ

ولكن قف عند هذه الأبيات فسيعجبك ما فيها من حكمة وسيلفتك ما فيها من فخر :

إلفُ هذا الهواءِ أوقعَ فى الأنـ
ـفُسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المذاقِ
والأَسى قبلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ
والأَسَى لا يكونُ بعد الفِراقِ
كَمْ ثَراءٍ فرَّجْتَ بالرُّمحِ عنهُ
كان من بُخْلِ أهلِهِ فى وَثاقِ
والغِنى فى يَدِ اللَّئيمِ قَبيحٌ
قَدْرَ قُبحِ الكَريمِ فى الإملاقِ
لَيسَ قَولى فى شمسِ فِعلكَ كالشمـ
ـسِ ولكنْ كالشَمسِ فى الإشراقِ
شاعِرُ المَجْدِ خِدْنُهُ شاعِرُ اللَّفْـ
ـظِ كلانا ربُّ المعانى الدِقاقِ

لم تزَلْ تسمَعُ المديحَ ولـكِنْ
نَ صَهيلَ الجيادِ غيرُ النُهاقِ

وأحفظ قوله شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ . فإن هذا المعنى نواة إن صح هذا التعبير ستنبت وتنمو وتعطى شـــعرا كثيرا مختلفا ألوانه حين يتصل المتنبى بسيف الدولة .

وليس من شك فى أن تعريضه بالشعراء ، ثم تصريحه بذمهم والغض منهم فى البيت الذى رويناه آنفا حين جعل نفسه جوادا وجعلهم حميرا ؛ قد هاج الشعراء عليه وأغراهم بالـكيد له . فلم ينوا عن ذلك ولم يقصروا فيه ، ولـكن المتنبى لم ينهزم لهم ولم يفر منهم ، كما فعل مع الذين كادوا له عند بدر ابن عمار ، وإنما ثبت لهم وألح فى الهجوم عليهم ، وكان يرى أن هذه الموقعة حاسمة بينه وبين الدهر الذى يخاصمه . فهو إن انهزم رد إلى شقاء متصل ، وإن انتصر بلغ ما أمّله من الوصول إلى سيف الدولة .

وقد تم له الانتصار بهذه القصيدة الرائعة التى هى أروع ما قال فى أبى العشائر ، والتى روينا لك بعضها فى أول هذا الـكتاب . ومطلعها :

لا تَحسِبُوا رَبْعَكُمْ ولا طَلَلَهْ
أَوَّل حَيٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَهْ

والمضى فى قراءة هذه القصيدة يقنعك بأن المتنبى كان يتمثل حين أنشأها لامية الأعشى التى أولها :

إنّ مَحَلاًّ وإنّ مُرْتَحَلاً
وإنّ فى السَّفْرِ إذْ مَضَوْا مَهَلا

والغزل فى أول القصيدة حلو يبلغ النفوس على ما فيه من تكلف غير مملول . فإذا فرغ منه وثب إلى الدفاع عن نفسه والفخر بها فى شعر مرّ لاذع مُسكت للخصم .

ولست فى حاجة إلى أن أعيد روايته ، فقد رويته فيما مضى من هذا الحديث . ثم يصل إلى أبى العشائر فيمدحه مدحا عذبا شائقا متينا يصلح للغناء ، وقلما يصلح مدح المتنبى للغناء قبل وصوله إلى سيف الدولة .

وانظر إلى قوله :

مَالِىَ لاَ أَمْدَح الحُسَيْنَ وَلاَ
أَبْذُلُ مِثْلَ الوُدِّ الذِى بَذَلَهْ

أَأَخْفَتِ الْعَيْنُ عِنْدَهُ أَثَراً
أَمْ بَلَغَ الْكَيْذُبانُ مَا أَمَلَهْ

ثم انظر إلى قوله :

قد هَذَّبتْ فَهْمَهُ الفَقَاهَةُ لى
وهَذَّبَتْ شِعْرِىَ الفصاحةُ له
فَصرْتُ كالسيفِ حامِدًا يَدَهُ
لا يَحمدُ السَيفُ كلَّ مَنْ حَمَلَهْ

وأنا أختار للمتنبى فى أبى العشائر كلمتين أخريين يقول فى أحداها :

النّاسُ مَا لم يَرَوْكَ أَشْباهُ
والدَهرُ لفظٌ وأنْتَ مَعْناهُ

ويقول فى الأخرى :

لامَ أُناسٌ أبا العشَائرِ فى
جُودِ يَدَيهِ بالعَيْنِ والوَرِقِ

وللمتنبى فى أبى العشائر مقطوعات كثيرة أخرى فى موضوعات مختلفة . فقد سار الشاعر مع هذا الأمير سيرته مع

على بن ابراهيم التنوخى وبدر بن عمار والحسن بن عبيد الله الأخشيدى ، فكان نديما سريعا إلى قول الشعر مسرفا فى الارتجال ، مطيعا لمولاه ، يقول حين يريده على القول وحين لا يريده عليه .

وله كلمة أخرى قالها معاتباً لأبى العشائر حين أرصد له نفرا من غلمانه ليقتلوه فأفلت منهم ، ولكن أوان الحديث عن هذه الكلمة لم يأن بعد . وأنا أرجح أن أبا الطيب قد وصل إلى أبى العشائر فى أواخر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فأتمها عنده ، وأقام معه وجها من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة حتى قدم سيف الدولة أنطاكية فى جمادى الأولى من هذه السنة ، فمدحه واتصل به وانتقل معه إلى حلب .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

طه حسين

مع المتنبي

— ٢ —

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٦

١

وقد صحب المتنبى سيف الدولة تسع سنين أو ما يقرب من تسع سنين . مدحه فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين بالميمية التى أولها :

وَفاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ
بِأن تُسعِدا والدمعُ أَشْفَاهُ ساجِمُهْ

وأنشده لآخر مرة سنة خمس وأربعين الميمية التى أولها :

عُقْبى اليَمين عَلَى عُقْبى الوَغَى نَدَمُ
ماذا يَزيدُكَ فى إقدامِكَ القَسَمُ

ومدحه كالمودع له سنة خمس وأربعين أيضا بالأبيات التى أولها :

أيا راميا يصُمِى فُؤَادَ مَرامِهِ
تُرَبِّى عِدَاهُ رِيشَها لِسِهامِهِ

ولم ينشده إياها ، وإنما أرسلها إليه حين انصرف من حلب

مغاضبا ، وقد أظهر الذهاب إلى إقطاع له قريبا من معرة النعمان . وكأنه لم يمدحه بهذا الشعر إلا ليخدعه عما أزمع من الهرب وليكف الطلب عن نفسه ، ولم تكن القصيدة التى مدحه بها فى أنطاكية سنة سبع وثلاثين أول شعر قاله فيه . فقد رأيت أنه مدحه فى عهد الشباب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بميمية أولها :

ذِكرُ الصِّبَا ومَراتِعِ الآرامِ
جَلَبَتْ حِمامِي قبلَ وَقْتِ حِمامِي

ولم يختم المتنبى شعره فى سيف الدولة حين أنشده أو حين ودعه سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، بل ذكره فى مصر تصريحا حينا وتعريضا حينا آخر . ثم مدحه فى الكوفة ورثى أخته . وكان آخر ما مدحه به البائية التى أولها :

فَهِمْتُ الكِتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ
فسَمْعًا لِأَمْرِ أميرِ العَرَبْ

أرسلها إليه من الكوفة فى ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة . فهو إذن قد عرفه فى الثامنة عشرة من عمره ومدحه

فى الثامنة والأربعين من عمره . عرفه عن بعد فمدحه عن بعد . ثم عاشره وفارقه ومدحه عن بعد أيضا .

وليس من الإسراف فى شىء أن يقال إن للمتنبى فى سيف الدولة ديوانا خاصا يمكن أن يستقل بنفسه . وهو إن جمع فى سفر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبى وأروعه وأحقه بالبقاء ، بل من أجمل الشعر العربى كله ، وأروعه وأحقه بالبقاء . وقد مدح المتنبى عددا ضخما من أشراف الناس وأوساطهم ، ثم اتصل بالأمراء والحكام ، ثم اتصل بعد ذلك بالممتازين من أمراء الدولة الإسلامية فى الشرق والغرب ، ووفق إلى الإجادة وإلى الروعة أحيانا فى كثير مما قال فى هؤلاء الناس .

ولكن شعره فى سيف الدولة ممتاز بما لم يمتز به سائر شعره . امتاز بالكثرة ، فالديوان يحفظ لنا من قول المتنبى فى سيف الدولة نيفا وثمانين قصيدة ومقطوعة ، وهو مقدار ضخم لم يجتمع فيما أظن لشاعر من الشعراء القدماء فى خليفة أو ملك أو أمير .

ولم يجتمع للمتنبى نفسه فى أحد من ممدوحيه غير

سيف الدولة . وليس فى ذلك شىء من الغرابة ؛ فقد انقطع المتنبى لسيف الدولة تسعة أعوام كاملة لم يمدح أثناءها أحدا غيره ، ولم يقل أثناءها شعرا إلا وهو يتمثل سيف الدولة ؛ فيتحدث عنه و يتحدث .

وقد انقطع جماعة من كبار الشعراء المتقدمين منذ العصر الجاهلى إلى عصر المتنبى ، لجماعة من الخلفاء وأشراف الناس ، ولكنهم لم يقفوا أنفسهم على هؤلاء الخلفاء والأشراف كما فعل المتنبى مع سيف الدولة ، وكما كان يفعل مع غيره من الأمراء والأشراف الذين حموه وأظلوه .

فلم يشغل زهير بهرم عن غيره ، ولم يشغل به عن الشعر الخالص ، ولم يشغل الحطيئة بعلقمة بن علاثة ولا بالزبرقان ولا بالوليد بن عقبة عن غيرهم من الذين كان يتناولهم بالمدح أو بالهجاء . وقد انقطع الأخطل ليزيد بن معاوية ، ولكنه كان يقول الشعر فى غير يزيد ، وانقطع لعبد الملك بن مروان ، ولكنه كان يقول فى غير عبد الملك بن مروان ، ومن قبل ذلك انقطع النابغة للنعمان . ثم فى أيام الأخطل فرغ جرير للحجاج دهرا . وفرغ الفرزدق لسليمان بن عبد الملك حينا .

وانقطع الكميت لبنى هاشم ، وانقطع السيد الحميرى لهم أيضا . واتصل بشار بجماعة من الخلفاء ، واتصل أبو نواس بجماعة منهم كذلك ، وانقطع للأمين أثناء خلافته ، وانقطع مروان ابن أبى حفصة للمهدى والرشيد ، وأكثر البحترى شعره فى المتوكل . ولكن واحدا من هؤلاء ومن غير هؤلاء لم يقف حياته الفنية وغير الفنية تسعة أعوام كاملة على مولاه . إنما كانوا يُصْفون سادتهم وحماتهم بعناية خاصة ، ولكنهم يبيحون لأنفسهم أن يمدحوا غيرهم من جهة ، ويبيحون لأنفسهم أن يقولوا فى غير المدح من جهة أخرى .

والرواة يتحدثون بما كان من انقطاع جرير للحجاج وإغراقه فى مدحه حتى كره ذلك عبد الملك ، فأعرض عن جرير ولم يسمع له إلا بعد سعى وشفاعة وإلحاح .

والرواة يروون هذا على أنه من الأشياء النادرة ، وذلك يدل من غير شك على أن انقطاع الشاعر لخليفة أو عامل أو أمير فى القرون الثلاثة الأولى لم يكن معناه نزول الشاعر لمولاه عن نفسه وشخصيته وحريته كما فعل المتنبى غير مرة فى حياته ، وكما فعل مع سيف الدولة بنوع خاص . وتعليل

هـــذا يسير فيما يظهر إذا لاحظنا تغير الحياة السياسية والاقتصادية ، وما نشأ عن هذا التغير من التنافس العنيف بين الأمراء والحكام فى القرن الرابع . فقد كان هذا التنافس يقوم على أن يؤثر كل أمير أو حاكم نفسه ودولته بالخير ، وبكل ما من شأنه نشر الدعوة لهما والإشادة بذكرهما . فلم يكن من اليسير لشاعر من الشعراء أن يمدح أميرين أو حاكمين إلا أن يكون أحدهما ظلا للآخر ومتصلا به ، بحيث يكون مدحه وسيلة لا غاية وسببا لا غرضا .

ولو أن المتنبى هم بمدح أحد غير سيف الدولة أثناء اتصاله به فى حلب ، أو بمدح أحد غير كافور أثناء اتصاله به فى الفسطاط لما كانت عاقبة ذلك عليه إلا وبالا ونكرا .

فلنلاحظ هذه الظاهرة فى نفسها فقد ينتهى بنا درسها واستقصاؤها إلى نتائج قيمة فى تحقيق التاريخ الأدبى لهذا العصر . ولنلاحظ هذه الظاهرة بالقياس إلى شخصية المتنبى ، فهى تقفنا على أخص ما يمتاز به هذا الرجل من التناقض الغريب بين رأيه فى نفسه وسيرته بين الناس . فهو قد كان فى شبابه لا يطمح إلا إلى الحرية ، ولا يطمع إلا فى الاستقلال .

وهو قد ألقى نفسه فى السجن ، وعرض نفسه للموت فى سبيل حريته واستقلاله . ولكنه لم يكن يظفر برعاية أمير من الأمراء أو سيد من السادة ، إلا نزل له عن نفسه ، وضحى فى سبيله بهذه الحرية ، وذلك الاستقلال . وأغرب من هذا أن سيف الدولة لم يشغل المتنبى عن غيره من الأمراء والملوك فحسب وإنما شغله عن الشعر الخالص .

فقد رأيت أن غير المتنبى من فحول الشعراء لم يكونوا يفنون أنفسهم وفنهم فى سادتهم وحماتهم . وقد كان رجل كأبى نواس يستطيع أن ينقطع للأمين ، ولكنه مع ذلك يقول فى الخمر أو فى الوصف أو فى الهجاء أو فى غير ذلك من فنون الشعر .

كانت له حياته يتصرف فيها كما يحب ، فأما المتنبى فإنه لا يعرض لفن من فنون الشعر ، ولا يلم بلون من ألوان الكلام إلا إذا كان متصلا بسيف الدولة اتصالا قريبا . وهو قد فعل هذا نفسه حين اتصل ببدر بن عمار ، وكاد يفعل ذلك حين اتصل بالأمير الاخشيدى الشاب فى الرملة ، لولا أن ألح عليه الأمير نفسه فى مدح صديقه العلوى . ولما انقطع لكافور

بعد انقطاعه لسيف الدولة ، وقف شعره عليه أثناء اتصاله به . ولم يمدح فاتكا إلا بعد مشقة وجهد واستئذان فيما يقال .

ولو أنه رضى عن كافور رضاه عن سيف الدولة ، لما فكر فى فاتك ، ولما فكر فى الشعر الخالص الذى لا يتصل بشخص كافور .

فهذا كله يدلنا على أن المتنبى كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية . وعلى أنه كان عبدا للطمع والمال ، لا للجمال والفن .

ويمتاز شعر المتنبى فى سيف الدولة بشىء آخر غير الكثرة هو التنوع . فمع أن سيف الدولة هو الموضوع الذى يدور حوله شعر المتنبى أثناء هذه الأعوام التسعة ؛ فقد كان هذا الشعر مختلف الأنواع والألوان والفنون . ولم يكن هذا الاختلاف ناشئا عن رغبة الشاعر فى التنويع والافتنان ، وإنما كان ناشئا عن أن حياة سيف الدولة نفسه كانت مختلفة الأنحاء والوجوه .

فقد كان سيف الدولة أميرا عربيا شريف الأصل ، كريم النسب ، جواد اليد ، بعيد الهمة . وهو من أجل هذا يتقاضى المتنبى مدحه كما يمدح أمراء العرب الذين يتصفون بهذه الصفات .

وكان سيف الدولة مجاهدا يناضل عن الإسلام ، ويحمى ثغور المسلمين من قبل الروم . وكانت له مع هؤلاء مواقع حسن بلاؤه فيها منتصرا ومنهزما . فكان من هذه الناحية يتقاضى المتنبى مدحه كما يمدح المجاهدون والحامون للثغور والزائدون عن حوزة الدين . وكان سيف الدولة أميرا ينافس أمراء آخرين . ينافس قوما فى العراق ، وقوما فى مصر . فكان يتقاضى المتنبى أن يمدحه مدحا يقدمه على منافسيه . وكانت لسيف الدولة رعية بدوية قليلة الشعور بحب النظام ، شديدة النقض للسلطان القوى ، كثيرة الجنوح إلى الشغب والخروج والانتقاض . وكان سيف الدولة يردها إلى الطاعة ، ويأخذها بالإذعان . فكان يتقاضى المتنبى أن يمدحه كما يمدح الأمير الذى يأخذ رعيته بالحزم والعزم ، ويحملها حينا على الشدة ، وحينا على اللين .

وكان سيف الدولة صاحب دعابة ولهو ، وصاحب ترف ونعيم ، حين تسمح له السلم بالاستمتاع من ذلك بحظ قليل أو كثير . فكان يتقاضى المتنبى أن يكون له نديما مواتيا ، يصرف شعره على ما تقتضيه المنادمة من اختلاف ألوان

الحياة واختلاف ألوان القول .

ثم كان سيف الدولة بعد ذلك يكبر المتنبى ويؤثره ويختصه بما لا يختص به غيره من ندمائه وشعرائه والعاملين فى قصره والمختلفين إليه . فكان ذلك يثير حسدا وكيدا . وكانت غطرسة المتنبى تزيد هذا الكيد ، وذلك الحسد تلظيا واضطراما .

وكان سيف الدولة يفى للمتنبى ما وسعه الوفاء ولكنه كان كغيره من الأمراء ، يسمع للوشاة ، ويميل إلى الكائدين .

فكان المتنبى مضطرا إلى أن يدافع عن نفسه بالعتاب والاستعطاف وهجاء الخصوم والمنافسين .

ثم كان سيف الدولة رجلا من الناس تمتحنه الأيام بما تمتحن به الناس جميعا من فقد الأبناء والأقرباء والأحباء . فلم يكن بد للمتنبى من أن يعزيه ويرثى له من تستأثر به المنية من دونه .

وإذن فقد كان فى تنوع هذه الحياة التى كان يحياها سيف الدولة تنوع للشعر الذى كان يقوله أبو الطيب فيه . ونشأ عن ذلك أن سيف الدولة قد شغل المتنبى بنفسه عن

كل شيء ، وعن كل إنسان . ولكنه أتاح له أن يلم بطائفة من الفنون الشعرية ، لم يكن ليلم بها لو أنه قصر نفسه على المدح الخالص ، فما نفقده من حرية المتنبى فى فنه تعوضه علينا عبودية المتنبى لسيف الدولة إن صح هذا التعبير .

ونحن إذن نستطيع أن نعتبر هذه الأعوام التى قضاها المتنبى عند سيف الدولة خير أعوامه ، وأخصبها وأغناها وأكثرها حظا من الإنتاج المختلف المتنوع .

وخصلة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبى فى هذا الطور وهى أنه قد استطاع لا أن ينشئ فنا جديدا من فنون الشعر ، بل أن ينمى فنا من هذه الفنون ويقويه ، ويكثر القول الجيد فيه ، حتى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما يجعله فنا قائما بنفسه .

أريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين والروم . فمن الحمق أن يقول قائل أو يظن ظان أن أبا الطيب قد ابتكر هذا الفن أو خرج به عما ألف القدماء . فوصف الجهاد بين المسلمين والروم قديم منذ كان الجهاد بين المسلمين والروم . وقد امتاز جماعة من الشعراء فى هذا الوصف . ويكفى أن نذكر ما قاله أبو تمام ، وما قاله البحترى . ولكن أبا تمام

والبحترى وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبى لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ له ، ولم يقفوا عليه أكثر جهدهم كما وقف عليه أكثر جهده . ثم هم لم يشتركوا فى الجهاد كما اشترك فيه المتنبى ، ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبى ، ولم ينعموا كما نعم المتنبى ، ولم يشقوا كما شقى المتنبى ، بما كانت هذه المواقع تعقب من انتصار أو اندحار . فهم كانوا يقولون الشعر فى وصف هذا الجهاد متأثرين بفنهم وحده ، أو قل بفنهم وأملهم . وكان المتنبى يقول متأثرا بما يرى قبل كل شىء ، ثم بالفن والأمل بعد ذلك .

ومن هنا تفهم السبب فيما تحسه من تأثر خاص حين تقرأ وصف المتنبى لهذا الجهاد بين المسلمين والروم . تأثر لا تجده حين تقرأ ما كان يقوله أبو تمام للمعتصم ، أو البحترى للمتوكل .

فأنت تجد عند هذا وذاك فنا وجمالا ، ولكنك تجد فنا وجمالا لا يكادان يخلوان من الحرارة والنشاط .

فإذا قرأت وصف المتنبى لهذا الجهاد وجدت فيه نارا تضطرم ، ولا تكاد تمس قلبك حتى تشيع فيه ، وإذا

قلبك يضطرم أيضا حماسة ونشاطا .

ومصدر هذا أن المتنبى فى هذا الوصف لم يكن يصدر عن مدح سيف الدولة والرغبة فى إرضائه وإثارة إعجابه بنفسه ، وإعجاب الناس به ، كما كان يفعل أبو تمام والبحترى ، وإنما هو يصدر عن هذا ويصدر معه عما كان يثور فى نفسه من العواطف ، وما كان يدور فى رأسه من الخواطر حين كان يشهد الموقعة ويتبع العدو منتصرا أو يولى أمامه منهزما ، وكان يصدر مع هذا وذاك عن انفعالات المسلمين التى كانت تثور حوله أثناء الاستعداد للحرب ، وأثناء الاشتراك فى المعركة ، وبعد الانتصار أو الفرار .

ثم كان المتنبى يصدر بعد هذا كله عن هذا الانفعال الآخر الذى كان يشهده حين كان يثور فى نفس العدو منهزما ومنتصرا فقد كان المتنبى يمدح سيف الدولة من غير شك بهذا الشعر ولكنه لم يكن يصور سيف الدولة وحده ، وإنما كان يصور معه نفسه ، ويصور جماعة المسلمين المجاهدين ، ويصور جماعة الروم أيضا .

ومن هنا تجد فى وصف المتنبى لحروب سيف الدولة عند

الثغور فتوة عربية اجتماعية إن صح هذا الوصف . وترى هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع فى وصف المتنبى حيـة قوية مضطربة شديدة الاضطراب ، كأنها الكهرباء لا تكاد تتصل بهذا الشعر حتى ينتقل إليك ما صور فيه المتنبى من حياة هؤلاء المجاهدين ، وما كان يملؤها من نشاط فيه الأمل والابتهاج ، وفيه الاكتئاب والابتئاس ، وفيه الثقة بالنفس والايمان بالحق والارتفاع عن صغائر الأمور دائما .

ونحن نستطيع أن نفهم عجز الأستاذ بلاشير عن أن يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبى ، وأن نعلله وإن لم يكن فى حاجة إلى هذا التعليل . فجنسية الأستاذ واختلاف مزاجه وطبعه ، وأخشى أن أذكر دينـه أيضا . كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبى قليلا ضئيلا ، وربما جعله تأثرا عكسيا وربما دفع الأستاذ إلى الغض من هذا الشعر ، والازدراء له[1] .

---

(١) وأنا فى الوقت نفسه أخالف صديقى الدكتور عبد الوهاب عزام أشد الخلاف فيما ذهب إليـه من تقديم هذا الفن من شعر المتنبى على الشعر القصصى القديم كله . فهـذا غلو لا سبيل إلى قبوله مع ما هو محقق =

أما نحن فان هذا الشعر يثير فى نفوسنا عواطف أخرى ، ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الأستاذ بلاشير وأمثاله من العلماء الأوروبيين .

وقد يقال إن المتنبى أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغى ، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ، ولم يعن إلا بتصوير الانتصار . ولكن يجب أن نتفق ، فلم يكن المتنبى مؤرخا ولا محققا ، وإنما كان شاعرا ، وشاعرا ليس غير . أستغفر الله ، بل كان شاعرا يشترك فى الجهاد ، يذوق لذته ويشقى بآلامه . فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع يسرفون عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، ويسرفون على الشعر نفسه ، وأين كانت تقع حرب طروادة التى وصفت الإلياذة طورا من أطوارها من هذه الحروب التى شهدها المتنبى ووصفها تسعة أعوام كاملة .

= من انقطاع أسباب الموازنة بين شعر المتنبى هذا وقصص الهند واليونان والرومان .

(راجع كتاب ذكرى أبي الطيب ، للدكتور عبد الوهاب عزام ، صفحة ١١١) .

أفيعاب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ، أم يحمد من هؤلاء الشعراء أنهم صـــوروا نفوس الجماعات والأفراد التى اشتركت فى هذه الحرب أبدع تصوير وأروعه ؟

وبعد فهل من الحق أن المتنبى أسرف كل الإسراف ، وتكثر حين كان يجب الاقتصاد . يجب أن نلاحظ أن معظم البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت كانت منصرفة إلى نفسها ، مشغولة بأمورها الخاصة عن هذه الثغور الرومية . وأن هذا القسم من شمـال سوريا والجزيرة كان وحده الناهض بحماية هذه الثغور . ينهض بذلك على ضآلته وقلة مصادره المالية والعسكرية ، وينهض بذلك نهوضا حسنا يلقى فيه النصر ، ويلقى فيه الهزيمة أحيانا . ولـكن أمام أى قوة كان هـذا القسم من شمال سوريا يثبت أثناء هذا الجهاد المتصل العنيف . أمام الامبراطورية البيزنطية الضخمة التى مهما يكن أمرها ، فليس من الممكن أن نفـكر فى المقارنة بينها وبين هذا الطرف الصغير اليسير من أطراف المسلمين .

فإذا نظر أبو الطيب فرأى دولة ضخمة كالدولة الإسلامية ساهية لاهية ، مشغولة بما يفسد حياتها من اللهو والعبث ،

ومن الخصومة والاضطراب ، ورأى فتى عربيا قد ثبت مع من حوله من هؤلاء العرب الذين أقصوا عن ملكهم وردوا عن سلطانهم لهذه الامبراطورية الضخمة ، فحمى منها الثغور وذادها عن حوزة الإسلام ، واقتحم عليها ملكها حتى أبعد فى الغارة أحيانا . إذا نظر المتنبى فرأى هذا كله ، وامتلأت نفسه به إعجابا وتيها فتغناه أروع غناء وأبقاه . أيمكن أن يوصف بأنه مسرف متكثر يتجاوز الحق و يفسد التاريخ .

كلا إنه لا يتجاوز الحق ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر ، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين .

ولنعد إلى ما أخذنا فيه فنقول : إن المتنبى إذن لم ينشئ بشعره فى وصف الجهاد بين المسلمين والروم فنا جديدا ، فقد ارتقى بهذا الفن حتى انتهى به إلى أقصى ما كان قد قدر له من كمال . وأنت تشعر بهذا شعورا قويا واضحا حين تقرأ شعر المتنبى وشعر أبى فراس فى وصف هذا الجهاد . فكلا الشاعرين قد شهد المواقع واشترك فيها وذاق لذاتها وآلامها ، ثم وصف ما تركت فى نفسه وفى نفس غيره من الأثر .

ولـكنك واجـد فى وصف المتنبى قوة وفتوة ونشاطا وعنفا ، لا تجدها فى شعر أبى فراس الذى ظهرت فيه دقة الحس ورقة العاطفة . فهو لا يخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة العنيفة التى كان يحياها هؤلاء العرب من المسلمين فى ذلك الوقت ، ولعله يلائم الترف الذى كان يشمل القصرين فى أوقات السلم : قصر سيف الدولة فى حلب ، وقصر أبى فراس نفسه فى منبج . أنت واجد حين تقرأ هذين الشاعرين ، فرق ما بين القوة التى ترتفع بك إلى أقصى ما تستطيع أن تبلغ من أمل وثقة وعنف ، والضعف الذى ينحط بك إلى الحضيض ولـكنه يحتفظ بك معلقا فى الهواء لا تبلغ الأرض فتمشى عليها ولا تبلغ أعلى الجو فتحلق فيه تحليق النسر .

على أنى أخشى أن يخدع القارئون لهذا الفن من فنون المتنبى عن أنفسهم بعض الشىء ، فيظنوا أن هذا الفن هو القصص ، كما نجـده فى الإلياذة وأشباهها من آيات الشعر القصصى القديم والحديث .

وقد خدع الأسـتاذ بلاشير نفسه عن هذا الشعر وعن الشعر الحماسى كله ، فسماه قصصا . والواقع أن فى شعر المتنبى

هذا كثيرا من مميزات الشعر القصصى . فيه قوة المعنى ، وفيه جزالة اللفظ ، وفيه روعة الوصف للحرب وأهوالها ، و بلاء الأبطال فيها ، وفيه الاشادة بنفس الجماعة وما ترتقى إليه حين تبلى فتحسن البلاء ، وحين تمتحن فتحسن احتمال المحنة . ولكن فيه عنصرا يميزه من الشعر القصصى و يرده إلى الغناء ردا قويا و يلزمه مكانه من الشعر العربى المألوف ، وهو أن الشاعر لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة ، و إنما هو يذكرها دائما حتى حين يغرق فى وصف سيف الدولة ، أو حين يغرق فى وصف الحرب والمحاربين . فشخصية المتنبى ظاهرة قوية ، فى شعره الرومى لا يستطيع القارئ و إن بعد العهد بينه و بين الشاعر أن ينساها أو يعرض عنها ، و إنما هى تفرض نفسها عليه فرضا ، وقد لا يكتفى المتنبى بحضور شخصيته فى ذهنه ، وفى ذهن سامعيه وقارئيه . فإذا هو يذكرها تصريحا و يحدث عنها فى غير لبس ولا التواء . وأخص ما يمتاز به الشعر الغنائى من الشعر القصصى هو هذا العنصر بالضبط ، هذا العنصر الذى يمثل الشاعر أمامك فى كل لحظة ، و يقنعك بأن الشاعر لا يصف و إنما يتغنى ، فإذا وصف فوصفه أداة من أدوات الغناء

ووسيلة من وسائله . فليس شعر المتنبي فى وصف الجهاد بين المسلمين والروم قصصا ، وإن اشتمل على كثير من مميزات القصص ، ولـكنه غناء لأنه يشتمل على أخص مميزات الغناء .

ومن هنا يخطئ من يقارن بينه وبين شعر الإلياذة فى غير تحفظ ولا احتياط . ومن هنا يخطئ كذلك من يزعم أن المتنبى قد أدخل فى الشعر العربى فنا لم يكن فيـه وهو الفن القصصى ، فالمتنبى لم يزد على أن أخذ فن الحماسة القديم فنماه وقواه حتى انتهى به إلى أرقى أطواره .

وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبى فى هذا الطور أيضا وهى أنه قد وثب بشعره حين اتصـل بسيف الدولة وثبته الأخيرة التى رفعته إلى الأوج وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العرب ، لا لأنه استحدث فنا جـديدا ، فقليل من شعراء العرب من استحدث فنا جديدا . وقد كان ذلك فى صـدر الإسلام وفى أول أيام العباسيين ، ولا لأنه قد جدد من أوزان الشعر وقوافيه ما قدم وطال عليه العهد ، ولا لأنه قد أضاف إلى هذه الأوزان وزنا لم يكن معروفا من قبل ، فليس للمتنبى فى شىء من هذا حظ ما ، بل لأنه

ملك ناصية الفن حقا ، وجعل يتصرف بألفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول ، وأثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها ، وأصبح مرآة لنفسه لا لأبى تمام ولا للبحترى ، وأصبحنا نستطيع أن نقرأ القصيدة من شعره ، فنقول : إنها قصيدته هو لم يتأثر بها هذا الشاعر أو ذاك ، على حين كنا قبل هذا الطور من أطواره نقرأ القصيدة من شعره ، فنحس وراءها المثل الذى احتذاه ، والنموذج الذى اتبعه ؛ فمرة نحس أبا تمام ، ومرة نحس البحترى ، وحينا نلمح الحطيئة ، وحينا نلمح الأعشى ، وربما خيل إلينا أننا نرى زهيرا . ولست أذهب فى هذا الكلام مذهب القدماء من خصوم المتنبى ، حين كانوا يزعمون أنه أخذ هذا المعنى من هذا الشاعر أو أخذ هذا اللفظ من ذاك ، وإنما أذهب مذهبا آخر ، وهو أن المتنبى كان أحيانا يجعل الشاعر القديم أمامه ، أو يجعل قصيدة بعينها من قصائد شاعر بعينه أمامه حين ينظم هذه القصيدة أو تلك ، فيظهر أثر هذا فى شعره سواء أراد ذلك أم لم يرد ، ويظهر هذا الأثر شائعا فى الوزن والقافية ، وفى اللفظ والمعنى ، وفى روح القصيدة إن

جاز لنا أن نستعمل هـذا اللفظ بحيث تحس هـذا الأثر ، ولا تكاد تحصره أو تحدده أو تدل عليه . فأنت حين تقرأ داليته التى أولها :

أَقَلُّ فِعالى بَلْهَ أَكْثَرُه مَجْدُ

لا تذكر الحطيئـة أثناء قراءة الأبيات الأولى ، فما أكثر الشعر العربى الذى يقوم على وزن كهـذا الوزن ، وقافيـة كهذه القافية ، ولـكنك لا تكاد تمضى فى قراءة القصيدة حتى تفرض عليك دالية الحطيئة فرضا ، وكذلك الأمر فى لاميته التى أولها :

لا تَحْسَبُوا رَبْعَكُم ولا طَلَلَهْ

متكلفة الغزل على جمال فيه ، محتفظة بشخصية المتنبى فى أولها وفى وسطها وفى آخرها ، ولـكن امض فى قراءة القصيدة ، فستتراءى لك على كره منك لامية الأعشى ، وستقرأ قوله :

والنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

فلا تملك نفسك أن تذكر قول الأعشى فى لاميته :

والشَّىءُ حَيْثُ ما جُعِـلا

فإذا بلغنا طور المتنبى عند سيف الدولة ، وأنفق الشاعر

فى صحبة هـذا الأمير عاما أو عامين ، وشهد بلاء الأمير ، وتأثر بالحياة معه مقيما وظاعنا ، فإن هذه الظاهرة تستخفى من شعره استخفاء تاما . وإذن أنت تستطيع أن تقول : إنه أخذ هذا المعنى أو هـذا اللفظ من هذا الشاعر أو ذاك ، ولـكنك لا تستطيع أن تقول : إنه تأثر فى هذه القصيدة ، قصيدة هذا الشاعر أو ذاك .

لفظ المتنبى إذن فى هذا الطور جزل لا يستطيع المتنبى أن يبلغ به جزالة أجزل مما وصل إليـه ، ومعناه فخم دقيق مستقيم إلى أقصى ما يستطيع الشاعر أن يبلغ من الفخامة والدقة والاستقامة .

وللمتنبى فى هـذا الطور عيوبه اللفظية والمعنوية التى لا تأتيه من تقليد غـيره ، أو لا تأتيه من تعمد التقليد إن أردت دقة التعبير ، وإنما تأتيه من تـكوين نفسه وذوقه وطبعه ومزاجه الخاص . أدير عقله وشعوره وحسه على هذا النحو ، فأدير تعبيره على هذا النحو نفسه أيضا .

ونحن بعـد أن يترك المتنبى سيف الدولة نستطيع أن نلاحظ فى شعره هذا الشعور أو ذاك وهذا الحس أو ذاك ،

ولكننا لن نستطيع أن نلاحظ أن شعره قد ارتقى أو نما أو تجاوز الطور الذى انتهى إليه فى حلب . ولنلاحظ أن الناحية الغنائية تقوى جدا فى شعره بعد مفارقة سيف الدولة لأنه سيفرغ لنفسه على نحو ما ، وسنلاحظ أيضا أنه قد يقصر عما تعود أن يبلغ من الآماد ، وقد يضعف شعره ، وقد يصبح تكلفا وتصنعا ، ولكنه لن يتجاوز الرقى الذى بلغه فى هذا الطور .

وواضح أن رقى شعر المتنبى فى هذا الطور من أطوار حياته ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها . فالبيئة نفسها كانت تقتضى أحد أمرين . فإما أن يرقى المتنبى ويعلو حتى يمتاز من خصومه ومنافسيه ، وإما أن يظل حيث كان حين اتصل بسيف الدولة ، فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الشعراء .

ولعلك لم تنس ما لاحظناه من أن رقى شعر المتنبى حين لحق ببدر بن عمار ، كان نتيجة لأسباب من أهمها هذه البيئة العراقية الناقدة التى لم يظفر بها المتنبى قبل ذلك . فالبيئة التى كانت تحيط به عند سيف الدولة كانت أرقى جدا من البيئة التى أحاطت به عند بدر بن عمار . كانت أرقى وكانت

أشد تنوعا واختلافا ، ولست فى حاجة إلى أن أصف لك البيئة التى أحاطت سيف الدولة فى حلب ، فقد كثر كلام الناس فى وصفها حتى أصبح الوقوف عندها إطالة و إملالا . و إنما ألاحظ أن بيئة بدر بن عمار كانت بيئة ضئيلة ضيقة تلائم سلطان هذا العامل اليسير ، وما كان يستطيع أن يمنح من المال ، وتلائم فى الوقت نفسه ضآلة عمله وخضوعه لسلطان أمير آخر هو ابن رائق الذى كان يتلقى سلطانه من بغداد . فأما بيئة سيف الدولة فقد كانت تلائم ما كان لهذا الأمير من سلطان مستقل بالفعل له كل مميزات القوة والثروة والغنى . سلطان لا يتلقاه صاحبه من بغداد ، و إنما يستمده من سيفه ومن بلائه فى قتال الروم والثبات للاخشيديين سلطان ينافس به صاحبه أصحاب السلطان فى بغداد وفى الفسطاط ، ويبيح للمتنبى كما سنرى أن يعرض بالخليفة حينا ، ويصرح بمهاجمته حينا آخر . سلطان يشبه إذن سلطان بغداد ويكاد يمتاز منه ، بل يمتاز منه بأنه سلطان عربى خالص لا يتسلط عليه الأعجمى ولا يتأثر بالذوق الأجنبى . وما أظنك فى حاجة إلى أن ألفتك إلى أن حال السلطان فى بغداد

كانت سيئة كل السوء فى هذا العصر بالقياس إلى ما تحتاج إليه الحياة الأدبية من التقوية والتنمية والتشجيع . فقد كان الخليفة معسرا أشد الإعسار فى أكثر الأوقات ، ويكفى أن تقرأ كتاب الأوراق للصولى لترى مع كثير من الألم والحزن كيف كان الراضى يعتذر بضيق ذات اليد عن ارضاء حاجة شعرائه وندمائه إلى العطاء .

وكان السلطان الفعلى وما يتبعه من الثراء الفعلى إلى جماعة من قادة الأتراك ، ثم إلى هذا الأمير الديلمى وحاشيته . وواضح جدا أن هؤلاء الأتراك والديلم مهما يكن حبهم للشهرة وحرصهم على المنافسة ، ورغبتهم فى تشجيع العلم والأدب ، فقد كان لهم من ذوقهم الأجنبى ومن تعصبهم على العرب ومن شعوبيتهم بوجه عام ما يحول بينهم وبين الفراغ للحياة الأدبية العربيـة الخالصة على نحو ما كانت الحال عليه فى بغداد قبل ضعف الخلفاء ، وفساد الأمر فى قصر الخلافة .

وربما كان استعداد السلطان لتشجيع الأدب وحمايته فى مصر خيرا من استعداده فى بغـداد ، ولـكن السلطان

على كل حال كان إلى جماعة من الأجانب ، من الأتراك والروم والسودان . فهم كانوا يحمون الأدب ويشجعونه لأن طبيعة الحياة كانت تقتضى ذلك ، ولأن المنافسة السياسية كانت تفرضه . فأما فى حلب فقد كان الأمر مختلفا كل الاختلاف . الأمير عربى متعصب للعرب ، مبغض للشعوبية ، والبيئة من حوله عربية طامحة إلى المجد ، حانقة على الغاصبين فى العراق ومصر . والذوق عربى قد ورث حب الأدب عامة ، وحب الشعر خاصة عن هـذه البادية العربية التى ما تزال حوله تمده وتغذوه . وليست الحاجة إلى المنافسة أقل منها فى بغداد أو الفسطاط ولعلها أكثر منهـا . ثم لم تكن هـذه الدولة السورية فقيرة ولا معسرة ، وإنما كانت ضخمة الثروة ظاهرة الغنى ، وليس من شك فى أنها كانت تكسب من حرب الروم أكثر مما ينفق فيها .

فلا غرابة فى أن تزدهر الحياة العقلية والأدبيـة فجأة حول هذا الأمير العربى الفتى ، وفى أن يسرع إليه العلماء والأدباء والشعراء يلتمسون فضله وحمايته ، فيجدون عنـده

ما يلتمسون وفوق ما يلتمسون . ولعله كان يدعوهم إليه ويرغبهم فى جواره ترغيبا .

وأنا أعلم أن هذه النهضة العقلية والأدبية لم تكن طبيعية ولا متوطنة فى سوريا الشمالية . وقد رأينا فى صدر هذا الحديث أن البيئة العربية فى شمال سوريا كانت جاهلة فى شباب المتنبى ، وأن جهلها قد أثر فى شعر المتنبى آثارا ظاهرة نكاد نلمسها بأيدينا . إنما طرأت هذه النهضة على سوريا الشمالية طروءا وظهرت فيها فجأة حين نهض فيها هذا الفتى العربى ، فازدحم حوله الكتاب والشعراء والعلماء والفلاسفة .

ولم يكن اتصال هذه الدولة الناشئة بالروم فى غير انقطاع ليضعف من هذه النهضة أو ليحد آفاقها ، وإنما كان خليقا أن يزيدها قوة بما يثير من نشاط فى النفوس ، وبما يحدث من اختلاط مستمر بين العرب والروم أثناء الحرب والسلم لكثرة من كان يقع فى إسار المسلمين من الروم ومن كان يقع فى إسار الروم من المسلمين .

ولست أزعم أن حلب كانت فى ذلك الوقت أرقى من

بغداد ، أو أنها كانت تعدل بغداد فى حظها من الحضارة والترف العقلى والمادى ، فهذا مخالف لطبيعة الأشياء . وليس من المعقول أن تشبه مدينة نهضت فجأة بمدينة هى مستقر النهضة الإسلامية منذ عهد بعيد ، فيها آثار الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والمعتضد ، كانت عاصمة مادية ومعنوية لهذه الدولة الضخمة ، وهى الآن قد فقدت سلطانها المادى ، ولكن سلطانها المعنوى ما يزال قويا بعيد الصوت فى الآفاق .

ولكن ليس من شك فى أن شاعرنا قد لقى فى حلب بيئة لم يلق مثلها من قبل ، فيها غذاء لعقله ، وإرهاف لحسه ، وتقوية لشعوره ، وفيها قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، ملاحظة متصلة ، ونقد مستمر ، وحسد وكيد ، وتنافس فى الظفر برضى الأمير .

وإذن فمن الحق على المتنبى لنفسه أن يعنى بفنه أشد العناية وأدقها ، وأن ينتفع بكل ما حوله لتصبح هذه العناية خصبة منتجة حقا . وقد فعل المتنبى من غير شك ، فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة ، وظهرت آثار هذا كله فى شعره الذى قاله فى هذا الطور .

٢

وكانت ثقافة سيف الدولة نفسه واسعة عميقة فيما يظهر . فقد كان على احتفاظه بكثير من خصال البداوة أبعد الناس عن حياة البدوى الجاهل الذى لا يعرف الشجاعة والبأس والكرم والجود ، وكانت بيئته الخاصة التى نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة فى العلم والأدب ، والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التى كانت مسيطرة فى بغداد .

فهو لم يخرج من البادية فجأة ، وإنما سبقت أسرته إلى شىء غير قليل من المجد ، وشاركت فى الحياة السياسية ، ونهضت ببعض المناصب العامة ، ثم انحازت إلى فكرة القومية من جهة ، وتأثرت بالطمع وحب النفس من جهة أخرى . ففكرت فى الاستقلال ، وسعت إليه ، وظفرت به ، وأيسر النتائج لهذا أنها أخذت بأسباب الترف ، وعاشت عيشة المتسلطين ولم ترسل أبناءها هملا بغير تربية ولا تثقيف ،

وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين ، وعلمتهم ما لم يكن بد من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال . وثقافة سيف الدولة تظهر فى أحاديثه ومحاوراته ، ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن ، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال فى مجلسه من الصواب والخطأ ، ومن الجيد والردىء ، ورغبته فى أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء ، وفى أن تتفرع فيها الثقافات ؛ فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم ، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب .

وما كان الرجل يصنع هذا عن جهل ، ولا عن غرور ولا عن رغبة فى المنافسة للمنافسة من حيث هى ، بل عن بصيرة وحسن رأى ، وعلم بما يأتى وما يدع ، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة فى نشر الدعوة ، وإعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أبهة وجلال .

وكانت مجالس سيف الدولة فى أوقات السلم كمجالس أمثاله من الأمراء وأصحاب السلطان ، مدارس يتثقف فيها

الجاهل ، ويتهذب فيها ذو الطبع الغليظ ، وتشتد فيها عناية كل واحد من الذين يشتركون فيها ويختلفون إليها بأن يعظم حظه من الثقافة ، ويزداد علمه سعة وعمقا ، ويزداد طبعه رقة وتهذيبا ، ويزداد لسانه مرونة ولباقة . ولعل سيف الدولة نفسه كان أشد الناس انتفاعا بهذه المدرسة واستفادة مما يلقى فيها من العلم ويدار فيها من الحديث . فكانت ثقافته تزداد وعلمه ينمو من يوم إلى يوم . ولست أستبعد أن يكون سيف الدولة قد أضاف إلى مشاركته فى الثقافة الشائعة لوقته ، مشاركة فيما هو أعمق من هذه الثقافة وأدنى إلى الجد . فما أظن فى أنه حمى الفارابى ، ويسر له أسباب الحياة لمجرد الرغبة فى الفخر والتكثر . وما أستبعد أن يكون سيف الدولة قد ألم شيئا باليونانية وثقافة اليونانيين لاتصاله اليومى أثناء حياته كلها باليونان ، وشؤون اليونان . فمن الحق على الشاعر الذى يريد أن ينقطع لأمير كهذا الأمير ، ويشارك فى مجلس كمجلس سيف الدولة أن يهيئ نفسه لذلك أحسن تهيئة ، ويعدها له أقوى إعداد .

والرواة يحدثوننا ، والديوان يحدثنا بأن المتنبى قد جد

فى ذلك فأحسن الجد ، وأتيح له فى ذلك أحسن التوفيق . فلم يكن المتنبى كما عرفت صاحب مجون ولهو ، ولم يكن محبا للراحة والفراغ . فلا غرابة فى أن تتحدث الأخبار بأنه كان كثير القراءة ، يطيل مصاحبة الكتب ، حتى يمضى عليه فى ذلك أكثر الليل .

وإذن فلم يكن رقى شعر المتنبى فى هذا الطور شيئا مفاجئا ، ولا أثرا من آثار المصادفة ، وإنما كان شيئا طبيعيا ، ونتيجة لازمة لهذه الحياة الجديدة التى انغمس فيها ، ولما كان قد ركب فى طبعه من ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، وحدة الذهن وقوة العقل والشعور معا .

ركب طبعه على هذا النحو ، ووجد عند سيف الدولة راحة من الجهد ، وفراغا للجد من الأمر ، وصادف بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة ، وأميرا ليس أقل من هذه البيئة خصبا ، ولا ذكاء ولا ثقافة ، ولا ميلا إلى النقد . فلم يكن له بد من أن يلائم بين نفسه وبين هذه البيئة ، ومن أن يجعل نفسه خليقا بصحبة هذا الأمير . فإذا أضفت إلى ذلك

نشاط الأمير الذى لا يفتر ، وحسن بلائه فى سبيل المجد ، وحسن جهاده فى حماية الإسلام والمسلمين ، وحسن سخائه بالمال ، لم تنكر من هذه الوثبة التى وثبها المتنبى فى هذا الطور من حياته قليلا ولا كثيرا .

٣

وكان شعر المتنبى كما رأيت متنوعا كحياة الأمير الذى انقطع له ، فوقف نفسه وجهده على مدحه والإشادة به ، والثناء عليه . وما أحتاج إلى أن أتكلف ما كنت أتكلفه من قبل فى توقيت القصائد والمقطوعات وتاريخها ، فالديوان يكفينا هذه المهمة ، فهو يوقت هذه القصائد ويؤرخها ، ولا يكاد يهمل إلا توقيت المقطوعات القصار وتأريخها ، لأنها فيما يظهر كانت متصلة منتشرة فى الأعوام التى اصطحب فيها الشاعر والأمير ، فلم يكن فى توقيتها وتأريخها كبير عناء ، وما أحتاج كذلك إلى تأريخ حياة سيف الدولة ، فإنى لا أريد الحديث عن هذا الأمير ولا تصوير سيرته ، بل أنا لا أعرض له إلا من حيث الحاجة إليه فى تصوير حياة المتنبى والحديث عن شعره ، ولم يقصر المورخون القدماء والمحدثون فى إنصاف هـذا الأمير وتصوير ما كان يمتاز به من قوة ، أو ما كان يعيبه من ضعف وتقصير .

وما أحتاج كذلك إلى أن أتعمق فى درس كل الشعر الذى قاله المتنبى فى سيف الدولة ، فإن هـذا شىء يطول ويوشك ألا ينقضى . وما أشد حاجتى إلى أن أفرغ من هذا الحديث ، وأدع المتنبى وحياته إلى موضوع آخر من هذه الموضوعات الكثيرة التى أنا مشغوف بقراءتها والكتابة فيها .

فحسبك وحسبى أن نقف وقفات قصارا عند نماذج مختلفة من هذه الفنون التى طرقها المتنبى فيما قال من الشعر لسيف الدولة ، على أن تكون هذه النماذج التى نلم بها مغنية عما لا ندرسه ولا نقول فيه .

ولننظر قبل كل شىء إلى المدح الخالص الذى قاله المتنبى فى سيف الدولة ، والذى اشترك فيه سيف الدولة مع غيره من الأمراء الممدوحين ، أو اشترك فيه المتنبى مع غيره من المادحين .

ولنختر أول ما قاله المتنبى فى مدح سيف الدولة من الشعر حين اتصل به فى أنطاكية سنة سبع وثلاثين . فنحن نلاحظ أنه أكثر من قوله الشعر فى سيف الدولة أثناء هذه السنة الأولى . فقد مدحه فى أنطاكية نفسها بقصائد ثلاث .

إحداها هـذه الميمية التى سنطيل الوقوف عندها شيئا . والأخريان قالهما حين عزم سيف الدولة على الرحيل ، وحين أخـذ به ، ثم ماتت أم سيف الدولة فرثاها ، ثم أسر ابن سيف الدولة واستنقذه الأمير ، وقال المتنبى فى ذلك شعرا . ثم تعرض أخو سيف الدولة لخطر من قبل البويهيين ، وهم سيف الدولة بنصره ، فقال المتنبى فى ذلك شعرا . ثم أراد الأمير شاعره على أن يصحبه فى هـذه الحملة التى هم بها فقال المتنبى فى ذلك شعرا . ومن المحقق أن أسبابا عارضة لم يحدثها المتنبى قد دعته إلى الإكثار من قول الشعر فى هذا العام أو فيما بقى من هـذا العام . ولـكن من المحقق أيضا أننا نحس فى هذا الشعر كله ، ولا سيما فى القسم الأول منه أن المتنبى كان حريصا كل الحرص على أن يرضى أميره ويظفر بمودته واصطناعه إياه ، وأنه قد ظفر من ذلك بما كان يريد ، فأصبح شاعرا رسميا ، وأصبح الأمير حريصا على صحبته يهم بالسفر فيدعوه إلى مرافقته .

فلننظر إذن فى بعض هـذا الشعر ولنختر منه الآن هذه القصائد الثلاث التى قالها المتنبى لأميره بمجرد أن اتصل

به فى أنطاكيه حين كان الأمل وحده هو الذى يدفعه إلى المدح والثناء . والنظرة السريعة فى القصيدة الأولى تترك فى نفسنا أثرا غريبا . فالفرق عظيم جدا بين لهجة الشاعر فيها ولهجته فى القصيدة الأولى التى مدح بها بدر بن عمار .

كان مدحه لبدر بن عمار كما رأيت مندفعا شديد الاندفاع لا يكاد يملك نفسه ، ولا يسيطر على ما يثور فيها من عواطف الفرح والابتهاج . وكان كما رأيت يلائم بين شعوره وشعره فيصطنع البحر المتقارب الذى ينحدر به انحدارا ، ويصور إسراعه إلى الأمير واندفاعه إلى هـذه الواحة الخضراء التى لاحت له فى صحراء مجدبه .

أما ميميته الأولى فى سيف الدولة ، فلا تصور اندفاعا ولا إسراعا ، وإنما تصور أناة ومهـلا وتعمدا لطول الروية والإمعان فى التفكير . وأنا أقدر أن المتنبى كان فى الخامسة والعشرين حين اتصـل ببدر بن عمار ، وكان فى الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف الدولة . وأنا أقدر أثر الشباب فى ذلك الاندفاع ، وأثر الكهولة فى هذه الأناة ، بل أنا أقدر أيضا أن المتنبى كان بائسا يائسا حين أتيح له

الاتصال ببدر ، وأنه كان راضيا مطمئنا حين اتصل بسيف الدولة . بل أنا أقدر بعد هذا وذاك أن المتنبى كان قليل الشهرة ، ضئيل الحظ من نباهة الذكر حين اتصل ببدر ابن عمار ، وكان بعيد الصوت ، مرتفع المكانة حين اتصل بسيف الدولة .

وكل هـذا كاف لتعليل اندفاعه فى طبرية وأناته فى أنطاكية . ولـكنى لا أستبعد مع هذا أن تـكون تجربة المتنبى عند بدر قد علمته الاحتياط حين يتصـــل بالملوك والأمراء ، وألقت فى روعه أن الخـير أن يصطنع الأناة والروية ؛ فلا يلقى بين يدى ممدوحيه بنفسه كلها ، وأمله كله ، وإنمـا يعطيهم من ذلك بمقدار ، ويدخر لنفسه منه ما قد ينفعه حين يحتاج إليه . بل أنا أرجح أن تجربة المتنبى عند بدر وعند غيره من الناس قد علمتـه ألا يكشف عن نفسه كلها لأحد ، وأن يقسم حماسته قسمين ، يحتفظ لنفسه بأحدهما ، ويجعل الآخر مادة يأخذ منها ليعطى ممدوحيه .

ومهما يكن من شىء فقد كان للمتنبى حين أقبل على سيف الدولة فى أنطاكية مظهران متناقضان ، فأما أحدهما

فمظهر الأناة والحذر ، وأما ثانيهما فمظهر الحرص على إرضاء أميره العظيم .

وشيء ثالث لابد من تقديره فيما أظن ، هو أن المتنبى قد حقق فى نفسه الفرق بين ممدوحه الجديد وممدوحيه السابقين . وحقق فى نفسه الفرق بين البيئة التى كانت تحيط بسيف الدولة والبيئات التى كانت تحيط بممدوحيه الآخرين فأقدم على مدح سيف الدولة والتحدث إلى بيئته ، لا فى شيء من الأناة والحذر فحسب ، بل فى شيء من التهيب والإشفاق أيضا .

وما أرى إلا أنه استعد لمقامه هذا بين يدى سيف الدولة وأصحابه ، فأحسن الاستعداد وأطاله ، وتقدم إلى فنه أن يمده بكل ما يملك من قوة وخصب وغناء . وحرص على أن تكون قصيدته الأولى لهذا الأمير خليقة بمقامه الأول بين يديه ، وعلى أن يقرأ أصحاب الأمير وندماؤه هذه القصيدة أو يسمعوها ، فإذا هم مضطرون إلى أن يقدروها ويحسبوا لصاحبها حسابا ، ويعترفوا بأن الشاعر وشعره خليقان حقا بالعناية والتفكير .

من أجل هذا كله كظم المتنبى عواطفه ، وأخضع آماله وأهواءه لنظام دقيق شديد حقا ، وادخر إرسال نفسه على سجيتها ، لمواقف ومقامات أخرى حين تزول الكلفة بينه وبين الأمير ، وحين تؤمن له البيئة الجديدة بنباهة الذكر وارتفاع الشأن والمهارة فى الفن . وإذن فليصطنع المتنبى لهذا المقام الخطير ما يلائمه من فخامة الوزن ، وضخامة القافية ، وجزالة اللفظ ، ودقة المعنى وارتفاعه أيضا .

وأنت واجد هذه الخصال كلها فى هذه القصيدة الميمية ، ويكفى أن تقرأ مطلعها لتعرف أن الشاعر قد تعمده تعمدا ، وقصد إليه مع سبق الإصرار كما يقول أصحاب القانون ، لا لشىء إلا ليبهر ويسحر ويصدم السامعين ، ويفرض عليهم نفسه ، ويكرههم على الاعتراف بأن هذا الشاعر الجديد ليس شاعرا ما . ليس أول مقبل كما يقول الفرنسيون ، وإنما هو شاعر يعرف كيف يدير رأيه فى رأسه ، وكيف يدير لسانه فى فمه ، وكيف يقول البيت من الشعر ، فيكلف سامعيه وقارئيه كثيرا من الجهد والعناء ليفهموه ثم ليذوقوه ، ولن يقنعنى أحد بأن المتنبى قد أرسل

نفسه على سجيتها فى هذا البيت وقاله فى غير تكلف وتعمد . والمتنبى عندى أعقل وأذكى وأعلم بالشعر وأبرع فيه من أن يندفع إلى هذا البيت اندفاع الذى لا يعلم ما يأتى وما يدع ، إنما أراد المتنبى أن يعنى خصومه الذين عرفهم أو افترضهم ، وأن يكلفهم التفكير فى تفسير هذا اللغز الذى استفتح به قصيدته ، أو هذه الألغاز التى مضى فيها أثناء القسم الأول من هذه القصيدة :

وَفاؤُكما كالرَّبْعِ أَشْجاهُ طاسِمُهْ
بأَنْ تُسْعِدَا والدَمْعُ أَشفاهُ ساجِمُهْ

من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن المتنبى أراد أن يعبر عما فى نفسه فلم يجد وسيلة إلى هذا التعبير إلا هذا البيت الذى اشتد فيه الالتواء والتعقيد .

ولنلاحظ أن المعنى الذى قصد إليه متكلف فى نفسه لم يصدر عن نفس سمحة مرسلة مع طبعها ، وإنما صدر عن شاعر يريد أن يأتى بشىء جديد لم يتعود الناس والمثقفون منهم خاصة أن يسمعوه . يريد أن يفجأ سامعيه ويأتيهم بشىء لا عهد لهم به . فمتى سمع الناس تشبيه وفاء الأصدقاء

بربع الأحباء ؟ وأى علاقة بين هذين الطرفين من أطراف التشبيه ؟ وإذن فهذا المعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب ، ولا بد للشاعر من أن يتأنق فى لفظه كما تأنق فى معناه ، ولا بد من أن تكون الغرابة مظهر هـذا التأنق اللفظى ، كما كانت الغرابة مظهر ذلك التأنق المعنوى . وما دام قد شبه الوفاء بالربع ، فليفسر هذا التشبيه بما يزيده غرابة وطرافة وإمعانا فى البعد عن المألوف . فكما أن الربع يكون أشجى للنفس وأبلغ فى إثارة الحزن كلما أمعن فى الدروس ، وامّحاء الآثار والدنو من البلى ، فوفاء صاحبيه أشد إثارة للحزن كلما ضعف وقل ، وتضاءلت آثاره . والمتنبى يؤدى هذا المعنى الغريب فى تعقيد قد قصد إليه وتكلفه . فهو كان يريد أن يقول وفاؤكما بمساعدتى كالربع أشجاه طاسمه . فأخر الجار والمجرور عمدا ، وأخبر عن المبتدأ قبل أن يتم وصفه بهذا الجار والمجرور . ثم لماذا اصطنع كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة الشائعة المألوفة وهى الطامس . أتراه فعل ذلك لأن القافية أعيته وهو لم يأخذ بعد فى القصيدة ؟ كلا . هو أقدر على اللفظ والقافية من ذلك ، ولكنه تعمد الإغراب وتعمد

أن يثير حاجة النحويين إلى الاستطلاع والبحث ، وأن ينبئهم بأنهم إن كانوا ريحا فقد لاقوا أعصارا ، وأنهم سيجدونه حين يذكرون الغريب ويخوضون فى حل المشكلات النحوية واللغوية .

ثم اقرأ البيت الثانى :

وما أَنا إلاّ عاشِقٌ كلُّ عاشِقٍ
أَعَقَّ خَلِيلَيْهِ الصَّفِيَّيْنِ لائِمُه

فالشاعر لم يقلع بعد عن التكلف والرغبة فى الإغراب ، يعمد إلى ذلك فى معناه ، ثم يعمد إليه فى لفظه أيضا . فانظر أولا إلى هذا الفصل الذى تعمده ، وما أنا إلا عاشق . ثم يقطع الحديث ليستأنف تصوير شأن العاشق على نحو طريف فى الشعر يألفه أصحاب المنطق أكثر مما يألفه الشعراء . كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه ، وهذا النحو الملتوى من الأخبار عن هذا العاشق قد تعمده الشاعر ، ليثير استطلاع النحويين وينبئهم بمكانه من القدرة على تصريف الكلام . وأى صعوبة كان يجدها الشاعر لو أراد أن يؤدى هذا المعنى على نحو مألوف . فقال كل عاشق يسوءه أصفى أخلائه ويعقه بلومه

والزراية عليه ، ثم يقول المتنبى :

وقد يتزيا بالهوى غيرُ أهلِه
ويستصحبُ الإنسانُ من لا يلائمُه

وكأنه قد رحم سامعيه وقارئيه وأراد أن يريحهم من هذا الإغراب ويرفه عليهم بعض الترفية ، فألقى عليهم هذا البيت مثلين سائرين يؤديهما فى أعذب لفظ وأوجزه ، وأشده إمعانا فى الاستقامة والاعتدال حتى يدهش سامعيه من أن يكون قائل هـذا البيت السهل الجزل الصحيح المستقيم ، هو قائل ذينك البيتين الممعنين فى العسر والغرابة والالتواء .

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يستأنف فيهما الحديث استئنافا كأنه قد قطعه مع أنه لم يقطعه . فهو ما زال يتحدث إلى صاحبيه ، وهو يزعم لهما أنه سيقف بالأطلال وسيطيل فيها الوقوف ، وسينظر إلى الآثار وسيمعن فى النظر إليها رغم بخلهما عليه بالإسعاد وتعريضهما له باللوم . ولكن انظر كيف يؤدى هذا المعنى فيعدل عن الخبر إلى الإنشاء وعن النبأ إلى الدعاء . وانظر إلى قوله : بليت بلى الأطلال ولائم بينه و بين قوله لصاحبيه : وفاؤكما كالربع ، ثم انظر إلى

الشطر الثانى من هذا البيت ، واستحضر ما سمعت وعلمت من عناية القدماء به و إكثارهم القول فيه ، وقل لنفسك ما قلته لك آنفا : إن الشاعر لم يقصد إلا أن يفجأ سامعيه و يبهرهم بالإغراب فى المعانى والألفاظ :

بَلِيتُ بِلَى الأَطلالِ إنْ لم أَقِفْ بهـا
وُقُوفَ شَحيحٍ ضاعَ فى التُربِ خاتَمُه

وقد أرضى الشاعر حاجته إلى الإغراب ومفاجأة السامعين به ، وأحس أنه قد ملأ نفوسهم إعجابا به وتهيبا له ، فصور ذلك تصويرا جميلا رائعا لا يخلو من التحدى فى هـــذا البيت الجميل الرائع :

كَئيباً تَوَقَّانى العَواذِلُ فى الهَوَى
كما يَتَوقَّى رَيِّضَ الخَيلِ حازِمُه

فهو إذن عاشق ، عنيف فى عشقه ، محب خشن فى حبه ، لا يحفل بتقصير صاحبيه عن إعانته ، ولا بإلحاحهما فى لومه . وهو شديد على عواذله حتى إنهن ليتوقينه و يجتنبن عذله ، ولا يدنون منه إلا حذرات مشفقات مترفقات كما

يدنو الحازم من الفرس الجموح الشموس ليدير عليه الحزام . أتراه يصور نفسه لسيف الدولة ، ويعطيه فكرة عن أخلاق هذا الشاعر الذى يقف الآن بين يديه مادحا ويريد أن يكون أثيرا عنده ومقصورا عليه ؟ أتراه ينذر أصحاب سيف الدولة هؤلاء الشعراء والأدباء وينبئهم بأنه ليس من اليسر والسهولة بحيث ينتظرون أو يرجون ، وإنما هو فرس جامح عنيف ؟ كلا الأمرين ممكن ، ولكن هناك شيئا محققا لا شك فيه ، وهو أن الشاعر برغم حرصه على الاتصال بسيف الدولة لا يلقى نفسه عليه إلقاء ، ولا يظهر التهالك على القرب منه ، وإنما هو كما قدمت يدنو حذرا محتاطا مشترطا لنفسه . وهذا يفسر ما رواه القدماء من أنه لم يتصل بسيف الدولة إلا بعد أن احتاط واشترط لنفسه ما لم يتعود الشعراء أن يشترطوه على الأمراء .

ولست أدرى أصحيح ما روى الرواة من هذه الشروط أم هو متكلف منتحل ؟ ولكن الذى ليس فيه شك عندى هو أن المتنبى أقدم على مدح سيف الدولة فى شىء من العزة لم يألفه حين كان يمدح غيره من الأمراء والرؤساء .

ثم انظر إليه كيف ينحرف عن صديقيه المقصرين فى الوفاء له ، وعن عواذله المشفقات من القرب منه إلى صاحبته التى تعذبه وتضنيه فيتحدث إليها فى لهجة يريدها على أن تكون لهجة غناء وحنين فلا يكاد يبلغ ذلك ، لأن فى نفسه بقية من قوة ، وفضلا من عنف ، وحاجة إلى التكلف والإغراب :

قِفِى تَغْرَمِ الأُولَى مِنَ اللَّحظِ مُهْجَتى
بِثَانِيةٍ والمُتلِفُ الشىءَ غارِمُـــه

أتراه يريد أن يبهر الفقهاء من أصحاب سيف الدولة كما بهر النحاة واللغويين ؟ وإلا فما هذه القضية الفقهية التى صورها فى هذا البيت ، فزعم أن صاحبته قد أضاعت عليه مهجته بالنظرة الأولى ، فلا بد من أن تردها عليه بالنظرة الثانية ، لأن القضايا المسلمة عند الفقهاء أن المتلف الشىء غارمه .

ولكنه لا يطيل فى مداعبة الفقهاء كما أطال فى مخاشنة اللغويين والأدباء ، وإنما يندفع إلى الغناء الهين اليسير فيبلغه فى غير مشقة ولا جهد ، بل يبلغه فى شىء من العذوبة

والظرف فى هذا البيت على أقل تقدير :

سقاكِ وحَيَّانا بِكِ اللهُ إنمـــا
عَلَى العِيسِ نَوْرٌ والخدورُ كمائِمُه

واقرأ هـذا البيت الآخر فليس أقل من سابقه ظرفا ، و إن كان معناه قريبا كل القرب مألوفا كل الإلف ، و إن كان الشطر الثانى منه لا يخلو من تأنق فى اللفظ ما أشك فى أنه يداعب به فريقا من أصحاب سيف الدولة :

وما حاجةُ الأظعانِ حولَكِ فى الدُجَى
إلى قَمَرٍ ما واجِـــدٌ لَكِ عادِمُهْ

وما أرى إلا أنه قد قصد بهذا الطباق بين الوجود والعدم إلى مداعبة المتكلمين كما قصد بالإتلاف والغرم إلى مداعبة الفقهاء . فهذه الأبيات وحدها إن صح فهمى لها وتفسيرى لما قصد إليه المتنبى بها تصور لنا الحاشية التى كانت تصحب سيف الدولة ، وتحضر مجلسه حين أنشده المتنبى هذه الميمية فى أنطاكية .

على أن الشاعر لم يقف عند هؤلاء الناس وحدهم من

أصحاب سيف الدولة ، و إنما أراد أن يرضى فريقا آخرين ليسوا من أصحاب النحو واللغة ، ولا من أهل الفقه والدين ولا من رجال الفلسفة والكلام ، و إنما هم من أهل البادية وأصحاب الحرب والمشغوفين بالجمال والبأس معا ، والمحتفظين بالسنة البدوية القديمة فى سيرتهم العملية والعقلية جميعا . فانظر إليه كيف عاد إلى المألوف من سنة امرئ القيس والفرزدق وابن أبى ربيعة فى وصف صاحبته ، وما يدل عليها من الطيب وما يقوم دونها من البأس والسلاح :

حَبِيبٌ كأَنَّ الحُسْنَ كانَ يُحِبُّهُ
فآثَرَهُ أو جارَ فى الحُسنِ قاسِمُهْ
تَحُولُ رماحُ الخَطِّ دُونَ سِبائِهِ
وتُسْبَى لهُ من كُلِّ حَيٍّ كَرائِمُهْ
ويُضحِى غُبارُ الخيلِ أَدنَى سُتورِه
وآخِرُها نَشْرُ الكِباءِ المُلازِمُه

ثم يعود الشاعر إلى نفسه بعد أن فرغ من الناس فيستأنف ما ألف من الغناء الفلسفى الذى يصوره فيما يذكر

من شدة الدهر عليه وحسن احتماله لهذه الشدة وصبره على ما يلقى من المكروه . وفى إرسال الأمثال السائرة والحكم الشائعة التى تجد النفس راحة فيها حين تقولها وحين تسمعها .

وقف وقفة خاصة عند هـذا البيت ، فلست أدرى لماذا أجد فيه حلاوة مرة لا آخر لها إن جاز مثل هـذا القول . وهـذا البيت عندى هو خير ما فى القسم الأول من القصيدة .

فـلا يَتَّهِمْنى الكاشحونَ فإنَّنى
رَعَيْتُ الرَّدَى حتى حَلَتْ لى عَلاقمه

وقد فرغ المتنبى من الناس وفرغ من الأشياء ومن الزمان ، وفرغ من نفسه إن كان يستطيع أن يفرغ من نفسه وانتهى إلى سيف الدولة . فماذا قال له ؟ لا شك أنه شهد استعداد المدينة لاستقبال الأمير قبل مقدمه بزمن بعيد ، ورأى هذه الفازة أو هذا السرادق الذى نصب ليستقبل الأمير فيه وفود المرحبين به والمهنئين له بما أحرز من فوز وظفر . ولا شك فى أن هـذه الفازة قد أعجبته وراقته وراعه ما صور عليها من المناظر التى تمثل الحياة

والأحياء ، وتمثل الحرب والسلم أيضا . ولا شك فى أن هـذه الخيمة كانت بعض الغنائم التى أخذت من الروم . فليصفها المتنبى ، وليجعل وصفها أول سبيل يسـلكه إلى مدح سيف الدولة .

والخطأ كل الخطأ أن يظن قارئو هذا الوصف لما كان على الخيمة من تصاوير أن المتنبى قد ارتجل هـذا الوصف ارتجالا . فليس فى هذه القصيدة شىء مرتجل ، وإنما هى قصيدة مصنوعة قد هيئت للأمير قبل مقدمه . ولا شك فى أن المتنبى قد اختلف إلى هذه الخيمة التى نصبت قبل مقدم الأمير ، فرأى ما كان عليها من الصور وتفكر فيه . ثم قال فيه ما قال .

والخطأ كل الخطأ أيضا أن يظن ظـان أن المتنبى قد ابتكر هذا الوصف وجاء به من عند نفسه ؛ فالشعراء قد سـبقوا إلى وصف الصور منذ عهد بعيد . والناس كلهم يذكرون وصف أبى نواس للـكؤوس العسجدية التى صور كسرى فى قرارتها وصورت فى جنباتها مها تديرها القس الفوارس ، ثم ملئت بالخمر الممزوجة بالمـاء :

فَلِلخمرِ مازُرَّتْ عليه جُيوبُهـا
وللْماءِ مادَارَتْ عليـه القَلاَنِسُ

والناس كلهم يذكرون أيضا وصف البحترى لما كان على الإيوان من تصاوير قد برع الفن فى تصويرها وإشاعة الحياة والنشاط فيها حتى :

تَصِفُ العَينُ أنَّهم جِدُّ أَحيا
ءٌ لَهُمْ بينَهُمْ إِشارَةُ خُرْسِ
يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتيابِيَ حتى
تَتَقَرَّاهُمُ يداىَ بلمْسِ

وقد ألم المتنبى نفسه فى شبابه بوصف الصور التى صورت على الخيام ، ولكنه ألم بهذا الوصف إلماما سريعا جدا حين قال فى نونيته التى يمدح بها بدر بن عمار ويعتذر فيها إليه :

سَلَكَتْ تَماثيلَ القِبابِ الجنُّ من
شَوْقٍ بها فأَدَرْنَ فيكَ الأَعيُنا

ولست أرتاب فى أن الشاعر قد استحضر وصف القدماء للصور والتماثيل حين وصف هذه الخيمة التى ضربت لسيف

الدولة وانتفع بهذا الوصف فى كثير من المعانى التى ألم بها ، ولكن ذلك لم يضعف من شخصيته ولم يغض من فنه لأنه احتفظ فى هذا الوصف بروحه القوى ولفظه الجزل واستغل عظمة سيف الدولة والخصومة القائمة بينه و بين الروم .

ومذهب المتنبى فى هذا الوصف يسير لا جهد فيه ولا عناء أو قل لا يظهر فيه الجهد ولا العناء ، وهو مذهب مأخوذ عن القدماء أيضا ، قد سلك فيه الشاعر طريق الشعراء من قبله ، يرى صور الرياض فيقول إنها رياض لم ينشئها السحاب ، ويرى صور عقود الدر فيقول : إنه در لم يثقبه ثاقب ولم ينظمه ناظم ، وهو مذهب القدماء حين كانوا يقولون إن عيون الحسان سهام لم يرشها رائش ، و إنها مرضى ولكنها صحاح :

صَوَّبْنَ حِينَ أَرَدْنَ أَنْ يَرْمِينَنِي
نَبْلاً بِلاَ رِيشٍ ولا بِقِدَاحِ
ورَمَيْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتورِ بأَعْيُنٍ
مَرْضَى مُخالطُها السَّقامُ صِحاحِ

فإظهار الاختلاف بين الحقائق المحكية والصور الحاكية

وإظهار التشابه الدقيق بين هذه الحقائق وهذه الصور . هذا التشابه الذى ينشأ من دقة الصنعة وبراعة الفنان هما سبيل المتنبى ومذهبه إلى إجادته الفنية فى هذا الوصف ، وظاهر أنه مذهب يسير قد كان يبهر القدماء ويخلبهم ، ولكنه إن أرضانا فهو يثير على ثغورنا ابتساما فيه كثير من الحب لهذه السذاجة والعطف على أصحابها . ثم للمتنبى مذهب آخر مأخوذ من القدماء أخذا هو إشاعة الحياة فى صور الأحياء فهذه الوحوش التى تتحارب حينا وتتسالم حينا آخر حين تعبث الريح بالخيمة تذكر جدا بالجيوش التى كان يزجيها كسرى تحت الدرفس فى شعر البحترى ، لولا أن صور البحترى كانت تستمد حياتها ونشاطها من قوة الفنان لا من تحريك الريح لجدران الإيوان كما كانت تحرك خيمة سيف الدولة ، لأن جدران الإيوان كانت أثبت من أن تهزها الريح ولأن صور الإيوان كانت أنشط من أن تحتاج إلى معونة خارجية لتخيل إليك أن الحياة شائعة فيها ، فشخصية المتنبى فى هذا الوصف لا تأتى من معناه وإنما تأتى من هذا اللفظ الضخم الذى تشيع فيه القوة والجزالة ، ثم من تصوير سيف الدولة عظيما مهيبا يذل أمامه ملك

الروم ، وتضطر الملوك إلى أن تقبل البساط بين يديه لأن أعناقها تتقاصر عن تقبيل كمه أو لثم يديه . فإذا فرغ المتنبى من وصف هـذه الخيمة وتصوير عظمة الأمير وهيبته وهو يستقبل فيها الوفود ، خلص للأمير نفسـه ، فوصفه مطلقا لا تحصره خيمة ولا يحتويه مكان .

فانظر إلى هذا البيت :

لهُ عَسكَرا خيلٍ وطيْرٍ إذا رَمَى
بها عَسْكراً لم تَبْقَ إلاّ جماجِمُه

فالمعنى الذى ألم به الشاعر قديم بعيد العهد بالقدم لم يبتكره الشاعر من عند نفسه ، وإنما سبق إليه النابغة[1]

---

(١) قال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طـير تهتدى بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم
من الضاريات بالدماء الضوارب
تراهن خلف القوم خزرا عيونها
جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيـله
إذا ما التقى الجمعان أول غالب

(انظر قصيدته المشهورة : كليني لهم يا أميمة ناصب)

فى مدح الغسانيين ، وسبق إليه أبو نواس [١] فى مدح بعض الأمراء العباسيين . ولكن شخصية المتنبى مع ذلك ممتازة من شخصيتى هذين الشاعرين وغيرهما من الذين ألموا بهذا المعنى مجملين أو وقفوا عنده مفصلين . ذلك أن القدماء كانوا يزعمون أن سباع الطير قد عرفت حسن بلاء الممدوحين فى الحرب ، فهى تتبعهم لتأكل ممن يقتلون . وهذا المعنى نفسه لم يبتكره الشعراء ، وإنما سبقت إليه البلاغة الشعبية حين كان العرب فى جاهليتهم يزعمون أن الضباع تتباشر بالحرب لما ستنجلى عنه من جيف القتلى . وذلك قول الشنفرى :

لا تَدْفِنونِى إنَّ دَفْنِى مُحَرَّمٌ
عَليكم ولَكِنْ أَبْشِرِى أُمَّ عامرِ

فمن تباشر الضباع بالحرب تباشرت طير الشعراء بها أيضا . ثم عرفت الأبطال الذين يحسنون البلاء فيها فتبعتهم

---

(١) قال أبو نواس :
تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره
(انظر قصيدته : أيها المنتاب من عفره)

ثقة بأنها ستجد من صرعاهم ما يكفل لها الغذاء .

أما المتنبى فإنه قد انتفع بهذا كله ولكنه لم يجعل طير سيف الدولة طفيلية تتبعه لتعيش ، وإنما جعلها بعض جنوده ، فهى تتبعه محاربة لا متطفلة . وليس هذا هو المهم ، على أنه فى نفسه قيم بل المهم أن المتنبى قد جعل للأمير جيشين جيشا فى الأرض تحمله الخيل ، وجيشا فى السماء يحمله الجو . ومن قبل سيف الدولة لم يتأمر الخلفاء والملوك والأمراء على جيوش تطير فى الجو . فالفكرة نفسها جديدة ، والصورة التى تثيرها هذه الفكرة طريفة ، والعظمة التى يخرج بها الممدوح منهما رائعة ، وشخصية المتنبى لا تضعف ولا تتضاءل أمام الفحول الذين سبقوه ، ولكنها تثبت لهم وتقوى عليهم . وكذلك الأمر فى البيت الذى يأتى بعد هذا بقليل :

سحَابٌ منَ العِقبانِ يَزحَفُ تَحتَها
سحَابٌ إذا استَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُه

فالمعنى فى هذا البيت هو نفس المعنى فى البيت الذى سبقه ، ولكن التصوير فيه يبلغ بالمتنبى أرفع ما يستطيع أن يسمو إليه من الروعة والجمال الفنى المخيف . أترى إلى

هذه السحاب من العقبان تسعى تحتها سحاب من الجيش . أترى إلى العدو وقد رأى هذه السحب التى يركب بعضها بعضا ويدفع بعضها بعضا ، وتزدحم بها الأرض والجو معا . ثم لا تقف براعة المتنبى عند هذا ، ولكنه يقلب الأوضاع المألوفة فى عرف الناس . فإذا السحب العليا تستسقى ما دونها من السحب ، وقد ألف الناس أن يستسقى الأسفل الأعلى ، فإذا الأعلى هنا يستسقى الأسفل . والصوارم هى التى تستسقى السحب العليا بما تريق لها من الدماء . قل إن المتنبى لم يبتكر أصل المعنى فلن ينازعك فى ذلك أحد . ولكن لا تنازع أنت فى أنه قد ألم بهذا المعنى القديم اليسير فاستثمره أحسن استثمار . وارتفع به إلى جوهر الشعر واستطاع أن يروع سامعيه وقارئيه بالتعبير والتصوير جميعا .

ودع هذين البيتين واقرأ معى هذين البيتين الآخرين فسترى فيهما جمالا يأتيهما أكثره من اللفظ وأقله من المعنى ، وسترى فيهما جزالة حلوة يذوقها الذين يحبون النحو ويألفون ما فيه من العلل والتأويل :

فقد مَلَّ ضَوءُ الصُبحِ مِمَّا تُغيرُهُ

ومَلَّ سَوادُ الليلِ مِمَّا تزاحِمه

ومَلَّ القَنا مِمَّا تَدُقُّ صُدورَهُ

ومَلَّ حَديدُ الهِندِ مِمَّا تُلاطِمُه

فهذا الفعل الذى يتكرر أربع مرات ويضيف الملل إلى الصبح ، وإلى الليل ، وإلى الرماح ، وإلى السيوف ، يروع السامع ويكرهه على أن يتبع الشاعر فى شىء من الدهش والنشاط . فما تعود الناس أن يجدوا من الصبح والليل والرماح والسيوف مللا أو سأما .

وأنت فى غير حاجة إلى أن أنبهك إلى جزالة اللفظ وضخامته . ولكن انظر إلى قوله :

مل ضوء الصبح مما تغيره

يريد مما تغير فيه . وإلى قوله :

مل حديد الهند مما تلاطمه

يريد مما تلاطم به . فإلغاء حرف الجر ووصل الضمير بالفعل مباشرة ، وبغير وساطة كما يقولون مذهب من مذاهب

الفصحاء من الأعراب له جمال حلو يذوقه الذين يحسنون علل النحو ويجيدون تخريج الكلام ، وإذا لم تكذبنى الذاكرة فى هذا المكان الأجنبى ، البعيد عن المراجع والكتب ، فقد استحسن المبرد قول الشاعر القديم : (١)

تَحِنُّ فَتُبْدِى ما بها من صَبابةٍ

وأُخْفِى الذى لولا الأَسَى لقَضَانِى

يريد لقضى على ، فألغى الحرف ووصل الضمير .

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يطغى فيهما المتنبى على شعراء سيف الدولة الذين كانوا يمدحونه قبل أن يعرف المتنبى طغيانا عظيما :

غَضِبتُ لهُ لما رأيتُ صِفاتِه

بلا واصِفٍ والشعرُ تَهذى طَماطِمُه

وكنتُ إذا يَمَّمْتُ أَرْضا بعيدةً

سَرَيتُ فكنتُ السِّرَّ والليل كاتِمه

أترى إليه وقد أحس أن الشعراء سيمكرون به ،

---

(١) الكامل للمبرد ص ٢١ (طبع ليبزج)

ويكيدون له حين يضيقون بمقدمه على الأمير ، ومكانه عنده ، فآثر أن يبدأ بالهجوم ، وبالهجوم الصريح الذى لا كيد فيه ولا التواء ؟ فهو قد سمع بسيف الدولة وصفاته الغر حين كان بعيدا عنه شديد البعد . ومعنى هذا أن شهرة سيف الدولة قد طبقت الآفاق . ونظر المتنبى فلم يجد لهذه الصفات واصفا يلائم ما هى أهل له من العظمة والجلال ، وإنما سمع شعرا سخيفا يهذى به المتشاعرون الذين لا يحسنون العربية ، ولا يجيدون التصرف بفصيح الكلام . فغضب لهذه الصفات الغر التى لا تجد واصفا ، ولهذا الأمير الماجد الذى لا يجد شاعرا يلائم مجده . فأقبل من مكان بعيد جدا ، ولكنه أقبل مستخفيا لا يحسه أحد ، ولا يشعر به أحد ، كأنه السر قد طوى الليل عليه ضميره طيا . ثم ظهر فجأة بين يدى الأمير فأنشده فأرضاه وبهر من حوله ، وأخجم الذين تعودوا أن ينطقوا بين يديه .

هو الشمس التى تخفى الكواكب ، وهو النسر الذى يلتهم صغار الطير . والمعنى كما ترى قديم قد أكثر فيه الفرزدق وجرير والأخطل . ولكن الصورة التى صاغه فيها

المتنبى ساحرة باهرة من جهـة ، ومحنقة مثيرة للسخط من جهة أخرى .

فهذا السر الذى يكتمه الليل جميل ، وهـذا الاعتداد بالنفس والازدراء لغيره من الشعراء خليق أن يحفظ الصدور ويملأها ضغينة وحقدا ، وقد فعل . ولـكن المتنبى آثر أن يكون مهاجما على أن يكون مدافعا . وقد جرب موقف الدفاع عند بدر بن عمار فلم يغن عنه شيئا ، فليجرب عند سيف الدولة خطة الهجوم ، وقد أغنت عنه فاستطاع أن ينعم بالحياة فى ظله تسعة أعوام .

لم يمض المتنبى فى مدح الأمير ويسلك إلى هذا المدح مذهبا يظهر لنـا يسيرا كل اليسر ، ولـكنه فيما أظن كان طريفا فى عصره كل الطرافة . فالأمير يلقب سيف الدولة ، فما يمنع المتنبى أن يجعله سيفا ، ويضيف إليه ما يضاف إلى السيف حينا ، ويرفعه عن المألوف من صفات السيف حينا آخر . فالمجد هو الذى سل سيف الدولة ، والخليفة هو الذى تقلد هذا السيف ، والله هو الذى أخذ بقائمه وجعل يضرب به الأعداء . والسيوف تقطع حينا وتنبو حينا آخر ، ولـكن

سيف الدولة قاطع دائما ، والسيوف تقطع الأجسام وتضرب الهام . ولكن سيف الدولة أكبر من الهام والأجسام ، فهو يقطع شدائد الدهر ولزبات الزمان .

واقرأ هذين البيتين وانظر إلى الجمال الذى يأتى فيهما من حسن الملاءمة والمتابعة بين الطباق والمبالغة :

تُحارِبُهُ الأعـداءُ وَهْىَ عَبيدُهُ
وتَدَّخِرُ الأَموالَ وَهْىَ غَنَائِمُهْ
ويَستكبِرونَ الدَهرَ والدَهرُ دُونَهُ
ويَستَعْظِمونَ المَوتَ والموتُ خَادِمُهْ

وما أرى إلا أن المتنبى قد بهر وراع وملأ القلوب والأسماع بهذه القصيدة الفذة . ولكن هذا شىء والوصول إلى قلب سيف الدولة شىء آخر .

فليس سيف الدولة يكفيه أن يمدح برائع الشعر وبارع القصيد ، ولكنه ملك يحتاج إلى أن يشعر بأن أتباعه وصنائعه خدم له لا يكبرون أنفسهم ولا يسرفون فى المغالاة بها كما يفعل المتنبى أو كما فعل فى هذه القصيدة .

وإذا كان المتنبى قد بهر سيف الدولة فهو محتاج إلى أن يبلغ حبه ورضاه ، وقد بلغ من ذلك ما كان يريد فيما أرجح بالقصيدتين اللتين مدحه بهما حين هم بالرحيل وحين أخذ فيه .

فالمتنبى فى هاتين القصيدتين مخالف كل المخالفة للمتنبى الذى رأيناه فى هذه الميمية . هو خادم من خدم الأمير ، ورجل من رجال القصر قوام حياته الذلة والملق . ولست أريد أن أطيل بتحليل هاتين القصيدتين فهما أيسر وأهون وأوضح من أن تحتاجا إلى تحليل . ولكن اقرأ هذا الشعر واقرنه إلى ما قرأت فى الميمية ، فسترى براعة المتنبى فى الكبرياء حين يريد الكبرياء ، وفى الذلة حين يحتاج إلى أن يكون ذليلا .

لَيتَ أَنَّا إذا ارتَحَلْتَ لَكَ الخيـ
ـلُ وأَنَّا إذا نَزَلْتَ الخيامُ

وما رأيك فى هذا الشاعر العظيم الذى يفاخر الشعراء ويستعلى عليهم ، ويسرف فى الكبرياء والخيلاء . ثم يتمنى أن يكون فرسا يحمل الأمير إذا سار أو خيمة يظل الأمير

إذا أقام . ولكن لا ينبغى أن ننسى أن المتنبى منافَس ومنافس فى رضى الأمير ، وأن الذلة والملق أقرب الطرق وأيسرها إلى بلوغ هذا الرضى .

فأنت ترى فى آخر الأمر أن المدح الخالص الذى أقبل به المتنبى على سيف الدولة ليس شيئا فذا مبتكرا معجزا إن قسته إلى ما كان الفحول يمدحون به الخلفاء والأمراء . ولكنه ليس مدحا ساقطا ذريا متهالكا ككثير من المدح الذى كان يقوله المتنبى نفسه لغير سيف الدولة من الناس . ولعله خليق أن يكون كغيره من مدح الفحول فى القرن الأول والثانى ، وهو من غير شك أرفع وأبرع وأرقى مما تعود الشعراء المعاصرون أن يعرضوه على الأمراء والرؤساء وعلى سيف الدولة نفسه . فلا غرابة فى أن يحس الأمير أنه يسمع مدحا جديدا لم يتعود سماعه من قبل . وكانت شهرة المتنبى قد سبقته إلى الأمير ، وهذا المتنبى نفسه قد أقبل مادحا مجيدا للمدح ، متملقا بارعا فى التملق .

فليصطنعه الأمير لنفسه وليتخذه شاعرا يستعلى به على الملوك والأمراء .

٤

وقد ألمت بسيف الدولة أحداث امتحن بها فى نفر من أقربائه وخاصته ، ولم يكن بد للمتنبى من أن يقول فى ذلك شعرا ، نهوضا بما يجب أن ينهض به شاعر القصر من العزاء والرثاء ، ووفاء بما يجب أن يفى به الصديق للصديق من حقوق المودة والحب والإخاء ؛ فقد ماتت أم سيف الدولة فى نفس السنة التى اتصل به المتنبى فيها ، فرثاها الشاعر باللامية التى مطلعها :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعَوالِي
وتَقْتُلُنا المَنُونُ بلا قِتالِ

وفى أوائل سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة . وفى شهر صفر بالضبط مات لسيف الدولة طفل ، هو أبو الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة ، فرثاه المتنبى باللامية التى مطلعها :

بِنَا منْكَ فوقَ الرَمْلِ ما بِكَ فى الرمْلِ
وهذا الذِى يُضنِى كذاكَ الذى يُبلِى

وفى هذه السنة نفسها مات ابن عم لسيف الدولة كان عاملا له على حمص ، وهو أبو دائل تغلب بن داوود بن حمدان ، وسنعود إلى ذكره بعد حين . فرثاه المتنبى بالدالية التى يقول فى أولها :

ما سَدَكَتْ عِلَّةٌ بِمَوْلودِ
أَكرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بنِ داوُدِ

وفى رمضان من سنة أربعين وثلثمائة فقد سيف الدولة خادمه وقائده التركى يماك ، فعزاه المتنبى بالبائية التى أولها :

لا يُحْزِنِ اللهُ الأَمِيرَ فإِنَّنى
لآخُذُ من حالاتِهِ بنَصِيبِ

وفى رمضان من سنة أربع وأربعين وثلثمائة ماتت أخت سيف الدولة الصغرى ، فعزاه عنها المتنبى باللامية التى يقول فيها :

إن يكُنْ صَبرُ ذِى الرَزِيئَةِ فَضْلا
فَكُن الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجَلاَّ

ثم فارق الشاعر أميره ، واختلفت بينهما الخطوب ،

ومضت على ذلك أعوام حتى كانت سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فماتت أخت سيف الدولة الكبرى خولة التى كانت تعرف بست الناس . والمتنبى حينئذ فى الكوفة ، فأنفذ إلى الأمير مرثيته البائية التى أولها :

يا أُخْتَ خَيرِ أَخٍ يابنتَ خَيرِ أَبِ
كِنايةً بِهِمَا عن أَشرَفِ النَسَب

فقد قال المتنبى إذن لسيف الدولة مراثى ستا ، رثى فيها أمه وابنه وأختيه وابن عمه وخادمه التركى :

وهذه القصائد أكثر ما قال المتنبى فى هذا الفن من فنون الشعر ، فقد رأيناه قبل ذلك يرثى جدته ، ويرثى بعض التنوخيين على لسان قومه . وسنراه بعد ذلك يقول رثاء آخر ولكنه قليل ، ولكن هذه القصائد إن كانت لا تخلو من جيد الشعر ورائعه ، فليست هى خير ما قال المتنبى فى الرثاء . ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبى قال أكثرها أداء للواجب ونهوضا بالحق ، لا استجابة للعاطفة ، ولا إعراضا عن الضمير ، فهو قد لجأ فيها إلى فنه وعقله أكثر مما صدر فيها عن قلبه وشعوره . ومن هنا نحس

فيها كثيرا من البرد ، فإن لم يكن برد فنحن نحس فيها الفتور ، لا نكاد نستثنى منها إلا القصيدة التى رثى فيها خولة ست الناس بعد أن طال فراقه للأمير ، واشتد حنينه إليه ، وألمت به وبالأمير خطوب جعلت كل واحد منهما فى حاجة إلى صاحبه . ولعل التجارب التى امتحن بها المتنبى بعد فراقه لسيف الدولة ، ولعل تقدم سنّه وطول تفكيره فى الحياة والأحياء . لعل هذا كله قد أثر فى هذه القصيدة الأخيرة ، فأشاع فيها حزنا أيسر ما يوصف به أنه كان عميقا حقا ...

ونحن فى حاجة إلى أن نقف عند بعض هذا الشعر وقفات قصيرة لا لشىء إلا لنتبين المذهب الفنى الذى اصطنعه المتنبى فى هذا الرثاء . ولنلاحظ قبل كل شىء ظاهرتين نجدهما فى هذا الرثاء :

إحداهما تفيض عليه شيئا من قوة وتشيع فيه حظا من حرارة ، وتجعله خليقا أن يبعث الحزن ويدعو إلى الروية والتفكير ، وهى اعتماد المتنبى فى هذا الرثاء على عقله وعلى عقله الفلسفى خاصة ، والتجاء المتنبى إلى كثير من الحكمة

الشائعة فى الأمم على اختـــلاف البيئات والعصور ، ومهارته فى صوغ هذه الحكم صوغا قوامه الدقة والإيجاز معا . ثم إرسالها أمثالا سائرة تصلح لتعزية الناس وأخذهم بالصبر والإذعان فى كل زمان ومكان .

والظاهرة الثانية كانت تنفع المتنبى فى حياته الواقعة ، وكانت ترضى الأمير حين كان يستمع لهذا الرثاء ، ولـكنها فى حقيقة الأمر تفسد الرثاء على الشاعر إفسادا ، وتصور قصور الشاعر وعجزه ونضوب قريحتـه ، وهى مدحه المستمر للأمير ، واتخاذ الرثاء وسيلة إلى هذا المدح . فهذه الظاهرة تلقى فى روعك أن الشاعر لم يصدر فى رثائه عن حزن ولا عن ألم ، ولم يصطنع فى رثائه لهجة صادقة ، وإنما أدى واجبا لم يكن له بد من أدائه ، وكان يضيق بأداء هـذا الواجب أحيانا ، فيستعين عليه بهذا المدح الذى يتملق الأمير ويلهيه عما يكون فى رثائه من القصور أو التقصير . ونحن ننظر قبل كل شىء فى رثاء المتنبى لأم الأمير ســـنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وما أظن إلا أنك ستوافقنى على أن الشاعر اعتمد على فنه أكثر مما اعتمد على أى شىء آخر ، وتأنق

فى هذه القصيدة تأنقا خاصا ؛ لأنه كان حديث العهد بالأمير حريصا على أن يرضيه ، ويتمكن من نفسه ، ويقهر حساده ومنافسيه .

وأول هذه القصيدة فلسفة عامة يعتمد فيها الشاعر على هذا اليأس الشائع الذى ألفه الناس ، حين يفكرون فى قسوة الموت وشموله ، وأنه لا محيد عنه ولا وقاء منه . وليس فى هذا الكلام شىء جديد إلا صيغته ، وهذا الروح الحزين الشاحب الذى يترقرق فيه وذلك حيث يقول :

نُعِدُّ المَشْرَفيَّةَ وَالْعَوالِى
وتَقْتُلُنا المَنُونُ بِلاَ قِتَالِ
ونَرْتَبِطُ السَّوابِقَ مُقرَباتٍ
وما يُنْجِينَ مِن خَبَبِ اللَيالى
ومن لم يَعْشَقِ الدُّنيا قَدِيما
ولكِنْ لا سَبيلَ إلى وِصال
نَصِيبُكَ فى حَياتِكَ من حَبيبٍ
نَصِيبُك فى مَنَامِكَ من خَيالِ

فإذا فرغ المتنبى من هذا الكلام العام الذى لاحظ له من شخصية ولا من ابتكار تغنّى نفسه ، وما ألم به من المحن وما تتابع عليه من الخطوب ، وما تلقى به هذه المحن والخطوب من حسن الصبر ، والاحتمال فى هذين البيتين اللذين شاعا ، وامتلأت بهما النفوس ، وانطلقت بهما الألسنة حتى خرجا أو كادا يخرجان عن ملك المتنبى ، وأصبحا ملكا أو ترجمانا عن كل من ألحت عليه الأحداث ، وتتابعت عليه الأرزاء والخطوب . وهما قوله :

رَمَانى الدَهْرُ بالأرْزَاءِ حَتَّى
فُؤَادِى فى غِشَاءٍ من نِبَالِ
فَصِرْتُ إذا أصابَتْنى سِهامٌ
تَكَسَّرَتِ النِصَالُ عَلَى النِصَالِ

ومع ذلك فأصل المعنى الذى قصد إليه الشاعر شائع مألوف لا طرافة فيه ولا ابتكار ، فكل الناس يحس إذا كثرت الأحداث عليه أنه قد استفاد من ذلك تجربة وصبرا ، ومرن على احتمال الآلام والأرزاء ، وإنما الطرافة فى هذه الصورة التى عرض المتنبى فيها هذا المعنى حين جعل

الأرزاء التى ألحت عليه نبالا قد ثبتت فى قلبه ودارت حوله حتى أصبحت له غشاء ووقاء ، وحتى أصبح قلبه بمأمن من أن تبلغه النبال الطارئة إذا رمى بها ، لأنه فى درع من النبال الأولى . فالأرزاء تفل الأرزاء ، والنصال تتكسر على النصال .

ولست أدرى لماذا لا يبلغ هذا التصوير من نفسى شيئا ، ولا أرى فيه إلا براعة شاعر ، ومهارة فنان قد واتته طبيعته ، واستجابت له ألفاظه . فجاء بصورة ربما تروق ، ولكنها لا تبلغ القلب ولا تؤثر فى النفس ، وربما كانت هذه الألفاظ التى تذكر بالحرب وتصورها قد أشاعت فى هذين البيتين من القوة والفتوة والجلد ، ما حببهما إلى الناس حين تلح عليهم النوائب وتأخذهم الأرزاء من كل مكان ، وحين يحتاجون إلى الشجاعة والتحدى ، وتكلف الرجولة ، والثبات للخطوب . على أن المتنبى لم يكد يحاول إتمام هذا المعنى حتى قصر به لفظه ، فتورط فى شىء من الاضطراب يثقل احتماله ويثقل التمثل به أيضا ، وذلك قوله :

وَهانَ فما أُبالِي بالرَزايا
لِأَنِّي ما انتَفَعْتُ بِأَن أُبالي

وقد كان نفس المتنبي فى هذه الغناء قصيرا فلم يستطع أن يتعمق النفوس ولا أن يثير أشجانها .

ثم انظر إليه حين وصل إلى الفقيد التى أراد أن يرثيها كيف ضعف وتهالك وأدركه الخور والفتور ، فلم يصنع شيئا ولم يأت بجديد ، وذلك قوله :

وهـــذا أَوَّلُ الناعِينَ طُرًّا
لِأَوَّلِ ميتَـــةٍ فى ذا الجَلالِ
كأنَّ المَوتَ لم يَفْجَعْ بِنَفْسٍ
ولم يَخْطُرْ لِمَخلُوقٍ ببـال
صَـــلاةُ اللهِ خالِقِنا حَنُوطٌ
عَلَى الوَجـهِ المُكفّنِ بالجَمالِ

فالبيت الأول من هذه الأبيات على يسر معناه وسهولته ، وقرب مأخذه ، وابتذاله بين الناس جميعا ، غامض لا يخلو من سخف ، والبيت الثانى منها محتمل على ابتذاله . فأما

البيت الثالث فقد أحس القدماء سماجته ، وما أظن المحدثين أقل لهذه السماجة إحساسا ، وهى سماجة تأتى من اللفظ ، وتأتى من المعنى جميعا ، ولعلها كذلك تأتى من العجز عن إقامة الوزن والاضطرار إلى لفظ خالقنا وصفا لله لا لينزهه عما لا يليق به ، ولا ليبسط سلطانه على ما قد يشك الناس فى أن سلطانه شامل له مبسوط عليه ، بل ليقيم وزن البيت ليس غير . ثم انظر إلى قوله :

فإنَّ لهُ ببطنِ الأرضِ شَخصا
جَـــديدا ذِكْرُناه وَهْوَ بالِى

فأنت واجد فيه سماجة لفظية فى قوله ذكرناه . فهذا الكلام إن أقره النحو لا يقبله الشعر . وأنت واجد كذلك سماجة معنوية فى هذا الطباق بين الجديد والبالى . فما كان ينبغى لشاعر يعزى الأمير عن أمه أن يتعجل ذكر البلى ، ولا أن يلم به ، وحسبه من فقد الأمير أمه داعيا إلى الحزن اللاذع والألم الممض ، والشاعر يعزى ، فما يحسن به أن يذكر البلى والانحلال ، وما إلى ذلك من الأعراض التى تلم بأجسام الموتى ، والتى لا يحب الأحياء أن يتمثلوها .

ولست أطيل التعليق على ما فى هذه القصيدة من الرثاء . فكله فاتر أو قريب من الفتور ، ولكن انظر إلى هذا البيت :

وَأَفْجَعُ مَنْ فقَدْنا مَن وَجَدْنا
قُبَيْلَ الفَقْدِ مفقُودَ المِثالِ

فما رأيك فى هذه الفأفأة ، وفى هذه القفقفة ، وفى هذه الدأدأة . ثم ما رأيك فى هذا الجهد العنيف الذى يتكلفه الشاعر ويفرض علينا أن نتكلفه ، ليؤدى هو ونفهم نحن معنى مبتذلا لا خطر له ولا غناء فيه .

فالشاعر لا يزيد على أن يقول إن أم الأمير لم يكن لها نظير فى حياتها ، ففقدها من أجل ذلك أفجع الفقد وأشده أذى . والمعنى أيسر كما ترى من أن يتكلف لفهمه وأدائه هذا العناء .

على أن المتنبى يثب من هذا البيت السخيف إلى هذين البيتين اللذين يروع معناهما وإن أدرك لفظهما شىء من التقصير . وهما قوله :

يُدَفِّنُ بَعضُنا بعضاً ويَمشى
أَواخِرُنا عَلَى هامِ الأوالى
وكم عَيْنٍ مُقَبَّلةِ النَواحِى
كَحِيلٍ بالجَنادِلِ والرِمالِ

وما أرانى فى حاجة إلى أن أنبهك إلى أن هذين البيتين قد أثرا فى التشاؤم العلائى وما نشأ عنه من فلسفة تأثيرا بعيدا عميقا . ولكن أى فرق فى الأداء ، فاقرأ هذين البيتين ، ثم اقرأ دالية أبى العلاء . وانظر كيف استطاع شاعر المعرة أن يستغل هذا المعنى و يصوره فى أروع الشعر :

صاحِ هَذِى قبورُنا تَمْلأُ الرَّحْـ
ـبَ فأَيْنَ القُبورُ من عَهْدِ عادِ
خَفِّفِ الْوَطْأَ ما أظُنَّ أَدِيمَ الـ
ـأَرْضِ إلاَّ مِنْ هذه الأَجْسادِ
وقَبيحٌ بِنا وإنْ قَدُمَ العَهْـ
ـدُ هَوَانُ الآباءِ والأَجْدادِ

وهل أنا فى حاجة إلى أن أقف بك عند هذين البيتين

اللذين طارت شهرتهما فى الآفاق . وهما قوله فى آخر القصيدة :

رَأَيتُكَ فى الذينَ أَرَى مُلوكاً
كأنَّكَ مُستقيمٌ فى مُحالِ
فإنْ تَفُقِ الأَنامَ وأَنتَ مِنهُمْ
فإنَّ المسْكَ بَعضُ دَمِ الغَزالِ

وفى البيت الأول عندى تعريض بأصحاب الملك فى الفسطاط وبغداد . والبيت الثانى ليس جديدا ، وإنما سبق المتنبى نفسه إليه قبل أن يتصل بسيف الدولة ، فلما اتصل به نزل له عنه ونقله إليه ، وذلك قوله :

وما أنا مِنْهُمُ بالعَيْشِ فِيهِم
ولكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ

والمتنبى على كل حال حر فى أن يسرق نفسه ويكرر معناه .

وليس رثاء المتنبى لابن سيف الدولة خيرا من رثائه لأمه ، وإنما هو كلام متكلف يظهر فيه الجهد ، وتبدو فيه السماجة بين حين وحين ، وتحس وأنت تقرؤه أن الشاعر عيال

على الذين سبقوه من الشعراء ، وعلى أبى تمام خاصة . ولن أقف بك من هذا الرثاء لذلك الطفل إلا على أربعة أبيات فى اثنين منها عاد المتنبى إلى ذوقه المريض ، فذكر الأب بما سيصيب ابنه من البلى والانحلال ، وذلك قوله :

بِنَا مِنْكَ فَوقَ الرَمْلِ ما بكَ فى الرَمْل
وهذا الَّذى يُضْنِى كذاك الذى يُبلِى

وقوله ملحا فى هذا المعنى :

أيَفْطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبـــلَ فِطامِهِ
ويأْكُلُهُ قَبلَ البُلُوغِ إلى الأكْل

وأما البيتان الآخران ، فقد وثب فيهما إلى معنى فلسفى رائع فتح به لأبى العلاء بابا من الشعر ، أتى فيه بالأعاجيب . وأكبر الظن أن المتنبى قد ظفر بهذا المعنى فى بعض قراءته الفلسفية . وذلك حيث يقول :

إذا ما تَأَمَّلْتَ الزَمانَ وصَرْفَهُ
تَيَقَّنتَ أَنَّ الموتَ ضَرْبٌ منَ القَتْلِ
وما الدَهْرُ أَهلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِنـــدَهُ
حَيَاةٌ وأن يُشــتاقَ فيهِ إلى النسل

ونمر مسرعين برثاء المتنبي لخادم سيف الدولة وقائده التركي ، فليس فيه ما يحتاج إلى الوقوف عنده ، لولا أن المتنبي يتركنا نشعر بأنه يرثي هذا التركي على كره منه . فهو مضطر إلى إرضاء الأمير ، ولو خلى بينه وبين حريته لأعرض عن هذا الرثاء .

فانظر إليه كيف يقول :

لأبقَى يَمانٌ فى حَشايَ صبابةً
إلى كُلِّ تُركيِّ النِجارِ جَليب
وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ
وَلاَ كُلُّ جَفْنٍ ضيِّقٍ بِنَجِيبِ

فهذا الخادم التركي فذ بين الترك . ومع ذلك خليق ألا يجزع الأمير عليه لأنه سيجد عوضا منه فى العرب النزارية .

وإنَّ الّذى أَمسَت نزارُ عَبيدَهُ
غَنِيٌّ عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لِغريبِ

ومع ذلك فما أريد أن أدع هذه القصيدة دون أن

أثبت هـذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبى أيضا بابا من أبواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر أبى العلاء :

سُبقنا إلى الدُنيا فَلو عاشَ أهلُها
مُنِعنا بها من جَيْئةٍ وذُهُوبِ
تَمَلّكَها الآتى تَمَلُّكَ سالبٍ
وَفارَقَها الماضى فِراقَ سَليبِ

ولما رثى المتنبى أخت سيف الدولة الصغرى ، عزاه ببقاء أخته الكبرى فقال :

قاسَمَتْكَ المَنونُ شَخصَين جَوْرا
جَعَلَ القسمُ نفسَهُ فيه عَدْلا
فإذا قِستَ ما أَخَذنَ بما أَغْـ
ـدَرْنَ سَرَّى عن الفُؤَادِ وَسَلى
وَتَيقَّنْتَ أَنَّ حظّكَ أَوْفَى
وَتَبيَّنْتَ أَنَّ جَدَّكَ أَعْلَى

وسنرى أنه ذكر هذا المعنى واستدرك رأيه فيه حين رثى أخته الكبرى سنة اثنتين وخمسين ، ولكن لا ندع

هذه القصيدة دون أن نلاحظ أنها من أجزل ما قال المتنبى لسيف الدولة من الرثاء ، ودون أن نرى هذه الأبيات التى تصور أحسن تصوير علم المتنبى بطبائع الناس ، وحرصهم على الحياة ، وتفتح لأبى العلاء بابا من أبواب الفلسفة والتفكير . وذلك قوله :

وَلَذِيذُ الحَياةِ أَنفسُ فى النَفْـ
ـسِ وَأَشهَى من أَنْ يُمَلَّ وَأَحلَى
وَإذا الشيخُ قال أُفٍّ فما مَلْـ
ـلَ حَياةً وإنّما الضُعفَ مَلاّ
آلَةُ العَيشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ
فإذا وَلّيا عَن المَرْءِ وَلّى
أبدا تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدُنْـ
ـيا فيالَيتَ جُودَها كانَ بُخلا
فَكَفَتْ كَونَ فَرحةٍ تُورِثُ الغَمْـ
ـمَ وَخِلٍّ يُغَادِرُ الوَجدَ خِلاّ
وَهْىَ مَعشوقةٌ عَلَى الغَدْرِ لاَ تَحْـ
ـفَظُ عَهْدًا وَلاَ تُتَمِّمُ وَصْلا

كَلُّ دمعٍ يَسيلُ منها عَليها
وبفَكِّ اليَدَينِ عَنهـــا تُخَلَّى
شِـــيَمُ الغانِياتِ فيها فما أَدْ
رِى لِذَا أَنَّثَ اسْمَها الناسُ أم لا

وليس من شك فى أن أجمل ما قال المتنبى من الرثاء لسيف الدولة ، إنما هى القصيدة الأخيرة التى رثى بها أخته خولة . ومصدر ذلك كما قدمنا ما تصوره هذه القصيدة من الحب الذى امتحنـه الدهر فثبت للامتحان ، ومن هـذا الحنين المتصل بين الصديقين . وما أرى أن هذه القصيدة تدل على صلة قريبة أو بعيدة ، أو على شـبه صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبى وهذه الفقيدة . وكل ما يمكن أن يفهم منها أن الشاعر يتحدث بأن هذه الفقيدة برته وأحسنت إليه عن بعد ، كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب ، وقد يكون هذا حقا ، وقد يكون كلام شاعر . والفرق عظيم على كل حال بينه وبين رأى من رأى أن قد كان بين الشاعر وبينها حب أو ما يشبه الحب[1]

(١) انظر : المتنبى : لمحمود افندى شاكر (المقتطف جـ ١ مجلد ٨٨ ص ١٣٠) .

وأول هذه القصيدة شعر مألوف تأنق فيه الشاعر ، وقصد به إلى المدح أكثر مما قصد به إلى الرثاء . وذلك قوله :

يا أُخْتَ خَيرِ أَخٍ يا بنتَ خَيرِ أَبِ
كِنَايةً بهما عن أشرَفِ النَسبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أَن تُسْمَىْ مُؤَبَّنَةً
ومَن يصِفْكِ فقد سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

وبيتان آخران قد أحسن الشاعر فيهما الملاءمة بين مدح الأحياء ورثاء الموتى كل الإحسان . وهما قوله :

غَدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ مِنْ عَدَدٍ
بِمَنْ أَصبتَ وكم أسكَتَّ من لَجَبِ
وكم صَحِبْتَ أَخاهَا فى مُنَازَلَةٍ
وكم سَأَلتَ فلم يَبْخَلْ ولم تَخِبِ

فرائع حقا لوم الموت على هذا الغدر القبيح الذى تورط فيه حين خان الصديق وعق المحسن إليه . فكم صحب الموت سيف الدولة فى الحروب ؟ وكم جاد سيف الدولة

على الموت بما كان يريد من نفوس ، فكان الحق عليه ألا يخون صديقه هذا الجواد الوفى الذى لم يبخل عليه بنفس ولم يخيب له أملا .

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أودعهما الشاعر كل ما كان قلبه يستطيع أن يحتمل من حزن ودهش وجزع ، فامتلآ روعة وجمالا ، حتى سارا مسير الأمثال فى حياة المتنبى نفسه إن صح ما يقول الرواة :

طوَى الجَزِيرةَ حَتَّى جاءنى خَبَرٌ
فزِعتُ فيه بآمالى إلى الكَذِب
حَتَّى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقُهُ أَملاً
شَرِقْتُ بِالدَمعِ حَتَّى كادَ يَشْرَقُ بى

ونحن نفهم أن يشرق المتنبى بالدمع ، ونعجز عن أن نفهم كيف يشرق الدمع بالمتنبى ولكنها نفثة المصدور ، وصيحة المحزون تنطقه بغير الصواب أحيانا .

وهل ترى أروع فى تصوير العطف على الصديق والرفق به والحنين إليه من قوله :

أَرَى العِرَاقَ طَوِيلَ الليل مُذْ نُعِيَتْ
فَكيفَ لَيلُ فَتَى الفِتيانِ فى حَلَبِ

ثم انظر كيف يدفع عن نفسه سوء الظن به ، ويؤكد اشتراكه فى الحزن واللوعة ، وسفك الدمع بأرق لفظ وأعذبه وأبرعه فى تصوير الألم والوفاء :

يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ
وأَنَّ دَمْعَ جُفُونى غَيرُ مُنْسَكِبِ
بَلَى وَحُرْمَةِ مَن كانتْ مُرَاعِيَةً
لِحُرْمةِ المَجْدِ والقُصَّادِ وَالأَدَبِ
وَمَن مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلائِقُها
وَإِنْ مَضَتْ يَدُها مَورُوثَةَ النَشَبِ

ويعجبنى من وصفه للفقيد قوله :

وَإِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنثَى لَقَدْ خُلِقَتْ
كَرِيمةً غَيرَ انثَى العقلِ والحسبِ

وهو عندى خير من قوله فى أم سيف الدولة :

وَلَوْ كانَ النســـاءُ كَمَنْ فَقَدْنا
لَفُضِّلَتِ النســـاءُ عَلَى الرجالِ

وما التأْنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ
ولا التَذكيرُ فضـــــلٌ للهلال

ففى هذين البيتين تكلف وتأنق يخرجان التفكير عن طوره فى وقت ينبغى أن تسترسل فيه النفس مع الحزن ، وألا تشغل عنه بوضع الدعاوى وإقامة الأدلة عليها .

وقد يعجب الناس إعجابا شديدا بهذين البيتين ، ولكنى أراهما كلاما من كلام الشعراء ، ولعل مصدر الإعجاب بهما جمال اللفظ ليس غير . وهما قوله :

فَلَيْتَ طالِعَةَ الشَمْسَينِ غائِبَةٌ
ولَيتَ غائبَةَ الشمسين لم تَغِبِ

ولَيتَ عَيْنَ التّى آبَ النهارُ بها
فِداءُ عَينِ التّى زالَتْ ولم تَؤُب

ثم ذكر المتنبى عزاءه لسيف الدولة عن أخته الصغرى ببقاء أخته الكبرى منذ ثمان سنين ، فاستدرك رأيه فى هذه التعزية ، فقال :

قد كان قاسَمَكَ الشَخصَيْنِ دَهْرُهُما
فَعاشَ دُرُّهُما المَفْدِيُّ بِالذَهَبِ
وَعادَ فِي طلَبِ المَتْرُوكِ تارِكُهُ
إنّا لَنَغْفُلُ والأيامُ فى الطَلَبِ
ما كانَ أَقْصَرَ وقتا كان بَيْنَهُما
كأنّهُ الوَقتُ بَينَ الوِرْدِ والقَرَبِ

ثم ينتهى المتنبى بهذه القصيدة إلى فلسفة مظلمة حزينة أقل ما يقال فيها أنها تصور شكه فى خلود النفس وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين ، وإحساسه التعب من هذا الشك والارتياب ، وتفتح بابا فلسفيا آخر لشعر أبى العلاء .

وأحب أن تلاحظ أن المتنبى يصطنع فى هذه الأبيات لغة النظار وأصحاب الكلام أكثر مما يصطنع لغة الشعراء . وسيقلده أبو العلاء فى هذا النحو من التعبير ، كما يذهب مذهبه فى هذا النحو من التفكير .

وأحب أن ألاحظ آخر الأمر أن البيت الذى يختم المتنبى به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس الفلسفى المهلك

الذى يؤذن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز والإعياء ، وهذا كله حيث يقول :

تَخَالَفَ الناسُ حَتّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ
إلاّ عَلَى شَجَبٍ والخُلْفُ فى الشَجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نفسُ المرْءِ سالمةً
وقيلَ تشْرَكُ جِسمَ المرْءِ فى العَطَبِ
ومنْ تَفَكَّرَ فى الدُنيا ومُهْجَتِهِ
أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجْزِ والتَعَبِ

فأنت ترى من درس هذا الرثاء كله أن المتنبى لم يبتكر فى هذا الفن شيئا عند سيف الدولة ، ولعله انتهى بين حين وحين إلى معنى غريب أو فكرة قيمة ، ولكن رثاءه على كل حال عادى دون المتوسط ، وخير ما فيه هذه الإلمامات القصيرة ببعض الآراء الفلسفية ، التى كانت بذورا صالحة لفلسفة أبى العلاء .

٥

وقال المتنبى لسيف الدولة قصائد خمسا ، يصف فيها ما كان من اضطراب البادية عليه ، وما كان من رده هذه البادية إلى الهدوء والنظام بالقوة حتى تذعن له ، ثم بالعفو والحلم حتى تأمن له القلوب وتخلص فى حبه النفوس .

وقد عرضنا لواحدة من هذه القصائد الخمس فيما مضى من هذا الحديث ، وهى الميمية التى مدحه بها حين كانا شابين فى الثامنة عشرة من عمرهما ولم ينشده إياها ، وذلك حين أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس و بنى ضبة . وأولها .

ذِكَرُ الصِبا وَمَرَاتِعِ الآرام
جَلَبَتْ حِمَامِى قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِى

ولسنا فى حاجة إلى أن نعيد القول فى هذه القصيدة ، ولم يكد يتصل المتنبى بسيف الدولة حتى خرجت جماعة من القرامطة فى السماوة ، فأغاروا على حمص ، وأخذوا عامل

سيف الدولة عليها ، وهو ابن عمه أبو وائل تغلب بن داود ابن حمدان ، وأبوا أن يردوه إلا أن يأخذوا من أخيه فداء عظيما ، فأطمعوا فى الفداء كسبا للوقت ، ونهض إليهم سيف الدولة فأوقع بهم ، واستنقذ منهم ابن عمه الأسير ، ولكنه استنقذه جريحا ، فلم يلبث أن مات ، ورثاه المتنبى كما علمت .

وقد قال المتنبى فى هذه الواقعة لاميته التى أولها :

إلامَ طَماعِيَةُ العاذِلِ
ولا رَأْىَ فى الحُبِّ للعاقِلِ

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة أحدث بنو كلاب حدثا وارتحلوا ، فلحقهم سيف الدولة وردهم إلى الطاعة ، ثم شملهم بعفوه . فقال المتنبى فى ذلك بائيته التى أولها :

بِغَيْرِكَ راعيا عَبِثَ الذئابُ
وغَيْرَكَ صارِمًا ثَلَمَ الضِرَابُ

وفى سنة أربع وأربعين وثلثمائة فى أغلب الظن تجمعت قبائل من قيس وثارت على ملك سيف الدولة ، فنهض لها الأمير ، وتتبعها حتى لحقها عند تدمر ، فصنع بها صنيعه

بكلاب ؛ ولم يشهد المتنبى هذه الواقعة ، ولـكنه قال فيها قصيدتين . أولاهما القافية التى أولها :

تَذَكَّرتُ ما بَينَ العُذَيبِ وبارِقِ
مَجَرَّ عَوالينا ومَجْرَى السوابِقِ

وكأن هذه القصيدة لم تشف نفس سيف الدولة فوصف القصة لشاعره ، وتقدم إليه أن يستأنف القول فيها فقال الرائية التى أولها :

طِوالُ قَنًا تُطَاعِنها قِصارُ
وَقَطرُكَ فى نَدًى وَوَغًى بِحارُ

وأيسر ما يستخلص من هذه القصائد الأربع أن الحياة الداخلية فى ملك سيف الدولة لم تكن كلها أمنا ولا هدوءا وإنما كانت تضطرب وتفسد من حين إلى حين . وليس من شك فى أن أهل البادية قد أحدثوا أحداثا أخرى لم يصفها المتنبى ؛ لأنها لم تكن ذات خطر ، ولأن سيف الدولة لم ينهض بنفسه لقمعها . ومعنى هذا كله أن ما كان سيف الدولة يلقاه من المشقة ويحتمله من الجهد ، ويظهره من حسن البلاء فى جهاد الروم لم يكن ليرد عنه كيد الذين كانوا

يكيدون له من وراء ظهره فى الحاضرة والبادية جميعا ، والذين يدرسون تاريخ هذا العصر درسا مفصلا دقيقا يعلمون أن أثرة الملوك والأمراء وتنافسهم فى السيادة والقوة ، قد تجاوزا فى ذلك الوقت كل حد معقول حتى تغلبا أو كادا يتغلبان على الشعور الإسلامى الخالص ، فضلا عن اجتماع الرأى على مذهب بعينه من المذهب الإسلامية .

فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين الروم على خصمه سرا أو جهرا برغم أنه كخصمه مسلم ، وأن الروم عدو له ولهذا الخصم ، وكان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين القرامطة على خصمه سرا أو جهرا برغم أنه متفق مع خصمه فى بعض النظام القرمطى والفساد القرمطى فى السياسة والدين جميعا .

ومن هذا كله نفهم المذهب الفنى الذى قصد إليه المتنبى فى هذه القصائد الأربع ، فهو من جهة يعيب الثائرين على الأمير ، ويظهر ألمه لتمردهم عليه ، ومحاولتهم بهذا التمرد أن يصرفوه عن جهاد الروم . وهو من جهة أخرى يمدح الأمير بالبأس والحزم اللذين يصطنعهما فى تأديب هؤلاء الثائرين ،

وردهم إلى الطاعة وتوقير السلطان والنظام . ثم يمدحه بالحلم والعفو اللذين يصطنعهما لتألف القلوب والاحتفاظ بهؤلاء العرب الذين هم قوته على عدوه المنافسين له من المسلمين ومادته فى حرب عدوه المخاصمين له من الروم .

ونحن نقف وقفة قصيرة عند لاميته التى قالها فى ثورة القرامطة بعامل الأمير فى حمص لنرى كيف تحول المتنبى عن مذهبه الذى كان يراه فى الشباب ، وأخذ يذم الآن ما كان يحمده أمس ، ويحرض الأمير على قوم لم يزيدوا على أن ساروا سيرته التى دفعته إلى السجن ، ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره . وأنت إذا قرأت هذه القصيدة معجب بما وفق إليه المتنبى فيها من البراعة الأدبية والسياسية معا . فهو فى القسم الأول من هذه القصيدة ناسب متكلف على عهده فى النسيب ، ولكنه تكلف خفى جدا نكاد نحسه فى المعنى ، ولا نحسه فى اللفظ بحال من الأحوال . وغزله فى هذا القسم حلو حقا يصلح للغناء ، بل هو غناء خالص ليس فيه شك . فإذا فرغ من هذا الغزل الرقيق الجميل خلص إلى أبى وائل أسير القرامطة من أهل بادية السماوة ، وتغيرت

لهجته ؛ فإذا هو شاعر بدوى خالص تجد فى شعره جزالة اللفظ البدوى دون أن تلقى غلظة أو خشونة أو شططا . وأنت لا تجد هذه الجزالة فى اللفظ وحده ، ولكنك تجدها فى المعنى أيضا . فالشاعر يصف الخيل ومسيرها فى طلب العدو وما قطعت إليه من طريق ، ثم يصف إيقاعها بالعدو وظهورها عليه ، وانهزام العدو أمامها ، ثم يهزأ بهذا العدو فى لباقة ورشاقة تجمعان خفة الحاضرة إلى رصانة البادية . وقد اصطنع الشاعر هـذا الوزن السريع المتحدر ، وزن المتقارب الذى يلائم اندفاع الخيل و إسراعها فى طلب العدو ، وما يكون بينها و بينه من كر وفر ، ومن إقدام و إحجام . و يلائم كذلك إسراع الأمير إلى نجدة ابن عمه واستنقاذه من يد العدو .

وكم كنت أحب أن أقف عند ما فى هـذه القصيدة من جمال الغناء فى أولها ، ومن جمال الوصف فى سائرها ، ولكن هذا يطول . فلنقف عند بعض أبياتها لنرى ما أشرت إليه من انحراف المتنبى فى سهولة عن رأيه القديم واستهزائه بالذين يرون ما كان يرى و يفعلون ما هم أن يفعل ، ثم

رجوعه بعد هذا كله إلى شيء من الحسرة والحزن لما يصيب أصحاب الهم البعيد من إخفاق قبل أن يبلغوا ما هموا به . فانظر إلى قوله :

فَلَقِّينَ كلَّ رُدَيْنِيَّةٍ
ومَصْبوحَةٍ لَبَنَ الشائِلِ
وجَيْش إمامٍ على ناقَةٍ
صحيحِ الإمامةِ فى الباطِلِ

وانظر إلى قوله :

خُذُوا ما أَتاكُمُ بهِ واعْذِرُوا
فإنَّ الْغَنيمَةَ فى العَاجِلِ
وإن كانَ أَعْجَبَكُمْ عامُكُم
فَعُودُوا إلى حِمْصَ فى قابِلِ
فإنَّ الحُسَامَ الخَضيبَ الذى
قُتِلتُمْ بهِ فى يَدِ الْقَاتِلِ

ثم يعود إلى الاستهزاء بزعيم هؤلاء القرامطة فيقول :

وإنى لاعْجَبُ مِنْ آمِلٍ
قِتَالاً بِكُمٍّ عَلَى بازِل
أقَالَ لهُ اللهُ لاَ تَلْقَهُمْ
بِماضٍ عَلَى فَرَسٍ حائِلٍ
إذا مَا ضَرَبْتَ بهِ هامَةً
بَرَاهَا وغَنّاكَ فى الكاهِلِ

وانظر إلى هذين البيتين الآتيين ، فما أشك فى أن المتنبى يذكر فيهما نفسه وأشباهه من المغامرين .

وَلَيْسَ بِأَوَّل ذِى هِمَّةٍ
دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بالنَّائِلِ
يُشَمِّرُ لِلُّجٍّ عن ساقِهِ
ويَغمُرُهُ الموجُ فى الساحِلِ

وانظر إلى هذا البيت فإنه عندى تعريض ، بل تصريح باتهام بغداد بالإعانة على سيف الدولة ، وما أستبعد أن تكون السياسة البغدادية هى التى أغرت هؤلاء القرامطة بالشام ليفسدوا فيها الأمر على الحمدانيين والإخشيديين معا ،

كما ستفعل بعد ذلك لتفسد الأمر على الفاطميين . ولكن المتنبى حريص حذر فى هذا التعريض أو التصريح ، وما أرى إلا أنه يستمد حرصه وحذره من سيف الدولة نفسه .

وانظر إليه كيف يعزى الأمير فى آخر القصيدة عن خيانة الخائنين ، وغدر الغادرين ، وكيد الكائدين له من أهل العراق :

فهنّأَكَ النّصْرَ مُعْطِيكَهُ
وأرْضاهُ سَعْيُكَ فى الآجِلِ
فَذِى الدارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ
وأخْدَعُ مِن كِفَّةِ الحابِلِ
تَفانَى الرِّجالُ عَلَى حُبِّها
وما يَحْصُلونَ على طائِلِ

وفى هذين البيتين الأخيرين بذرة من بذور الفلسفة العلائية . وهذه القصيدة عندى من أجود شعر المتنبى وهى من القصائد النادرة التى تحلو فيها روح الشاعر ، ويخف ظله على القارئين والسامعين . وما أرتاب فى إنها ضمنت له

حب سيف الدولة لأنه وجد فيها جمال الفن ، وقوة الوصف وذكاء القلب ، واللباقة السياسية التى تمكنه من أن يغيظ الخصوم دون أن يضطر إلى الحرج .

وليست البائية التى قالها المتنبى لسيف الدولة حين أدب الكلابيين بأقل جودة وروعة ورشاقة ولباقة من هذه اللامية ، فقد وفق فيها المتنبى أحسن التوفيق إلى الملاءمة بين جزالة اللفظ وسهولته ، وبين دقة المعنى وبراعته ، وأحسن اختيار الوزن فعمد الى الوافر وهو كما تعلم يسير سهل سريع لا يكاد يتأتى فيه الوقوف ، وليس أقل من المتقارب ملاءمة للسير السريع اليسير فى الفضاء الواسع السهل الذى لا تقوم فيه الجبال ولا تنبتّ فيه العقبات ، ولا يريد من المغير إلا أن يجد فى الطلب ويخلى الأعنة للخيل ، فإذا انتهى إلى المطلوبين أخذهم بهجوم لا عسر فيه من طبيعة الأرض ، ولا مشقة فيه تحتاج إلى أناة أو مهل ، وإنما هو الانقضاض على العدو كما تنقض الصاعقة ، والاندفاع إليه كما يندفع السيل ، ثم الظفر به كأن لم تكن حرب ولا قتال .

وقد أعرض المتنبى فى هذه القصيدة عن الغزل والغناء ،

لأن نشاط الحرب فى هـذه الموقعة البدوية الخالصة كان قد ملأ قلبه من جهة ، ولأن هذه القصيدة الحماسية غناء كلها من جهة أخرى . فالشاعر يصف بأس الأمير وسطوته وإسراعه إلى قمع الثورة وتأديب الجناة ، ويصف إمعان الثائرين فى الهرب وإمعان السلطان فى الطلب ، وهو فى هـذا كله يصطنع لغة الحماسة والفخر ، كما تعود القدماء من شعراء البادية أن يصطنعوها ، لولا أن فى هذه اللغة روحا عذبا سهلا يدنيها من الحضارة ولا ينأى بها مع ذلك من البداوة ، فإذا ظفر الأمير بهؤلاء الثائرين فأسر الرجال وسـبى النساء وأتاحت له القدرة أن يبطش بالأسرى والسبايا عاد بالعفو على هؤلاء البائسين فرد إليهم الحرية والحياة ، وعاد بالرحمة والكرامة على هؤلاء البائسات فردهن إلى أوليائهن لم يمسسهن أذى ، ولم يلحق بهن السباء مكروها ، فهن يعدن إلى أوليائهن حرائر قد ظفرن من كرم الأمير بالزينة والنعيم والطيب ، وأى عار فى أن يقعن فى أيدى الأمير ، وهن إنما يخرجن من يد ولى كريم ليقعن فى يد ولى كريم ، لهن الأمن والحصانة عند هذا كما كان لهن الأمن والحصانة عند أولئك .

والمتنبي يؤدى هذه المعانى كلها فى لفظ رشيق ليس فيه التصريح المؤذى ولا التعريض المريب ، وإنما هو الحديث يملؤه الصفو والطهر والبراءة من كل ما يؤذى النفوس ، ثم يصل المتنبى إلى الاستعطاف ، فيذكر الأمير بمكان هؤلاء الناس منه فى النسب ، ونفعهم له حين تشتد الخطوب ، وهو لبق حقا يلح فى الاستعطاف ، حتى يظهر كلابا أذلة خاضعين لسلطان هـذا الأمير العظيم ، ثم يعود عليهم بالفخر فيظهرهم أعزة قاهرين لغيره من الأمراء لو قصد إليهم ، فهو يرضى حاجة كلاب إلى العفو ، كما يرضى حاجتها إلى الكرامة ، وهو يرضى حاجة سيف الدولة إلى الحلم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه وشدته ، وهو فى أثناء هـذا كله لا يقصر فى التعريض الرفيق جدا بالذين شبوا هذه الثورة وأضلوا هؤلاء الثائرين . واقرأ هذه الأبيات :

تَرَفَّقْ أَيُّهـــا المَوْلَى عَلَيهِمْ
فإِنَّ الرِفقَ بالجانى عِتابُ
وإِنَّهُمُ عَبِيـــدُكَ حَيثُ كانوا
إذا تَدعُو لِحادثة أَجابوا

وعَينُ المُخطِئين هُمُ وليسُوا
بأَوَّلِ مَعشرٍ خَطِئُوا فتابوا
وأَنتَ حَياتُهُمْ غَضِبَتْ عليهم
وهَجْرُ حياتِهِمْ لَهُمُ عِقَابُ

ثم اقرأ هذه الأبيات :

ولَوْ غَيْرُ الأَمِيرِ غَزَا كِلاباً
ثَنَاهُ عن شُمُوسِهِمُ ضَبابُ
ولاَقى دُونَ ثأْيِهِم طِعاناً
يُلاقِي عِنْدَهُ الذِئبَ الغُرَابُ
وخَيلاً تَغْتَذِى رِيحَ المَوامِى
ويَكفيها مِنَ الماءِ السَرابُ

واقرأ بين هذه الأبيات وتلك تعريضه بالكائدين فى هذا البيت :

وجُرمٍ جَرَّهُ سُفَهاءُ قَوْمٍ
وحَلَّ بغيرِ جارِمِه العَذابُ

وأنت تذكر أن قد كان للمتنبى عهد بالكلابيين

فى صباه ؛ فقد نزل بهم ومدح سيدا من ساداتهم بمنبج حين أقبل من العراق وشهد مجالس لهوهم أيضا . فلست أستبعد أن يكون المتنبى قد وفى لهؤلاء الناس ، وعرف إحسانهم إليه ، وبرهم به ، فجزى خيرا بخير ، وإحسانا بإحسان .

ولست أقف من القافية التى قالها فى ثورة المتألبين من قيس إلا عند القسم الأول منها ، لأن فيه حنينا ، لا أقول إلى وطنه الذى ولد فيه ، ولكن إلى البادية العراقية التى ذهب إليها فى صباه ، فأقام فيها حينا ، ثم عاد إلى الكوفة . ولهذا الحنين عندى خطره ، لأنه يرجح ما أفترضه من أن البيئة البدوية التى ارتحل إليها فى ذلك العهد وأقام فيها كانت بيئة قرمطية . فاقرأ هذه الأبيات :

تذَكَّرْتُ ما بينَ العُذَيْبِ وبارِقِ
مَجَرَّ عَوالِينا ومَجْرَى السوابِقِ
وصُحبةَ قومٍ يذبَحُونَ قَنِيصَهم
بفَضْلاتِ ما قد كَسَّرُوا فى المفارِقِ

وليلاً تَوَسَّـــدْنَا الثَّوِيّة تحتَه
كأنَّ ثَراها عَنْبرٌ فى المَرَافقِ

واقرأ هـذه الأبيات التى يحدث فيها الطباق والتقسيم ظرفا خفيف الدعابة ، محببا إلى الذوق والسمع جميعا :

سَـقَتْنى بها القُطْرُبُّلِىَّ مَليحةٌ
على كاذبٍ مِنْ وَعْدِها ضَوْءُ صادِق
سُهـــادٌ لِأَجْفانٍ وشمسٌ لِناظِرٍ
وسُقْمٌ لِأبْدَانٍ ومِسْـــكٌ لِناشِق
وأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَـه كلُّ عاقلٍ
عَفِيفٍ ويَهْوَى جِسْمَه كلُّ فاسِق

ولهذا البيت الأخير خاصة قيمته ، لأنه يصور طرفا من رأى المتنبى فى لون من ألوان الإثم كان الشعراء يتهالكون عليه ، ويسرفون فيه ، ويتنافسون فى وصفه منذ فتح لهم بابه أبو نواس ومعاصروه ، وهو اللهو بالغلمان .

فلم يكن المتنبى يكره — فيما يظهر — من هذا البيت أن يجد الأنس عند الشـباب من الغلمان إذا اجتمع لهم

الجمال والأدب ، ولـكنه كان يرتفع عما دون ذلك من الإثم . ولعل هذا يعلل إعراض المتنبى عما يسـمونه الغزل المذكر فى شعره .

وقف كذلك عند هذين البيتين اللذين يصوران أسف الشاعر لاشتغال الأمير بثورة البادية عن حرب الروم :

فما حَرَمُوا بالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحَةً
ولـكِنْ كَفاها البَرُّ قَطْعَ الشواهِق
ولا شَغَلوا صُمَّ القَنا بقلوبِهِـــمْ
عَنِ الرَّكْزِ لـكن عن قلوبِ الدَّماسِق

ولا تدع القصيدة دون أن تقرأ هـذه الأبيات التى يروعك الشاعر فيها بتصوير الخضوع والطاعة وتأثيرهما فى نفس سيف الدولة حين تقدمت بهما غير مؤثرة لهما على الثورة والخروج .

لَوَفْدُ نُمَيْرٍ كانَ أَرشَدَ مِنهُمُ
وقد طَرَدوا الأَظعانَ طَرْدَ الوسائِقِ

أَعَدُّوا رِماحاً من خُضُوعٍ فطاعَنوا
بِها الجَيشَ حَتَّى رَدَّ غَرْبَ الفَيالقِ
فلم أَرَ أَرْمَى منهُ غَير مُخاتِلٍ
وأَسرى إلى الأَعداءِ غَيرَ مُسارِقِ
تُصِيبُ المجانِيقُ العِظامُ بِكَفِّهِ
دَقائِقَ قد أَعْيَتْ قِسِيَّ البَنادِقِ

والرائية التى قالها المتنبى فى هـذه الثورة نفسها رائعة خليقة بالتحليل ، مستوجبة للإعجاب كالبائيـة ، ولـكنى لا أقف عندها تجنبا للإطالة وكراهة للإعادة ، وإنما أحب أن تقرأ هذين البيتين لترى إلحاح المتنبى فى الأسف لتحول الأمير مضطرا عن قتال عدوه من الروم إلى قتال أوليائه من العرب :

وكُنْتَ السَيفَ قائِمُهُ إليهِمْ
وفى الأعداءِ حَدُّكَ والغِرارُ
فأَمْسَتْ بالبَدِيَّةِ شَفْرَتاهُ
وأَمسَى خَلْفَ قائِمِهِ الحِيارُ

وأحب أن تقرأ أيضا هذين البيتين اللذين يرفق الشاعر فيها أجمل الرفق حين يريد أن يهون على المنهزمين ما أدركهم من الهزيمة أمام الأمير :

بَنوُ كَعْبٍ وما أَثّرْتَ فيهم
يَدٌ لم يُدْمِها إلاّ السِوارُ
بها مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ ونَقْصٌ
وفيها من جَلالته افتِخارُ

٦

ولما اتصل المتنبى بسيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة لم يعرض لما كان بينه وبين الروم من حرب إلا لماما لأنه لم يكن قد شهد مواقعه مع الروم من جهة ، ولأن هذه المواقع لم تكن ملهمة للفخر والحماسة من جهة أخرى ، فقد انهزم المسلمون للروم فى تلك السنة ، وغلب هؤلاء على حصن الحدث فدمروه .

فقنع المتنبى إذن فى مدحه الأمير بالتعريض والإلمام اليسير حتى إذا كانت سنة تسع وثلاثين وثلثمائة شهد المتنبى مع سيف الدولة غزوة للروم ، وكانت هذه الموقعة خطيرة حقا ، فقد انتصر فيها سيف الدولة انتصارا مؤزرا أول الأمر فاقتحم الحدود ، وأمعن فى بلاد الروم حتى أبعد وملأ يديه من الغنيمة . ثم استحالت إلى هزيمة ، فقد صعب القفول على الغزاة ، أثقلتهم الغنائم والأسرى ، ولصق بهم العدو ، وأخذ عليه الطرق ، وأبلى سيف الدولة فى الدفاع عن

المسلمين بلاء حسنا ، ولكنه لم يبلغ من التوفيق ما كان به خليقا ، فتفرق عنه أصحابه ، ولم ينج هو إلا بعد جهد . وقال المتنبي فى هذه الموقعة قصيدتين ، أولاهما الميمية التى قالها حين عرض الأمير جيشه قبل الهجوم . وأولها :

لهـذا الْيومِ بَعْدَ غَدٍ أَريجُ
ونارٌ فى العَـدُوِّ لها أَجيجُ

والثانية العينية التى قالها بعد الهزيمة يسلّى بها الأمير ، وينذر بها الروم وأولها :

غَيرى بأكثرِ هذا الناسِ يَنْخَدِعُ
وإن قاتَلُوا جَبُنُوا أو حَدَّثُوا شَجُعُوا

وفى سنة أربعين وثلاثمائة نهض سيف الدولة للقاء الروم ، وكانت نيته أن يغسل عن المسلمين وعن نفسه وضر الهزيمة التى أصابتهم فى العام الماضى ، فتهيأ للزحف من نفس المكان الذى عرض فيه الجيش سنة تسع وثلاثين ولكن المسلمين علموا أن جيش العدو ضخم كثير العدد فهابوه . وتقدم الأمير إلى الشاعر أن يثبت قلوبهم ويحرضهم على القتال فقال نونيته التى أولها :

تَزُورُ دِياراً ما نُحِبّ لها مَغْنى
ونَسْأَلُ فيها غَيْرَ سُكّانِها الإِذْنا

وأنشدها المتنبى لا بين يدى الأمير وحده ، بل أمام جماعة المسلمين ، فرد إلى قلوبهم الثقة وأثار فيها الحماسة ، ثم اندفع بهم سيف الدولة كأنه السيل ، فاكتسح العدو أمامه اكتساحا وأمعن فى الغزو ، وكان يريد أن يصل إلى خرشنة ، ولكن الشتاء أقبل ، وسقط الثلج فلم يستطع الأمير أن يتقدم فعاد بجيشه مظفرا هذه المرة ، ولم يستطع الروم أن يضايقوه ، ولا أن يأخذوا عليه الطريق ، فقال المتنبى فى ذلك داليته التى أولها :

عَواذِلُ ذاتِ الخالِ فىَّ حَواسِدُ
وإنّ ضَجِيعَ الخَوْدِ مِنى لَماجِدُ

وفى أوائل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة زحف سيف الدولة على مرعش فأزال عنها الروم ، وأقام حصنها وعاد مظفرا ، فقال المتنبى فى ذلك بائيته التى أولها :

فَدَيناكَ من رَبعٍ وإن زِدْتَنا كَرْبا
فإنّكَ كُنتَ الشَرقَ للشَمسِ والغَرْبا

وقد كثر الأسرى من الروم عند سيف الدولة وكثر أسرى المسلمين عند الروم ، وأقبل رسول ملك الروم فى آخر هذه السنة يسفر فى الفداء فاستقبله سيف الدولة فى حفل فخم يريد أن يلقى به الرعب فى نفسه ، وجاء غلمان الأمير بلبؤة مقتولة فألقوها فى طريق السفراء ومن حولها أشبالها أحياء . وأقبل المتنبى لينشد قصيدته التى أعدها للحفل ، فلما رأى اللبؤة وأشبالها ارتجل هذه الأبيات الثلاثة :

لَقِيتَ العُفاةَ بآمالها
وزُرْتَ العُداةَ بآجالها
وأَقْبلَتِ الرُومُ تمشِى إليـ
ـك بينَ الليُوثِ وأَشبالها
إذا رَأَتِ الاسْدَ مَسْبِيّةً
فأَيْنَ تَفِرُّ بأَطْفالها

ثم قام بين يدى الأمير ، فأنشد القافية التى هيأها لهذا المقام ومطلعها :

لِعَيْنَيْكِ ما يَلْقى الفؤادُ وما لَقِى
وللْحُبِّ ما لم يَبقَ منِّى وما بَقِى

وفى سنة اثنتين وأربعين عبر سيف الدولة الفرات ، وزحف من عنتاب على بلاد الروم فاجتاز الحدود ، وأمعن حتى أغار على ملطية ، ثم عاد مظفرا غانما بعد خطوب أحسن فيها البلاء . فلما انتهى إلى آمد بلغه أن الروم قد أغاروا على أنطاكية ، فخف إليهم وأغذ فى السير حتى لحقهم قافلين عند مرعش ، فأوقع بهم وغنم منهم ، وأسر قسطنطين ابن قائدهم برداس فوكاس وعاد موفورا . فقال المتنبى فى ذلك لاميته التى أولها :

لَيالِيَّ بَعْدَ الظاعِنِينَ شُكُولُ
طوالٌ وليْلُ العاشِقِينَ طَوِيلُ

وفى سنة ثلاث وأربعين أقبل سفراء الروم وأدخلوا على سيف الدولة فى حفل فخم ، فأنشد المتنبى فيه رائيته التى يقول فيها :

ظُلُمٌ لِذا اليَوْمِ وَصفٌ قبلَ رُؤيتِهِ
لا يَصْدُقُ الوَصْفُ حَتى يَصْدُقَ النَظَرُ

وكأنه لم يعلم بما كان السفراء يحملون فى هذه

السفارة ؛ فلما انتهى الحفل عرف أنهم كانوا يسعون فى هدنة . فقال لاميته التى مطلعها :

دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرُّوم هذِى الرَسائِلُ
يَرُدُّ بها عن نَفْسِهِ ويُشَاغِلُ

وفى هذه السنة نفسها نهض سيف الدولة بعد فراغه من ثورة الكلابيين إلى حصن الحدث ، وكان المسلمون قد انهزموا عنه للروم سنة سبع وثلاثين وثلثمائة كما قدمنا . فأراد سيف الدولة فى هذه السنة أن يسترده ويقيمه ، وعلم الروم بمسيره إليه ، فأسرعوا فى جيش ضخم اشتركت فيه أمم مختلفة ليردوه عنه ، ولكن سيف الدولة سبقهم إليه على أنه لم يكد يستقر حتى ظهرت جيوش الروم ، فلقيهم المسلمون ، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عليهم ، فتضعضعوا شيئا وكادوا ينهزمون ، لولا أن الأمير أقدم لا يلوى على شىء ، ومضى يشق الصفوف حتى انتهى إلى مكان القائد العام برداس فوكاس ، فانهزم الروم هزيمة منكرة ، وأقام سيف الدولة الحصن وعاد مظفرا . فقال المتنبى ميميته التى أولها :

عَلَى قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأْتى العَزائمُ
وتأْتِى على قَدْرِ الكِرامِ المكارِمُ

وفى المحرم من سنة أربع وأربعين وثلثمائة أقبل سفراء ملك الروم على سيف الدولة يطلبون الهدنة فأدخلوا عليه ، وأنشده المتنبى بحضرتهم ميميته التى أولها :

أَرَاعَ كذَا كلَّ الأنامِ هُمامُ
وسَحَّ لهُ رُسْلَ الملوكِ غمامُ

ومن إلحاح المتنبى على الأمير فى هذه القصيدة أن يمنح السفراء ما يطلبون من الموادعة أستخاص أن الأمير نفسه كان راغبا فى هذه الهدنة ليقمع ثورة القبائل القيسية التى رجحت فيما مضى أنها كانت سنة أربع وأربعين وثلثمائة .

وفى هذه السنة نفسها نقض الروم الهدنة فيما يظهر ، وأغاروا على حصن الحدث يريدون أن يستردوه ، ولكن سيف الدولة نهض لهم ، فلما علموا بمقدمه جلوا عن الحصن وعادوا أدراجهم . فقال المتنبى لاميته التى أولها :

ذِى المعالى فَلْيَعْلُوَنْ مَن تَعالَى
هَكَذَا هَكَذَا وإلاّ فَلا لا

وفى المحرم من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة علم سيف الدولة أن الروم قد هموا بالغارة على آمد ، فنهض إليهم فلما علموا بمقدمه عادوا أدراجهم ، ولكنه تبعهم وأمعن حتى هزمهم على تل البطريق ، ودمر حصونا وقلاعا وعاد . ولكنه وجد الدروب قد أخذت عليه ، فكانت بينه وبين الروم موقعة عظيمة كتب له فيها النصر وانهزم الروم ، وقد تركوا ألوفا من القتلى وعددا ضخما من الأسرى . وعاد سيف الدولة ظافرا إلى آمد . فأنشده المتنبى نونيته التى يقول فيها .

الرَّأْىُ قَبلَ شَجاعةِ الشُجعانِ
هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ المَحَلُّ الثانى

وفى هذه السنة نفسها أعيد حديث الوقعة الماضية فى مجلس سيف الدولة ، وما كان الروم قد قدروا من أخذ الطريق عليه والايقاع به ، ثم ما كان من إخلاف ظنهم فأنشد المتنبى ميميته التى أولها :

عُقَبى اليَمِينِ على عُقْبَى الوَغَى نَدَمُ
ماذا يزيدُكَ فى إقدامِكَ القَسَمُ

وهى كما يقول الديوان آخر ما أنشد المتنبى من الشعر بين يدى سيف الدولة فى حلب . وتاريخ هـذه القصائد كلها مفصل أحسن تفصيل فى كتاب الأستاذ بلاشير ، وفى أبحاث الأستاذ جبريلى عن حياة المتنبى ، وفى كتاب الأستاذ كنار عن سيف الدولة .

وعلى هذه الكتب مع الديوان كان اعتمادنا فيما قدمنا من التاريخ ، وكنا خليقين ألا نعيد فى هذا الإيجاز ما فصلوه فأحسنوا تفصيله ، لولا أنهم كتبوا فى الفرنسية والإيطالية وأن كتبهم ليست فى أيدى قراء العربية .

وكل هـذا الشعر كما قلنا فى أول الحديث عن صلة المتنبى بسيف الدولة رائع بارع ، خليق بالدرس والتحليل ، ولـكننا سنصنع به ما صنعناه بغيره من شـعر المتنبى فى سيف الدولة فنكتفى بالوقوف عند نماذج منه تغنى عن الوقوف عند سائره .

٧

ولندع الجيمية التى قالها المتنبى فى أوائل الحرب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة فإنها لا تزيد على أن تكون تحريضا للحسين، وتثبيتا للمسلمين وحثا لهم على الهجوم، وثناء على الأمير بما هو أهله، ثم انذار للنصارى بما سيصب عليهم من نار الحرب. وكان المتنبى فى هذه الجيمية القصيرة عظيم الأمل، بل واثقا كل الثقة بالفوز، ثم كانت سيرة المسلمين بعد هذه القصيدة محققة كل التحقيق لذلك الأمل، مصدقة كل التصديق لهذه الثقة. فقد انتصر المسلمون فى غزوهم هذا الطويل، وهزموا عدوهم أشنع الهزيمة فى كل موطن لقوهم فيه حتى انتهوا إلى خرشنة كما قدمنا. وكان الأمير يريد أن يمضى فى الغزو، ولكن بعض أتباعه سئموا الحرب وأشفقوا من الإبعاد فى الغزو، فطلبوا الرجوع إلى أوطانهم وألحوا فى ذلك واستمع لهم الأمير. فلما رجعوا مثقلين بالغنائم والأسرى، تبعهم العدو منغصا عليهم قفولهم، آخذا عليهم

الطرق حتى كانت الهزيمة التى لم تأخذ من نفس سيف الدولة برغم تعرضه فيها لأشد الأخطار .

وقصيدة المتنبى التى وصف بها هـذه الحرب وما كان فيها من نصر مؤزر ، ثم من هزيمة منكرة تصور الحوادث أجمل تصوير وأروعه وأصدقه معا . ثم هى تصور فوق الحوادث نفس المتنبى ، وما ثار فيها من العواطف المختلفة والأهواء المتباينة ، ثم هى بعـد هذا كله تصور نفس الأمير وقد عاد محزونا كئيبا نادما خائب الأمل ، ولـكنه مع ذلك يتحرق شوقا إلى الانتقام ، ولا يكاد يطمئن ولا يستقر حتى يبلغ منه ما يريد .

وهذه القصيدة تنقسم أربعة أقسام ، وقد رتبت هذه الأقسام فيما بينها أحسن ترتيب وأدقه . كأن القصيدة رسالة ذات أربعة فصول ، ولـكنها قصة تبدأ من آخرها إن صح هذا التعبير . تبدأ من آخرها ، ثم تستأنف من أولها بعد ذلك .

فأما الفصل الأول فيصور لنا المتنبى نفسه ، بعد أن عاد المسلمون إلى حلب ، وقد خلا إلى نفسه وأمعن فى التدبر لما شهد وما سمع وما وجد أثناء هـذه الحوادث الطويلة

العنيفة . وإذا هو محزون كئيب ، كاسف البال ، يائس من الناس ، ساخط على هذه الحياة التى صورتهم شجعانا فى القول ، جبناء فى العمل ، كراما إذا وعدوا ، بخلاء حين يطلب إليهم الوفاء ، أوفياء إذا تحدثوا ، خونة غادرين إذا امتحنوا . ثم هو لا يكتفى بهذا اليأس والسخط ، بل هو لا يريد أن يستسلم لهذا اليأس والسخط ، وإنما هو يجد فى نفسه بقية خفية من أمل . فليست طبيعة الناس شرا كلها ، وليس من المستحيل أن يخرجوا على هذه الطبيعة فيلائموا بين القول والعمل ، وبين الوعد والإنجاز . وإذن فهو يحثهم دون أن يصارحهم على أن يأخذوا بالثأر ، ويغسلوا عنهم هذا العار . على أنه لا يتحدث إليهم فى ذلك مباشرة ، وإنما يقيم نفسه مقامهم ؛ فيتحدث إليها حتى إذا فرغ من ذلك ، فصور الحزن واليأس ، ثم صور الأمل والرجاء ، انتقل إلى الفصل الثانى ، الذى هو فى حقيقة الأمر نتيجة طبيعية منطقية للفصل الأول .

كان يريد من الناس أن يغسلوا عن أنفسهم العار ، فأى حافز لهم أبرع من هذا الوصف الذى صور به انتصارهم

فى أول الحرب ، واستعلاءهم على الروم ، واستحواذهم على الأرض وما فيها ومن فيها ، ودفعهم للمحاربين أمامهم يمضون هاربين لا يلوون على شىء ، وانتهاءهم بعد ذلك كله إلى أرباض خرشنة ، وهو فى أثناء هـذا الوصف يصطنع أروع ألفاظ الحرب ، وأقدر صورها على إثارة الحفيظة ، وإشعار النفس العربية بالبأس والقوة ، وبالكرامة والعزة ، وبالشمم والإباء . فإذا انتهى إلى خرشنة فقد أتم الفصل الثانى من قصته ولا بد له من أن يأخذ فى الفصل الثالث .

وهذا الفصل الثالث دقيق جدا ، ففيه تصوير الهزيمة ، وقد كانت الهزيمة منكرة حقا . فكيف السبيل إلى ذلك دون أن يفت الشاعر فى أعضاد المسلمين ويشمت بهم العدو ، ويزيد فى شماتة الروم .

ليس الأمر عسيرا كل العسر ، فقد تعود الشعراء القدماء منذ العصر الجاهلى أن يذكروا الهزيمة ويعتذروا منها ، ولكن المتنبى يستغنى عن وصف الهزيمة ، بل يهمله إهمالا ويكتفى بالاعتراف بها فى شىء من الإجمال والغموض ، ثم يتحول إلى المنتصرين من الروم ؛ فينذرهم ويوعدهم ،

ويذكرهم بما أصابهم من الهزائم ، ويتنبأ لهم بما سيصيبهم منها ، وهو لا يرى الهزيمة إلا امتحانا للمسلمين ، وتمحيصا لهم ، وتنقية لجيشهم من الضعفاء والجبناء ، وهو يعترف بأن الروم قد أسروا جماعة من المسلمين ، ولكنهم لم يأسروا أحدا ذا بأس أو حفاظ ، وإنما أسروا جماعة من الموتى أو أشباه الموتى ، من موتى النفوس على كل حال . فالروم ضباع ، والضباع لا تظفر بالأحياء ، ولا تنعم إلا بالموتى .

فإذا أتم حديثه إلى الروم منذرا موعدا لم يبق له إلا الفصل الرابع والأخير من فصول القصة ، وهو تعزية الأمير نفسه من نفسه ، وتهوين الأمر عليه ، ثم إعلان رأى الأمير فيما كان ، وأمل الأمير فيما سيكون .

وقد صور المتنبى هذا الفصل تصويرا مؤثرا حقا . فهو قد رفع الأمير عن اللوم ونزهه عن العار ، بل هو قد رفع الأمير فوق الشمس ، بحيث لا يستطيع أحد أن يرفعه ولا أن يضعه ، وبحيث لا يستطيع العار أن يسمو إليه . إنما العار كل العار على الذين خذلوه وأسلموه وتفرقوا عنه ، والمجد كل المجد لهذا الأمير الوحيد الذى انهزم عنه الجيش ، فثبت للعدو ،

ولم يحم منه نفسه وحدها ، وإنما حمى منه الجيش المنهزم أيضا . والأيام دول والزمان يخطئ ويصيب . فقد أخطأ فى ذات الأمير هـذه المرة وهو مصلح خطأه من قابل . وهل أرض الروم إلا مصطاف الأمير حين يقبل الصيف ، ومتربع الأمير حين يقبل الربيع . فالسيف معتذر إلى الأمير ، والدهر منتظر أمر الأمير ، وويل للروم بعد ذلك .

وكذلك تنتهى هذه القصيدة الرائعة من قصائد المتنبى وقد وفق الشاعر فيها كل التوفيق من ناحيتين :

من الناحية العلمية ، فهو قد وبخ المنهزمين أشد التوبيخ ، وعنفهم أقصى التعنيف ، ولـكنه لم يصغرهم فى أنفسهم ، ولم يدفعهم إلى اليأس من الظفر والانتقام ، وهو قد عرف للروم انتصارهم ولـكنه لم يسرف فى تعظيم هذا الانتصار والتنويه به ، لأنه لا يريد أن يفل من حد المسلمين ، ولا أن يكسر قلوبهم . ومن الناحية السياسـية ، فهو قد ضمن للأمير حسن السمعة ، وذاد عنه ألسنة السوء ، ورد عنه شماتة الشامتين به من هؤلاء الملوك المسلمين الذين يتربصون به الدوائر ، وينتظرون له المـكروه ، وهو فى الوقت نفسه قد حفظ له

وفاء الرعية ، وأشعرها بأنها قد خذلته وقصرت فى ذاته ، وأن له عليها حقا يجب أن تؤديه إليه فتنصره وتفنى فى نصره إذا استأنف الحرب فى العام المقبل .

ولم يكن توفيق المتنبى سياسيا وعمليا فحسب ، بل كان توفيقا فنيا قبل كل شىء ، فلهجة الشاعر فى القصيدة صادقة كل الصدق ، حارة كل الحرارة ، وألفاظه ومعانيه ملائمة أشد الملاءمة لهذا الصدق الحار ، لأن المتنبى قد شهد الموقعة ورأى أطوارها كلها ، واستيقن أن الهزيمة لم تأت عن ضعف فى المسلمين ولا عن تقصير ، ، وإنما الحرب سجال يوم لك ويوم عليك ، ولولا أن طبيعة الموقف تقتضى أن يلوم المنهزمين شيئا ليربط على قلوبهم وليحفزهم إلى الجهاد لما فكر المتنبى فى لومهم قليلا ولا كثيرا .

وأنا أحب الآن أن تقرأ أطرافا من هذه القصيدة ، لتحس من جمالها وروعتها بعض ما أحس . فانظر إلى غنائه الحزين فى أولها :

غيرِى بأكثرِ هذا الناسِ يَنْخَدِعُ
إنْ قاتَلوا جَبُنُوا أو حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَهلُ الحَفيظةِ إلا أَنْ تُجَرِّبَهُمْ
وفى التجارِبِ بَعْدَ الغَىِّ ما يَزَعُ
وما الحياةُ ونَفْسِى بَعْدَ ما عَلِمَتْ
أنَّ الحياةَ كما لا تشتَهِى طَبَعُ
لَيسَ الجمالُ لِوَجهٍ صَحَّ مارِنُه
أَنفُ العَزِيزِ بِقَطْعِ العِزِّ يُجتَدَعُ

ثم انظر إليه بعد هذا اليأس كيف يعود إلى استفزاز المسلمين واستنهاضهم للانتقام . فيقول :

أَأَطرَحُ المجدَ عن كِتْفى وأَطْلُبُهُ
وأَترُكُ الغَيثَ فى غِمْدِى وأَنتَجِعُ

وانظر إليه كيف خلص إلى سيف الدولة فى هذا البيت الذى يجمع الظرف والقوة معا . فقال :

بالجَيشِ يمتَنِعُ الساداتُ كُلُّهُمُ
والجَيشُ بابنِ أَبى الهيجاء يمتَنِعُ

ثم انظر إليه كيف يصف غارة سيف الدولة حين انقض على الروم كالصاعقة فلم يثبتوا له . وانظر إليه كيف

يلائم فى السرعة بين الوصف والموصوف فيصل إلى خرشنة كما وصل إليها الأمير فى غير مهل ولا أناة ، ثم يقيم عليها بعد ذلك كما أقام الأمير عزيزا منتصرا مباهيا بالعزة والانتصار .

قادَ المقانِبَ أقصَى شُرْبِها نَهَلٌ
عَلَى الشَكِيمِ وأدنى سَيرِها سَرَع
لا يَعتَقِي بَلَدٌ مسراهُ عن بَلَدٍ
كالموتِ لَيسَ لهُ رِىٌّ ولا شِبَعُ
حتى أَقامَ على أَرباضِ خَرْشَنَةٍ
تَشقى به الرُومُ والصُلبانُ والبِيَعُ
للسَّبْىِ ما نَكَحُوا والقَتْلِ ما وَلَدُوا
والنَّهْبِ ما جَمَعوا والنَّارِ ما زَرَعوا
مُخَلًّى لهُ المرْجُ مَنصُوبا بِصارِخَةٍ
لَهُ المَنابِرُ مشهودا بها الجُمَعُ

ثم يمضى المتنبى فى وصف ما كان للمسلمين من قوة و بأس ، وما كان يملأ قلوب الروم من فزع وجزع ، وما أحدث المسلمون فى الروم من قتل ، وما تركوا فى نفوسهم من

حزن . يصف هذا كله مستأنيا فى وصفه ، مستلذا هذا الوصف مصطنعا فيه الإطالة والتفصيل ، كأنه قد أشرف على الروم من أكمة مرتفعة عند خرشنة ، فهو يلقى عليهم فى ذلك خطبة بشعة قوامها الحديد والنار والضرم والدماء .

ثم انظر إليه كيف يتحدث إلى الروم بعد ذلك عن هذه الهزيمة العارضة بعد أن سجل النصر تسجيلا :

قُلْ للدُّمُستُق إنَّ المُسلِمين لَكَم
خانوا الأَميرَ فجازاهُمْ بما صَنَعُوا
وَجَدتُمُوهُمْ نِياماً فى دِمائِكُمُ
كَأنَّ قَتْلاكُمُ إيَّاهُمُ فَجَعوا
ضَعْفَى تَعِفُّ الأعادِى عن مِثالهم
منَ الأَعَادِى وإن هَمُّوا بِهِمْ نَزَعوا
لا تَحْسَبوا من أَسرتُمْ كانَ ذا رَمَقٍ
فَلَيسَ يأكُلُ إلاَّ المَيْتَةَ الضَبُعُ
هَلَّا عَلَى عَقَبِ الوادِى وقد صَعِدَتْ
أُسْدٌ تَمُرُّ فُرادى لَيسَ تجتمِعُ

تَشقُّكمْ بقناها كُلُّ سَلْهَبةٍ
والضَربُ يأخُذُ مِنكُمْ فَوْق ما يَدَع

وإنَّما عَرَّضَ اللهُ الجُنُودَ بِكُمْ
لكى يكُونوا بِلا فشْلٍ إذا رَجَعوا

فَكُلُّ غَزْوٍ إليكم بَعْدَ ذا فَلَهُ
وكُلُّ غازٍ لسَيفِ الدَولَةِ التَّبَعُ

وانظر إليه كيف يتحدث إلى سيف الدولة فى هذين البيتين :

وهل يَشِينُكَ وَقتٌ كُنتَ فارِسَهُ
وكانَ غيرَكَ فيهِ العاجزُ الضَرَعُ

من كانَ فَوقَ مَحَلِّ الشمس موضِعُهُ
فَلَيسَ يَرفَعُهُ شيءٌ ولا يَضَعُ

وانظر آخر الأمر إلى هذا البيت ، وهو من أروع ما قال المتنبى فى سيف الدولة ؛ بل وفى غيره من الممدوحين أيضا :

الدهرُ مُعْتَذِرٌ والسيفُ مُنْتَظِرٌ

وأَرْضُهُمْ لَكَ مُصطافٌ ومُرْتَبَعُ

وقد صدق الأمير وعد شاعره ، واعتذر الدهر من خطيئته ، وظفر السيف بما كان ينتظر ؛ فلم يحل الحول حتى نهض سيف الدولة لقتال الروم وظفر بهم ، وكاد يبلغ خرشنة لولا الثلج . وقد قال المتنبى فى هذه الموقعة قصيدتين أيضا ؛ يحرض الجيش فى أولاهما ، ويسجل الفوز فى ثانيتهما .

ولكنى لا أقف عند هذا الشعر ، فاقرأه إن شئت ، فأنت واجد فيه من الجمال والروعة ما يرضيك .

ولن أقف كذلك عند قافيته التى قالها حين أدخل السفراء على سيف الدولة ، سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وإن كانت خليقة بالإعجاب . إنما أصل مسرعا إلى هذه اللامية التى هى عندى آية المتنبى فى سيف الدولة ، لأنها جمعت خصالا ما أراها اجتمعت فى غيرها من القصائد التى وصف فيها جهاد الأمير للروم . صاغ الشاعر هذه القصيدة على مثال لامية السموءل التى أولها :

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عِرْضُه
فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديه جَمِيلُ

فاصطنع نفس الوزن ونفس القافية ، ونفس اللغة أيضا ، بل هو استعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولكنه لم يصنع ذلك تقليدا ولا احتذاء ، وإنما أعجبه هذا المذهب الشعرى ؛ فعارض السموءل ولم يتخذه إماما . وهو حين ذهب هذا المذهب الفنى أجرى فى القصيدة روحا عذبا غريبا ليس من اليسير وصفه ولا تصويره ، ولكنك تحسه احساسا قويا ، بل أنت تقرأ القصيدة ؛ فإذا هذا الروح يسبق ألفاظها ومعانيها إلى قلبك ، ويشيع فى نفسك خفة وطربا ، لا تجدها حين تقرأ أى قصيدة أخرى من قصائد المتنبى .

والغريب أن هذا الروح العذب الخفيف يحتفظ بعذوبته وخفته فى القصيدة كلها ، ولكنه مع ذلك يتخذ أشكالا ، وإن شئت فقل يتخذ ألوانا مختلفة ، تتباين بتباين المعانى والموضوعات التى يطرقها الشاعر فى هذه القصيدة . فهو على عذوبته وخفته حزين شاحب كئيب ، يثير فى نفسك الحنان

والرحمة والألم الهادئ حين يتغنى الشاعر فى هذا الغزل الذى بدأ به القصيدة . فإذا انتهى الشاعر إلى المدح ووصف الموقعة خلع عن هذا الروح العذب الخفيف دائما حزنه وشجوه وكآبته واتخذ ثوبا زاهى الألوان إلى أبعد حد ، يمسه ضوء الشمس ، فتضطرب ألوانه وتموج تموجا ساحرا ، وإذا هو يغلبك على نفسك ، وإذا نفسك تموج معه كما يتموج . والشاعر يصف الحرب وصفا دقيقا ، وكانت الحركة النشيطة السريعة أخص ما تمتاز به هذه الحرب ، بل كانت هذه الحرب تمتاز بخصلتين أخريين لعلهما نتيجة لهذه الحركة . وهى الجرأة التى لا تسمح بمهل ولا أناة ولا تبيح روية ولا تفكيرا ، وإنما هى اندفاع متصل إلى أمام ، يزداد عنفه من وقت إلى وقت ، لا يحفل بالمصاعب ولا يقف عند العقاب ، وإنما يقتحم كل ما يعترضه ويكتسح كل ما يلقاه . يصعد حين تعترضه الجبال وينحدر حين ينتهى من القمة إلى السفح ، ويعدو حين ينتهى إلى السهل . حركة وجرأة هما أشبه شىء بنشوة النشوان الذى يأتى ما يأتيه عن فرح ونشاط ، لا سعة فيهما لتعقل أو تدبر .

وكذلك فعل سيف الدولة فى هذه الحرب ، فقد خطرت

له فجأة فاندفع إليها من حران لا يلوى على شيء حتى أمعن فى بلاد الروم واقتحم ملطية . فلما أراد العودة من درب أرمينية وجد الدرب قد أخذ عليه ، وكان خليقا أن يتدبر وأن يقدر أنه قد أخذ من ورائه أيضا ، وأن يحتال فى اقتحام الدرب ، ولكنه أبى أن يضيع الوقت ، فكر راجعا فى سرعة الطير ، واقتحم ملطية مرة أخرى غير مبال بما كان العدو قد أعدّ له من أمامه ، وبما كان خليقا أن يلحقه من وراء . ثم انتهى فى هذه السرعة الجريئة الغريبة إلى مخرج من بلاد الروم فسلكه ، وظن الروم أنه قد انصرف عنهم ، ولكنه لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى ؛ فدمر وخرب وسلب الغنائم والنفوس ، ومضى حتى أدرك الفرات فاقتحمه اقتحاماً على ظهور الخيل . ولم يكد ينتهى إلى آمد ويعلم بعبث الروم حول أنطاكية ؛ حتى خف وأغذ وأخذ الروم عند مرعش وهم قافلون فمزقهم تمزيقا ، وأضاف إلى ما كان عنده من الغنائم والأسرى ، وأخذ ابن القائد نفسه وعاد مظفرا .

كان سيف الدولة نشوان قد أسكرته الحرب ، فمضى

فيها لا يقف ولا يتدبر . وأتيح له النصر فإذا هـذا النصر نفسه يسكر شاعره المتنبى ، وإذا هو ينشىء هذه القصيدة صورة دقيقة مطابقة كل المطابقة للأصل الذى أراد وصـفه وتصويره . فأنت ستحس حين تقرأ هـذا الوصف نفس الحركة والنشاط اللذين أحسهما المتنبى حين تبع سيف الدولة فى غارته الجريئة السريعة تلك ، لا يكاد يطمئن ولا يستقر ولا يستريح .

وستمضى أنت فى قراءة القصـيدة كما مضى المتنبى فى اتباع سيف الدولة ، مندفعاً من بيت إلى بيت ، متنقلاً من مقام إلى مقام ، صاعدا مع الجيش حين يصعد ، ومنحدرا مع الجيش حين ينحدر ، ودائرا مع الجيش حين يدور حول العدو ، ثم هاجما مع الجيش حين يهجم على العدو . ثم إن هـذا الروح العذب الخفيف على احتفاظه بعذوبته وخفته ، يخلع هـذا الثوب ذا الألوان المشرقة المتألقة إذا فرغ من هذا الوصف ؛ ليتخذ ثوبا آخر ليس شديد التأنق والإشراق ، ولـكنه حالك بعض الشىء ، أو قل قاتم يكاد يمعن فى القتوم لولا أن شيئا من البهجة يترقرق فيـه بين

حين وحين ، وذلك حين يلتفت الشاعر إلى ما وراء سيف الدولة من بلاد المسلمين وإلى من حول سيف الدولة من ملوك المسلمين ، فلا يرى إلا ذلا وضعة ، وإلا خمولا وخمودا وإلا إقبالا على اللهو ، وعكوفا عن اللذات ، وضجيجا وعجيجا لا غناء فيهما ولا طائل منهما فى هذا الوقت الذى يجد فيه الجد بين سيف الدولة وعدوه من الروم . فإذا الظفر الذى ينتهى إلى البطولة حينا ، وإذا الهزيمة التى تنتهى إلى البطولة حينا آخر ، وإذا الثقة بالنفس والنهوض بالواجب والاطمئنان إلى الله على كل حال . فإذا فرغ الشاعر من هذا التعريض الحزين الفرح ، خلع عن روحه العذب الخفيف ثوبه هذا ، وأفاض عليه ثوبا آخر هو ثوب الفخر بالنفس والاعتزاز بالكفاية الشخصية ، والبراعة الفنية ، وكأنه رضى عن قصيدته وعن فنه بعد أن سمع قصائد الشعراء الآخرين ، ورأى فنونهم ، وهو ساخط على هؤلاء الشعراء الذين يعجزون عن مجاراته ، ويقصرون عن بلوغ غايته ، فلا يسعهم إلا أن يسعوا به ويكيدوا له ، ويتألبوا عليه ، وهو قد أشرف عليهم وأخذ يرمقهم مزدريا لهم ، محتقرا لما يقولون ويفعلون .

فالمتنبى يبدأ القصيدة بنفسه حزينا مفتخرا ، ويختم القصيدة بنفسه مبتهجا منتصرا ، ويمنح أكثر القصيدة ، وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده ، بل له ولجماعة المجاهدين معه فى سبيل الله ، الذائدين عن حوذة الإسلام وحسب العرب ، ولجماعات أخرى من المسلمين لاهية عن الجد ، ساهية عن المجد ، منصرفة إلى المخازى والآثام . فالشاعر مغن ، والشاعر مادح ، والشاعر قاص ، والشاعر هاج ، والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع أكثر فنون الشعر فى هذه القصيدة التى لم تسرف فى الطول .

قلت لك إن هذه القصيدة عندى أروع ما قال المتنبى لسيف الدولة من الشعر . واقرأ معى بعض أبياتها فسترى أنى لست مسرفا فيما أقول :

لَيالِيَّ بعد الظاعِنِين شُكُولُ
طِوالٌ وليلُ العاشِقينَ طَويلُ
يُبِنَّ لىَ البَدرَ الَّذى لا أُرِيدُهُ
ويُخفِينَ بدرا ما إليه سَبيلُ

وما عِشتُ من بَعد الأحبَّةِ سَلْوَةً
ولـكِنَّنى لِلنائِباتِ حَمُـــولُ

لماذا بدأ المتنبى قصيدته بهذا الغناء الحزين ؟ وقد عرفناه إذا امتلأت نفسه إعجابا ورضا يعرض عن النسيب و ينصرف عن الغناء و يهجم على موضوعه هجوما لا يبتغى إليه الوسائل ، ولا يبسط بين يديه المقدمات . ستقول لأنه شاعر يريد أن يتأنق فى فنه ، وأن يبهر سامعيه ، وأن يهيئهم لاستماع ما سيقص عليهم من أنبـاء الحرب وما سيعرض عليهم من أوصافها . وقد يكون هذا حقا وما أكثر ما يفعل الشعراء هذا . وما أكثر ما يكون أحدهم ممتلئا بموضوعه ، شاعرا بأن الناس من حوله ممتلئون بهذا الموضوع ، ولـكنه مع ذلك لا يسرع إليه ولا يبلغه حتى يدور إليـه فى أنحاء من الغناء . نعم ، ولـكنى أرى فى نفس المتنبى شيئاً آخر غير هـذا التأنق الفنى والترفق الذى يعمد إليه الشعراء ، فيها حزن دفين ، يصدر أحيانا عن نفس الشاعر التى لم تدرك من آمالها شيئا أو لم تـكد تدرك منها شيئا ، و يصدر أحيانا أخرى عن حال هذه الأمة الإسلامية التى تبلى فتحسن البلاء ، وتجاهد فتحسن

الجهاد ، ولـكنها حيث هى لا تتقـدم خطوة ولعلها تتأخر خطوات . هذه الحرب التى أبلى فيها سيف الدولة كأحسن ما يبلى الأمراء المجاهدون ، ماذا أفاد منها المسلمون ؟ وماذا أفاد منها سيف الدولة ؟ وماذا أفاد منهـا المتنبى إذا تعمقت الأمر ونفذت إلى حقائق الأشياء ؟ المسلمون حيث هم لم يمدوا حدودهم ولم يؤمنوها من غارة الروم ، والمسلمون حيث هم لم تصلح أحوالهم الخاصة ، ولم تبرأ سياستهم الداخلية من الإغراق فى الفساد ، وسيف الدولة حيث هو يظفر اليوم ليستأنف الحرب غدا ، وقد ينتصر غدا ، وقد تدور عليه الدائرة ؛ لم يأمن بأس الروم ولم يأمن مكر المنافسين ؛ والمتنبى نفسه حيث هو يمدح الأمير اليوم مهنئا كما مدحه أمس معزيا ، وقد يهنئه غدا ، وقد يعزيه ، ولـكنه سيظل شاعرا مادحا على كل حال . وهو مع ذلك محسـد يكاد له ويؤتمر به ويدبر له السوء . حياته متشابهة كحياة المسلمين ، وكحياة الأمير ، وإذن فهذه الليالى المتشابهة فى الطول ، المتشابهة فى أنهـا تبدى له البدر الذى لا يريده ، وتخفى عليـه البدر الآخر الذى يهواه كل الهوى ، ويطمح إليـه كل الطموح ،

ولا يجد إليه مع ذلك سبيلا . هـذه الليالى المتشابهة التى أمضته وثقلت عليه لتشابهها ، لم لا تكون رمزاً لهذه الحياة المتشابهة التى تمض وتثقل بتشابهها ؟ لماذا ننظر إلى الشعراء دائما كما ننظر إلى الأطفال وهم يلعبون ؟ لماذا نبخل عليهم بأن نظن بهم الرجولة والبطولة أحيانا ؟ وأى صفات الناس أدنى إلى الرجولة والبطولة ، وأقرب إلى حال الفن الرفيع من هذا السأم وهذا الضيق بالتشابه حين يتصل ويطول ؟ أحق أن هذا البدر الذى تخفيه الليالى على المتنبى هو صاحبته هذه التى يزعم أنها ظعنت عنه ، وأن الأسباب قد تقطعت به من دونها ؟

لم لا يكون هذا البدر شيئا آخر غير هذه الفتاة الأعرابية التى تحميها الأسنة والرماح ؟ لم لا يكون البدر رمزا لهذه الآمال النائية وهذه الهموم البعيـدة التى تاقت إليها نفس الشاعر منذ أحس الحياة وقدر على النشاط ، والتى أنفق ما أنفق من حياته دون أن يبلغها أو يدنو منها ؟

لو أنك سألت المتنبى نفسه عن هذه الليالى المتشابهة فى الطول والعقم ، وعن هـذا البدر الخفى العزيز لما أجابك

بغير ما يقول الناس ، فهو شاعر يتغنى وهو إنما يجيد الغناء ويبرع فيه ، لأنه يتغنى بما لا يحققه ولا يحيط به علما .

فجائز بل مرجح أن يكون المتنبى بعيدا كل البعد عن أن يفكر فى هذه المعانى التى أشرت إليها وأفضت فيها ، ولكنه مع ذلك يتغنى هذه المعانى نفسها ، لأنه شاعر وأبرع الشعراء من عرض لما يفوته من مطالب الفن ، فتعلق بأذياله وطار فى أثره دون أن يبلغه أو ينتهى إليه .

ما أشد سأم المتنبى وضيقه بهذه الليالى المتشابهة الطوال ، ولكنه مع ذلك حى يغدو ويروح ويستمتع بلذات الحياة . أتراه سلا عن أحبته أو زهد فيهم ؟ كلا ، ولكنه صبور ، صبور جلد ، قد تعلم الثبات للحوادث واحتمال الملمات . أفتراه يبكى حقا فى إثر هذه الفتاة الأعرابية ؟ أم هو يبكى فى إثر هذه الآمال التى لا يدنو منها إلا نأت عنه ، ولا يطلبها إلا فاتته وعزت عليه ، أو لسنا جميعا نأمل ثم يدركنا اليأس ، ونرجو ثم يصيبنا القنوط ونحيا مع ذلك يائسين قانطين ، كما كنا نحيا آملين راجين ؛ بل قل إن هذا اليأس الذى يدركنا لا يكاد يستقر فى نفوسنا ، وإنما هو يؤذينا ويصيبنا حتى يدفعنا إلى

الشكاة ، و يثير فى نفوسنا الحزن ، و يطلق ألسنتنا بالغناء ، ثم يتجاوزنا ، و إذا الأمل يستقر مكانه ، و إذا نحن جاهدون فى السعى ، مستأنفون للنشاط ، مجدون للأمل ، نسعى فى إثر ما فاتنا و نلح فى تحقيق ما أملنا ، و إذا نحن نتمنى الفرح والمرح ، والفوز والظفر ، ثم يبلغنا العجز ، ثم يعاودنا اليأس ، ثم نستأنف غناء الحزن والأسى ، وما نزال كذلك حتى نفرغ من الأمل والحياة ، أو يفرغ منا الأمل والحياة .

كل هذا أفهمه من هذه الأبيات الثلاثة الحزينة التى بدأ المتنبى بها قصيدته ، وما يعنينى أن يكون المتنبى قد أراد هذا أو لم يرده ، فأنا لا أطلب من الشاعر أن يفهمنى ما أراد حقا ، وأنا لا أقيس براعة الشاعر بقدرته على أن يفهمنى ما أراد حقا ، و إنما أريد من الشاعر البارع كما أريد من الموسيقى الماهر أن يفتح لى أبوابا من الحس والشعور ومن التفكير والخيال . وما أشك فى أن المتنبى قد وفق إلى هذا التوفيق كله فى هذه الأبيات :

وامض فى قراءة الأبيات التى تأتى بعد هذا ، فسترى أن الشاعر ماض فى تغنى يأسه الممض وحزنه اللاذع وضيقه بهذا التشابه الممل .

ألست ترى أن كل هـذا الألم الذى يصوره ويشكو منه لم ينشأ إلا عن هذا الفراق الذى نشأ عن رحيل واحد فى الحياة ، فراق من الممكن أن يعقبه لقاء ، ورحيل من الجائز أن يعقبه اجتماع الشمل . فكيف إذا أقبل الرحيل الذى لا عودة منه ، والفراق الذى لا لقاء بعده ، كيف إذا أقبل الموت فأتم اليأس إتماما وقطع الأمل قطعا .

ثم انظر إلى هذا الشاعر ، وقد أحس أن أمله قد فاته ، وأن غايته قد بعدت منه ، وأن الأسـباب قد تقطعت به دون غايته . فهو يتعلق بأرثها وأوهاها ؛ هو يتمنى أن يلقى فى كل يوم روضة تهب عليها ريح الشمال ، لأن هذه الروضة وهذه الريح ، هما اللتان تدنيانه من حبيبته وتقربانه إليها بمـا تثيران فى نفسه من الذكرى ، هو يتعلق بالأسباب الواهية فى فرحه كما يتعلق بالأسباب الواهية فى حزنه أيضا . يبتهج بالروضة وريح الشمال كأنهما تحملان إليه روحا من حبيبتـه ، ويشرق بالمـاء لأنه يذكره ماء آخر قد نزلت عنده حبيبته ، وهو لا يستطيع إليه وصولا . كذلك هو يبتهج بالنصر لأنه يدنيه من أمله ، أو يخيل إليه أنه يدنو

من أمله ، وكذلك هو يبتئس بالنصر لأنه يثير فى نفسه صورة ذلك النصر الحق الذى يريد أن يبلغه فلا يستطيع .

وَإِنَّ رَحِيـــلاً وَاحِدًا حَالَ بَيْنَنَا
وفى الموتِ منْ بَعْدِ الرَحِيلِ رَحِيلُ
إِذَا كانَ شَمُّ الرَوْحِ أَدْنَى إِلَيْكُمُ
فلاَ بَرِحَتْنِي رَوْضَـةٌ وقَبُولُ
وما شَرَقِى بالماءِ إلاّ تَذَكُّرًا
لماءٍ بهِ أهـلُ الحبيبِ نُزُولُ
يُحرِّمُهُ لَمْعُ الأسِـــنَّةِ فَوْقَهُ
فليْسَ لِظَمآنٍ إِليْـهِ وُصُولُ

وانظر إليه كيف يتحدث عن الليل والنجوم ، وعن الصبح والحبيب فى الأبيات التالية ، فسترى أن شكاة الشاعر مستمرة ملحة ، وأن حزنه عميق بعيد ، وأن نفسه ساعية جادة فى هذه الطريق التى تظلم فتغمرها باليأس وتضىء ، فتثير فيها الرجاء :

أما فى النُّجُومِ السائراتِ وغَيْرِها
لِعَيْنِى عَلَى ضوْءِ الصَّباحِ دَلِيلُ

أَلَمْ يَرَ هذا اللَّيلُ عَينَيكِ رُؤْيتى
فتَظهَرَ فيهِ رِقَّةٌ ونُحُولُ

لَقِيتُ بِدَربِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيةً
شَفَتْ كَمَدِى واللَّيلُ فيه قتيلُ

ويومًا كأَنَّ الحُسنَ فيهِ عَلامةٌ
بَعَثتِ بها والشَمسُ مِنكِ رَسُولُ

وليس كل الناس شاعرا كالمتنبى ، وليس كل الناس يحس ما يحسه الشعراء من الحزن ويحب ما يحبه الشعراء من الغناء . وما أرى إلا أن المتنبى لو كان حرا يستطيع إرسال نفسه على سجيتها لأطال غناءه هذا الجميل ، ولاستخرج من اختلاف اليأس والأمل على قلوب الناس نفحات حلوة وألحانا مشجية ، ولكنه شاعر الأمير وترجمان هؤلاء الجند ، والأمير مترقب للمدح ، والجند مترقبون للفخر والحماسة ، فليقطع الشاعر على قلبه الحزين غناءه وليرض الأمير والجيش كما

أرضى نفسه ، وهو يخلص إلى المدح والوصف خلوصا جميلاً فيقول :

وَما قَبْلَ سَيفِ الدولةِ أُتّارَ عاشِقٌ
وَلا طُلِبَتْ عِندَ الظَلامِ ذُحُولُ
ولكنَّهُ يأْتي بِكُلِّ غريبةٍ
تَرُوقُ عَلَى استِغرابِها وتَهُولُ
رَمَى الدَرْبَ بِالجُرْدِ الجِيادِ إلى العِدَى
وَما عَلِمُوا أَنَّ السهامَ خُيولُ
شَوائِلَ تَشوالَ العَقارِبِ بالقَنا
لَها مَرَحٌ من تَحتِهِ وصَهِيلُ

وما أظنك إلا راضيا عن تشبيه الخيل بالسهام مرة ، ومعجبا بتشبيهها مرة أخرى ، وقد أديرت أسنة القنا نحو أعجازها ، بالعقارب وقد شالت بأذنابها . وما أراك إلا محسا ما أحسه المتنبى من نشاط الخيل فى هذه ، وإعلانها هذا النشاط بالمرح والصهيل . ولكن امض فى القراءة :

وَما هِيَ إلاَّ خطرةٌ عَرَضَتْ لَهُ
بِحَرّانَ لَبَّتْها قَنًا ونُصولُ

فقد خطرت الغارة إذن لسيف الدولة فجأة فى حران ، فلم يكد يدعو إليها حتى استجاب له الجيش واندفع فى الهجوم . فانظر إليه كيف يصور هذا الهجوم :

فَلَمَّا تَجَلَّى من دَلُوكٍ وصَنْجَةٍ
عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رايةٌ ورَعيلُ
عَلَى طُرُقٍ فيها عَلَى الطُرْقِ رفعةٌ
وفى ذِكرها عِندَ الأنيسِ خُمُولُ

فأنت ترى الخيل وقد انتهت إلى آخر السهل المنبسط عند دلوك وصنجة وإذا هى تصعد مرتقية فى الجبال ، وإذا هى تبلغ قمم الأطواد فتزحمها بنفسها وحركاتها كما تملأ الجو بالرايات والأعلام . والعدو من هذا كله ساهٍ لاهٍ لا يعرف ما دبر له ولا يقدر ما سيق إليه .

ولكن اقرأ :

فما شَعَرُوا حَتَّى رأوْها مُغيرةً
قِباحاً وأمَّا خَلْقُها فجميلُ
سَحائِبُ يمطُرْنَ الحَديدَ عليهمُ
فكُلُّ مَكانٍ بالسُيوفِ غَسِيلُ

فهم إذن قد أخـذوا على غرة ، وصب عليهم الموت من هذا العارض الذى أمطرهم حديدا ، وغسل أرضهم بما صب عليها من السيوف .

وأَمْسَى السَّـبَايا يَنْتَحِبْنَ بِعِرْقَةٍ
كأنَّ جُيُوبَ الثاكِلاتِ ذُيُولُ

وقد ملأ سيف الدولة يديه من الغنيمة والسبى ، وعاد فخيل إلى العدو أن العاصفة قد أقلعت ، وأن العارض قد انجلى ، وأن سيف الدولة قد انصرف عنهم ، وقد كان سيف الدولة يريد أن ينصرف ، ولـكنه وجد الطريق قد أخذت عليه ، وهذا ما لم يقله المتنبى ولم يجزع سيف الدولة ولم يضع وقته ، وإنما عاد أدراجه فأمطر العدو بأسا جديدا . فانظر كيف يصور المتنبى هذا أجمل تصوير :

وَعادَتْ فَظَنُّوها بِمَوْزارَ قُفَّـلا
ولَيسَ لها إلاَّ الدُخُولَ قُفُولُ
فَخاضَتْ نَجِيعَ القَوْمِ خَوْضاً كأنَّهُ
بِكُلِّ نَجِيعٍ لَمْ تَخُضْهُ كَفِيلُ

تُسايِرُها النيرانُ فى كلِّ مَنزِلٍ
به القَومُ صَرْعَى والديارُ طُلُولُ

وانظر كيف يصور المتنبى كرور سيف الدولة عليهم ، واقتحامه ملطية مرة أخرى :

وكرَّتْ فمَرَّتْ فى دِماءِ مَلَطْيَةٍ
مَلَطْيَـةُ أُمٌّ لِلْبَنِينَ ثَـكُولُ
وأَضْعَفْنَ ما كُلِّفْنَهُ من قُبابِهِ
فأَضْحَى كأَنَّ الماءَ فيهِ عليلُ

وقد انتهى سيف الدولة بجيشه غانما مظفرا إلى الفرات .

فانظر كيف يصور المتنبى اقتحام النهر على ظهور الخيل :

ورُعْنَ بِنا قَلبَ الفُرَاتِ كأَنَّما
تَخِرُّ عليـــه بالرجالِ سُيُولُ
يُطَارِدُ فِيهِ مَوجَهُ كُلُّ سابحٍ
سَواءٌ عَليـــهِ غَمْرَةٌ ومَسِيلُ
تَرَاهُ كأَنَّ الماءَ مَرَّ بِجِسْـــمِهِ
وأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحـــدَهُ وَتَلِيلُ

على أن عبور الفرات لم يكن آخر الخطوب التى سيلقاها الجيش قبل أن يبلغ مأمنه بما حوى من غنيمة وسبى . فما زالت أمامه قلاع وحصون للروم يجب أن يقتحمها وقد فعل :

وفى بَطْنِ هِـنْزِيطٍ وسُمْنِينَ لِلظُّبا
وصُمِّ القَنَا مِمَّنْ أَبَدْنَ بَدِيلُ
طَلَعْنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَـةً يَعْرِفُونَهَا
لَهَا غُـرَرٌ ما تَنْقَضِي وحُجُولُ
تَمَلُّ الحُصُونُ الشُّمُّ طُولَ نِزَالِنَا
فَتُلْقِي إِلَيْنَا أَهْلَهَـا وتَزُولُ

وانتهى سيف الدولة إلى حصن الران فيما يقول المتنبى وإلى آمد فيما يقول المؤرخون . والمتنبى عندنا أصدق ، وقد أراد سيف الدولة أن يريح خيله لا أن يستريح هو ، فقد تعبت الخيل والجيش وهو جذع البصيرة ، قارح الاقدام كما يقول قطرى ، على أن الظروف أبت له أن يستريح أو يريح . فقد انتهت إليه الأنباء بأن الروم يصنعون فى

بلاد المسلمين صنيعه فى بلادهم ، فيغيرون على ما حول أنطاكية . فلا بد إذن لسيف الدولة من أن يلحقهم أو يقطع عليهم الطريق ، وقد نهض لذلك ووفق إليه . فانظر كيف يصور المتنبى نهوضه وتوفيقه . وهو يبدأ بوصف الطريق البعيدة الشاسعة ثم بإدراك العدو والإيقاع به :

وبِتْنَ بِحِصْنِ الرانِ رَزْحَى مِنَ الوَجَى
وكلٌّ عزيزٍ للأميرِ ذَليلُ
وفى كلِّ نفسٍ ما خَلاهُ مَلامَةٌ
وفى كلِّ سَيْفٍ مَا خَلاهُ فُلُولُ
وَدُونَ سُمَيساطَ المطَامِيرُ والمَلا
وأَوْدِيَةٌ مَجْهولةٌ وَهُجُولُ
لَبِسْنَ الدُجَى فيها إلى أرضِ مَرْعَشٍ
وللرُومِ خَطْبٌ فى البِلادِ جَلِيلُ

وعند مرعش أدرك سيف الدولة جيش الروم ، وكان فى طليعة خيله :

فَلَما رَأَوهُ وَحدَه قَبْلَ جَيشِهِ
دَرَوْا أَنَّ كُلَّ العالمينَ فُضُولُ

وأَن رِماحَ الخَطِّ عَنهُ قصيرةٌ
وأَنَّ حَديدَ الهِنْـــدِ عَنهُ كليلُ
فأَوردَهم صَدْرَ الحِصانِ وسَيْفَهُ
فَتًى بأْسُهُ مِثلُ العَطاءِ جَزِيلُ
جَوادٌ عَلَى العِلاَّتِ بالمالِ كُلِّهِ
ولـكنهُ بالدارعينَ بَخيـــلُ
فوَدَّعَ قَتْلاهُمْ وشَيَّعَ فَلَّهُمْ
بضَرْبٍ حُزُونُ البيضِ فيه سُهُولُ
عَلَى قَلبِ قُسطَنطينَ منهُ تَعَجُّبٌ
وإِنْ كانَ فى ساقَيهِ منهُ كُبُولُ

فقد انتهت الموقعة وختمت القصة كما رأيت بهذا الانتصار الذى انهزم له الروم وفر له قائدهم ، وقد ترك ابنه قسطنطين أسيرا . ولـكن الشاعر لم ينته بعد فلا بد له من أن ينذر ويوعد ، ومن أن يسخر ويستهزئ ، ومن أن يتحدث بالنذير والوعيد وبالسخرية والاستهزاء إلى هذا القائد المنهزم وقد آثر نفسه وحياته على ابنه هذا الأسير :

لعلَّك يَوْماً يا دُمُستقُ عائدٌ
فكم هاربٍ مما إليـــه يؤولُ
نَجَوْتَ بإحدَى مُهجَتَيْكَ جريحةً
وخَلَّفتَ إحدَى مُهْجَتَيك تَسِيلُ
أَتُسلِمُ لِلخَطِّيةِ ابنَكَ هارِباً
ويَسكُنُ فى الدُنيا إليكَ خَليلُ
بِوَجهِكَ ما أَنسَاكَهُ من مُرِشَّةٍ
نَصِيرُكَ منهـا رَنَّةٌ وعَوِيلُ
أَغرَّكُمُ طُولُ الجُيوشِ وعَرضُها
عَلِيٌّ شَرُوبٌ للجُيوشِ أَكولُ
إذا لم يكُنْ لِلَّيْثِ إلاَّ فَرِيسةً
غذاهُ فلم ينفعْكَ أَنَّك فيـــلُ
إذا الطعنُ لم تُدخِلْكَ فيه شَجاعةٌ
هِيَ الطَعنُ لم يُدخِلْكَ فيهِ عَذُولُ
وإنْ تكُنِ الأيَّامُ أَبصرنَ صَولَةً
فقـد عَلِمَ الأيَّامَ كَيفَ تَصُولُ

وقد فرغ المتنبى من حديث الروم بهذا البيت والتفت إلى أعداء سيف الدولة من ملوك المسلمين ، ثم إلى أعدائه هو من الشعراء المنافسين ، ولكنا ندع ذلك الآن لنعود إليه بعد حين .

وكم كنت أريد أن أقف عند قصائد أخرى من هذا الشعر ربما كانت أقل من هذه القصيدة روعة وجمالا ، ولكن لها مكانها الرفيع من التفوق والامتياز ، لا بين شعر المتنبي وحده ، بل بين الشعر العربى كله .

ولكنى قد أطلت فى الحديث عن هذا الشعر الذى هو خليق أن يفرد لدرسه كتاب خاص .

وأنا أحب على كل حال أن تقرأ فى مثل هذا التدبر والتحليل من هذا الشعر القصائد التى أولها :

عَلَى قدْرِ أَهلِ العَزمِ تأْتى العَزائمُ
وتأْتى على قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

* * *

أراعَ كذا كلَّ الأنام هُمامُ
وسَحَّ لهُ رُسْلَ المُلوكِ غَمامُ

***

ذِى المَعالى فَليعْلُوَنْ مَن تَعالَى
هٰكذا هٰكذا وإلاّ فلا لا

***

الرَأْىُ قَبــلَ شَجاعةِ الشُجعانِ
هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ المَحلُّ الثانى

٨

وللمتنبى فى سيف الدولة شعر لم يعن به الذين درسوا الشاعر وديوانه حق العناية إلى الآن ، مع أنه فيما أعتقد خليق بالعناية كلها ، لأن له أثرا عظيما جدا فيما سيستقبل المتنبى من الحياة فى مصر والعراق .

والشراح والنقاد معذورون فى إهمالهم لهذا الشعر ، لأنه لم يستقل بقصيدة من القصائد ، ولا بمقطوعة من المقطوعات وإنما جاء عرضا فى قصائد المدح والوصف لما كان من جهاد سيف الدولة لعدوه من الروم ، أو للثائرين عليه من العرب . وهو الشعر الذى عرض فيه المتنبى بأصحاب السلطان فى مصر والعراق تعريضا خفيا مرة ، وواضحا يكاد يبلغ التصريح مرة أخرى . وخطر هذا الشعر يأتى من أنه يعيننا على أن نفهم ما لقيه المتنبى فى مصر من الإعراض ، وما انتهى إليه من الإخفاق ، وما اضطر إليه آخر الأمر من الهرب ، كما يعيننا على أن نفهم ما لقى المتنبى من الفتور

فى العراق ، ثم من العداوة الصارخة فى بغداد خاصة . ولست أزعم أنى أستطيع أن أوضح أمر هذا الشعر كما أحب وكما ينبغى أن يتضح ، ولكنى أكتفى بالإشارة إليه والدلالة على بعضه . وأرجو أن يسمح الوقت لى أو لغيرى باستئناف الحديث فيه ، والرجوع به إلى أصوله القريبة والبعيدة من مصادر التاريخ .

وقد رأيت فى حديثنا عما قال المتنبى من الشعر لسيف الدولة ، حين ثار به الثائرون من القرامطة ، ثم من رعيته البدو ، أنه لم يكن يمتنع عن التعريض بالذين كانوا يؤلبون هؤلاء الثائرين أو يغرونهم من بعيد . وهؤلاء المؤلبون كما يمكن أن يكونوا من عمال سيف الدولة نفسه يمكن أن يكونوا من أهل العراق أو من عمال المصريين فى جنوب الشام . على أن تعريض المتنبى بهؤلاء الكائدين فى ذلك الشعر لم يكن واضحا كله . ومن شعر المتنبى ما هو أوضح منه وأظهر وأدنى إلى التصريح الذى لا يحتمل شكا ولا لبسا .

ويخيل إلىَّ أن المتنبى قد دفع إلى هذا بدافعين : أحدهما

أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بمضائه وحسن بلائه لم يكن يملك نفسه أن يعيب أولئك الملوك الآخرين الذين ينعمون بالحياة واللين ، وسعة الملك ، وضخامة الثروة ، فى غير مشقة ولا جهد . والآخر أن سيف الدولة نفسه كان يظهر على بعض ما يدبر له من الكيد فى العراق أو فى مصر ، وكان الأمر يفسد أو يدنو من الفساد بينه وبين بغداد أو الفسطاط ، فيغرى شاعره بأن يمس هذه الناحية من نواحى السياسة الإسلامية ، لينذر أو يعذر أو يغيظ .

وقد نستطيع أن نعد من هذا الشعر قصيدتين قالهما المتنبى يمدح بهما سيف الدولة حين فسد الأمر بين أخيه ناصر الدولة فى الموصل وبين معز الدولة البويهى فى بغداد .

ولكن الشاعر فى هاتين القصيدتين لم يكن واضح التعريض ، وإنما آثر التعميم واكتفى بالمدح الذى يظهر البأس والقوة ، ولا يحرج مادحا ولا ممدوحا ، كما أن سيف الدولة نفسه أظهر الاستعداد لنصر أخيه دون أن يزحف بجيشه نحو الموصل .

فكأن الأمر لم يزد فى هذه المرة على أن يكون وعيدا من بعيد ، ولكن هناك مواقف أخرى لا يحتمل الأمر فيها شكا ولا مراء .

فلننظر قبل كل شىء إلى أول ما عمد إليه المتنبى من التعريض حين فسد الأمر بين ناصر الدولة وبين معز الدولة البغدادى .

فاقرأ هذه الأبيات فسترى المتنبى يصور فيها اضطراب الأمر فى الموصل ، وما أدى إليه ذلك من وحشة فى حلب ومن فساد العلاقة بينها وبين بغداد ، ثم ينتقل من هذا التصوير إلى التهديد والوعيد :

عَلَى الفُرَاتِ أعاصِيرٌ وفى حَلَبٍ
تَوَحُّشٌ لِمُلَقّى النّصْرِ مُقْتَبَلِ
تَتْلُو أسِنَّتُهُ الكُتْبَ التى نَفَذَتْ
ويجْعَلُ الخَيلَ أبْدَالاً مِنَ الرُسلِ
يَلقى المُلُوكَ فَلا يَلْقى سوَى جَزَرٍ
وما أعَدُّوا فلا يَلْقى سِوَى نَفَلِ

وسيف الدولة مصانع للخليفة ، مكبر لسلطانه مع ذلك لا يريد أن يؤذيه ولا أن يظهر خروجا عليه ، فيقول المتنبى فى تصوير ذلك هذا البيت :

صانَ الخَلِيفَةُ بالأبطالِ مُهجتَهُ
صِيانةَ الذَكَرِ الهِنـــدِيِّ بالخِلَلِ

وانظر إلى هذه الأبيات الثلاثة التى يعود فيها المتنبى إلى الوعيد ، ويعلن أن الأمير عالم بما يكاد وما يراد فى عاصمة الخلافة :

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنها وَهْىَ ناظِرَةٌ
فما تُقَابِلُهُ إلاّ عَلَى وَجَلِ
قد عَرَّضَ السَيفَ دُونَ النازِلاتِ بِهِ
وظاهَرَ الحزْمَ بينَ النَفْسِ والغِيَلِ
ووَكَّلَ الظَنَّ بالأسرارِ فانكَشَفَت
لهُ ضمائِرُ أَهلِ السَهْلِ والجَبَلِ

وكأن إذاعة الأخبار بأن سيف الدولة يريد أن يزحف لنصر أخيه لا تكفى فى إنذار بغداد ورفع الضغط عن الموصل

فيظهر سيف الدولة أنه آخذ فى الزحف ، ويطلب إلى المتنبى أن يصحبه ويتقدم إليه ، سرا فى أكبر الظن ، أن يقول فى ذلك شعرا . فيقول المتنبى قصيدة أخرى تأتى فيها هذه الأبيات :

وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ المُلُوكُ مَواهِبٌ
دَرُّ المُلُوكِ لِدَرِّها أَغبارُ
لِلّهِ قَلْبُكَ ما تَخافُ مِنَ الرَّدَى
ويَخافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيكَ العارُ
وتَحِيدُ عن طَبعِ الخَلائِقِ كُلِّهِ
ويَحِيدُ عَنْكَ الجَحْفَلُ الجَرَّارُ
يا مَن يَعِزُّ عَلَى الأَعِزَّةِ جَارُهُ
وَيَذِلُّ مِنْ سَطَواتِهِ الْجَبَّارُ

وكأن وعيد سيف الدولة هذا قد انتهى إلى غايته ، فصلح الأمر بين الموصل وبغداد .

ولما نهض سيف الدولة لقتال الروم ، وأتم بناء مرعش مدحه المتنبى ببائيته المعروفة ، ولكنه ختم هذه البائية

بأبيات لا يعرض فيها بمنافسيه من ملوك الإسلام ، وإنما يصرح بذمهم تصريحا ، ويسبهم فى غير احتياط ، ويخص المصريين بشىء قاس من هذا الذم . وذلك حيث يقول :

كَفَى عَجَباً أَنْ يَعْجَبَ الناسُ أَنَّهُ
بَنَى مَرْعَشًا تَبًّا لِآرائِهِمْ تَبَّا

وما الفَرْقُ ما بينَ الأَنامِ وبَيْنَهُ
إذا حَذِرَ المحذورَ واستَصعَبَ الصَّعْبَا

لأمرٍ أَعَدَّتْهُ الخِلافَةُ للعِدَى
وسَمَّتْهُ دُونَ العالَمِ الصارِمَ العَضْبا

ولم تفترِقْ عنهُ الأَسِنَّةُ رَحمةً
ولم تترُكِ الشَّأْمَ الأَعادِى لهُ حُبَّا

ولكنْ نَفاها عنهُ غيرَ كَرِيمةٍ
كَرِيمُ الثَنا ما سُبَّ قَطُّ ولا سَبَّا

وجَيشٌ يُثَنِّى كُلَّ طودٍ كأَنَّهُ
خَرِيقُ رياحٍ واجَهَتْ غُصُنا رَطْبا

كأنَّ نُجومَ اللَيلِ خافَتْ مُغارهُ
فَمَدَّتْ عَلَيْهَا من عَجاجَتِهِ حُجْبَا
فَمَنْ كانَ يُرضِى اللؤمَ والكُفرَ مُلكُهُ
فهذا الذى يُرضى المَكارِمَ والرَّبا

فهو كما ترى يسب الذين أكبروا من سيف الدولة بناءه مرعش ، وهو كما ترى أيضا مصانع للخلافة ، لا يعرض لصاحبها بأذى ، ولكنه يصارح المصريين بالعداء ، فيعلن أنهم لم يتركوا ما تركوا من الشام لسيف الدولة كرامة ولا حبا ، وإنما نفاهم عنها نفيا . ثم يختم القصيدة ببيت ما أرى إلا أنه قصد به إلى معز الدولة ؛ فرماه بأنه يقيم ملكه على اللؤم والكفر . على حين يقيم سيف الدولة ملكه على ابتغاء مرضاة الله .

فإذا كانت سنة اثنتين وأربعين ؛ وقال المتنبى لاميته الرائعة ، التى أطلنا الحديث عنها فى الفصل الماضى عرض لمنافسى سيف الدولة بهذين البيتين اللذين كان لهما أبعد الأثر فى حياة المتنبى من الناحية السياسية والأدبية جميعا ، وهما قوله :

فَدَتْكَ مُلوكٌ لم تُسَمَّ مَواضيا
فإنَّكَ ماضى الشَفْرَتينِ صَقِيلُ
إذا كانَ بَعضُ الناسِ سَيْفاً لِدَولةٍ
فَفى الناسِ بُوقاتٌ لها وَطُبُولُ

ومعز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين ، ما أشك فى ذلك . فهو قد لقب بلقب يضاف إلى الدولة ، ولكنه ليس ماضيا ولا عضبا ، وإنما هو لفظ ضخم لا يغنى شيئا ، والبيت الثانى صريح فى ذلك ؛ فقد جعل المتنبى أمير حلب سيفا للدولة يحميها ويذود عنها ، على حين أن منافسه فى بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول .

وقد كان أثر هذا البيت عميقا جدا فى الشرق الإسلامى كله ، وفى بغداد خاصة . فقد ذكر هذا البيت حين وصل المتنبى إلى بغداد فى آخر حياته ، وعيب عليه فيها وفى غيرها من بلاد الشرق الإسلامى ، وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد عابه الصاحب بن عباد .

والغريب أن النقاد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة فى إنكار هذا البيت فعابوه ، مع أنى لا أعرف هجاء أقذع ولا أوجع ، ولا سهما أنفذ من هذا البيت الذى هو عندى من روائع المتنبى .

وفى هذه السنة نفسها عاد المتنبى إلى هذا النحو من الكلام ، ولكنه خالف ما كان قد مضى عليه من رأى وسنة ، بأمر سيف الدولة فى أكبر الظن . فقد كان المتنبى إلى الآن يوقر الخليفة ولا يعرض له بالسوء . فأما فى هذه القصيدة التى أنشدها سيف الدولة ، فى ميدان حلب عند عرض الجيش ، وهما على فرسيهما ، مهنئا له بعيد الأضحى ، فإنه يهاجم الخليفة تصريحا لا تلميحا ، ويرسل إليه نذيرا لا لبس فيه . وذلك حيث يقول :

فَوَا عَجَبا مِنْ دَائِلٍ أَنْتَ سَيْفُهُ
أما يَتَوَقَّى شَفْرَتَىْ مَا تَقَلَّدَا
وَمَنْ يَجْعَلِ الضِرْغَامَ لِلصَيدِ بازَهُ
تَصَيَّدَهُ الضِرْغَامُ فيما تَصَيَّدَا

رَأَيتُكَ مَحْضَ الحِلمِ فى مَحْضِ قُدْرَةٍ
ولو شِئْتَ كانَ الحِلمُ مِنْكَ مُهَنَّدَا
ومَا قَتلَ الأَحْرَارَ كالعَفْوِ عَنْهُمُ
وَمَنْ لَكَ بالْحُرِّ الذى يَحْفَظُ اليدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ
وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللئِيمَ تمرَّدَا
وَوَضْعُ النَدَى فى مَوْضعِ السَّيفِ بالعُلا
مُضِرٌّ كوَضعِ السَّيفِ فى مَوْضعِ النَدَى
ولكِنْ تَفُوقُ النّاسَ رَأْيًا وَحِكْمَةً
كما فُقتَهُمْ حالاً وَنَفْسًا وَمَحْتِدا
يَدِقُّ على الأفْكارِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ
فَيُتْرَكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخَذُ ما بَدَا

فهو كما ترى صريح لا يعرض ولا يورى ، وإنما يسخر من الخليفة الذى يتقلد سيفا ، ويوشك أن يقتله ، ويرسل للصيد جارحا ، ويوشك أن يصيده ، وهو يغرى سيف الدولة بهؤلاء الذين عفا عنهم فأبطرهم العفو وأمهلهم فغرهم الإمهال

واصطنع معهم الحلم فظنوه عجزا وآثرهم بالكرامة فتلقوه باللؤم والجحود . وهو يعجب من أناة سيف الدولة وحلمه ويحذره مع ذلك عاقبة ذلك الحلم وهذه الأناة ، ويثق برأيه آخر الأمر فى كلام يملؤه الوعيد .

وبعد أن أنشد هذه القصيدة بوقت قصير فى سنة ثلاث وأربعين بالضبط ، أدخل سفراء الروم على سيف الدولة وأنشده المتنبى رائيته التى ذكرناها آنفا ، وقال فيها هذين البيتين :

قد استَراحَتْ إلى وَقتٍ رِقابُهُمُ
منَ السُيوفِ وباقى القَومِ يَنتظرُ
وقد تَبدّلها بالقَومِ غَيرَهُمُ
لكى تجمَّ رُؤُوسُ القَومِ والقَصَرُ

فلمن هذه الرقاب التى أينعت وحان قطافها ، ويوشك سيف الدولة أن يكون صاحبها أثناء ابقائه على الروم . أهى رقاب أهل بغداد ؟ أهى رقاب أهل الفسطاط ؟ أم هى رقاب الكلابيين الذين ثاروا بسيف الدولة وأدبهم فى نفس هذا العام .

وفى آخر قصيدة أنشدها المتنبى بحلب قال هذه الأبيات التى لا شك فى أنه لم يرد بها إلا أهل العراق :

أَلْهَى المَمالِكَ عن فَخرٍ قَفَلتَ بهِ
شُرْبُ المُدامةِ والأوتارُ والنَغَمُ
مُقلَّداً فوقَ شُكرِ اللهِ ذا شُطَبٍ
لا تُستَدامُ بأَمضى مِنهما النِعَمُ
أَلْقَتْ إليْكَ دِماءُ الرُومِ طاعَتَها
فَلَوْ دَعَوْتَ بلا ضَرْبٍ أَجَابَ دَمُ

ثم خرج المتنبى من حلب مغاضبا ، وأقام عند كافور ما أقام وعاد إلى العراق . واستأنف سيف الدولة بره به وعطفه عليه ، فأنفذ إليه هدية ، وشكر المتنبى هذه الهدية فى لاميته المشهورة التى قال فيها معرضا ومصرحا وغير حافل بمكانه من العراق وقربه من أولى الأمر فى بغداد :

لَيْسَ إلاّكَ يا عَلِيُّ هُمامٌ
سيفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ
كيفَ لا تَأْمَنُ العِراقُ ومِصْرٌ
وسَرَاياكَ دُونَهَا والخُيُولُ

لو تحرَّفْتَ عن طَرِيقِ الأعادِى
رَبَطَ السِدْرُ خَيْلَهُمْ والنَخِيل
ودَرَى مَنْ أعَزَّهُ الدَّفْعُ عَنـهُ
فِيهِمَا أنّهُ الحَقِيرُ الذَلِيـلُ
أَنْتَ طُولَ الحَياةِ لِلرُّومِ غازٍ
فَمَتى الوَعْدُ أَنْ يكُونَ القُفُولُ
وسِوَى الرُومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ
فَعـلَى أَىِّ جَانبيْكَ تَميلُ
قَعَدَ النّاسُ كلُّهُمْ عَنْ مَساعِيهِ
كَ وقامَتْ بهَا القَنا والنُصولُ
ما الّذِى عنـدَهُ تُدَارُ المَنَايا
كالّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَمُولُ

وهذا البيت الأخير سهم صائب قد أرسل مباشرة إلى صدر صاحب الأمر فى بغداد .

وفى آخر سـنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة تلقى المتنبى من سيف الدولة كتابا بخطه يسأله المسير إليه فأرسل إليه بائيته

المشهورة وقال فى آخرها :

أرَى المُسلِمِينَ مَعَ المُشرِكِي
نَ إمَّا لِعَجْزٍ وإمَّا رَهَبْ
وأَنتَ مَعَ اللهِ فى جانِبٍ
قَليلُ الرُّقادِ كثيرُ التَعَبْ
كأنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدتَهُ
وَدانَ البَرِيَّةُ بابنٍ وأَبْ
فَليتَ سُيُوفَكَ فى حاسِدٍ
إذا ما ظَهَرْتَ عَليهم كَئِبْ
وَليتَ شَكاتَكَ فى جِسْمِهِ
وَليتَكَ تَجزِى بُبُغْضٍ وحُبْ

فهو كما ترى يكاد يقصر الإسلام على سيف الدولة لكثرة ما يجاهد الروم فى سبيله ، ويكاد يرمى المسلمين المنافسين له بالنصرانية لكثرة ما قصروا عن هذا الجهاد . ومن عسى أن يكون هذا الحاسد الذى يعرض به المتنبى ولا يسميه ؟ أتراه يقصد إلى كافور ؟ أم تراه يقصد إلى معز الدولة ؟

والغريب أنه ينفذ هذه القصيدة إلى صديقه القديم فى الوقت الذى يتهيأ فيه ليمعن فى الشرق الإسلامى زائرا لابن العميد ، ثم لعضد الدولة .

ومهما يكن من شىء فقد يكشف التاريخ لنا يوما عما كان لهذا الشعر السياسى من أثر فى علاقات هؤلاء الأمراء من المسلمين ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أننا نعرف ما كان له من أثر فى حياة المتنبى نفسه حين قصد إلى كافور وحين لجأ إلى العراق .

٩

وفن آخر قال فيه المتنبى لسيف الدولة شعرا كثيرا ، ولـكنى أمر به دون أن أقف عنده ، لأنه فيما أرى لا يكاد يستأهل عناية أو درسا ، وهو عندى أسخف ما قال المتنبى لسيف الدولة من الشعر . وهو قد قال مثله للأمراء الذين اتصل بهم وعاش فى ظلهم ، وقد رأيت أطرافا مما قال من ذلك لعلى بن إبراهيم التنوخى ، ولبدر بن عمار ، وللأمير الاخشيدى ، ولأبى العشائر .

وهو هذا الشعر الذى ينزل فيه الشاعر عن كرامته دائما ، وعن مروءته أحيانا ، ويبيع فيه فنه لمولاه بيعا دنيئا .

أريد به شعر المناسبات الذى يقوله الشاعر مدفوعا إليه بالتملق مرة ، وبالخوف مرة أخرى ، وبالمناسبة مرة ثالثة ، وبالطاعة رابعة على هذا النحو .

وكان الأمراء فى هذا العصر قساة على شعرائهم فيما يظهر يكلفونهم ما يطيقون وما لا يطيقون ، ينتظرون منهم المدح

حين ينشطون له ، وحين يفترون عنه . ويريدونهم على أن يقولوا لهم الشـــعر فيما يستحق وما لا يستحق أن يقال الشعر فيه .

وكان الشعراء طيعين مذعنين أذلة يدفعهم إلى ذلك الرغب والرهب جميعا . وقد رأيت كيف أبطأ المتنبى عن مدح الاخشيدى الشاب ، فعاتبه فى هذا الإبطاء ، واضطر الشاعر البائس إلى الاعتذار ، وكذلك فعل سيف الدولة . فاستبطأ مدح شاعره حينا ، وتعلل عليه أحيانا ، واقترح عليه غير مرة موضوعات يقول فيها الشعر ارتجالا ؛ منها القيم ، ومنها السخيف . وكان المتنبى البائس يذعن للأمر فيوفق مرة ، ويخطئه التوفيق مرات . فهـــذا بيت للعباس بن الأحنف يطلب منه أن يجيزه ، وهذا بيت آخر للعباس الصـــولى يطلب منه أن يجيزه أيضا ، وهذا المؤذن يدعو إلى الصلاة فيدرك الأمير وفى يده الكأس ، ولا بد للمتنبى من أن يقول فى ذلك شعرا وإلا سبقه غيره من الشعراء المنافسين إلى رضا الأمير وحبائه ، وهذا سحاب يسقط والأمير فى بعض أسفاره ، فلا بد للمتنبى من أن يفضل سيب الأمير على فيض السحاب ،

وهذه خيمة الأمير تعصف بها الريح فتسقط فيتشاءم الأمير ، ويتحدث بذلك الناس ، ولا بد للمتنبي من أن يعتذر عن هذه الخيمة البائسة التي عصفت بها الريح ، ومن أن يتأذن للأمير بأن هذه الحادثة آية من الله تؤذن بنصره القريب ، واعتراف من الخيمة بأن شخص الأمير أضخم وأعظم وأرفع من أن تظلله الخيام .

والأمير مريض فيجب أن يرثي الشاعر له ويشفق عليه ، ويتمنى له الشفاء . وقد شفي الأمير ، فيجب أن يهنئه الشاعر ويتمنى له مزيدا من العافية وفضلا من طول البقاء .

وقد قلت إني لا أحفل بهذا الشعر ولا أطيل عنده الوقوف ، ولكني أحب مع ذلك أن أنبه من يقرأ شعر المتنبي ، ويدرس حياته ، إلى أن لهذا الشعر السخيف خطرا عظيما من ناحيتين :

الأولى : الناحية الفنية الخالصة . فأكثر هذا الشعر كان يرتجل ارتجالا ، ولا يتهيأ الشاعر له ولا يعنى به . وهو من هذه الجهة يصور طبع الشاعر كما هو دون أن يعمل

فيه الاحتفال لقول الشعر ، والتهيؤ لنظم القصيد .

وكان طبع المتنبى كما يصوره هذا الشعر الذى قاله لسيف الدولة ولغيره ، سمحا سهلا خصبا يواتى صاحبه فى غير مشقة وقد يغمره حتى يشرف به على الغرق . وليس من شك فى أن المتنبى لم يحتفظ من فيض هـذا الطبع الخصب إلا بأقله وترك أكثره يذهب به الزمان .

كان طبع المتنبى خصبا ، ولـكنه لم يكن صافيا دائما ، وكان ذوق المتنبى حسـنا ، ولـكن بشرط أن يتهيأ للنقد ويشفق من الناقدين . فأما إذا أرسل الشاعر نفسـه على سجيتها ، فقد كان شعره يتدفع تدفع السيل ويحمل كثيرا من الفساد .

والناحية الثانية : أن هذا الشعر كان موضوع التنافس بين الشعراء والتسابق بين الندماء . كلهم يريد أن يكثر منه ويجيد فيه ليظفر بما يحرص عليه من رضا الأمير ونائله . وكان أعظمهم حظا من هـذا الظفر ، محسدا بمـا ينال من الرضا والمال ، وكان المتنبى من غير شك أخصب الشـعراء الذين لزموا سيف الدولة ، وأغزرهم مادة ، وأسرعهم بديهـة ،

وأسبقهم إلى عطف الأمير ومثوبته . فإذا أضفنا إلى هذا تفوقه الذى لاشك فيه حين كان يلقى قصائده الرسمية فى الحفل ، لم يصعب علينا أن نفهم ما أحاط بالمتنبى منذ اتصل بسيف الدولة من كيد ومكر وحسد ، نغص عليه حياته فى كثير من الأوقات ، وعرض صلته مع سيف الدولة للخطر يوما ما ، ثم عرض حياة المتنبى نفسها للخطر حينا ثم انتهى بما لم يكن بد من الانتهاء إليه ، وهو القطيعة بين الشاعر والأمير .

١٠

وليس العجيب ، وقد عرفت ما كان بين سيف الدولة والمتنبى من صلة ، أثناء هذه الأعوام الطوال التى اصطحبا فيها ، أن تفسد حياة المتنبى عند الأمير من حين إلى حين ، وإنما العجيب أن تسلم وتستقيم وتبرأ من الاضطراب والفساد وقد رأيت أن المتنبى لم يأمن حسد الحساد حين اتصل بالتنوخيين فى شبابه ، فاضطر إلى أن يدافع عن نفسه ورأيت كذلك أنه لم يأمن الحسد والكيد عند بدر ، فاضطر إلى الهرب والفرار . ورأيت أيضا أنه لم يأمن الكيد والدس عند أبى العشائر ، ولكنه ثبت للكائدين والدساسين وأخذهم بالقوة والحزم ، وظهر عليهم حتى اتصل بسيف الدولة .

وهذا يفسر ما قدمناه من أنه لم يلق بنفسه على أمير حلب إلقاء ، وإنما سعى إليه راغبا فيه ، محتاطا منه ، فلما أنشده ميميته المعروفة لم يتهالك فيها ، وإنما وقف موقف الحذر المعتز بنفسه ، وأقدم إقدام المهاجم لخصومه

المخوف للذين لم يعرفوه بعد ، حتى إذا كاد ينتهى من قصيدته قال مهاجما للشعراء فى غير ريث ولا مهل ولا ظرف :

غَضِبْتُ لهُ لَمَّا رأَيتُ صِفاتِهِ
بلا واصفٍ والشِعر تَهْذِى طَماطِمهُ
وكُنْتُ إذا يممتُ أرضاً بَعيدةً
سَرَيتُ فكُنتُ السِرَّ والليلُ كاتمهُ

فهو إذن قد دخل القصر على أصحاب سيف الدولة غازيا لا ضيفا ، واتصل بحاشية الأمير مخاصما لا مسالما .

والرواة يقولون ، كما عرفت ، إنه اشترط لنفسه قبل أن يلزم الأمير ، وأن الأمير قبل شروطه ، ثم لم يلبث أن ملك قلب الأمير واستأثر بحبه ومودته ، فليس غريبا أن تكره حاشية الأمير ، ولا سيما الشعراء والأدباء من بينها ، مقدم الشاعر وما صحبه من تهجم واستعلاء . وليس غريبا أن تضيق بالشاعر أشد الضيق حين ترى أن شعره يقع من الأمير موقعا حسنا ، ثم تبغضه أشد البغض حين ترى الأمير يؤثره أشد الإيثار . وهى مكرهة على أن تظهر الصمت

عن هذا الشاعر الوقح الذى يسوءها فى نفسها وفى مكانتها من صاحب القصر . ثم يستأثر من دونها بالحظوة ، ثم يرتفع عنها فيما يمنح الأمير من الجوائز والعطاء . ثم يلزم الأمير بعد ذلك لزوم الظل حين يظعن وحين يقيم . ثم هو بعد هـــذا كله لا يزداد إلا طموحا وجموحا ، وإلا علوا واستكبارا . وكلما أحس حب الأمير له وتقريبه إياه ازداد ازدراؤه لغيره ، واحتقاره لكل من سواه .

ثم هو لا يكاد يقول شعرا حتى يمتلئ به غرورا وكبرا ولا يدع لشعره أن يرفع نفسه على الشعر كله ، وأن يرفع صاحبه على الشعراء جميعا ، وإنما يرفع شعره ونفسه بهذا البيت وذاك ، يدسه فى هـذه القصيدة أو تلك . وهو لا يكتفى برفع نفسه والفخر بها ، ولكنه لا يرفع نفسه إلا جد فى وضع غيره ، ولا يحمد شعره إلا ذم شعر الشعراء الآخرين .

وهو كما عرفت لم يستطع أن يقيم عند بدر إلا أشهرا ثم انهزم للكائدين ، ولم يطل مقامه عند أبى العشائر ، ولم تظهر نتيجة الخصومة بينه وبين أعدائه عند هذا الأمير قبل

أن يتصل بسيف الدولة ، وكان من الجائز ألا تطول إقامته عند سيف الدولة ، وأن يفسد الأمر عليه بعد عام أو عامين بتأثير هذه الأخلاق والخصال التى قدمناها ، وما تستتبع من الكيد له والتألب عليه . ولكنه أقام عاما وعاما وعاما ثالثا ، والحاشية تنكره وتضيق به ، وتبغضه وتكيد له ، وهو ثابت لا يتزعزع ، ومستقر لا يزول .

والأمير يرفعه ويدنى منه مكانه ، ويؤثره على غيره من الشعراء والندماء ، فلا تزداد الحاشية إلا ضيقا به ، وكيدا له ، حتى إذا كانت الموقعة التى انتصر فيها سيف الدولة انتصارا باهرا أول الأمر ، وانهزم فيها آخر الأمر انهزاما منكرا ، وقال المتنبى عينيته التى يعزى بها الأمير وينذر بها الروم ، كان شديد الوطأة على الجند الذين تفرقوا عن الأمير وانهزموا للروم ، فقد وصفهم بالضعف والجبن والذلة . واستيأس منهم أو كاد يستيئس ، وأيأس الأمير منهم أو كاد يوئسه .

وليس من شك فى أن كثيرا من الأشراف الذين انهزموا فى تلك المعركة لم يقع من نفسهم ما قاله المتنبى موقعا

حسنا ، فأنكروه وكرهوه ، وانتهز أعداء المتنبى وحساده هذه الفرصة ، فسعوا به ، وألبوا عليه ، وكثر كلام الناس فى المتنبى ، واجترأ بعض الشعراء على أن يجاهره بالعداوة بعد أن كان يسر له البغضاء ويدبر له الكيد .

ولسنا نعرف تفصيل ما حدث من هذا كله ، ولكنا نلاحظ أن المتنبى حين هنأ سيف الدولة بأخذ الثار من الروم وانتصاره عليهم سنة أربعين وثلاثمائة ، يقول فى داليته المشهورة :

خَلِيلَيَّ إنى لا أَرى غَيْرَ شاعرٍ
فَكَمْ مِنهُمُ الدَعوى ومِنّى القصائِدُ
فَلا تَعجَبا إنَّ السُيُوفَ كَثيرةٌ
ولكِنَّ سَيفَ الدَولةِ اليَومَ واحِدُ

فهناك إذن شعراء يدعون الشعر ويكاثرون فيه المتنبى . والمتنبى يصوب إليهم هذا السهم النافذ ، فيرى أنه الشاعر وأنهم الأدعياء ، ويرى أن قصائده هى الشعر ، وأن جهود غيره لا تتجاوز أن تكون دعوى لا طائل تحتها . فكما أن

السيوف كثيرة ، ولكن سيف الدولة واحد ، هو الأمير .
فالناظمون كثيرون ، ولكن الشاعر واحد هو المتنبى .

ثم يمضى المتنبى فى مدح الأمير ، ولكنه يعود إلى هؤلاء الحساد والكائدين فيقول :

أُحِبُّكَ يا شَمْسَ الزمانِ و بَدْرَهُ
و إنْ لامنى فِيكَ السُّها والفراقدُ

وَذَاكَ لِأَنَّ الفَضْلَ عِندكَ باهرٌ
ولَيْسَ لِأَنَّ العَيْشَ عِنْدَكَ بارِدُ

فإنَّ قَلِيلَ الحُبِّ بالعقلِ صالحٌ
و إن كثيرَ الحُبِّ بالجهلِ فاسِدُ

فهو فى البيتين الأولين من هذه الأبيات الثلاثة يعرض لسيف الدولة فى لباقة وظرف ، بأن أمراء غيره يلومونه فى الانقطاع لصاحب حلب ، ومنهم مرتفع القدر ومعتدله . ولكنه لا يحفل بلوم هؤلاء الأمراء ، ولا يستجيب لإغرائهم لا إيثارا لما يمنحه الأمير من لين العيش وخفضه بل إكبارا لفضل الأمير ومجده ، وتفوقه على غيره من الأمراء .

أما البيت الثالث ، ففيه إنذار لخصومه والساعين به عند الأمير ، وإنذار للأمير نفسه ، لأن هؤلاء الذين يظهرون الغلو فى حب الأمير والتهالك عليه ، قد يحتاجون إلى كثير من العقل ، لأن غلوهم وتهالكهم ربما أساء إلى الأمير ، على حين أن الاعتدال فى الحب مع العقل ، والنصح خير كله .

ومعنى هذا أن خصوم المتنبى لم يكتفوا بالجهر بعداوته ، ولكنهم سعوا عند الأمير ، وكأن الأمير قد أخذ يسمع لهم ، أو كأنهم قد أملوا فى الأمير أن يميل إليهم .

فالمتنبى يصارح خصومه بالعداوة ، ويعرض للأمير بالنذير تعريضا . ولسنا ندرى ماذا حدث بعد ذلك ، ولكنا نرى الرواة يتحدثون بأن خصوم المتنبى قد اجترءوا على مجاهرة الأمير بالنعى عليه والطعن فيه ، حتى أنكر أبو فراس أن يعطيه الأمير ثلاثة آلاف دينار فى كل عام أجرا على ثلاث قصائد .

ويظهر أن المتنبى قد أحس انصراف الأمير عنه وتقريبه لبعض خصومه ، فأراد أن يجزى أعراضا بأعراض ،

وأبطأ فى مدح الأمير . ثم أنكر الأمير منه هذا الإبطاء ، فلم ينشط للمدح ونشط غيره للكيد . ثم أظهر الأمير غضبه فأعرض عن المتنبى ذات يوم بمحضر من الناس . وعاد المتنبى خجلا كئيبا قد أسقط فى يده ، وأراد أن يستدرك أمره فأرسل إلى الأمير هذه الأبيات :

أَرَى ذٰلِكَ الْقُرْبَ صَارَ ازْوِرَارًا
وَصَارَ طَوِيلُ السَّلَامِ اخْتِصارا

تَرَكْتَنِي اليَوْمَ فى خَجْلَةٍ
أَمُوتُ مِرَارًا وأَحْيا مِرَارا

أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِيًا
وأَزْجُرُ فى الخَيلِ مُهرِى سِرارا

وأَعْلَمُ أَنِّى إذا ما اعتَذَرْتُ
إِلَيْكَ أَرَادَ اعْتِذارِى اعْتِذارا

كَفَرْتُ مَكارِمَكَ الباهِرا
تِ إِنْ كانَ ذلِكَ مِنِّى اختِيارا

ولٰكِنْ حَمَى الشِّعْرَ إِلاّ القَلِيـ
ـلَ هَمٌّ حَمَى النَوْمَ إِلاّ غِرَارا

وَمَا أَنا أَسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ
ولا أَنا أَضْرَمْتُ فى القلْبِ نار

فلا تُلْزِمَنِّى صُرُوفَ الزَّمانِ
إِلىَّ أَساءَ وإِيَّاىَ ضـــارا

وعِنْدِى لَكَ الشَّرَّدُ السائرَا
تِ لا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأَرضِ دارا

قَوافٍ إِذا سِرْنَ عن مِقْوَلِى
وَثَبْنَ الجِبالَ وخُضْنَ البِحارا

وَلِى فيـكَ ما لم يَقُلْ قائِلٌ
وما لم يَسِرْ قَمَرٌ حَيثُ سارا

... ... الخ الخ

فالشاعر كما ترى يسجل إعراض الأمير عنه ، وغضبه عليه ، ثم يعترف بالذنب ، ثم يعتذر منه ، مؤكدا أنه لم يتعمده وإنما اضطرته إليه هموم حالت بينه وبين النوم ، ولم يثر هو هذه الهموم ، ولم يدعها إلى نفسه ، وإنما صبها عليه الزمان . وهذه الهموم من غير شك لم يثرها فى نفس المتنبى إلا خصومه

الذين سعوا به عند الأمير فأفسدوا عليه قلبه ، وأفسدوا عليه القصر ، ولعلهم أفسدوا عليه البيئة كلها فى حلب .

ثم يتحدث المتنبى إلى الأمير بأنه لم يقل فيه كل ما يجب أن يقال ، وبأن عنده له شعرا جيدا كثيرا . ثم تثوب إلى الشاعر عزته بعض الشىء ، فيذكر الأمير بما قال فيه من شعر ، سار بحيث لم يستطع القمر أن يسير .

ثم يتم الأبيات مادحا مستعطفا ، ولكن الأمير فيما يظهر لم يقبل منه ولم يعطف عليه . وأدار المتنبى أمره فلم ير إلا أن يفجأ خصومه ويلقاهم وجها لوجه ، ويسترد قلب الأمير عنوة واقتدارا ، فيسعى ذات يوم إلى القصر وينشد الأمير بمحضر من خصومه جميعا ، وعلى رأسهم أبو فراس ميميته الرائعة الخالدة التى أولها :

واحَرَّ قلباهُ مِمَّنْ قلبهُ شَبِمُ
ومَنْ بِجِسْمِى وَحالِى عِندَهُ سَقَمُ

وكلام القدماء والمحدثين فى هذه القصيدة أكثر وأغزر وأشد اختلافا وتنوعا من أن نقول فيها فان نأتى بجديد .

ولكنا نلاحظ مسرعين أن المتنبى قد وفق فيها إلى

حظ لا بأس به من الإجادة الفنية سلك طريق ابن الرومى فألح فى العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء ، وأسرف فى المدح ليصلح ما أفسد بالعتاب ، فكان يجرح بيد ويأسو بأخرى . ولم يقصر الأمر على ما بينه وبين سيف الدولة ، وإنما تجاوزه كما كان المقام يقتضى إلى السعاة والوشاة والحاسدين والكائدين ، فصارحهم بالشر مرة ، وعرض لهم بالنكر مرة أخرى .

ولست فى حاجة إلى أن أروى أو ألخص القصة التى تحدث القدماء بها عن الإنشاد ، وما كان من ثبات المتنبى لهذا كله وإعراضه عن هؤلاء الخصوم ومضيه فى الإنشاد . وسيف الدولة يسمع معرضا مطرقا حتى أتم قصيدته وانصرف .

وليس من شك فى أن هذه القصة قد ألفت تأليفا فى وقت متأخر ، ولكنها على كل حال تعطى ظلا لما كان فى مجلس سيف الدولة حين أنشدت هذه القصيدة .

والشىء الذى لا شك فيه أيضا هو أن المتنبى إن وفق إلى إرضاء الفن فى هذه القصيدة فقد أخطأه التوفيق إلى إرضاء سيف الدولة ، ولعله غاظ سيف الدولة أكثر مما

أرضاه ، ولا سيما حين أنذر بأنه قد يرتحل إلى مصر فى البيت الذى سار مسير الأمثال :

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عن مَيامِنِنا
لَيَحدُثَنَّ لِمَن وَدَّعتُهُمْ نَدَمُ

ومهما يكن من شىء فقد اضطرب المجلس لإنشاد هذه القصيدة ، واشتد غضب الحاشية حتى انتهى إلى أقصاه حين رأت موجدة الأمير على هـذا الشاعر الذى أراد العتاب فتحدى ، ورغب فى الاستعطاف فانتهى إلى الوعيد والنذير .

وقد خرج المتنبى من هـذا المجلس آمنا كالخائف وخائفا كالآمن ، وترك وراءه بغضا وغيظا وحنقا . ويحدثنا الديوان بأن كاتبا من كتاب الأمير ، عراقيا ، استأذن الأمير فى أن يسعى فى ذم الشاعر فرخص له الأمير فى ذلك ، وانتهى ذلك إلى المتنبى فقال يهجوه :

أَساعَرِيُّ ضُحْكَةَ كُلِّ رَاءٍ
فِطِنْتَ وكنتَ أَغبَى الأغبياءِ
صَغُرْتَ عَنِ المديحِ فقُلتَ أُهْجَى
كأنَّكَ ما صَغُرتَ عَنِ الهِجاءِ

وما فَكَّرتُ قَبْلَكَ فى مُحالٍ
ولا جَرَّبتُ سَـــيفى فى هَباءِ

على أن الأمر لم يكن فيما يظهر من اليسر بحيث ظن المتنبى . فقد تعرضت حياته للخطر حقا . وكيف لا تتعرض للخطر وهو قد ملأ القلوب غيظا وحفيظة ، وعرض بالأشراف من حاشية الأمير ، وعلى رأسهم أبو فراس ، ومكانه من الأمير مكانه . ثم لم يكتف بذلك ، بل أنذر الأمير نفسه بالتحول عنه إلى عدوه من المصريين ، وكانت أخت أبى فراس عنـد أبى العشائر الذى حمى المتنبى حين جاءه لاجئا إليه عائذا به وقدمه إلى سيف الدولة ففتح له بابا إلى الأمل ثم إلى النعيم .

ولم يكن المتنبى حسن الوفاء لأبى العشائر ، فهو لم يكد يتصل بسيف الدولة حتى أعرض عن غيره من النـاس ، ونسى أبا العشائر نسيانا تاما ، فلم يذكره ولم يشر إليـه . وكان الرجل خليقا أن يلقى من صنيعتـه بعض الشكر على ما قدم إليه من إحسان . فكان هذا كله ميسرا لشىء من الحلف الذى تم بين أبى العشائر وأبى فراس وأصحابه على قتل المتنبى غيلة إذا لم يكن من اليسير قتله جهرة فى غير ذنب

واضح يبيح دم رجل من المسلمين .

وكذلك تعرض المتنبى ذات ليلة فى ظاهر حلب لجماعة من الغلمان أرصدهم أبو العشائر ليقتلوه ، ولكنه أحسن الدفاع عن نفسه ثم نجا ، وكأنه لجأ إلى صديق له من ذوى المكانة فى حلب فأجاره وأخفاه ، وجعل يسعى له فى العفو عند الأمير . وجعل المتنبى نفسه وقد ثاب إليه رشده وسكت عنه الغضب ، يعين مجيره على السعى له فى العفو . فقال هذه الأبيات يعتب فيها على أبى العشائر ويصالحه :

ومُنْتَسَبٍ عِنْدِى إِلَى مَنْ أُحِبُّهُ
وللنَبْلِ حَوْلِى مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ

فَهَيَّجَ مِنْ شَوقِى وما مِنْ مَذَلَّةٍ
حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ

وكلُّ وِدَادٍ لاَ يَدُومُ عَلَى الْأَذَى
دَوَامَ وِدَادِى لِلْحُسَينِ ضَعِيفُ

فإِنْ يكُنِ الْفِعْلُ الذى سَاءَ واحِدًا
فأَفْعالُهُ اللاَّئى سَرَرْنَ أُلُوفُ

ونفسي لهُ نَفْسي الفِدَاءُ لِنَفْسِهِ
ولكِنَّ بَعْضَ المالِكِينَ عَنِيفُ
فإِنْ كانَ يَبغِي قَتْلَها بِكَ قَاتِلاً
بِكَفَّيْهِ فالقَتْلُ الشَرِيفُ شَرِيفُ

وكأن سيف الدولة أظهر استعدادا حسنا للعفو عن الشاعر إذا اعتذر من ذنبه ، وتاب جهرة من خطيئته ، فلم يتردد المتنبى فى أن يجهر بالاعتذار ويعلن التوبة .

فقال هذه الأبيات :

أَلاَ مَا لِسَيفِ الدولةِ اليومَ عاتِبا
فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السُيُوفِ مَضارِبا
ومَالِي إِذَا مَا اشْتَقْتُ أَبصَرْتُ دُونَهُ
تَنائفَ لا أَشْتَاقُها وسَباسِبا
وقد كانَ يُدْنِي مَجلِسِي من سَمائِهِ
أُحادِثُ فيها بَدْرَها والكواكِبا
حَنانَيْكَ مَسؤولاً ولبَّيْكَ داعِياً
وحَسْبِيَ مَوهُوباً وحَسبُكَ واهِبا

أهذا جَزاءُ الصِّدْقِ إنْ كنتُ صادِقاً
أهذا جَزاءُ الكِذْبِ إن كنْت كاذِبا
وإنْ كان ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فإنَّهُ
مَحا الذنْبَ كُلَّ المحوِ مَن جاءَ تائبا

وقد عفا الأمير عن شاعره فكف عنه خصومه وآمنه على حياته وأذن له فى العودة إلى القصر . فلما عاد المتنبى للقاء الأمير أحسن أهل القصر استقباله ، فخلعوا عليه وهيئوه للدخول على الأمير تهيئة حسنة . ثم أدخل على الأمير فتلقاه لقاء فيه العطف والبر والمودة . وأعاد المتنبى اعتذاره وأعلن الأمير عفوه ، وخرج الشاعر من القصر تتبعه الهدايا والصلات ، ثم عاد بعد حين فأنشد الأمير لاميته التى أولها :

أَجابَ دَمْعِى وما الداعى سوَى طَلَلِ
دَعا فلبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ والإبلِ

ولا أقف عند هذه القصيدة فهى لا تعجبنى وإن أعجبت المعاصرين وأرضت سيف الدولة كل الرضى . إنما أروى هذا البيت السخيف السمج الذى تعمده المتنبى تعمدا

ليغيظ خصومه ، ويظهر براعته من جهة وابتهاجه بعودته إلى أرض الأمير من جهة أخرى :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وقد أعجب الناس بهذه القصيدة حين أنشدت وطرب لها سيف الدولة ، فأجزل عطاء الشاعر لهذا الفوز حتى كاد يخرج عن طوره . فقال معجبا تياها مسرفا فى تحدى خصومه :

إنّ هذا الشِّعْرَ فى الشِّعْرِ مَلَكْ
سارَ فَهْوَ الشمسُ والدُنيا فَلَكْ
عَدَلَ الرحمنُ فيـــهِ بَيْنَنا
فَقَضَى باللّفظِ لى والحَمْدِ لَكْ
فإذا مَرَّ بِأُذْنَىْ حاسِـــدٍ
صارَ مِمَّنْ كانَ حَيًّا فهَلَكْ

على أن المتنبى قد غلا فى الثقة ، وأسرف فى ازدراء الخصوم ، وتجاوز الحد فى حسن الظن بالأيام . فلم تطرد

حياته حلوة آمنة عند سيف الدولة . وما هى إلا أشهر حتى عاد الكيد له سيرته الأولى ، وكثر الطعن فيه واللهج به ، واضطر إلى أن يدافع عن نفسه ، ويهاجم حساده فى أكثر ما قال لسيف الدولة من القصائد .

ولسنا نروى كل ما قال من ذلك ، ولكنا نروى منه نماذج .

فى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة يقول فى اللامية التى أفضنا فى ذكرها آنفا :

أَنا السابِقُ الهادِى إلى ما أَقولُهُ
إذِ القَوْلُ قَبْلَ القائِلِينَ مَقُولُ
وَما لِكلامِ النَاسِ فيما يُرِيبُنى
أُصولٌ وَلا لِلْقَائِلِيهِ أُصــــولُ
أُعادَى عَلَى ما يُوجِبُ الحُبَّ للفتى
وَأَهدَأُ والأفكارُ فِىَّ تَجُولُ
سِوَى وَجعِ الحُسَّادِ داوِ فإنّهُ
إذا حَلَّ فى قَلْبٍ فَلَيْسَ يحُولُ

وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حاسِدٍ فى مَوَدَّةٍ
وإنْ كنتَ تُبدِيها لَهُ وتُنيلُ

وفى هذه السنة نفسها يقول فى داليته المشهورة التى هنأ بها الأمير بعيد الأضحى :

أَزِلْ حَسَـدَ الحُسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ
فأَنْتَ الّذِى صَيَّرْتَهُمْ لِى حُسَّدَا
إِذَا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِكَ فيهِمِ
ضَرَبْتُ بِسيفٍ يَقْطَعُ الهامَ مُغْمَدا
وَما أَنا إلاّ سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَـهُ
فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَـدَّدَا
وما الدَّهرُ إلاّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِى
إذا قُلْتُ شِعراً أَصبَحَ الدَهرُ مُنْشِدا
فَسارَ بِهِ مَن لا يَسـيرُ مُشمِّرًا
وغَنَّى بِهِ مَن لا يُغَنِّى مُغَـرِّدا
أَجِزْنى إذا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فإنما
بِشِعْرِى أَتاكَ المادِحُونَ مُرَدَّدا

ودَعْ كلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِى فإنّنى
أنا الطائرُ المَحْكِىُّ والآخَرُ الصَّدَى

تَرَكْتُ السُرَى خَلْفى لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وأنْعَلْتُ أَفْرَاسِى بِنَعْمانَ عَسْجَدَا

وقَيَّدْتُ نَفْسِى فى ذَرَاكَ مَحَبَّــةً
ومَن وَجَـدَ الإحسانَ قيْدًا تَقيَّدَا

إذا سأَلَ الإنسانُ أَيَّامَهُ الغِـنَى
وكُنتَ عَلَى بُعْدٍ جَعَلْنَكَ مَوعِـدا

فالمتنبى إذن ماض فى استطالته على الشعراء واستعلائه على الخصوم ، لا يصطنع فى ذلك رفقا ولا أناة ولا تواضعا . وأعداؤه ماضون فى الكيد له والوقيعة به ، يصطنعون فى ذلك من المهارة ما لا يصطنع ، يخفون الكيد حين يرون إقبال الأمير على شاعره ، ويظهرونه حين يحسون من الأمير مللا أو فتورا .

فإذا أنشد المتنبى فى أوائل سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة بعد انصراف السفراء لاميته المشهورة ، قال فيها :

أَفِي كلِّ يوْمٍ تحتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ
ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِـــيرٌ يُطَاوِلُ
لِسَانِي بِنُطْقِي صامِتٌ عَنـهُ عادِلُ
وقَلْبِي بِصَمْتِي ضاحِكٌ منـــهُ هَازِلُ
وأَتْعَبُ مَن ناداكَ مَن لا تُجِيبُـهُ
وأَغْيَظُ مَن عاداكَ مَن لا تُشَاكِلُ
وما التِّيهُ طِبِّي فيهم غَيرَ أَنّنِي
بَغِيضٌ إلىَّ الجاهِـــلُ المُتعَاقِلُ
وأكثرُ تِيهِي أَنّنِي بِكَ وَاثِقُ
وأكثرُ مَالِي أَنّنِي لَكَ آمِـــلُ
لَعلَّ لسيفِ الدَوْلةِ القَرْمِ هَبَّـةً
يَعِيشُ بهـا حَقٌّ ويَهلِكُ باطِلُ
رَمَيْتُ عِـدَاهُ بالقَوَافِي وفَضْـلِهِ
وهُنَّ الغَوَازِي السالِماتُ القَواتِلُ

وواضح جدا أن صـدر المتنبى قد ضاق بخصومه كل الضيق ، فهو يعلن ذلك ويضج به ويستعين على خصومه

بالأمير . وفى هذه السنة نفسها يقول فى ميميته المعروفة :

لكَ الحَمْدُ فى الدُّرِّ الذى لِىَ لَفْظُهُ
فإنّكَ مُعْطِيهِ وإنِّىَ ناظِمُ
وإنِّى لَتَعْدُو بى عَطاياكَ فى الوَغَى
فلا أنا مَذْمُومٌ ولا أنْتَ نادِمُ
عَلَى كلِّ طيَّارٍ إليْهَا بِرِجْلِهِ
إذا وَقَعَتْ فى مِسْمَعَيْهِ الغَمَاغِمُ

وقد مضى شأن المتنبى مع خصومه على هذا النحو فى خطوب لا نعرف حقائقها ، ولكنا نلمحها من هذا الشعر وأمثاله ، حتى كانت سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وأنشد المتنبى سيف الدولة آخر ما أنشده من الشعر ، وهى الميمية التى يقول فى آخرها :

لا تطلبنَّ كَرِيماً بَعدَ رُؤْيتِه
إنَّ الكِرامَ بأسخاهُمْ يداً خُتِمُوا
ولا تُبالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شاعِرِهِ
قد أُفسِدَ القَولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

فكأن هذا البيت الأخير كان مؤذنا بانقطاع الصلة بين الشاعر وأميره ، وقد ظهر خصوم المتنبى عليه فصرفوا عنه سيف الدولة ، وتبين ذلك للشاعر واضحا جليا حين كانت الخصومة بينه وبين ابن خالويه فى مجلس الأمير ، فيخرج ابن خالويه مفتاحا من كمه فيشج به الشاعر حتى يسيل دمه فيخضب وجهه ، والأمير يرى فلا يقول ولا يصنع شيئا . ويخرج المتنبى محزونا منكسر النفس ، يكظم غيظا عنيفا ولا يستطيع أن يبين عنه مخافة أن تتكرر القصة التى مضت سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، ويرى الشاعر نفسه محصورا فى حلب أو معرضا فيها للموت .

فهو يعود إلى داره ، وقد استيأس من الأمير وأزمع الرحيل عنه ، ولكنه يتلطف فى ذلك فيمضى أياما فى هدوء ودعة واعداد لأمره سرا ، ثم يستأذن فى الذهاب إلى إقطاع له عند معرّة النعمان ، فيأذن له الأمير ، وقد علم ما دبر له ، وأراد أن يخلى بينه وبين الطريق ، أو جهل ما دبر ، وأراد أن يريحه منه ويستريح حينا وهو ما أرجحه .

ويمضى المتنبى إلى إقطاعه فى ظاهر الأمر ، وقد أرسل

إلى الأمير هذه الأبيات مبالغة فى التلطف والحيلة :

أَيا رامِيا يُصْمِى فُؤَادَ مَرامِهِ
تُرَبِّى عِداهُ رِيشَها لسهامِهِ
أَسيرُ إلى إقطاعِهِ فى ثيابِهِ
عَلَى طِرْفِهِ من دارِه بِحُسامِهِ
وما مَطَرَتْنِيهِ من البِيضِ والقَنا
ورُومِ العِدَى هاطِلاتُ غمامِهِ
فَتًى يَهَبُ الإقليمَ بالمالِ والقُرَى
ومَن فيهِ من فُرسانِهِ وكرامِهِ
ويَجعَلُ ما خُوِّلتُهُ من نَوالِهِ
جَزاءً لما خُوِّلتُهُ من كلامِهِ
فلا زَالتِ الشمسُ التى فى سَمائِهِ
مُطالِعَةَ الشمسِ التى فى لِثامِهِ
وَلا زال تَجْتازُ البدُورُ بوجهِهِ
فَتَعْجَبُ من نُقْصانِها وتَمامِهِ

وينتهى المتنبى إلى إقطاعه فلا يقيم فيها إلا ريثما يأمن

الطلب فى أكبر الظن ، ثم ينسلّ منه ويمضى أمامه حتى يخرج من حدود الحمدانيين ويدخل أرض الإخشيديين ، ويطمئن به المقام حينا فى دمشق .

وإذا هو قد ختم فصلا آخر من فصول حياته كان فيه النعيم كله ، وكان فيه شىء غير قليل من البؤس والشقاء .

وكان فيه مجده الفنىّ حقا . ومن الخطل أن نطيل القول أو أن نضيع الوقت فى البحث عن هـذه المسألة التى أثارها النقاد ومؤرخو الأدب : أيهما خلّد ذكر صاحبـه سيف الدولة أم المتنبى ؟

فلم يكن المتنبى مجهولا ولا مغمورا حين اتصل بسيف الدولة ولم يكن سيف الدولة خاملا ولا ضعيف الشأن حين عرف المتنبى ، وإنمـا كان كلا الرجلين قد فرض نفسـه على معاصريه ، ذلك بشعره ، وهذا بسيفه ، فكان لكل منهما أثر خالد فى مجد صاحبه ، وإنما أمر المتنبى مع سيف الدولة كما قال عمرو بن معدى كرب .

وَلَوْ أَنَّ قَوْمِى أَنْطَقَتْنِى رِماحُهُمْ
نَطَقْتُ وَلـكِنَّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ

غير أن رماح سيف الدولة لم تجر وإنما أنطقت الشاعر فنطق برائع الشعر وبارعه ، وكسا أميره منه حللا لا تفنى .

على أن المهم هو أن هذين الصديقين اللذين فرق بينهما الكيد والحسد لم يتح لهما بعد الفراق سلو ولا عزاء .

فقد كانت فى نفس المتنبى حسرة لفراق سيف الدولة سنرى بعض مظاهرها فى شعره حين لجأ إلى كافور .

وكانت فى نفس سيف الدولة حسرة لفراق المتنبى ، تظهر من اتصال الحديث فى مجلسه عن الشاعر ، ثم تظهر هذه الحسرة المشتركة من استئناف المودة بين الأمير وشاعره ، بعد أن أخفق المتنبى فى مصر وعاد إلى العراق .

فهذا الأمير يستأنف البرّ به ويرسل إليه الهدايا ، والشاعر يمدحه باللامية التى أولها :

ما لَنا كُلُّنا جَوٍ يا رَسُولُ
أَنا أهوَى وقَلبُكَ المَتبُولُ

ثم تموت أخت الأمير فيرثيها الشاعر بالبائية التى أولها :

يا أُخْتَ خَيرِ أَخٍ يا بِنتَ خَيرِ أَبِ
كِنايةً بِهما عن أَشْرَفِ النسَبِ

ثم يشتد شوق الأمير إلى الشاعر ، فيكتب إليه بخطه يستقدمه ، ويهم المتنبي بالسفر إليه ، وينفذ إليه بائيته التى أولها :

فَهِمتُ الكِتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ
فسَمْعًا لأمرِ أميرِ العَرَبْ

ولكنه يقول فيها :

وما عاقَنِي غَيرُ خَوفِ الوُشاةِ
وإنّ الوِشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ
وَتَكثيرِ قَوْمٍ وَتَقْليلِهِمْ
وَتَقْريبِهِمْ بيننا والخَبَبْ
وقد كانَ يَنصُرُهُمْ سَمْعُهُ
ويَنصُرُنى قَلْبُهُ والحَسَبْ
وَما قُلتُ لِلبَدْرِ أنت اللُّجَيْنُ
وَما قُلتُ للشمسِ أنتِ الذهَبْ
فيَقْلَقَ مِنهُ البَعيدُ الأناةِ
ويَغضَبَ مِنهُ البطِيءُ الغَضَبْ

وما لاَقَنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمُ
ولا اعْتَضْتُ مِنْ رَبٍّ نُعْمَاىَ رَبْ

ومَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الجَوا
دِ أَنْكَرَ أَظْلاَفَهُ والغَبَبْ

وما قِسْتَ كلَّ مُلوكِ البلادِ
فَدَعْ ذِكْرَ بَعضٍ بِمَنْ فى حَلَبْ

ولوْ كُنْتُ سَمَّيتُهُمْ بِاسْمِهِ
لكانَ الْحَدِيدَ وكانُوا الخَشَبْ

أَفِي الرَّأْيِ يُشْبَهُ أَمْ فِي السَّخَا
ءِ أم فى الشَّجَاعةِ أم فى الأدَبْ

فالمتنبى إذن يهم ولا يفعل ويعزم ولا يقدم ، يدفعه إلى الأمير الحب والوفاء والطمع والرجاء ، ويرده عنه خوف الوشاة والإشفاق من استئناف حياة يملأها الحسد والكيد . وهو آخر الأمر لا يعود إلى الأمير ، وإنما يرجئ ذلك إلى أن يشفى حاجة فى نفسه فيشفى هذه الحاجة ، ثم يعترضه الموت قبل

أن نعرف ما كان قد عزم عليه من الرجوع إلى الأمير أو الاستقرار فى العراق .

والغريب أن افتراق هذين الصديقين كان شرا عليهما جميعا فلم يوفق المتنبى فى حياته العملية إلى إرضاء نفسه بعد فراق سيف الدولة ، ولم يوفق سيف الدولة فى حياته السياسية بعد فراق المتنبى .

ألح الإخفاق على الشاعر كما ألحت العلة والفشل على الأمير ، فلندع سيرة الأمير للتاريخ والمؤرخين ولنمض مع الشاعر فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل حياته .

الكتاب الرابع

١

وهناك مسألة خليقة بالتفكير وقد يكون فى حلها ما يعين على فهم حال المتنبى فى مصر : فلماذا لجأ المتنبى إلى بلاد الإخشيديين حين فارق سيف الدولة ، ولم يلجأ إلى العراق ؟ وظاهر أن هناك جوابا يسيرا على هذه المسألة ، ولكنه جواب لا يقنع ولا يمكن الاطمئنان إليه . فقد يقال إن المتنبى لم يذهب إلى العراق لسبب جغرافى ليس غير . فهو لم يكن يستطيع أن يقصد إلى العراق من الطريق التى سلكها حين أقبل إلى الشام فى صباه ، أى من طريق الجزيرة ؛ لأن هذه الطريق كانت كلها إلى سيف الدولة وإلى أوليائه . فلم يكن له بد من أن يتخذ إلى العراق طريقا أخرى يمر فيها من غير شك ببلاد الإخشيديين . وكذلك انتهى إلى دمشق ، فلم يستطع عنها زوالا إلى طريق العراق ، بل زال عنها إلى طريق الفسطاط . وهذا الجواب كما ترى مقنع فى ظاهره ، ولكنى أعتقد أن المتنبى لو كان قد صمم على الذهاب إلى

العراق لما عدم الوسيلة إلى ذلك والحيلة فيه ، ولوجد من الأصدقاء فى مملكة الحمدانيين وفى مملكة الإخشيديين أنفسهم من يعينه على ذلك ، ويهيئ له الوسيلة إليه .

ولكن المتنبى لم يفكر فى الذهاب إلى العراق ، أو فكر فيه وأعرض عنه . بل أنا أرجح أنه قد أدار الحديث فى ذلك مع جماعة من أصحابه وأوليائه ، فنصح له هؤلاء بالعراق ، وأبى عليهم هو ، فتحولوا هم إلى العراق ، ومضى هو إلى مصر مخالفا ، ثم ندم على خلافهم ، أو أظهر مايدل على هذا الندم ، حين قال لكافور بعد ذلك بأعوام ، سنة تسع وأربعين وثلثمائة :

وَما شِئْتُ إلا أَنْ أَدُلَّ عَوَاذِلِي
عَلَى أَنَّ رَأْيِي فى هَوَاكَ صَوَابُ
وأُعْلِمُ قَوْمًا خالَفُونى فشَرَّقُوا
وغَرَّبْتُ أَنِّى قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابوا

فظاهر من هذا الكلام أن قوما من أصدقاء المتنبى وتلاميذه ضاقوا بحلب كما ضاق بها ، وهموا أن يزولوا عن ملك سيف الدولة كما هم هو أن يزول عنه ، فأجمعوا أمرهم

بينهم على الرحيل . ولكنهم أداروا رأيهم فى البلد الذى يقصدون إليه . فأما أصحابه فآثروا بغداد ، وأما هو فآثر الفسطاط .

وقد يكون من المفيد أن نعرف الأسباب التى حملت المتنبى على إيثار الغرب ، وحملت أصحابه على إيثار الشرق .

فأما أصحاب المتنبى ، وهم فى أغلب الظن من العلماء وطلاب العلم ، فلم يكن لهم من السابقة ما يصرفهم عن بغداد أو يزهدهم فيها أو يخوفهم منها ، لأنهم لم يذموا أهلها ولم يسيئوا إلى القائمين بالأمر فيها بقول أو فعل . ثم هم فى أغلب الظن عراقيون قليلا أو كثيرا ، وفدوا على حاب يطلبون فيها ما يطلبه الرجل المثقف الأديب فى بلد ناهض يكثر فيه العلم والمجد والمال ، ثم أزعجوا عنها ؛ إما لأنهم قضوا منها وطرا ، وإما لأن صروف الحياة لم تتح لهم البقاء فيها ، فآثروا أن يعودوا إلى أوطانهم على أن يتغربوا فى غير طائل . وبغداد بعد مستقر الخلافة ، ودار العلم والحكمة ، وملتقى العلماء والأدباء من جميع الأقطار الإسلامية . فلهم فى العودة إليها نفع محقق ، وليس عليهم منها بأس .

أما المتنبى فقد كان أمره مختلفا أشد الاختلاف . كان العراق وطنه من غير شك ، ولكنه ولد فى ذلك الوطن شقيا ، ونشأ فيه بائسا ، وزال عنه كارها له ، زاهدا فيه . وعاد إليه فى شبابه ، فلم يطب له فيه مقام ، فزال عنه فى المرة الثانية كما زال عنه فى المرة الأولى ، كارها له زاهدا فيه . والمتنبى لم يتح للنسيان أن يلقى بينه وبين العراق وأهله أستارا صفاقا أو رقاقا . وإنما جعل يذكر العراق بنفسه ، ويعلن إلى العراق عداوته ، ويسرف فى إعلان هذه العداوة فى جميع الأوقات ، ولا سيما أثناء اتصاله بسيف الدولة . فقد أسرف فى ذلك كما رأيت إسرافا شديدا ، فهاجم معز الدولة وهاجم الخليفة نفسه ، وآثر على ملكهما ملك هذا الأمير التغلبى ، ولم يصطنع فى ذلك حيطة ولا تحفظا . ولعله لم يكن يتمنى فيما بينه وبين نفسه شيئا كما كان يتمنى العودة إلى العراق ، ولكنه كان يعلم حق العلم أن سبيله إلى العراق غير ميسرة ، وأن مقامه فى العراق لن يكون حميد العاقبة . فغرّب هو وشرّق أصحابه ، وبوده لو يشرق كما شرقوا .

وأنا أعلم أن المتنبي لم يهج أولى الأمر فى بغداد وحدهم أثناء مدحه لسيف الدولة ، بل هجا معهم أولى الأمر فى مصر ، وكان خليقا أن يخاف مصر كما خاف العراق . ولكن من المحقق أن ما قاله فى المصريين عند سيف الدولة يكن شيئا بالقياس إلى ما قاله فى البغداديين . فهو لم يعرض بكافور ولا بالإخشيد وابنه تعريضا واضحا جليا . فلما صرح بالنعى عليهم لم يزد على أن زعم أنهم لم يتركوا الشام لسيف الدولة حبا ولا كرامة ، وإنما نفاهم عنها سيف الدولة نفيا . فهو إذن قد زعم أنهم انهزموا له فى الحرب ، وليس هذا شيئا يشين ، كما يشين ما كان يذكر به العراقيين من الجبن والخور ، ومن القصور والتقصير ، ومن العكوف على اللهو والمضى فى إرضاء الشهوات ، والاغترار بمظاهر الملك وترك حقائقه لسيف الدولة الذى كان لا يعنى إلا بمجد الأمر ، ولا ينفق حياته إلا فى جهاد الروم ، إلى غير ذلك مما قاله فى التعريض والتصريح بأهل بغداد .

فقد كان فساد الأمر إذن بينه وبين العراق خطيرا . وكان إصلاح الأمر بينه وبين مصر ميسورا سهلا . فإذا

لاحظت أنه حين غاضب سيف الدولة وحاشيته سنة إحدى وأربعين وثلثمائة لم ينذرهم بأنه قد يذهب إلى العراق ، بل أنذرهم بأنه قد يترك ضُمَيْرا عن يمينه ليمضى إلى ملك الإخشيديين .

عرفت أن المتنبى نفسه كان يشعر بأن ملك الإخشيديين سيكون أرحب له صدرا من ملك الخلفاء العباسيين وأميرهم الديلمى . وللمتنبى بعد هذا كله عند الإخشيديين أصدقاء وليس له مثلهم فى العراق ، فهو قد مدح جماعة من حكامهم وقادتهم قبل أن يتصل بسيف الدولة كما علمت . وهو قد اتصل اتصالا وثيقا بأمير من أمرائهم فى الرملة . وهو خليق أن يجد من هؤلاء أو من بعضهم حماية ورعاية وعونا على أن يتصل بالملك المصرى الشاب ، أو بوصيه ووليه كافور .

وإذن فأنا لا أفهم إيثار المتنبى لمصر على العراق فحسب ، بل أريد أن أزعم أن المتنبى لم يفارق حلب ولم يترك سيف الدولة إلا بعد أن استوثق لنفسه عند الإخشيديين . وأكبر ظنى أن الرسل قد سعوا سرا بين المتنبى والإخشيديين فى آخر أوقاته بحلب ، وأن هؤلاء الرسل لم يضمنوا له

الجوار والأمن عند الإخشيديين فحسب ، وإنما جاءوه بالوعود المطمعة والآمال المغرية . فلم يتحول عن شمال الشام إلى جنوبها إلا وهو يعلم ما يريد ، ويقدر أن حاله عند الإخشيديين ستكون خيرا من حاله عند الحمدانيين ، وأنه سيظفر فى ملك مصر بما لم يظفر به فى ملك شمال الشام .

وأنا من أجل هذا كله لا أطمئن إلى الأخبار التى يحدثنا بها الرواة عن إقامة المتنبى بدمشق والرملة ، وإنما أقرؤها فى تحفظ شديد وأفهمها على وجه مخالف كل المخالفة لما فهمها عليه القدماء .

فقد زعم القدماء أن الشاعر وصل إلى دمشق محزونا ، وأن عامل الإخشيديين عليها ، وهو رجل يهودى يعرف بابن مالك تلقاه لقاء حسنا . ولكنه طمع فى أن يمدحه المتنبى ، فلما لم يظفر منه بما أراد كاد له عند كافور . ويقول القدماء إن المتنبى تردد كثيرا فى الذهاب إلى مصر ثم يقولون ، ويوافقهم بلاشير على ما قالوا ، إنه ذهب إلى الرملة لاجئا إلى صديقه الإخشيدى القديم الحسن بن عبيد الله ابن طغج ، وكان يريد أن يلزمه ، لولا أن كافورا كتب

يستقدمه وألح فى ذلك ، فسار الشاعر إلى الفسطاط كارها .

ولا أستبعد أن يكون المتنبى نفسه هو الذى قد تحدث بهذا كله ، بعد أن عاد من مصر إلى العراق خائب الأمل ، محزون النفس ، يائسا من كل ما كان ينتظر من كافور .

فأما الذى أرجحه أنا فهو أن المتنبى قد أصلح أمره مع المصريين ، وترك حلب ، على أن يكون شاعرا رسميا لكافور ، ليغيظ سيف الدولة وأصحابه ، وليعرفهم أنه إن لم يجد عندهم الأمن والرضى ، فسيجد عند عدوهم أكثر من الأمن والرضى ، سيجد عند عدوهم الحكم والسلطان . وقد عرفنا أن المتنبى كان إذا اتصل بأمير انقطع له حقا ، ولم يمدح أحدا من أصحابه والمقربين إليه . فهذا يبين لنا السبب فى أنه حين بلغ دمشق لم يمدح عامل الإخشيديين عليها . فإذا ذكرت ما افترضناه فى أول هذا الكتاب من جواز أن تكون هناك صلة بين هذا اليهودى الذى كان على دمشق ، وذلك اليهودى الذى سعى به عند عامل حمص فى شبابه حتى دفعه إلى السجن لم تستغرب إعراض المتنبى عن مدحه لهذا اليهودى الذى أحسن استقباله وأكرم مثواه .

وليس غريبا أن يكون هذا اليهودى قد طمع فى مدح المتنبى وضاق بما أصابه من الإخفاق ، كما جرى ذلك نفسه لإسحاق بن كيغلغ حين أراد الشاعر على أن يمدحه لما مر بطرابلس فى طريقه إلى أنطاكية ، ومما يرجح هذا أن المتنبى ترك دمشق دون أن يستطيع اليهودى أن يمسكه فيها ، أو يرده عن الوجه الذى كان يقصد إليه . فلما وصل الشاعر إلى الرملة ، تلقاه الإخشيدى أحسن لقاء ، ووصله وأهدى إليه . وكان المتنبى خليقا أن يمدحه رعاية لما كان بينهما من عهد قديم ، ووفاء بحق هذه الهدايا والصلات ، ولكن المتنبى لم يصنع من ذلك شيئا ، لأنه دخل ملك الإخشيديين ، على أن يكون شاعر كافور لا شاعر غيره من الحكام والأمراء .

ومن أجل هذا نفهم إعراض المتنبى ، بعد أن وصل إلى مصر ، عن مدح من كان فيها من السادة والقادة ، ومن الأمراء والوزراء ، ووقف شعره كله أول الأمر على كافور حتى إذا استيأس منه لم يمدح إلا فاتكا ، ولم يمدحه إلا بقصيدة واحدة ، ولم ينشئ هذه القصيدة إلا بعد أن أذن له بذلك كافور .

إذن فكل هذه القصة التى صيغت حول حيرة المتنبى واضطرابه وتردده وسوء حاله فى دمشق ، ثم فى الرملة ليست شيئا ، وإنما هى حديث لعل المتنبى نفسه هو الذى تعزى به عما لقى فى مصر من خيبة وإخفاق .

٢

وقد انتهى المتنبى إلى مصر سنة ست وأربعين وثلثمائة بعد أن فارق سيف الدولة بأشهر ، ولعل من الحق أن نلاحظ أنه فارق شخص سيف الدولة ولم يفارق ذكره ، بل لم يستطع أن يفارق ذكره إلى أن مات .

ولم يكن من اليسير أن تمحى صورة سيف الدولة من نفس المتنبى كما محيت منها صور الأمراء والسادة الذين اتصل بهم قبله ، فقد لقى المتنبى عند سيف الدولة خير ما لقى فى حياته كلها ، لا من جهة الثروة والغنى وخفض العيش ولين الحياة ، فقد كان ذلك شيئا يسيرا ، يستطيع كافور أن يدره على المتنبى وأن يدر على المتنبى أكثر منه لأن ملك كافور كان أوسع وأثرى من ملك الحمدانى ، بل لأن سيف الدولة وحياة المتنبى معه كانتا مخالفتين من جميع الوجوه لحياة كافور ولحياة المتنبى مع كافور . وكانت حياة سيف الدولة حياة بطولة كلها تملؤها الحرب فى أكثر

أوقاتها ، ويتحدث بها الناس فى جميع الأقطار الإسلامية وفى كثير من الأقطار البيزنطية أيضا . وكان المتنبى يشارك سيف الدولة فى هـذه الحياة وفيما كان يملؤها من بطولة . كان يشاركه فى ذلك مشاركة عملية . فـكان يغزو الروم معه إذا غزاهم . وكان يستمتع بالنصر إذا أتيح النصر للأمير ويشقى بالهزيمة إذا كتبت عليـه الهزيمة . وكان كذلك يشارك الأمير فى جهاده للثائرين به والخارجين عليه من أهل البادية . فـكان يبلو ألوان الحرب المنظمة وغير المنظمة ، وكان يحس لذاتها وآلامها المـادية والمعنوية . وكان بعد هذا كله يتغنى هـذه الحرب ويعلن مجدها الضخم إلى المسلمين وغير المسلمين . كان اللسان الرسمى لهذا الجهاد العظيم ، وكان فى الوقت نفسه اللسان الصادق لمـا يثور فى قلبه هو من عاطفة أو هوى أو شعور .

كانت حياته عنـد سيف الدولة إذن مملوءة بالنشاط الخصب الذى شغله عن نفسه وشغله بها فى وقت واحد ، فقـد كان المتنبى فى حاجة إلى أن يشغل عن نفسه وإلى أن يشغل بها . كان أبغض شىء إليـه وأثقل شىء عليه

وأقتل شيء له أن تضطره البطالة والخمود إلى أن يفرغ لنفسه فينظر فيها وينظر إليها فى كل وقت ، ولم يكن له بد من الحركة العنيفة المتصلة ومن النشاط القوى المستمر . وحاجته هذه إلى الحركة والنشاط هى التى دفعته إلى ثورة الشباب . وضيقه بالبطالة والخمود هو الذى بغض إليه الحياة والأحياء فى أيام محنته .

ثم كان المتنبى فى حاجة شديدة إلى أن يعود إلى نفسه بين حين وحين ، فينظر إليها وينظر فيها فتسره ، ولا تسوءه يسألها عما عملت فتجيبه بما يحمد ويرضى . فإذا شغل عن نفسه ثم عاد إليها ألهمته ، وإذا هو شاعر فحل يتغنى نشاطه ونشاط الناس ، ويشيد بمجده ومجد الناس ، وينشد هذا الشعر الذى لا يلبث أن يشيع ويذيع ويملأ الآفاق والأقطار .

أما حياة كافور حين اتصل به المتنبى ، بل قبل أن يتصل به المتنبى ، فقد كان حياة أمن وسلم ، ودعة وهدوء . ليست حدوده مجاورة لحدود الروم ، فيتكلف مثل ما كان سيف الدولة يتكلف من الهجوم والدفاع ، ولا هى مجاورة

لحدود العراق ، فيخاف مثل ما كان سيف الدولة يخاف ، من الدس والكيد . ومن الحق أن الفاطميين كانوا يثيرون فى نفسه شيئا من القلق ، ولكنه كان قلقا يسيرا لا يؤرق الليل ولا ينغص النهار . والبلاد التى كان يحكمها كافور بلاد متحضرة منظمة ، قد ألف أهلها الحضارة والنظام المدنى منذ عهد بعيد جدا ، وقد انكسرت شوكة الذين ارتحلوا إليها واستقروا فيها من البدو منذ عهد بعيد . فهى قليلة الحظ من الثورة والاضطراب قد فرغت لنفسها وظفرت باستقلالها ، وفرغ الناس أو كادوا يفرغون من الطمع فيها والطموح إليها ، إلا ما كان من الفاطميين الذين كان أمرهم لا يزال بعيدا كما قلنا من أن يثير القلق والخوف .

وقد تجاوز سلطان هذه البلاد حدودها الطبيعية ، فهى متسلطة على فلسطين كلها ، وقسم لا بأس به من الشام ، وعلى أقطار واسعة وراء البحر الأحمر . وحدودها بعيدة آمنة من جهة الجنوب . وإذن ففى وسعها أن تنعم بالأمن والدعة ، وتفرغ لاستثمار أرضها الخصبة ، ولا سيما إذا ضبط فيها الأمر ،

وحسنت فيها الإدارة ، ولم يكثر فيها الجور ، ولم يشع بين أهلها الفساد .

ويظهر أن أمور مصر كانت صالحة مطمئنة حقا فى ذلك الوقت ، فكان أولياء الأمر فيها هادئين مطمئنين يدبرون الملك أحسن تدبير ، وينعمون بثمراته فى غير خوف ولا قلق . فأين هذه الحياة الهادئة الوادعة المطمئنة من تلك الحياة القلقة المضطربة الخائفة . وأين سكون كافور من قلق سيف الدولة ؟ وإذن فلن تكون حياة المتنبى عند كافور مملوءة بالحركة والنشاط ، كما كانت فى شمال الشام . وإذن فلن يشغل المتنبى عن نفسه ، ولكنه سيشغل بها دائما . وإذن فهو يفقد عند كافور أحد المؤثرين الأساسيين فى شاعريته ، هو يفقد نصف نفسه إن صح هذا التعبير . وإذن فهو مضطر إلى أن يفكر فى نفسه دائما ، وإلى أن ينظر فلا يرى غيرها . وهو يستحضر ماضيه فيرى آمالا خابت ، وأحلاما ذهبت ، ونعيما زال ، وحسرات لا تزال لاذعة . ثم يحاول أن يفكر فى مستقبله فلا يرى أو لا يكاد يرى شعاعا من أمل ولا بصيصا من رجاء .

ماض كله خيبـــة وإخفاق حتى فى أحسن أوقاته ، ومستقبل مظلم ، وحاضر قلق لا ترضى به النفس ولا تطمئن إليه . فلا غرابة فى أن تسوء حيـاة الشاعر ، ولا غرابة فى أن يسبغ الحزن واليأس على شـعره رداء قاتما لا يكاد يظهر فيه الإشراق والابتهاج .

٣

وقضـــية المتنبى مع كافور يسيرة جدا بالقياس إلينا ، وإن ظهرت للشاعر ولمعاصريه عسيرة معقدة . فهى تنحل فى حقيقة الأمر إلى أن المتنبى أحس القلق والضيق عنـد سيف الدولة ، فعرض بالتحول عنـــه إلى مصر ، وطمع المصريون فى تحويله إليهم ليضعفوا خصمهم ، وليستأثروا من دونه بسلاح من أمضى أسلحته ، وهو سلاح الدعوة والإذاعة . فأغروا الشاعر وأطمعوه ، ولم يفهم الشاعر هذا الإطماع وذلك الإغراء على وجههما ، وإنما خدعه الغرور ، فظن أن القوم يصدقونه ولا يكذبونه . وأنهم يريدون به الخـير ، ولا يريدون أن ينتزعوه من يد مولاه الحمدانى . فاستجاب لهم ، وأسرع إليهم ، وانتظر تحقيق الوعـــد ، وتصديق الرجاء . فلم يجد إلا سرابا لا يروى من ظمأ ولا يشفى من أوام .

أيهما المخطىء فى هذه القضية ؟ أهو كافور الذى سار

سيرة السياسى اللبق فاجتهد لنفسه ، واحتاط لملكه ، وخذل عن عدوه ، واصطنع فى ذلك ما يصطنعه الساسة المكرة من وعود لا تفرض على أصحابها الوفاء ، وأقوال لا تأخذ أصحابها بالصدق ؟ أم هو المتنبى الذى أسرف فى الاعتداد بنفسه ، وغلا فى حسن الظن بها وبالناس ، فلم يتدبر أمره ولم يحتط لنفسه ، وإنما اندفع فى غير روية ولا أناة ؟ إن الذين يقرءون شعر المتنبى ، وهذه الحكم البالغة ، والأمثال السائرة التى يرسلها إرسالا ، ويكيلها كيلا يخدعون عن الشاعر ، فيظنون به الفطنة والحكمة والذكاء . ولكن الذين يتدبرون سيرته ، ويقرءون فخره ومدحه وهجاءه يعرفون طبيعة الشاعر ويردونه إلى مكانه الحقيقى من خصال الرجل الذكى اللبق . فقد كان المتنبى مغرورا من غير شك ، وكان مسرفا فى الغرور ، وكان مكبرا لنفسه كل الإكبار . ولكن الشر كل الشر أنه كان يظن من حين إلى حين أن الناس يرون فيه ما كان يرى فى نفسه ويكبرونه كما كان يكبر نفسه ، ويعتدون به كما كان يعتد بنفسه . وإلا فكيف نفهم أن ينفق المتنبى تسعة أعوام يمدح فيها الأمير الحمدانى

ويعيب فيها خصومه من أهل مصر والعراق ، ثم يظن بعد ذلك أن المصريين يعدونه صادقين ويبذلون له الآمال والأمانى ، وهم يأخذون أنفسهم بالوفاء له والاطمئنان إليه . مهما يكن من شىء فقد انخدع المتنبى لكافور ، وأقبل مستسلما له ، متهالكا عليه ، واثقا به ، يظن أنه سيجد عنده من الرفعة ونباهة الشأن ما يغيظ به سيف الدولة الذى لم يعرف قدره ، ولم يرع حقه ، ولم يعص فيه الوشاة والكائدين .

وأنت تعلم أن المتنبى نشأ طامعا فى الحكم ، طامحا إليه ، مجاهدا فى سبيله ، وأنه احتمل فى ذلك ألوانا من الأذى ، وذاق فيه فنونا من العذاب . فهذه الوعود تخيل إليه أن الحكم منه قريب ، وأن السلطان يسعى إليه سعيا ويخطو إليه خطوات واسعة . فما له هو لا يسعى إلى هذا السلطان الذى يسعى إليه ، ولا يخطو إلى هذا السلطان خطوات واسعة كالتى يخطوها إليه . لقد وعده المصريون بأنه سيتولى الحكم فى ولاية من الولايات ، أو إقليم من الأقاليم . هو إذن سيرتفع عن هذه المكانة التى كان يحرص

عليها عند سيف الدولة . لن يكون شاعرا مأجورا عند كافور كما كان شاعرا مأجورا عند سيف الدولة ، بل سيكون واليا من الولاة وأميرا من الأمراء . سيجمع بين إمارة الشعر وإمارة الحكم . ستشهد له الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم . فما له لا يسرع إلى هذه الأمنية التى تريد أن تتحقق بعد أن استيأس منها وتعزى عنها .

نعم إنه كان فى صباه وشبابه لا يطلب الحكم والسلطان لنفسهما ولا يراهما غاية لما كان يلقى من مشقة ويحتمل من عناء ، وإنما كان يراهما وسيلة إلى إصلاح النظام السياسى والاجتماعى ، ورد الأمن والعدل والعافية إلى الناس . وهو الآن يكتفى من الحكم بالحكم ، ومن السلطان بالسلطان يراهما الغاية كل الغاية ، والأمل كل الأمل ، لا يفكر فى إصلاح النظام السياسى والاجتماعى ، لأن أحدا من الذين ثاروا لإصلاح هذا النظام لم يحاول إصلاحه ، ولأن الناس الذين يكرهون هذا النظام ويشكون منه ، ويريدون تغييره لا يغيرونه ولا يعينون أحدا على هذا التغيير ، ولأن الناس

الذين يتحرقون شوقا إلى الأمن والعدل والعافية لا يكرهون أن يعيشوا فى ظل الخوف والجور والخطر . فهو لا يريد أن يصلح أمور الناس برغم أنوفهم ، وحسبه أن يصلح أمر نفسه ، وأى إصلاح لأمر نفسه أكثر من أن يتولى الحكم وينهض بأعباء السلطان ، ويصبح رجلا يأمر فيطاع ، وينهى فيستمع له . ومن يدرى لعل الشعراء يمدحونه بمثل ما يمدح به هو سيف الدولة أو غير سيف الدولة من الأمراء والولاة .

ومن الحق أنه كان فى شبابه شديد الضيق بهؤلاء العبيد الذين يملكون على الأحرار ، وبهؤلاء العجم الذين يقضون فى أمور العرب . وأنه كان يريد أن يثور ليرد إلى الأحرار حريتهم ، ويديل للعرب من العجم ، ويعيد هؤلاء الأرقاء الذين يستخشنون الخز حين يلمسونه ، وكانت تبرى بأظفارهم الأقلام ، إلى حالهم الأولى التى كانوا عليها قبل أن تدور الدنيا إلى الشمال ، بعد أن كانت تدور إلى اليمين .

كان يريد هذا كله ، وكان يحرص عليه كل الحرص . وقد جاهد فى سبيله وذاق ذل الأسر وهوان السجن ، ولكنه أخفق واستيأس ، ثم عاد إليه شىء من الأمل

وحظ من الرجاء حين اتصل بهذا الأمير العربى الذى أحيا ما كان للعرب من مجد وبأس ، ولكنه نظر فإذا هذا الأمير نفسه لا يقدره ولا يسمع له ، وإنما يطيع فيه الوشاة والكائدين . فليدع الأحرار فى رق العبيد ماداموا يرضون لأنفسهم هذا الرق . وليدع العرب فى ظل العجم ما داموا ينعمون بالحياة فى هذا الظل . بل ليتجاوز هذا الطور من اليأس المتكبر والإعراض المستعلى ، وليصبح رجلا كغيره من معاصريه ، وليبع نفسه لعبد من هؤلاء العبيد ، وأعجمى من هؤلاء الأعاجم ، ما دام هذا قد يجعله أميرا على بعض الولايات أو حاكما لبعض الأقاليم .

إلى هذه الحال انتهى المتنبى حين فارق سيف الدولة وألقى بنفسه بين يدى سيده الجديد كافور ، جحد ماضيه كله ورفض آراءه كلها ، ونزل حتى عما كان خليقا أن يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء . ولا تقل إنه كان محتاجا إلى هذه الذلة ، مضطرا إلى هذا الهوان ، عاجزا عن أن يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة للفن . فلم يكن المتنبى فى ذلك الوقت بائسا ولا فقيرا ، بل كان بعيدا

كل البعد عن البؤس والفقر ، أخذ من سيف الدولة مالا كثيرا جدا ، ولم يسرف فى هذا المال ، بل أسرف فى حسن تدبيره وشدة القيام عليه حتى انتهى إلى البخل القبيح . وخرج من ملك الحمدانى يسوق بين يديه مالا ضخما ويحيط به عدد ضخم من الرقيق . فلو شاء أن يعيش حرا كريما مستقلا لما وجد فى ذلك مشقة ولا جهدا . وقد يقال : إن حياة الشعراء فى ذلك العصر لم تكن تسمح لهم بهذا اللون من الحياة . وقد يقال أيضا : إن شاعرنا لم يكن يستطيع أن يعرض عن مدح الأمراء والملوك ، ولو حاول ذلك لعرضوه للأذى ولأكرهوه عليه إكراها .

قد يقال هذا كله ولكنه لا يغنى عن المتنبى شيئا ولا يزيد على أن يؤكد ما نذهب إليه من أن المتنبى إنما كان شاعرا كغيره من الشعراء ، ورجلا كغيره من الناس . قد رفع نفسه فوق قدرها ، وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغى لمثله أن يطمع فيه . ظن نفسه حرا ، ولم يكن إلا عبدا للمال . وظن نفسه أبيًّا ، ولم يكن إلا ذليلا للسلطان . وظن نفسه صاحب رأى ومذهب ، ولم يكن إلا

صاحب تهالك على المنافع العاجلة ، التى كان يتهالك عليها أيسر الناس أمرا وأهونهم شأنا .

وقد جاء بعد المتنبى رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة ، واحتقر الناس وازدراهم ، وأنكر الملوك والأمراء ، وزهد فى التقرب إليهم والدنوّ منهم ، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر الكريم ، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف فوفى لنفسه وعقله بكل ما أراد ، ولم يكن أقل شاعرية من المتنبى ، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبى ، فقد حرمته بصره ، ولم تتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش . ومع ذلك عاش كريما ومات كريما ، ولم يتعلق عليه أحد بذلة ، ولم يغتمز فيه أحد هفوة ، سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان ، واستطال على السلطان وعجز السلطان عن أن يستطيل عليه ، وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يخلوا بينه و بين حريته ، وألا يشركوه فيما يعرض لهم من خير ولا شر ، وأن لا يخرجوه معهم إن

خرجوا من المدينة فارّين أمام الروم . وأن يقيموا فى المدينة إن أمنوا ، ويظعنوا عنها إن خافوا ، ويتركوه فيها على كل حال ، لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعا . وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذى أتحدث عنه وهو أبو العلاء .

فالفرق إذن بين هذين الرجلين ، هو الفرق بين الفيلسوف والرجل من سائر الناس . والذى أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل هو أن المتنبى قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه ، وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم . ولكن الغريب أن المتنبى لم يخدع نفسه وحدها ، وإنما خدع معها كثيرا جدا من الناس ، فظنوا به الفلسفة وليس هو من الفلسفة فى شىء ، وظنوا به الحرية والكرامة وإباء الضيم ، وليس هو من هذا كله فى شىء ، إنما هو رجل من أهل زمانه لم يمتز منهم بأخلاقه ، وإنما امتاز منهم بلسانه ، كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء .

أقبل المتنبى إذن على كافور وضيعا ذليلا قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس . وقد رأينا فى بعض ما سبق

من هذا الحديث أن المتنبى لم يصف أحدا كما وصف نفسه حين قال :

وإذا ما خَلاَ الجبانُ بأرْضٍ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزالا

فلنلاحظ الآن أنه لم يصف أحدا كما وصف نفسه حين قال أيضا :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوَانُ عليهِ
ما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ

فقد ماتت نفس المتنبى أو كادت تموت حين فارق سيف الدولة هاربا من الكيد ، ومكر الحاشية ، وباع كرامته وصداقته من كافور بثمن بخس هو أن يكون واليا فى ظل عبد :

يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمَسُهُ
وكانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ

كما كان يقول فى شبابه وفى ظل من سيقول عنه فى آخر أيامه :

وأسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْـــفُهُ
يُقَالُ لهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

ماتت نفسه أو كادت تموت ، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقى منها ، إنما كان شر أجزاء نفسه وأهونها على الناس حين يلتمسون الخلق والفلسفة . وكان خير أجزاء نفسه وأكرمها على الناس حين يلتمسون الشعر والفن والغناء .

بهذا الرمق الذليل الخصب ، المهين القوى ، أقبل المتنبى على كافور فمدحه وتملقه ، ورغب إليه وطمع فيـه . ومن هذا الرمق نفسه انصرف المتنبى عن كافور راغبا عنه زاهدا فيه ، هاجيا له ، كافرا بأنعمه ، مشيعا فيه الفحشاء ، مذيعا فيه كلمة السوء . وذنب كافور أنه عرف المتنبى كما كان ينبغى أن يعرف ، ووضـعه فى الموضع الذى كان ينبغى أن يوضع فيه . رآه شاعرا يبيع المدح والثناء بالدراهم والدنانير فاشترى منـــه المدح والثناء بالدراهم والدنانير . ورآه أحمق يجهل قدر نفسه فجاراه فى هذا الحمق ليصرفه عن خصمه ، وليحمله على أن يكذب نفسه وينـكر ما كان قد قال فيه ،

ويمدحه بعد أن كان قد ذمه ، ووفق كافور إلى كل ما أراد . فذنب كافور إذن أنه كان عاقلا فطنا لبيبا ، لم يخدعه المتنبى ، وما كان للمتنبى ولا لأبرع منه أن يخدع هذا الأسود الدميم الذى استطاع أن يتجاوز قدره ، وأن يفرض نفسه على الدولة الأسلامية كلها ، وأن يقتطع أحسن أجزائها ، فيستأثر فيه بالملك والسلطان .

نعم ذنب كافور أنه كان عاقلا فطنا ، وأنه كان يحسن العلم بالناس ، ويضع الأمور فى مواضعها ، ولكن لا بأس على المتنبى من هذا التلون والاضطراب . فنحن قد ربحنا من هذا التلوّن والاضطراب شيئا كثيرا .

ربحنا هذا الشعر الذى حفظه لنا ديوان المتنبى بما فيه من مدح وهجاء ، ومن حزن وغناء ، فهو ، سواء ألاءم الحق أم لم يلائمه ، أعذب شعر المتنبى وأرقّه ، وأصفاه وأصدقه تصويرا للناحية الإنسانية المؤلمة من نفس هذا الشاعر البائس الحزين .

٤

ولم تكن البيئة المصرية أقل من البيئة الحلبية خصبا ولا نشاطا ، ولا ثروة من العلم والفلسفة والأدب ، حين وفد المتنبى على الفسطاط ، بل قد يكون من الخطأ أن نسوى بين البيئتين فى ذلك . فقد كانت البيئة المصرية قديمة العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها ، أقدم عهدا بها من دار الخلافة نفسها . والناس جميعا يعلمون أن علوم الدين وفنون الأدب ازدهرت فى الفسطاط قبل وجود بغداد .

ازدهرت فيها منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، ثم سلكت سبيلها إلى الرقى هادئة مطمئنة طوال القرن الثانى والثالث ، لم تضعف ولم تفتر ، ولم يدركها الخمود . ولعلها كانت تقوى حتى تتجاوز المألوف من النشاط أحيانا فى بعض فروع العلم أو فى بعض فروع الفن ، كالذى كان حين وفد الشافعى على مصر ، وأنشأ بها مدرسته آخر القرن الثانى وأول القرن الثالث . فقد كان لهذا الحادث أثر عظيم فى

تنشيط الحياة العقلية فى مصر ، وكالذى كان حين اشتغل ابن طولون بأمر مصر ، فدفع الحضارة دفعة قوية نشط لها الشعر والنثر ، ونشط لها الفن أيضا .

وقد أتاح الإخشيديون لهذه الحياة العقلية ، التى كانت ترقى فى هـدوء وتنشط فى اطراد ، ما مكنها من المضى فى طريقها إلى القوة والرقى والتزيد من العمق والاتساع . ولست أزعم أن الفسطاط قد سبقت بغداد أو بلغت منزلتها فى ذلك العصر ، ولـكنها كانت على كل حال قريبة من بغداد ومتجاوزة للحظ الذى انتهت إليه حلب من النهضة أيام سيف الدولة ، وقد كان العلماء ينشئون فى مصر . وكان العلماء يفدون عليها من الأقطار الإسلامية فيعلمون فيها ويتعلمون . ولم يكن هناك فرع من فروع العلم والفن والفلسفة يزدهر فى بغـداد إلا وله حظ من الازدهار فى مدارس الفسطاط ومساجـدها ، وأندية السادة والقـادة من أهلها .

وقد يكون هناك فرق بين الحضارة التى كانت تزدهر فى ظل الإخشيديين والتى كانت تزدهر فى ظل الحمدانيين ،

وهو أن الحضارة الحمدانية كانت جديدة طارئة ، فكانت محدثة تعلن عن نفسها فتسرف فى الإعلان ، على حين أن الحضارة المصرية كانت تليدة مستقرة مؤثلة المجد ، فلم تكن تحفل بنشر الدعوة ، ولم ترغب فى الإعلان .

وبعيد عن بالى كل البعد أن أفكر فى الحضارة المصرية القديمة التى ازدهرت أيام الرومان واليونان . وإنما أفكر فى الحضارة الإسلامية العربية ، وأتحدث عنها فقد كانت الفسطاط مصرا من أمصار المسلمين له ما لأكثرها من الحظ فى الأخذ بأسباب الأدب والعلم والفن . فلما أنشئت بغداد جذبت إليها معظم القوة العقلية التى كانت شائعة فى الأمصار ، ولكنها لم تقتل الفسطاط كما لم تقتل البصرة والكوفة .

ولم تعرف الفسطاط منذ آخر القرن الأول عصرا غلب فيه الجهل وضعفت فيه الثقافة وانقطعت فيه المشاركة فى هذا البناء العقلى الإسلامى العظيم ، على حين نرى أن المتنبى نفسه قد شهد شمال الشام وهو فى حالة من الضعف والاضطراب وفتور النشاط العقلى ، ظهرت آثارها واضحة قوية فى شعره أثناء الصبا والشباب .

وفرق آخر يمكن أن يلاحظ بين الحضارة التى لقيها المتنبى فى مصر ، والتى تركها فى حلب . وهو أن الحضارة المصرية كما كانت بعيدة العهد بالوجود فى الماضى ، فقد اتصلت فى المستقبل لم يضعفها زوال ملك الإخشيديين ، وإنما أتاح لها ملك الفاطميين فرصة مكنتها من منافسة بغداد والتفوق عليها . على حين لم يكد يضعف سلطان الحمدانيين حتى ذوت أزهار الحضارة الحلبية ، وأسرع شمال الشام ، فعاد أو كاد يعود إلى الحال التى كان عليها حين زاره المتنبى فى أوائل القرن الرابع . ومعنى هذا كله أن الحضارة المصرية لم تكن عارضة ولا طارئة ، لم يذك جذوتها قائد أو أمير ، فتخمد بزوال ملكه وانقضاء سلطانه ، وإنما أذكت جذوتها طبيعة مصر الخالدة الهادئة ، التى لا تحب الجعجعة ، ولا تتهالك على الفخر بما قد يعرض لها من لين الحياة .

هذه الحضارة المصرية لقيها المتنبى فى الفسطاط ، ولقيها متنوعة مختلفة ، ولقيها أشد عمقا وتفاوتا مما رأى فى حلب . فقد كان النشاط فى حلب محصورا أو كالمحصور فى المتصلين

بسيف الدولة ، لأن سيف الدولة هو الذى أنشأه ودعاه واشتراه بالمال . أما فى مصر فقد كان النشاط مفرقا فى غير مجلس . كان فى مجلس كافور ، وكان فى مجلس وزرائه وقادته ، وكان فى المساجد العامة وفى المدارس الخاصة . بل لم يكن فى الفسطاط وحدها ، وإنما كان فيها وفى غيرها من المدن الكبرى . فى مصر العليا وفى مصر السفلى أيضا .

ولم يكن بدّ للمتنبى من أن يحسب حساب هذا النشاط ، ومن أن يقدر أن شعره سيلقى فى الفسطاط بمثل ما كان يلقى به فى حلب من النقد والدرس والتحليل ، على أقل تقدير . وقد ظهر أثر هذا فى شعر المتنبى الذى قاله فى مصر ، فقد ظل الشاعر ملاحظا نفسه ، مراقبا فنه ، لا يظهر الشعر ولا ينشده إلا بعد الامتحان والابتلاء والتمحيص . ولست أغلو إن قلت : إن شعر المتنبى فى مصر أقل سقطا من شعره فى حلب . لأن المتنبى فيما يظهر كان يقدر العلماء والمثقفين المصريين أكثر مما كان يقدر العلماء والمثقفين الذين كان يلقاهم فى قصر الحمدانيين .

ولسبب آخر لا بد من الإلمام به والإشارة إليه ،

فأكثر ما يضعف شعر المتنبى فى حلب حين يقول الشاعر فى المناسبات المختلفة مرتجلا حينا ، وطائعا للأمر حينا آخر ، ومتكلفا ليثبت أمام منافسيه مرة ثالثة .

أما فى مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد فى الديوان ، ولم يحتج الشاعر إلى الارتجال ، لأن اتصاله بكافور لم يكن من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك ، فلم يصف كافور للمتنبى ، ولا صفا المتنبى لكافور ، ولا كان بينهما من هذه المودة الخالصة المتصلة ما يدعو إلى ارتجال الشعر فى الموضوعات التافهة المتنوعة ، إلا أن يكون المتنبى قد جحد ذلك فيما بعد جحودا ، ومحاه من ديوانه وذاكرته محوا ، ولم يرد أن يبقى من هذا الشعر ما يصور نفسه عارية أمام كافور ، كما أبقى منه ما صورها عارية أمام بدر والحسن بن عبد الله بن طغج وأبى العشائر وسيف الدولة .

ومهما يكن من شىء فشعر المتنبى الذى قاله فى مصر أو الذى ألهمته إياه مصر مختار كله ، برئ من السخف واللغو أو كاد .

٥

ونلاحظ هنا ظاهرة قد كنا نستطيع أن نلاحظها فى حلب ، أو فى غيرها من البلاد التى أقام فيها المتنبى ، لا نكاد نستثنى منها إلا الشىء القليل . نلاحظ أن البيئة الطبيعية لم تكن تؤثر فى نفس المتنبى كثيرا ، فقد كان يمر بالمدن والقرى ، ويعيش فيها دون أن يراها أو دون أن يظهر فى شعره أنه رآها أو أنها أثرت فى نفسه تأثيرا قويا أو ضعيفا . ولولا أنه وصف بحيرة طبرية حين مدح على بن إبراهيم التنوخى ، وألم إلماما يسيرا بوصف لبنان حين مدح الأوراجى ووصف وادى بوان حين مدح عضد الدولة ، وسمى طائفة من المدن والقرى والجبال تسمية . لولا هذا لقلنا : إن المتنبى قد مر بالدنيا ولم يرها . ولكننا نستطيع الآن أن نقول : إنه مر بالدنيا ورآها ، ولكنه لم يحفل بها . نستغفر الله ، بل لم يحفل بمظاهر الطبيعة فيها ، لأنه كان مشغولا عن الطبيعة بنفسه وبالناس . وهو كان يرفع بصره إلى السماء أحيانا إذا

جنه الليل وأرقه الحزن والبأس ، فيرى النجوم وربما وصف النجوم فأحسن الوصف ، وربما صور الليل فأحسن التصوير ، وربما أبدع فى وصف وادى بوان ، وربما راع فى وصف بحيرة طبرية ، ولكنه فى هذا كله لم يكن يقصد إلى الوصف من حيث هو فن يطلب لنفسه ، ويتخذ وسيلة إلى الجمال الخالص ، وإنما كان يتخذ الوصف وسيلة إلى ما يثور فى نفسه من العواطف والأهواء .

فالطبيعة عنده ليست شيئا ذا خطر ، وإنما الأمر الخطير حقا عند المتنبى شيئان : نفسه ليعبدها ، والناس ليبغضهم أشد البغض ، ويذمهم أقبح الذم ، ويتملق منهم أشنع التملق من يستطيع أن ينفعه بالجاه أو بالمال .

ومن هنا نفهم أن يزور المتنبى مصر ويقيم فيها أعواما متصلة ، ثم لا يظهر للطبيعة المصرية أثر يذكر فى شعره . فهو يسمى المقطم فى مدحه لكافور ، وهو يسمى الأهرام فى رثائه لأبى شجاع ، وهو يذكر النواطير فى هجائه لكافور ، وهو يذكر السواقى فى مدحه لكافور وتعريضه بسيف الدولة ولكنه لا يزيد على التسمية والذكر .

وقد لاحظ الأستاذ بلاشير فى شىء من الدهش أنه حين طلب إليه كافور أن يصف دارا جديدة انتقل إليها لم يزد على أن وصف كافورا نفسه وهنأه بهذه الدار . وقد كان موقع الدار من النهر والجبل ، وما يحف بها من الحدائق والبساتين ، خليقا أن يلهم الشاعر شيئا ، ولكن الشاعر لم ير إلا كافورا الذى يستطيع أن يمنح المال والولاية ، وإلا نفسه التى تتحرق جشعا إلى المال وطمعا فى الولاية . وليس فى شىء من هذا ما يدعو إلى الدهش ، فقد كان المتنبى كما قلنا لا يرى إلا نفسه والناس الذين يرغب إليهم أو يرغب عنهم . وهو لم يعرض عن طبيعة مصر وحدها ، وإنما أعرض عن طبيعة غيرها من البلاد إلا هذه الأماكن القليلة التى استثنيناها .

وأغرب من هذا كله أن المتنبى كان بدوى الطبع ، كثير الإقامة فى البادية ، كثير الاضطراب فى الصحراء ، فكان خليقا أن يصور لنا بعض التصوير طبيعة البادية والصحراء . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئا ، وقد احتاج إلى أن يسلك سبيل الفحول من قبله ، فيصف الإبل والطرق

والأسفار ، وما تكلف من جهد وما تحمل من عناء . ولكنه استعار هذا كله أو أكثره من الذين سبقوه ، ولم يضف أو لم يكد يضيف إليه شيئا جديدا . وليس لذلك فيما أعتقد إلا سبب واحد ، وهو أنه كان يقطع الصحراء ويضطرب فى البادية ، ولا يرى فى هذه ولا فى تلك إلا نفسه وإلا عدوا يرهبه ، أو صديقا يرغب إليه .

وليس أدل على ذلك من هذا الشعر الذى قاله حين هرب من مصر ، فوصف الطريق التى سلكها من الفسطاط إلى الكوفة . فإنك لا تجد فى هذا الشعر الجميل الرائع من هذه الطريق الطويلة الشاقة ، التى كانت خليقة أن تلهمه أبرع الشعر وأروعه إلا تسمية للأماكن التى مرَّ بها أو نزل فيها ، كأنه جغرافى يصف طريقا من الطرق . نستغفر الله ، بل يسمى مواضع بعينها من هذه الطريق .

والمتنبى لم يهمل الطبيعة المصرية وحدها ، وإنما أهمل الحضارة المصرية أيضا . فنحن نعرف أنه زار الفسطاط ، ولكننا نعرف هذا من التاريخ ومن هذه الأسطر التى يقدم بها الديوان بين يدى القصائد التى يتألف منها شعره

المصرى ، فأما الحياة فى مدينة الفسطاط ، فأما ما كان يقوم فيها من العمارات ، فأما ما كان يملؤها من النشاط على اختلاف ألوانه ومظاهره ، فليس له فى شعر المتنبى أثر ولا ظل . وما ينبغى أن ننكر ذلك أو نضيق به ، فلم يكن حظ حلب أو دمشق أو الرملة أو الكوفة أو أرجان أو شيراز أو بغداد من شعره خيرا من حظ الفسطاط .

قلت لك : إنه كان يمر بالمدن والقرى ، ولا يكاد يراها ، بل أغرب من هذا كله أنه خرج ذات ليلة من قصر سيف الدولة ، فصادف نهر قويق ، وقد مد وطغى على شاطئيه . فقال فى ذلك رجزا ، ولكنك تقرأ هذا الرجز فلا ترى فيه النهر ولا ماءه ، وإنما ترى فيه سيف الدولة ، لأنه اتخذ هذا المظهر الشعرى الذى كان خليقا أن يلهم شعرا جميلا وسيلة إلى مدح سيف الدولة ووصفه بالكرم والجود كدأبه حين كان يرى السحاب متكاثفا أو يرى المطر منهمرا ، فلا يفتح الله عليه إلا باتخاذ السحاب والمطر وسيلة إلى تملق من كان فى حاجة إلى أن يتملقه من الناس .

٦

وشعر المتنبى فى كافور قليل بالقياس إلى شعره فى سيف الدولة ، ولكنه مختلف متنوع لا بأس بالوقوف القصير عند أنواعه وفنونه . لأنها تصور لنا براعة الشاعر فى معالجة هذه الفنون على تباين ما كان عليه من الأحوال . فهو قد مدح كافورا وطمع فيه واستنجزه وعده ، وهو قد تغنى حزنه ويأسه ، وخوفه وإشفاقه . وهو قد عرض بسيف الدولة وعاتبه حتى انتهى أحيانا إلى الذم . وهو قد ألمّ ببعض وجوه السياسة الداخلية المصرية . ثم هو قد هجا كافورا فأسرف فى هجائه . وهو بعد هذا كله قد مدح أبا شجاع فاتكا ثم رثاه .

وإذن ففنون الشعر التى طرقها فى مصر ليست أقل من فنون الشعر التى طرقها فى حلب . لم يهمل إلا فنا واحدا هو خير ما أحسن من فنون الشعر ، وهو تصوير الجهاد بين المسلمين والروم . فهل كانت طريقته فى معالجة الفنون التى

ألمّ بها فى مصر كطريقته فى معالجة هذه الفنون نفسها حين ألم بها فى شمال الشام ؟ لا ونعم .

أما لا ، فلأن عنصرا سياسيا من عناصر الإجادة الفنية عند المتنبى قد تأتى له فى شمال الشام ولم يتأتّ له فى مصر ، وهو الإعجاب الذى هو أساس الشعر والباعث له والدافع إليه . كان المتنبى معجبا بسيف الدولة ، ما إلى الشك فى ذلك من سبيل . كان يريد أن يحيا فى ظله ويظفر بجوائزه وينعم بنائله . هذا حق ، ولكنه قبل هذا و بعد هذا ، كان مكبرا للأمير الحمدانى ، معجبا به ، مفتونا بحسن بلائه فى جهاد العدو من العرب والروم . وأحسب أنه لو لم يتصل بسيف الدولة لقال فيه الشعر وأكثر عليه الثناء .

ولم يكن معجبا بكافور ولا محبًّا له ، بل هو كان يبغضه أشد البغض ، ويزدريه أشد الازدراء . ليكن مخطئا فى ذلك أو مصيبا ، فهذا شىء لا خطر له ، وإنما الواقع أنه كان يمقت كافورا ويزدريه . وإذن فهو عند ما كان يمدح سيف الدولة كان يصدر عن الإعجاب والرغبة وعند ما كان يمدح كافورا كان يصدر عن الرغبة وحدها ،

وكان مضطرا إلى أن يكظم عواطف البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد . كان صادقا أمام نفسه حين كان يمدح سيف الدولة ، وكان كاذبا منافقا أمام نفسه حين كان ينشئ المدح وينشده فى كافور .

فإذا أتيحت له الإجادة فى سيف الدولة ، فليس فى ذلك غرابة ، وإذا أتيحت له الإجادة فى كافور فهذا هو الغريب حق الغريب .

وعلى عكس ذلك غضب المتنبى على سيف الدولة فعاتبه وألحّ فى عتابه ، وعرض به وانتهى أحيانا إلى الهجاء . ولكنه كان معجبا دائما بسيف الدولة ، فلم يكن غضبه عليه إلا حزنا لفراقه ولونا من خيبة الأمل فيه .

ثم غضب على كافور فعاتبه أول الأمر ، ثم هجاه بعد ذلك ، فكان مظهر الفن فى العتاب والهجاء معاكسا لمظهر الفن فى المدح . كان صادقا أمام نفسه فى هجاء كافور فلا غرابة فى أن يجيد ، وكان كاذبا متكلفا فى نعيه على سيف الدولة فلم يكن يبلغ منه شيئا .

ولم تكن السياسة المصرية تهم المتنبى أو تعنيه لأنه

لم يكن مشتركا فيها كما كان مشتركا فى السياسة الحمدانية ولأن هـذه السياسة المصرية كانت من الهدوء والاستقرار بحيث لم يكن فيها ما يثير الشعر أو يلهم الشعراء . ولذلك قل شعر المتنبى السياسى عند كافور ، ولم يقل منه إلا قصيدتين اثنتين سنقف عندهما بعد حين .

أما الفن الذى أجاده المتنبى و برع فيه ، أثناء إقامته فى مصر ، فهو الغناء . فقد وفق المتنبى إلى نغمات جديدة لعله لم يوفق إلى مثلها فى شعره كله . ولم تكد تخلو من هـذا الغناء قصيدة من قصائد المتنبى التى مدح بها كافورا أو هجاه ، والتى مدح بها فاتكا أو رثاه . وهو بعد هـذا قد خرج عن مألوفه منذ زمن بعيد ، فاختص نفسه بشىء من الشعر لم يشرك معها فيه أحدا بمدح أو هجاء .

وكنا نعرف ذلك من المتنبى فى صباه وشـبابه ، فلما اتخذ الشعر صناعة ووسيلة إلى العيش أعرض عن القصائد الخالصة له وجعل قصيدته قسمة بينه و بين الممدوح ، له أولها وللممدوح آخرها . ولـكنه حين انتهى إلى مصر وأنفق فيها شطرا من وقته ينتظر الوفاء بالوعد ، ورأى أنه لا يظفر

بشيء ، وأنه لا يستطيع أن يجهر بكل ما يحس أو يعلن كل ما يجد ، تغنى حزنه وألمه وانتظاره وسخطه وندمه فى شعر رائع حقا .

ثم لم يكد يخرج من مصر ويستأنف حياته فى العراق وفارس حتى عاد إلى طريقته الأولى ، فجعل الشعر قسمة بينه وبين غيره من الناس .

ولم يحدث المتنبى شيئا ذا بال فى القصيدة التى مدح بها فاتكا ، ولا فى المراثى التى قالها فيه ، وإنما مضى فى هذا المدح والرثاء على عادته المألوفة فى هـذين الفنين ، فقلد غيره وقلد نفسه ، ولم يتجاوز ما سبق إليه من ذلك . وكل ما أحدثه أنه كان شديد الضغن على كافور ، فكان يعرض به فى رثاء أبى شجاع ، ولـكن هذا ليس بالشيء الخطير ولا بالأمر الذى يحفل به .

فلنقف وقفات قصارا عند نماذج من هذه الفنون التى ألم بها المتنبى فى مصر ، فهى فى حقيقة الأمر لا تحتاج إلى الوقفات الطوال ، ولـكن إهمالها غير ممكن ولا ميسور .

٧

وقد مدح المتنبى كافورا بثمان قصائد ، أنشـده أولاها فى جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلثمائة ، وهى اليائية التى مطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموتَ شَافيا
وحَسْبُ المَنايا أَنْ يكُنَّ أمانيا

وفى هـذه السنة نفسها بنى كافور دارا ، وطلب إلى المتنبى أن يذكرها فأنشده همزيته التى أولها :

إنما التَّهْنِئاتُ للأكْفاءِ
ولِمَنْ يَدَّنِى من البُعَـدَاءِ

وفى هذه السنة كذلك أنشده بائيته التى أولها :

مَنِ الجَآذِرُ فى زِىِّ الأعارِيبِ
حُمْرَ الحِلَى والمَطايا والجَلَابيبِ

وفى آخر هذه السنة أنشده داليته التى أولها :

أَوَدُّ منَ الايَّامِ مالا تَوَدُّهُ
وأَشكُو إليها بَيْنَنا وَهْىَ جُندُهُ

فهو ، إذن ، كان مكثرا فى مدح كافور لأول عهده به يريد أن يظفر بحبه أو بالمكانة عنده ، كما كان مكثرا فى مدح سيف الدولة حين اتصل به سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة . ولكن سيف الدولة أرضى حبه للمال وأرضى إعجابه بجلائل الأعمال ، فمضى على الإكثار فى مدحه . ولم يبلغ كافور من ذلك ما كان يبلغه سيف الدولة ، ففترت همة الشاعر بعض الفتور .

فلما كانت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة انتقل كافور من دار إلى دار فأنشده تلك الأبيات التى أولها :

أَحَقُّ دارٍ بأنْ تُدعَى مُبارَكةً
دارٌ مُبارَكةُ المَلْكِ الذى فيها

وفى هذه السنة نفسها أهدى اليه كافور فرسا فشكر له هديته بالميمية التى يقول فى أولها :

فِراقٌ ومَن فارَقتُ غيرُ مُذَمَّمِ
وأَمٌّ ومنْ يَمَّمْتُ خيرُ مُيَمَّم

وفى شوال من هذه السنة مدحه بالبائية التى أولها :

أُغالِبُ فيكَ الشوقَ والشَوقُ أغلَبُ
وأَعجَبُ مِن ذا الهَجْرِ والوَصْلُ أَعجَبُ

ثم أنشده فى شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة آخر مدائحه له ، وهى البائية التى أولها :

مُنًى كُنَّ لِى أَنَّ البَياضَ خِضابُ
فَيخْفَى بِتَبْيِيضِ القُرُونِ شَبابُ

ومن الخطأ أن يظن أن المتنبى قد خص كافورا بهذه المدائح ، وإنما الصواب أنه جعلها قسمة بين ثلاثة أشخاص : الأول ، المتنبى نفسه ، حين كان يتغنى آلامه وأحزانه ، وحين كان يرغب إلى كافور فى تحقيق آماله ويستنجزه ما قدم له من وعد ، والثانى ، سيف الدولة حين كان يعيبه حينا ويعاتبه حينا آخر ، ويظهر الندم على فراقه ، ويعرض بالعودة إليه مرة ثالثة ، والشخص الثالث والأخير هو كافور .

ولسنا فى حاجة إلى أن ندرس هذه القصائد كلها ، فبعضها يغنى عن سائرها لأن موضوعاتها ومعانيها متشابهة ، وإن اختلفت فيها ألوان التصوير والتعبير . فلننظر قبل كل شىء إلى هذه اليائية التى أنشدها لأول عهده به . فهى بطبيعة الحال مشتملة على هذه الموضوعات الثلاثة التى قدمنا ذكرها .

فأما القسم الأول منها فغناء بآلام الشاعر وأحزانه لما أصابه من خيبة الأمل وما أدركه من الإخفاق ، وهو فى هذا القسم شديد على سيف الدولة ، مسرف فى الشدة عليه ، يريد أن يغيظه ويحفظه ، ويثير فى نفسه الندم على ما قصر فى ذاته وفرط فيه . وهذه الشدة نفسها تصور ما كان يملأ قلب المتنبى ، ويفعم ضميره من الغيظ والحنق ومن الأسف والندم ، فنفسه تنازعه أشد النزاع إلى سيف الدولة ، وقلبه لا ينفك يهفو إليه . وهو يعنف قلبه أشد التعنيف ويؤنب نفسه أوجع التأنيب على هذا الحنين ، إلى من لا يستحق حنينا والوفاء لمن لا يستأهل وفاء . وهو يرى سيف الدولة غادرا ، وينكر نفسه إن صابت إليه ، وينكر دموعه إن جرت فى أثره ، وهو على ذلك لا يعدو أن يكون محبا ينسب بحبيبه ويبكى

فى أثر هواه ، ويشتد فى اللوم والتعنيف على هـذا الحبيب الذى أسرف فى الهجر حتى انتهى إلى الغدر . ولـكنه يتجاوز هذا الغزل الحاد العنيف إلى شىء يوشك أن يكون هجاء ، لولا أننا نحس منه الغيظ المتأجج الذى ينتهى بصاحبه إلى التحدى وذلك حين يقول :

قواصِـــدَ كافُورٍ تَوارُكَ غَيرِهِ

ومَن قَصَدَ البَحْرَ استَقَلَّ السَواقيا

فالشطر الأول من هذا البيت غيظ قد بلغ أقصاه وانتهى إلى التحدى ، الذى يصور ألم المتنبى أكثر مما يصور شيئا آخر . والشطر الثانى من هذا البيت هو نتيجة هذا الغيظ ، وهو أشـبه شىء بما يقوله العاشق الذى أخرجه الهجر عن طوره ، فأخذ يتسلى باللهو العارض ، والحب المتكلف ، والصبابة الكاذبة ، ويزعم للتى ملكت قلبه أن التى تمنحه اللذة والعزاء فلا تلذه ولا تعزيه ، أروع منها جمالا وحسنا .

ثم يمضى المتنبى فى مدح كافور إلى أن يقول :

إذا كَسَبَ الناسُ المَعالِيَ بالندَى
فإنَّكَ تُعطِى فى نَداكَ المَعَالِيا
وغيرُ كثيرٍ أَنْ يَزُورَكَ راجِلٌ
فيَرْجِعَ مَلْكاً لِلعِراقَيْنِ واليا
فَقد تَهَبُ الجَيْشَ الذى جاءَ غازِيًا
لِسائِلِكَ الفَرْدِ الذى جاءَ عافِيا

فهو هنا يعرض بحاجته ويتجنب التصريح . ولكن تعريضه واضح كل الوضوح ، ويرجع إلى مدح كافور ، إلى أن يقول :

إذا الهِندُ سَوَّتْ بينَ سَيْفَىْ كَرِيهَةٍ
فسَيفُكَ فى كَفٍّ تُزِيلُ التساوِيا

فإذا هو يعود إلى سيف الدولة بتعريض الغائظ المغيظ . ومن قبل عرض بسيف الدولة ففضل عليه كافورا فى الرفعة والكرم حين يقول :

فجاءَتْ بنا إنسانَ عَيْنِ زمانِهِ
وخَلَّتْ بَياضًا خَلْفَها ومآقِيا

نجُوزُ عَليها المُحْسِنين إلى الذى

نَرَى عِندَهُمْ إحسانَهُ والأَياديا

وعرض بانهزام سيف الدولة لكافور فقال :

غَزَوْتَ بها دُورَ المُلوكِ فَباشَرَتْ

سَنَابِكُها هاماتِهِمْ والمَغانيا

فأنت ترى أن النصيب الأوفى من القصيدة شائع بين المتنبى وسيف الدولة ، يصرح مرة ويعرض أخرى ، ولكنه مع ذلك يمدح كافورا فيحسن المدح دون أن يخرج عن المألوف أو يأتى بشىء جديد . وإنما هى المبالغة فى وصف جوده وذكائه ، وعزمه ومضائه ، وبأسه وعصاميته . يؤدى هذا كله أداء حسنا ، لا مشقة فيه ولا جهد ، ولا تكلف فيه ولا عناء .

فإذا تركت هذه اليائية إلى البائية الرائعة التى مدح بها كافورا فى شوال من السنة نفسها ، رأيت مذهبه فيها كمذهبه فى القصيدة السابقة ، فهو يقسمها قسمين : قسما للغناء وقسما للمدح . وهو يذهب فى غنائه مذهبين مختلفين يقصد

بأحدهما إلى الرمز والايماء ، وبالآخر إلى الفلسفة الصريحة . ويذهب بمدحه مذهبين أيضا يخص بأحدهما كافورا ، ويشيع الثانى بين كافور وسيف الدولة والمتنبى نفسه . فأما اصطناعه للرمز والإيماء فحين يتغزل بالأعرابيات ويطيل فى ذكرهن ويؤثرهن على الحضريات . وهذا الجزء من قصيدته مشهور شائع ، قد أعجب الناس به منذ زمن بعيد ، ولكنهم فهموه على وجهه الظاهر القريب . وأذهب فى فهمه أنا مذهبا آخر ، فأرى فيه حنينا إلى حياته فى شمال الشام ، حيث البداوة أغلب من الحضارة ، وحيث البأس أظهر من اللين ، وحيث المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكروه . وكأن الشاعر قد ضاق بهذه النعمة الهادئة ، وهذا الخفض الآمن فى مصر ، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد ، ولكنه لم يستطع أن يجهر بما يجد من ذلك فاتخذ الأعرابيات كناية عنه ورمزا له ، كما اتخذ الحضريات كناية عما كان فى مصر من حياة ناعمة فاترة فيها تكسر وخضوع .

والقدماء يعجبون أشد الإعجاب بهذا البيت من هذه القصيدة وهو :

أزورُهُمْ وسَوادُ الليـل يَشْفَعُ لى
وأنثنى وبَياضُ الصُبح يُغرى بى

ور بما كنت ردئ الذوق ، ولـكنى أحب أن أعجب بهذا البيت فلا أظفر بما أريد من الإعجاب الخالص الذى لا يشعر به نقد ولا عيب . فما الذى يعجب فى هذا البيت هو هذا الطباق الـكثير المتتابع ، الذى يحدث موسيقى ظاهرة التأثير فى النفس . فالشاعر يطابق بين الزيارة والانثناء عنها . وهو يطابق بين السواد والبياض ، و بين الليل والصبح و بين الشفاعة له والإغراء به . و بعض هـذا الطباق يكفى لإرضاء المشغوفين بالبديع . وهذا الطباق نفسه قد يرضينى ، لولا أنى أجد فى القافية انحدارا ثقيلا على السمع أشد الثقل فأنت بين اثنتين : إما أن تجعل قوله يغرى بى فى مقام الـكلمة الواحدة ، فتنطق بها موصولة ولا تشعر بما فيها من التفرق لتستقيم لك القافية على نظامها الموسيقى المألوف ، و إذن فقـد أفسدت النطق وأسأت إلى الصوت اللغوى نفسه . و إما أن تنطق بهذه الجملة على وجهها فتشعر بأن لفظها يتألف من فعل وحرف وضمير وتنبر الباء إن جاز هـذا التعبير ،

وإذن فقد صح لك النطق اللغوى ، ونبت عليك القافية نبوا شنيعا . .

وسواد الليل كان يشفع للمتنبى عند من ؟ عند عدوه ، فما يحتاج العدو إلى هـذه الشفاعة وما يرضاها . وما أظنه إلا كان يريد أن سواد الليل كان يخفيه على الرقباء فيحميه منهم ، وأن بياض الصبح كان يظهره للرقباء فيغريهم به ويعرضه لأذاهم . والمعنى قديم جدا طرقه عمر بن أبى ربيعة كما طرقه امرؤ القيس من قبل . فلم يزد شاعرنا على أن أوجزه أشد الإيجاز واصطنع فيه هذا الطباق الـكثير الذى كان خليقا أن يحسن ، لولا ما ينتهى إليه من نبو القافية .

فإذا فرغ المتنبى من هذا الغزل الرمزى عمد إلى فلسفته الصريحة الواضحة فقال :

ومِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوِّهَةً
تَرَكْتُ لَوْنَ مَشيبى غَيرَ مخضُوبِ

ومِن هَوَى الصِّدْقِ فى قَولى وَعادَتِهِ
رَغبتُ عن شَعَرٍ فى الرأسِ مكذوبِ

لَيْتَ الحوادِثَ باعَتْنى الذى أخَذَتْ
مِنِّى بِحلمى الذى أعطَتْ وتَجْرِيبى
فما الحداثةُ من حِلْمٍ بمانعةٍ
قد يُوجَدُ الحِلْمُ فى الشُبَّانِ والشِيبِ

فهذا الكلام من أروع الشعر وأجمله ، يعجبنى فيه هذا الانتقال من إيثار الجمال البدوى الصريح ، الذى لم يصنع ولم يتكلف ، إلى إيثار الشيب الواضح الذى لا يخفيه الخضاب . ثم يعجبنى أيضا عدول الشاعر إلى الحق واعترافه بأنه يحتمل المشيب كارها له وراغبا عنه ، بعد أن صرح بأنه لم يرد أن يخفيه بالخضاب . فهو يؤثر الصراحة على النفاق ، وهو يؤثر الصدق على الكذب ، وهو يؤثر أن يكون شجاعا تؤذيه الشجاعة وتعنيه على أن يكون منافقا يغر نفسه بالآمال والأوهام . ثم هو بعد ذلك يتمنى العودة إلى الشباب ويضحى فى سبيل ذلك لو استطاع بكل ما أفاد من علم وحلم . ومن الذى زعم أن العلم والحلم لا يستفادان إلا بالشيب والضعف وتقدم السن . لقد يوجد العلم والحلم عند الشبان

الذين لم يراعوا فى شبابهم ، كما يوجدان عند الشيب الذين اشتروهما بما أضاعوا من القوة والأمل والنشاط .

وكل هذه الفلسفة ، وكل هذا الغناء ، إنما يشير الشاعر به إلى هذا الحزن الغامض العميق الذى يملأ نفسه ، والذى يستطيع أن يفصل أسبابه . ولكنه لا يستطيع أن يحصره ولا أن يحيط به ، ثم ينتهى الشاعر إلى كافور ، فيقول :

تَرَعْرَعَ المِلكُ الأستاذُ مُكتهِلا
قبلَ اكتهالٍ أديباً قَبْلَ تأْديبِ
مُجرَّبا فَهِماً من قَبلِ تجربةٍ
مهذَّبا كَرَما من غَيرِ تَهذيبِ
حَتَّى أصابَ من الدُنيا نهايتها
وهَمُّهُ فى ابتداءاتٍ وتَشبيبِ

ومن الناس من يظن أن المتنبى قصد بهذا الشعر وأشباهه إلى كلام ظاهره المدح ، ويمكن أن يلتوى به السامع أو القارئ لأن الشاعر قد التوى به إلى الذم .

وما أظن إلا أن هذا النحو من فهم شعر المتنبى فى

كافور ، تكلف فى كثير من الأحيان ، يدفعنا إليه ما نعلمه من سوء رأى الشاعر فى ممدوحه ، ومن غضبه عليه وهجائه له . وليس المهم هو أن نفسر الشعر بما فسره به المتنبى نفسه فى أحاديثه ودروسه بعد أن هرب من مصر ، ولا أن نفسر الشعر بما فسره به الشراح الذين سمعوا المتنبى وتأثروا بحديثه والذين سمعوا الأخبار أو صنفوها حول ورود المتنبى على كافور ، وإقامته . وإنما المهم أن نفترض أننا ظفرنا بهذا الشعر غفلا من كل تفسير ، ولم نعلم من أمر قائله والمقول فيه شيئا . أفكنا نظن أن صاحبه قد التوى به عن وجهه الظاهر ، وأراد به خداعا ومكرا ؟ كلا . إنما كنا نفهم فى يسر وسهولة أن الشاعر لم يرد إلا أن يصور عصامية الأمير وتفوقه ، وما أتيح له من النبوغ والظفر بما لا يظفر به أذكياء الناس والذين كملت لهم العدة وتمت لهم أدوات الفوز ، دون أن يستعد لذلك أو يتهيأ له ، ودون أن يرث ذلك عن أب أو جد .

كذلك كنا نفهم هذا الشعر وما كان يخطر لنا أن قائله قصد به إلى وجه آخر من وجوه التعريض والتلميح . ولكن المتنبى فارق الأمير مغاضبا له ساخطا عليه نادما على

مدحه خجلا من الإسراف فى هذا المدح ، مستخذيا من الخيبة والإخفاق ، مجتهدا بالطبع فى أن يأخذ ما أعطى و ينكر ما عرف و يغير ما قال . وهو نفسه ينبئنا فى هجائه كما سترى أنه لم يمدح كافورا ، وإنما عبث به ، وأنه لم يكن يزوره مكبرا له بل ساخرا منه . ولكنا نعلم حق العلم أن هذا كلام شاعر مغيظ محنق . والمتنبى متهم عندنا فى أحد الحالين ، فإن صدق ما قاله فى الهجاء فقد كذب ما قاله فى المدح ، و إن صدق ما قاله فى المدح ، فقد كذب ما قاله فى الهجاء . وهو مع ذلك صادق عندنا فى الحالين بشرط أن نفهمه على وجهه ، لا كما يحب هو أن نفهمه ، فقد كان صادقا حين مدح كافورا ، وكان كاذبا فى الوقت نفسه . كان صادقا لأنه أراد المدح ولم يرد غيره ، وكان كاذبا لأنه لم يمدح عن يقين ولا عن إيمان ، وإنما مدح عن رغبة وطمع ، فقال غير ما يعتقد وأثنى بغير ما يرى .

وهو كذلك صادق كاذب فى هجائه : صادق لأنه كان يهجو عن غضب وسخط و بغض ، وكاذب لأنه كان يقول غير الحق ويذيع فى هذا الأمير من السيئات ما كان يكذبه

فيما بينه وبين نفسه إذا خلا إليها .

وما أكثر الأحوال التى يفرض فيها علينا البحث الصحيح أن نتهم الشعراء والكتاب فيما يتحدثون به عن أنفسهم مادحين أو قادحين .

ويمضى المتنبى بعد ذلك فى مدح كافور فيقول :

يُدبِّرُ المُلكَ من مِصْرٍ إلى عَدَنٍ
إلى العِراقِ فأَرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ
إذا أتَتها الرياحُ النُّكْبُ من بلدٍ
فما تهُبُّ بها إلاَّ بترتيبِ
ولا تُجاوِزُها شمسٌ إذا شَرَقَتْ
إلاّ ومنهُ لها إذْنٌ بتَغْريبِ

وما أظن أحدا يقدر أن المتنبى كان يعبث فى هذا المدح ، وإنما لهجة الشاعر هنا صادقة صريحة ، تدل على اعجابه بهذا الأمير ، الذى سمت به همته وحدها من أسوأ الحالات إلى تدبير هذا الملك الواسع العريض . ولكن سعة هذا الملك وعرضه يطمعان المتنبى فى رقعة منه ضيقة فى مدينة من

مدنه أو قرية من قراه . ونفسه تتحرق شوقا إلى هذه الولاية . ولكنه مع ذلك لا يصرح فى هذه القصيدة كما لم يصرح فى القصيدة الماضية ، وإنما يكتفى بالتعريض الواضح الجلى بعد أن يمضى فى مدح الأمير مدحا حسنا قويا . على أنه قبل أن يعرض بحاجته لا يهمل التعريض بسيف الدولة فهو يقول :

قالوا هَجَرْتَ إِليهِ الغَيْثَ قُلتُ لَهُمْ
إلى غُيُوثِ يَدَيْهِ والشَّآبِيبِ
إلى الذى تَهَبُ الدَوْلاتِ راحَتُهُ
ولا يَمُنُّ على آثارِ مَوهُوبِ
ولا يَرُوعُ بمَغْدُورٍ به أَحَدًا
ولا يُفزِّعُ مَوفُورًا بمَكْوُبِ

وظاهر ما فى هذا الكلام من التعريض الواضح الثقيل بأخلاق سيف الدولة وما فيه أيضا من جحود الجميل وإنكار النعمة . وظاهر كذلك ما فى البيت الثانى من هذه الأبيات من تجاوز للحد فى انتقاص صديقه ومولاه القديم والتلميح

بحاجته التى يضحى فيها حتى بالحياء .

فكافور لايهب المال وحده ، ولا يهب من المال أكثر مما كان يهب سيف الدولة فحسب ، ولكنه يهب الدولات . فهو يستطيع أن ينشئ دولا ، وأن يجعل لهذه الدول سيوفا .

وانظر إلى البيتين الأخيرين من هذه القصيدة فهما يغنيان عن كل تفصيل ، لتعريض المتنبى بحاجته وتهالكه صادقا أو كاذبا على رضى الأمير ، وإشفاقه من الغضب أو السخط ، الذى قد يجر عليه الحرمان وخيبة الأمل :

يأيُّها الملِكُ الغانى بِتَسْمِيةٍ
فى الشَّرْقِ والغَرْبِ عن وَصْفٍ وتَلْقيبِ
أنتَ الحبِيبُ ولكنى أعُوذُ به
مِن أَن أكونَ مُحِبًّا غَيرَ مَحبُوبِ

وأنا أمر مسرعا بالدالية التى مدح بها المتنبى كافورا آخر سنة ست وأربعين وثلثمائة . ولكنى أروى منها هذه الأبيات وحدها ، لأنها تصور أبلغ تصوير وأجمله ، تلك العلة التى حملت المتنبى فى حياته ما احتمل من جهد وعناء ، وألقته

صريعا آخر الأمر فى مهمه من مهامه العراق . وهذه العلة هى قلبه الذى لا يقنع بشىء ولا يطمئن إلى حال ، وإنما هو طامع أبدا ، طامح أبدا ، راغب فى التغيير ، قلق مهما يستقر :

وفى الناسِ مَنْ يَرْضَى بعيْسُورِ عَيْشِهِ
ومركوبُهُ رِجلاهُ والثوبُ جِلدُهُ
ولكِنَّ قَلْبًا بينَ جَنْبَىَّ ما لَهُ
مَدًى يَنْتَهى بى فى مُرادٍ أحُدُّهُ
يَرى جِسْمَهُ يُكْسَى شُفوفا تَرُبُّهُ
فيختارُ أن يُكسَى دُرُوعا تَهُدّهُ
يُكلِّفُنى التهجيرَ فى كُلِّ مَهْمَهٍ
عَليقِى مَرَاعيه وزَادِىَ رُبدهُ
وأمضَى سِلاحٍ قلّدَ المرءَ نَفسَهُ
رجاءُ أبى المِسْكِ الكريمِ وقَصدُهُ

ويطول انتظار المتنبى ويبطىء وفاء كافور ، ويبعد العهد بسيف الدولة ، فيهدأ الغيظ ويسكت الغضب ويبقى الندم قويا لاذعا . وإذا بنا نرى الشاعر يمدح كافورا سنة

سبع وأربعين وثلثمائة بهذه الميمية التى يكفى أن تقرأ مطلعها لتفهم منه ندم الشاعر وتتصور حاله النفسية ، وتتبين أنه سيحمد سيف الدولة فى القصيدة ويعتذر عن فراقه إياه . يصور بذلك ندمه من جهة ، ويدعو بذلك كافورا إلى الوفاء من جهة أخرى :

فِرَاقٌ ومن فارقتُ غيرُ مُذَمَّمِ
وأَمٌّ ومن يَمَّمْتُ خيرُ مُيمَّمِ

وتتقدم هذه السنة والشاعر منتظر ، والأمير مبطىء ، وندم الشاعر على ما خلف وراءه يقوى ويشتد ويكلفه أحزانا وآلاما ، وإذا هو يهنىء كافورا بعيد الفطر ، فينشده هذه البائية ، وهى آثر ما قال فى كافور عندى ، لأنها تصرح عن نفس الشاعر تصريحا لا لبس فيه . فهو حامد لأثر سيف الدولة يجهر بين يدى كافور بندمه على فراقه . وهو واصف لما لقى من الجهد فى الفرار من حلب ، وهو مطالب كافورا بتحقيق أمله فى غير تعريض ولا تلميح ، وهو يشير إلى أنه قد بعد عن أهله وطال بعده عنهم ، واشتد لذلك حزنه وعظم ألمه وهو يحب أن يعود إليهم ، لولا أن الآمال تقيده عند كافور

واقرأ هذين البيتين وانظر إلى تصويرهما للندم :

للهِ سَيْرِى ما أَقَلَّ تئيَّةً
عَشِيَّةَ شَرْقِىّ الحَدالَى وغُرَّبُ

عَشِيَّةَ أحفى الناسِ بِى مَنْ جَفَوْتُهُ
وأهدَى الطريقَينِ التى أَتَجَنَّبُ

واقرأ كذلك هذه الأبيات لترى مله من طول ما اشتكى وتعتب :

ألاَ ليتَ شِعرى هل أَقُولُ قَصيدة
فلا أَشْتَكِى فيها ولا أتعَتَّبُ

وبِى ما يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّى أقلهُ
ولكنّ قَلْبِى يا ابْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ

وأخلاقُ كافُورٍ إذا شئتُ مَدحَهُ
وإنْ لم أَشَأْ تُملِى عَلَىَّ وأكتُبُ

وانظر بعد هذا إلحاح الشاعر على الأمير فى حاجته وتصريحه بهذه الحاجة فى غير لبس ولا غموض .

أبا المِسْكِ هل فى الكأسِ فَضْلٌ أنالُهُ
فإنّى أُغَنّى مُنْـــذُ حينٍ وتَشْرَب

وهَبْتَ على مقدارِ كَفَّىْ زمانِنا
ونَفسِى على مِقدارِ كَفيكَ تَطلُبُ

إذا لم تَنُطْ بِى ضَيْعَةً أو وِلايةً
فجودُك يكسُونِى وشُغْلُكَ يسلُبُ

يُضاحِكُ فى ذا العيدِ كُلَّ حبيبَهُ
حِذائى وأبْـكِى مَن أُحِبُ وأَندُبُ

أَحِنُّ إلى أَهلى وأهْوَى لِقاءهُمْ
وأَيْنَ مِنَ المُشتاقِ عَنْقَاءُ مُغرِبُ

ولكنه حسن الاستعداد للتعزى عن أهله بالبقاء مع كافور ، بشرط أن يحسن هذا البقاء ، وأن يكون فيه الثراء والمجد معا :

فإن لم يكُنْ إلا أبو المِسْكِ أوْ هُمُ
فإنَّكَ أَحلَى فى فُؤادِى وأعذَبُ

وكُلُّ امْرِئٍ يُولِى الجميلَ مُحَبَّبٌ
وكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

وفى هـذا البيت الأخير نفس أبى الطيب كلها . فهو رجل لا يحب إلا نفسه . وهو سعيد حيث وجد من الناس الجميل ، وهو راض حيث وجد المجد والعزة ، فأما الوطن والأهل والأصدقاء ، فتأتى بعد ذلك ولعلها لا تأتى .

ولا يحفظ الديوان لنا من مدحه لكافور سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة إلا قصيدة واحدة ، لم نحصها فيما أحصينا من قصائد المدح لأنا سنتحدث عنها فى فصل خاص مع قصيدة أخرى مدحه بها سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ولم نحصها أيضا فيما أحصينا .

وكذلك لا يحفظ الديوان من مدح المتنبى لكافور سنة تسع وأربعين وثلثمائة إلا قصيدة واحدة هى البائية التى أنشده إياها حين لقيه لآخر مرة .

ثم لا يروى الديوان لنا مدحا لكافور فى سنة خمسين وثلاثمائة ، مع أن الشاعر لم يترك مصر إلا فى ذى الحجة من هذه السنة . أفيمكن أن يكون المتنبى قد

أعرض عن مدح الأمير هذا الإعراض نحو سنتين كاملتين ولم يتهمه الأمير ولم ينكر سكوته هـذا الطويل ؟ أما أن الأمير كان يتهم المتنبى ويرصد له الأحراس ويدس عليه الجواسيس فشىء يظهر أنه كان محققا . وأما أن المتنبى قد سكت عن مدح الأمير ، هذا الوقت الطويل ، فشىء أشك فيه كل الشك . وأكاد أقطع بأن المتنبى قد مضى فى مدح كافور سنة ثمان وأربعين وسنة تسع وأربعين وسنة خمسين كعهده فى السنتين السابقتين . ولكنه أسقط هـذا الشعر من ديوانه أو سقط هـذا الشعر من الديوان بعد المتنبى ولم يصل إلينا . وليس غريبا أن يستخذى المتنبى من كثرة ما استجدى فى غير فائدة ، فيسقط طرفا من هذا الاستجداء ، ولا يبقى من شعره فيه إلا ما يقيم له الحجة عليه . ومهما يكن من شىء فإن قصيدته الأخيرة تصور يأسه ، أو قربه من اليأس كما تصور استخذاءه من شماتة أهل حلب فيه بعد أن حاول ماحاول ، وألح ما ألح ولم يظفر بطائل . وهو يقول ذلك لكافور فى لهجة مؤلمة حقا ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَرَى لى بِقربِي مِنْكَ عيناً قَرِيرةً
وإنْ كان قُرْباً بالبِعادِ يُشَابُ
وهل نافِعِي أَن تُرفَعَ الحُجْبُ بَيْنَنا
ودُونَ الذى أَمَّلتُ مِنكَ حِجابُ
أُقِلُّ سلامى حُبَّ ما خَفَّ عنكُمُ
وأَسكُتُ كيما لا يَكُونَ جَوَابُ
وفى النَفْسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانَةٌ
سُكوتى بَيانٌ عِنـدَها وخِطابُ
وما أَنا بالباغِى عَلَى الحُبِّ رِشْوةً
ضَعيفُ هَوًى يُبغَى عليـه ثَوابُ
وما شِئتُ إلاَّ أَن أَدُلَّ عَواذِلى
عَلَى أَنّ رَأيى فى هَواكَ صَوابُ
وأُعْلِمَ قومًا خالَفُونى فَشرَّقُوا
وغَرَّبتُ أنى قد ظَفِرتُ وخابوا

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين يختم بهما القصيدة :

وما كُنتُ لولا أَنتَ إلاّ مُهاجِرًا
لهُ كُلَّ يَومٍ بَلدةٌ وصِحابُ
ولـكِنّكَ الدُنيا إلىَّ حَبِيبةً
فما عنك لى إلاّ إلَيكَ ذَهابُ

فهذا شعر مستعطف ذليل بائس قد تقطعت به الأسباب أو كادت تتقطع . وهو يعلن حسرته ولهفته فى لهجة عذبة مؤثرة حقا . ولـكن كافورا كان صاحب سياسة لا صاحب عاطفة ، وقد كوّن رأيه فى هـذا الشاعر وقضى فيه بأمره واتخذه أسيرا فى سجن ، ينعم فيه بلين الحياة وخفض العيش ، ورأى أن هذا يكفيه .

وأنت بعد النظر فى هذه القصائد كلها بتفصيل أو فى مما عرضت عليك مقتنع بأن المتنبى قد آثر نفسه وآثر سيف الدولة بخير ما فيها من الشعر ، وأن ما قدم من المدح إلى كافور على جودة بعضه وتوسط بعضه الآخر لم يكن يستحق أكثر مما أخذ المتنبى من مال هذا الأمير .

٨

وقد كادت الفرصة تسنح للمتنبي وتهيىء له العودة إلى الفن الذى برع فيه عند سيف الدولة ، وهو وصف الحرب وتصوير الجهاد ، ولكنها لم تلبث أن أخلفت الظنون واضطرت المتنبي إلى الهدوء الذى كان يكرهه ولا يحتمله إلا فى مشقة وعناء .

ففى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة كانت وحشة بين كافور وبين أنوجور بن الإخشيد ، سعى فيها المفسدون بين الملك ووليه ، وجدوا فى السعى حتى أفسدوا بينهما وحتى كادت الحرب تشب . ثم اصطنع كافور الحلم والأناة كما اصطنع معهما العزم والحزم . وأحس الملك ضعفه عن الحرب وحاجته إلى وليه فعاد الأمر بينهما إلى صفاء . وذكر المتنبي هذه القصة مرتين : المرة الأولى حين هنأ كافورا بعيد الفطر لهذه السنة ببائيته المشهورة التى تحدثنا عنها آنفا . والمتنبي فى هذه القصيدة يجمل ولا يفصل ، ويكاد يؤثر التعريض على

التصريح ، ولكنه مع ذلك حازم عازم ، منضم إلى كافور فى غير تردد ولا التواء ، معلن أن الملك مدين لهذا الرجل ببقائه وسلامته وقصور الأعداء عن الوصول إليه ، وقصور الأحداث عن البلوغ منه ، لأنه قام على هذه الدولة قيام الأب الجرئ الرحيم ، فردّ عنها العدو الخارجى بالحرب ، ورد عنها البؤس والفقر والاضطراب ، بحسن السياسة والتدبير . فالذين يحسدونه أو يمكرون به أو يريدون صرف السلطان عنه طاغون باغون جاحدون للنعمة منكرون للجميل ، وذلك حيث يقول :

يُرِيدُ بِكَ الحُسَّـــادُ ما اللهُ دافعٌ
وسُمْرُ العَوالى والحَدِيدُ المُذرَّبُ
ودُونَ الذى يَبغُونَ مالوْ تخلّصُوا
إلى المَوتِ منهُ عِشْتَ والطِفلُ أَشيَبُ
إذا طَلَبُوا جَدْواكَ أُعطُوا وحُكِّمُوا
وإن طَلَبُوا الفَضْلَ الذى فيكَ خُيِّبُوا
ولو جازَ أَنْ يَحْووا عُلاكَ وهَبْتَها
ولكنْ مِنَ الأشياءِ ما لَيْسَ يُوهَبُ

وأظلمُ أهلِ الظُّلمِ مَن باتَ حاسِدًا
لمن باتَ فى نَعْمائهِ يَتَقلَّبُ
وأَنْتَ الذى رَبَّيتَ ذا المُلْكِ مُرْضَعًا
ولَيْسَ لَهُ أُمٌّ سِـــواكَ ولا أَبُ
وكُنتَ له ليثَ العَرِينِ لِشِـــبْلِهِ
ومالَكَ إلاّ الهنـــداونىَّ مِخْلَبُ
لَقِيتَ القَنا عَنـــهُ بنفسٍ كَريمةٍ
إلى الموتِ فى الهَيْجا من العارِ تَهْرُبُ

ثم يقول :

ويُغنِيكَ عَمَّـا يَنسُبُ الناسُ أنه
إليكَ تَناهَى المكرُماتُ وتُنْسَبُ
وأىُّ قَبِيـــلٍ يَستَحِقُّكَ قَدْرُهُ
مَعَدُّ بْنُ عَدنانٍ فِداكَ ويَعْرُبُ

وظاهر ما فى هذه الأبيات من اندفاع المتنبى فى تأييد كافور وصدق لهجته فى النهوض بالذود عنه . ولنذكر هذا البيت الأخير الذى يفدى الشاعر فيه هذا العبد الأســود

بمعد ويعرب جميعا ، فقد ينفعنا تذكر هـذا البيت حين نرى هجاء المتنبى لكافور .

ولما تم الصلح واستقر الأمر بين الملك ووليه قال المتنبى داليته المشهورة يهنىء بها كافورا . وهى عندى من أجمل شعر المتنبى وأصدقه فى تصوير ما يكون فى مصر بين حين وحين من الفرقة وانشقاق العصا . ثم من الوحدة واجتماع الرأى . ومن أبياتها ما يمكن إنشاده والتمثل به فى هذا العصر الذى نعيش فيـه وفى هذا الطور من أطوار تاريخنا الحديث بصفة خاصة . ونلاحظ أن المتنبى قد أشار إلى الملك فى هذه القصيدة ، ولـكنه لم يسمه وقد أثنى عليه ولـكنه اقتصد فى الثناء ، وخص بالذكر والمدح الخالص كافورا .

وانظر إلى أول القصيدة :

حَسَمَ الصلحُ ما اشتهتهُ الأَعادى
وأَذاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ
وأَرادَتْهُ أَنفُسٌ حالَ تدبيـ
ـرُكَ ما بَيْنها وبَيْنَ المُرَادِ

صار ما أَوْضَعَ المحبُّونَ فيـــه
مِن عتابٍ زيادة فى الوِدادِ
وكلامُ الوُشاةِ لَيسَ عَلَى الأَحْ
بابِ سُلْطانُهُ على الأضدادِ
إنما تُنْجِحُ المقالةُ فى المَرْ
ءِ إذا وافقَتْ هَوًى فى الفُؤادِ

فهذا كلام سائغ اللفظ ، قريب المعنى ، ملائم لأهواء النفوس المجتمعة بعد افتراق ، وعواطف القلوب المؤتلفة بعد اختلاف ، وهو قد صور الفرقة والألفة اللتين كانتا بين الكافورية والإخشيدية سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، وهو فى الوقت نفسه خليق أن يتمثله المصريون فى عصرهم الحديث كلما أتيح لهم الائتلاف بعد الاختلاف ، والاتفاق بعد الافتراق . وقد عطف المتنبى على كافور بعد هذه الأبيات فوصف ثباته وحلمه وإعراضه عن الوشاة وامتناعه على دعاة السوء ، فى كلام ما أرى إلا أنه يصلح للإنشاد فى هذا

العصر الحديث ، ويصور بعض النابهين الذين نحبهم من المصريين . قال :

ولعَمْرِى لقد هُزِزْتَ بما قيـ
ـلَ فأُلْفِيتَ أَوْثَقَ الأَطوادِ
وأشارتْ بما أَبَيْتَ رِجالٌ
كُنْتَ أَهدَى منها إلا الإرشادِ

ثم يقول :

نِلْتَ مالا يُنَالُ بالبِيضِ والسُّمْـ
ـرِ وَصُنْتَ الأَرْواحَ فى الأَجْسادِ
وقَنَا الخطِّ فى مراكزِها حَوْ
لَكَ والمرْهَفَاتُ فى الأَغْمادِ
ما دَرَوْا إذ رَأَوْا فُؤَادَكَ فيهمْ
ساكِناً أنَّ رأْيهُ فى الطرادِ

ثم يقول :

فبهذا ومِثْلِهِ سُـدْتَ يا كا
فورُ واقتَدْتَ كُلَّ صَعْبِ القيادِ

وأَطَاعَ الذى أَطَاعَك والطا
عَةُ لَيْسَتْ خَلائقَ الآسَادِ

ثم يقول :

إنما أنتَ والِدٌ والأَبُ القا
طِعُ أَحْنَى مِن واصِلِ الأَولادِ
لا عَدَا الشَرُّ من بغى لَكما الشرْ
رَ وخَصَّ الفَسادُ أهلَ الفَسادِ
أَنتُما ما اتّفَقْتُما الجِسْمُ والرُّو
حُ فلا احتجْتُما إلى العُوَّادِ

وانظر إلى هذه الأبيات العذبة التى يملؤها الحنان ، والتى تصور أحسن تصوير وأبدعه وأروعه ما يكون من تواصل بعد تقاطع ، ومن مودة بعد حفيظة وضغن والتى نحس معناها بين حين وحين ، ونود لو نحسه فى كل حين :

مَنَعَ الوُدُّ والرِعاية والسُؤْ
دُدُ أن تَبْلغَا إلى الأَحْقادِ

وحقوقٌ ترَقِّقُ القَلْبَ للقلب
ولو ضُمِّنَت قُلوبَ الجمادِ
فَغَدا المُلْكُ باهِرًا مَن رآهُ
شاكِرًا ما أَتَيْتُما مِنْ سَدادِ
فيهِ أيديكما على الظَّفَرِ الحُلْـ
ـوِ وأيْدِى قَوْمٍ على الأكبادِ
هـــذِهِ دَوْلَةُ المكارِمِ والرأْ
فَةِ والْمَجْدِ والندىَ والأيادِى
كَسَفَتْ ساعةً كما تَكْسِفُ الشَمْسُ
وعادَتْ ونُورُها فى ازديادِ

أرأيت أجمل من هذا الكلام وأبرع من هذا التصوير ، وأنفذ من هذه المعانى إلى ضمائر النفوس ودخائل القلوب ، فى ألفاظ حلوة لينة جزلة رصينة وهى مع ذلك ترضى الذوق ولا تؤذيه ، وتقهر السمع ولا تشق عليه . أرأيت شعرا أصدق فى تصوير اتفاق المصريين ، حين يتفقون برغم الكائدين والحاسدين ، من هذا البيت الذى يجمع الصدق والدقة وجمال

اللفظ وعذوبة المعنى ومضاء الرأى ونفاذ البصيرة ورضى النفس وتحدى العدو :

فيهِ أيديكما عَلَى الظَّفَرِ الحُلْـ
ـوِ وأيدِى قَوْمٍ عَلَى الأكبادِ

ويخلص المتنبى بعد ذلك إلى كافور فيختصه بالمدح ويقصر عليه الثناء ، ويصطنع الذوق والظرف فلا يستنجزه وعدا ولا يسأله شيئا ، وذلك حيث يقول :

أَجْفَلَ الناسُ عن طَريق أبى المِسكِ
وذلَّتْ له رِقَابُ العِبَـــادِ
كَيْفَ لا يُترَكُ الطَريقُ لِسَـيْلٍ
ضَيِّقٍ عن أتِيِّـهِ كلُّ وادِ

ولما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة عرضت فرصة أخرى كادت تدفع المتنبى إلى وصف الحرب ، ولكن الظروف حولتها عن وجهها أو حولها كافور نفسه بدهائه القاسى العنيف عن وجهها . فقد ثار شبيب العقيلى فى الشام واجتمع حوله عدد ضخم من الأعراب وعرض النظام للخطر

وأغار على دمشق وكاد يقتحمها ، ولـكنه سقط فى الميدان أثناء الهجوم صريعا ميتا لم يمسسه سيف ولا رمح ولا سهم . واختلف الناس فى تفسير موته ، فظن بعضهم أن قد كان به صرع قضى عليـه . وتحدث قوم آخرون بأن السم هو الذى قتله ، و بأن كافورا هو الذى وجه من دسّ له السم فى الطعام أو فى الشراب .

وقال المتنبى فى هذه القصة ميميته الغامضة ، التى يقال إنهـا أثارت أو قوت الشكوك فى نفس كافور لأن الشاعر لا يذم فى هذه القصيدة شبيبا ، بل يحمده و يرثيه ، و يظهر الأسف الشـديد عليه . وهو فى الوقت نفسـه يحمد حظ كافور و يهنئه بمواتاة الأيام والحوادث له وردها عدوه عنه فى غير حرب ولا قتال . وأنا لا أقف فى هذه القصـيدة موقف المعجب المتسائل ولا موقف المتشكك المسـتريب ، ولا أظن أن كافورا قد شك فيهـا أو ارتاب بها . وما كان له أن يشك أو يرتاب ، وهو فيما أرجح الذى أوحى بهذه القصيدة وكلف المتنبى أن يذهب فيها هذا المذهب ليخفى ما كان قد دبر من كيد ، أو ما زعم الناس أنه دبر من كيد . وهذا

من سيرة الساسة وأصحاب الدهاء معروف فى كل مكان ، وفى قصور الشرق التى يستأثر فيها الفرد بالحكم والسلطان بنوع خاص .

وأول هذه القصيدة :

عَدُوُّكَ مَذمُومٌ بكلِّ لِسانِ
ولو كانَ من أعدائِكَ القَمَرانِ
ولِلّهِ سرٌّ فى عُلاكَ وإنما
كَلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

والناس يسيئون الظن بهذا البيت ، ويرى بعضهم أنه إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح . كأن المتنبى قد جعل ارتفاع قدر كافور أثرا من آثار المصادفة ، ونوعا مما تتكشف عنه الظروف . ولكنى قدمت لك أنى أرتاب فى ارتياب الناس هذا ، إن صح أن نصطنع أسلوب المتنبى فى الحديث . فالبيت مدح خالص لا غبار عليه ولا لبس فيه ، لأن الشاعر لا يريد إلا أن يقول ان الله كتب العلاء لكافور ، وهيأ له قهر الحوادث ، وذلل له المصاعب والعقبات دون أن يكلفه

جهدا أو يحمله عناء ، لأنه أتاح له حظا موفقا سعيدا . فمن الحق على أعدائه أن يعلموا أن الله معه ، وأن الزمان مواتيه ، فلا يطمعوا فيه ولا يشكوا فيما كتب له من فوز وتوفيق . والشعر الذى يأتى بعد هذا صريح فى تحقيق ما أراد الشاعر إليه وهو يقول :

أتَلْتَمِسُ الأَعداءُ بَعْدَ الذى رَأَتْ
قيامَ دَليلٍ أو وُضُوحَ بيانِ
رَأَتْ كلَّ مَن يَنْوِى لك الغدرَ يُبتَلَى
بِغَدْرِ حَياةٍ أو بِغَدْرِ زَمانِ

ولكن الناس بعد أن عرفوا ما كان من فساد الأمر بين الشاعر وكافور ، مشغوفون بالتماس التعريض والتلميح والالتواء فى كل ما قال المتنبى . وهم يحملون شعر الرجل ما لا يحتمل ، ويضيفون إلى المتنبى ما لم يرده ولم يفكر فيه والناس معذورون ، لأن المتنبى نفسه هو الذى استخذى من مدحه لكافور ففتح لهم هذا الباب .

والشاعر يمضى بعد ذلك فى رثاء شبيب ، والثناء

عليه ، بما يخيل إلينا أن قلب المتنبى قد خفق بشىء من الحنان والعطف على هذا المخاطر الذى أعجله الموت عن تحقيق ما كان يريد . ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان المخاطرون المخفقون يذكرون المتنبى بما تعرض له أثناء الشباب . ولعلك لم تنس أن شيئا من هذا الشعور يظهر فى لاميته التى ذكر فيها إيقاع سيف الدولة بالقرامطة الذين أسروا ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود .

فأنت ترى أن إلمام المتنبى بالسياسة المصرية كان يسيرا لأنها لم تكن سياسة حزب وقتال ، وإنما كانت سياسة مكر ودهاء . وليس المتنبى من المكر والدهاء فى شىء ، وأيسر أصول المكر والدهاء ألا يظهر عليهما شاعر لا يمسك لسانه ، وهو ، بعد ، غريب متهم ، وطامع محروم .

٩

وأجمل ما قال المتنبى من الشعر فى مصر إنما هو هذا الغناء الذى صور فيه حزنه وألمه واغترابه ، وهذه البطالة التى فرضت عليه ، وهذا اليأس الذى جاهده خمس سنين . وقد استأثر هذا الغناء بشعره الذى قاله فى مدح كافور كما رأيت ، و بشعره الذى قاله فى هجاء كافور كما سترى . ولكن المتنبى قد تغنى حزنه وألمه ، وما أحاط بنفسه من الكوارث والخطوب فى شعر لم يقصد به إلى مدح ولا هجاء ، وإنما قصد به إلى الغناء وحده . كان طائرا تعود الهواء الطلق والفضاء العريض ، يرتفع فى السماء ما أتاحت له قوته العنيفة أن يرتفع ، فإذا أراد الراحة لم يقع إلا على الشواهق من قمم الجبال ، فإذا هو الآن سجين فى قفص ضيق ، لعله من الذهب المرصع بألوان الجوهر ، ولكنه قفص على كل حال . وكان جوادا مرحا فرحا ، حياته كلها فى العدو والغزو ، ولذته كلها فى المرح والنشاط ، لا يطمئن ولا يرضى إلا إذا مضى أمامه فى البيد

والمهامه ، مستمتعا بحر النهار و برد الليل ، أو اقتحم الصعاب والعقاب إلى العدو ، ثملا بنشوة الظفر أو ألم الهزيمة ، فإذا هو الآن مرتبط فى الفسطاط عند قصر كافور ، قد مضغ الشكيم حتى ملّ مضغ الشكيم ، وقد أفنى مرحه ونشاطه فى هذه الحركات العنيفة المرحة التى يأتيها الجواد الأصيل فى الرباط لا تقدمه ولا تؤخره ، فإذا طالت عليه أضنته وعنته وردته إلى الخمود والفتور .

هذه كانت حال المتنبى حين طالت إقامته فى الفسطاط يغدو على كافور ويروح إلى داره ، ويخلص من حين إلى حين لهؤلاء الجلساء الذين كانوا يروون عنه شعره ، ويسألونه عن غريبه ومشكله ، وما تعود الرجل هذه الحياة الهادئة الخاملة . فإذا أضفت إلى ذلك ، أن أمله فى كافور قد ألح عليه حتى أصبح مرضا ، وأن حزنه لفراق سيف الدولة قد طبع فى قلبه ، حتى أصبح ندوبا لا تزول ، وأنه كان يشعر شعورا قويا مؤذيا بأن كرامته قد أهينت فى مصر ، وبأن الذين تحداهم فى حلب وتركهم مغاضبا لهم ، تنتهى إليهم أخبار حياته هذه المظلمة القاتمة ، فيسخرون منه ويشمتون

به ، وقد تنقطع عنهم أخباره ، فيخلقون الأخبار من عند أنفسهم ، ويتحدثون بها فى مجلس صديقه القديم شامتين ساخرين .

إذا قدرت هذا كله ، وذكرت أن نفس المتنبى كانت من الدقة والرقة ، ورهافة الحس ، بحيث يؤذيها أقل شىء ويثيرها أهون أمر ، عرفت أن الشاعر كان فى مصر تعسا مبتئسا ، خليقا حقا بالرحمة والرثاء . وقد نفس الرجل عن نفسه فى مدحه لكافور ، وفى مجائه إياه ، وحين خلا إلى نفسه ولم يفكر إلا فيها ، ولكن شعره هذا الحزين الكئيب مخالف كل المخالفة ، فى طبيعته ونغمته ولهجته ، لما كان يقوله من الشعر الحزين أيام الشباب . فأنت تذكر شعره الذى شكا فيه ، أيام الشباب ، مكر الزمن به ، وتنكر الحوادث له ، وتألّب الخطوب عليه ، وأنت ترى أن ذلك الشعر قد كان ثائرا هائجا يظهر فيه الاضطراب العنيف ، والغضب الذى لا حد له والذى ينذر بالانفجار ، وينتهى أحيانا إلى ما يخرج به الشاعر عن طوره ، ويطرح فيه كل وقار .

وما أظنك تستطيع أن تجد فى كل ما قاله المتنبى من

شعر الشكوى قبل زيارته لمصر إلا قصيدة واحدة أنكر فيها الشاعر نفسه ، واستسلم فيها للحزن والألم حينا ، ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه ، واسترد قوته العنيفة ، وبأسه الشديد ، وهى الميمية التى قالها بعد أن فر من بدر بن عمار ، ولجأ حينا إلى صديقه المرى ، والتى أولها :

لا أُفتِخارٌ إلا لمنْ لا أُيُضامُ
مُدْرِكٍ أو مُحارِبٍ لا يَنامُ

فأما فى مصر فنحن نحس أن شيئا قد انحطم فى نفس هذا الشاعر العنيف ، فإذا حزنه لا يصطنع لغة الغضب ولا لغة الثورة ، وإنما يصطنع لغة الشكوى والأنين كأنه الجريح لا يستطيع أن يقبض على السيف ، ولا أن يبطش به ، ولا يملك إلا أن يئن أنين العاجز الكليل .

أكان مصدر ذلك أن شيئا قد انحطم فى نفس المتنبى حقا مع تقدم السن ، واختلاف الأحداث ؟ ففارقه شبابه ، وتفرقت عنه خصال القوة والجراءة والبأس ، وبقى له عقله المفكر ، وقلبه الحساس ، ونفسه الشاعرة ، فهو يرى الألم ويحتمله ، ولا يرى فى نفسه القدرة على دفعه ، أم كان مصدر

هذا أنه أسير فى مصر قد ضربت حوله مراقبة شديدة ، وأرصدت له العيون والجواسيس ؟ فهو مضطر إلى الحذر والاحتياط ، وهو مكره على القصد والاعتدال .

كلا الأمرين كان حقا . فقد رشد المتنبى ونصح عقله المفكر ، فأدرك الضعف والفتور نفسه الثائرة . وهو فى الوقت نفسه أسير سجين ، مشدد عليه فى المراقبة ، مكلف أن يتحفظ ويحتاط .

ولم يحفظ الديوان لنا كثيرا من هذا الشعر الذى اختص الشاعر به نفسه فى مصر ، ولكن ما بقى منه خليق بالإعجاب كل الإعجاب ، وهذه الميمية التى قالها حين أصابته الحمّى فى مصر سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة من أرق الشعر العربى كله ، وأعذبه وأرقاه وأشده استثارة للحزن ، وتحريقا للقلوب الحساسة الشاعرة . وقد أعجب القدماء بهذه القصيدة لأن الشاعر قد برع فيها حين أراد وصف الحمى ، وليس فى هذا شك . ولكنى حين أحب هذه القصيدة وأكلف بها ، لا أكاد أحفل بهذه البراعة الفنية أو أقف عندها ، لأن حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار أعظم منه وأبعد

مدى ، وأنفذ إلى القلوب والنفوس . فأنا لا أرى شاعرا يصطنع الشعر ليصور ما يجد من لوعة وحسرة ويأس ، وإنما أرى اللوعة والحسرة واليأس تتخذ الشعر لها لسانا لتبلغ أسماعنا وتنتهى إلى قلوبنا .

وما أشك فى أن لهذه القصيدة قيمتها الفنية الخالصة ، ولكنى لا أشك فى أنها لم تكلف الشاعر من الجهد والعناء ، ما تعود أن يتكلفه فى غيرها من قصائده ، وإنما فاضت بها نفسه ، وانطلق بها لسانه ، وجرى بها قلمه فى غير تكلف ولا عسر . واقرأ هذه الأبيات لترى فيها كيف كانت خيبة أمله فى الأصدقاء :

وَلَمَّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبًّا
جَزَيتُ عَلَى ابتسامٍ بابتِسامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ
لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأَنامِ
يُحِبُّ العاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِى
وَحُبُّ الجاهِلِينَ عَلَى الوَسَامِ

وآنَفُ مِنْ أَخِى لأبى وأُمِّى
إذَا ما لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرامِ

أترى إليه كيف يصطنع النفاق والمداجاة على شدة بغضه للنفاق والمداجاة ، لأنه أصبح لا يجد من ذلك بدا . وأين نحن من المتنبى الذى كان يقول بين يدى أبى العشائر :

فلا مُبالٍ وَلاَ مُدَاجٍ ولا
وانٍ ولا عاجِزٌ ولا تُكَلَهْ

لقد أصبح الآن يجزى على ابتسام بابتسام ، ويلقى نفاقا بنفاق ، لأنه عرف الناس واعترف بأن الجماعة أقوى من الفرد ، وبأن الحوادث أقوى من الإنسان ، وبأن الحياة أعظم قوة من الأحياء .

وانظر إليه كيف يصف سجنه فى مصر :

أَقمتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلاَ وَرَائِى
تَخُبُّ بِىَ الرِكابُ وَلاَ أَمَامِى
ومَلَّنِىَ الفِرَاشُ وكانَ جَنْبِى
يَمَلُّ لِقَاءَهُ فى كلِّ عامِ

قَليـلٌ عائِدِى سَقِمٌ فُؤَادِى
كثيرٌ حَاسِدِى صَعْبٌ مرَامى

وأنا أدع وصفه الرائع للمرض والحمى ، فقد كثر فيه حديث القدماء ، وأصل إلى هذه الأبيات التى يصف فيها علة مرضه الصحيحة وهى هذه البطالة التى فرضت عليه :

يَقُولُ لِىَ الطبيبُ أَكلتَ شَيْئاً
وَداؤُك فى شرابِكَ والطَّعامِ
وما فى طِبِّـهِ أنّى جَوادٌ
أضَرَّ بِجِسمِهِ طُولُ الجمامِ
تَعوَّدَ أن يُغَبِّرَ فى السّرايا
ويدخلَ من قَتامٍ فى قَتامِ
فأمسِكَ لا يطالُ لهُ فيرْعَى
ولا هُوَ فى العَليقِ وَلا اللجامِ

ثم انظر آخر الأمر إلى هـذه الأبيات التى تصور إذعانه للقضاء وصبره على المحن ، ولـكنها تنتهى به إلى أنة هى اليأس القاتم الذى ليس وراءه أمل ولا رجاء :

فإن أمرضْ فما مرضَ اصطبارى
وإنْ أُحْمَمْ فما حُمَّ اعتزامى
وإن أَسْلَمْ فما أَبْقَى ولكِنْ
سَلِمتُ من الحِمامِ إلى الحِمامِ
تَمَتَّعْ من سُهادٍ أو رُقادٍ
ولا تأمُلْ كَرًى تحتَ الرِّجامِ
فإنَّ لثالثِ الحالَيْنِ مَعْنًى
سِوَى مَعْنَى انتباهِكَ والمَنامِ

والمتنبى فى هـذه الأبيات الأخيرة يبلغ الفلسفة العليا ، ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرضه ، وما يحيط به من الأحداث ، إلى التفكير فى طبيعة الموت وما يكون وراء القبر ، وهو هنا يائس وما أراه إلا منكرا للبعث جاحدا للحياة الثانية . ولكنه يؤدى هـذا الإنكار فى تحفظ واحتياط شديدين . وأهون حاليه أن يكون شاكا مرتابا ، كما رأيت فى بائيته التى رثى بها أخت سيف الدولة .

وليست هـذه هى المرة الوحيدة التى يتعمق المتنبى فيها

أمور نفسه وأمور الناس حتى ينتهى به التعمق إلى تجاوز نفسه وتجاوز الناس ، وإذا هو يفكر فى فلسفة الأخلاق أو فى فلسفة الدين . فالنونية التى قالها فى مصر وحفظها لنا الديوان تحدثنا بكثير من تعمق المتنبى أمور نفسه وأمور الناس أحيانا ، وهى على قصرها خصبة كثيرة الدلالة .

وما أرى إلا أن طول تفكيره فى قصته عند سيف الدولة هو الذى ألهمه هذه الأبيات المظلمة التى هى عندى من أسس الفلسفة العلائية :

صَحِبَ الناسُ قَبْلَنا ذَا الزمانا
وعَناهُمْ من شأنِهِ ما عنانا
وتَوَلَّوا بغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْـ
ـهُ وإنْ سَرَّ بعضَهُمْ أحيانا
رُبما تُحْسِنُ الصنيعَ ليالي
هِ ولكنْ تُكدِّرُ الإحسانا

فهو فى هذه الأبيات يضع أساس التشاؤم المطلق واليأس الشامل ، والتشاؤم الذى لا موضع فيه للتفاؤل . فهو قد صحب

الزمان فلم ير منه خيراً ، والناس قبله قد صحبوا الزمان فلم يروا منه خيرا ، وهو لا ينكر أن اللذة قد تعرض للناس فى حياتهم بين حين وحين ، ولكنه لا يشك فى أنها لذة عارضة لا تلبث أن تزول ، وطارئة لا تقيم حتى تريم .

والناس جميعا مهما تختلف حظوظهم من اللذات يتركون الحياة يائسين محزونين ، آخر حظهم هذه الغصة التى تنغص كل ما بلوا من خير ولقوا من إحسان . فالأصل فى الزمان الشر ، به يبدأ حياة الناس و به يختم حياة الناس ، وقد يخلى هذه الحياة من الخير ، وقد يشيع فيها بعض الخير ولكنه منته بها دائما إلى الشر .

وليس الناس خيرا من الزمان ولكنهم شركاؤه فى الشر وأعوانه على السوء كأنما تلقوا منه العدوى ، فأسرعوا إلى موافقته ومعونته .

وكأنَّا لم يَرْضَ فينا برَيْبِ الدْ
دَهْرِ حَتى أعانَه من أَعانا
كلَّمَا أَنْبَتَ الزَمَانُ قَناةً
رَكَّبَ المَرْءُ فى القَناةِ سِنانا

ومرادُ النفوسِ أصغرُ مِنْ أنْ
تتعادَى فيـهِ وَأنْ تتفانَى

وإذا كان الزمان كله شرا ، وإذا كان الناس أعوانا للزمان على ما يصب عليهم من الشر ، فما عسى أن تكون السيرة التى ينصح بها المتنبى للرجل الذى يريد أن يكون حكيما كريما ؟ هى أن يكون شجاعا ، وألا يذعن للذل ، ولا يستسلم للهوان ، فأقصى ما ينتهى أمره إليه حين يأبى الذل ويمتنع على الضيم ، ويثور على الجائرين إنما هو الموت والموت واقع لا محالة . وهو نازل بالشجاع والجبان ، وبالقوى والضعيف ، وبالثائر والمستكين . وإذن فليس هناك معنى للخوف منه أو تهيب لقائه . إنما يفهم الخوف من الموت لو أن للأحياء سبيلا إلى الخلود . فأما والحياة إلى موت ، والبقاء إلى فناء ، فاحتمال الضيم عجز ، والإذعان للهوان جبن .

وقد يخشى الناس ألم الموت لأنهم يقدرون أنه مؤلم ، ولكن قليلا من الروية يزيل من نفوسهم هذا الخوف . فكل ما نراه صعبا قبل وقوعه نراه سهلا عند وقوعه ، وإذن فليس للكريم خطة إلا الإقدام :

غَيْرَ أَنَّ الفتَى يُلاقى المنايا
كالِحَاتٍ ولا يُلاقى الهوَانا
وَلَوَ أَنَّ الحياةَ تَبْقَى لِحَيٍّ
لَعَدَدْنا أَضَلَّنا الشُجْعانا
وإذا لم يَكُنْ من الموتِ بُدٌّ
فَمِنَ العَجْزِ أَنْ تكُونَ جَبانا
كلُّ ما لم يَكُنْ من الصَعْبِ فى الأنْـ
ـفُسِ سَهْلٌ فيها إذا هُوَ كانا

وما أرى إلا أن هذه الأبيات الأخيرة تدل على الخطة التى كان المتنبى يديرها فى رأسه حين استيأس من كافور وحين استيقن أنه أسير عند هذا الأمير ، وهى خطة الهرب من مصر .

والديوان يحدثنا بأن الشاعر استأذن كافورا فى الذهاب إلى الرملة ، ليقضى ما لا كتب له به ، فلم يأذن له الأمير وأقسم عليه لا يرحل وتكلف أن يقضى له ما له . ومنذ ذلك الوقت لم يشك المتنبى فى أنه سجين كافور ولم يفتر عن التفكير فى الإفلات من هذا السجن .

وكم كنت أحب أن أقف عند هذه النونية التى قالها المتنبى فى سيف الدولة وقد انتهت إليه الأنباء فى مصر بأنه نعى فى مجلس الحمدانى . فهذه النونية ليست أقل روعة ولا جمالا من القصيدتين السابقتين ، ولكنى أذكر منها آخرها ، لأنه يصور لنا ألم المتنبى من الحرمان فى مصر والشماتة فى حلب ، ولا أعرف شيئا يؤلم ويؤذى مثل هذه التعلة التى يخدع بها الشامتين به ، وإن كان فيما بينه وبين نفسه لا ينخدع ولا يأمل ولا ينتظر شيئا :

وإن تأخّرَ عَنّى بَعضُ مَوْعِدِهِ
فما تأخرُ آمالِى ولا تَهِنُ
هُوَ الوَفِىُّ ولكِنِّى ذَكَرْتُ لهُ
مودَّةً فهْوَ يَبْلُوها ويمتحِنُ

وأنا أحب لك أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها فهى من أرقى شعر المتنبى وأبقاه .

١٠

وكأن الزمان قد تأذن أن يعاقب المتنبى على ما بلا عند سيف الدولة من راحة ولذة ونعيم ، أو أن يعاقبه على ما أظهر عند سيف الدولة من اعتداد بالنفس وازدراء للناس ، ومن بغى وطغيان وكفر للنعمة وجحود للجميل . فأقسم لينغصن عليه حياته فى مصر كلها تنغيصا . فبينا هو شقى فى الفسطاط بفراق سيف الدولة ، وإخلاف كافور ، وأخذ الطرق عليه من كل وجه واضطراره إلى حياة السجناء ، وإذا أمل يبدو له ، فيرد عليه فضلا من حياة ، ويشيع فيه شيئا من نشاط . فقد اتصل ، بعد جهد ومشقة ، بأمير من أمراء مصر ، هو أبو شجاع فاتك الرومى ، الذى كان يعرف بالمجنون . وكان فاتك هـذا مولى من موالى الإخشيد مثل كافور ، وكان قائدا من قواده ، وكان مقدما عنده وأثيرا فى نفسه وكان يفضل على كافور لأنه أبيض ، من الروم ، وكافور أسود نوبى أو زنجى ، ولأن فاتكا كان مقداما جريئا يكاد يبلغ

التهور أو الجنون ، فأما كافور فقد كان كما رأيت من سيرته حازما عازما شجاعا ، ولكنه معتدل يؤثر المكر والدهاء على الحرب والقتال ، ويصطنع فى ذلك مذهب سيده الإخشيد . وكان فاتك مسرفا فى الكرم والجود ، إن صدق تصوير المتنبى له ، وصح ما يروى من إهدائه إلى الشاعر عن سعة وسخاء ، ولم يكن كافور بخيلا ولا حريصا ، ولكنه كان مدبرا يكره الإسراف وينأى عنه ، ولعل المتنبى تقرب إليه بقوله فى الدالية المشهورة :

فلا يَنْحَلِلْ فى المَجْدِ مالُكَ كلُّهُ
فيَنْحَلَّ مجدٌ كان بالمالِ عَقْدُهُ
وَدَبِّرْهُ تدبيرَ الّذى المجدُ كَفُّهُ
إذا حارَبَ الأعداءَ والمالُ زَنْدُهُ
فلا مَجْدَ فى الدُنيا لِمَن قَلَّ مالُهُ
وَلا مالَ فى الدُنيا لمن قَلَّ مَجْدُهُ

ولما مات الإخشيد قضت الظروف أن يكون تدبير الملك إلى كافور ، دون فاتك ، فانحاز هذا إلى الفيوم ،

وكانت إقطاعا له ، وكانت أنباؤه وأحاديث الناس عنه تنتهى إلى المتنبى فتطمعه وتغريه . ولكنه كان لا يجد إلى لقائه سبيلا ، لتضييق كافور عليه وتشديده فى المراقبة .

وقد اعتل فاتك وأقبل إلى القاهرة يستشفى ، سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، ولعله احتال فى لقاء المتنبى ، واحتال المتنبى فى لقائه ، وأتيح لهما هذا اللقاء فى الصحراء ، كما يقول ابن خلكان . ثم أهدى أبو شجاع إلى المتنبى فأحسن الإهداء ، وأعطاه فأجزل العطاء ، واستأذن المتنبى كافورا فى أن يشكر لفاتك إهداءه وعطاءه فلم يجد كافور بدا من الإذن ، مجاملة ومصانعة أيضا . وقال المتنبى فى فاتك لاميته المشهورة :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها وَلا مالُ
فلْيُسْعِدِ النُطْقُ إنْ لم تُسْعِدِ الحالُ

وكأن المتنبى لم يستطع أن يكف نفسه عن التعريض الخفى بكافور ، فقال فى البيت الثانى من هذه القصيدة :

واجزِ الأميرَ الّذى نُعماهُ فاجِئَةٌ
بِغَيْرِ قَوْلٍ ونُعْمى الناسِ أقوالُ

وهو كذلك لم يستطع أن يخفى تأذيه بهذا السجن الذى يمسكه فى الفسطاط ، فقال :

وإنْ تَكُنْ مُحْكَماتُ الشُّكْلِ تَمْنَعنى
ظهورَ جَرْيٍ فلِي فِيهِنَّ تَصْهالُ

ثم اتخذ بعد ذلك فى مدح فاتك سبيلا سواء ، ليس فيها تموّج ولا التواء .

ولعل المتنبى كان يتحدث إلى نفسه بأن الظروف قد تتيح له الاتصال بفاتك فى غير احتياط ولا حرج . ومن يدرى ؟ لعله كان يجد عند فاتك ما يعزيه عما لم يظفر به من كافور . ولكن الزمان كان قد تأذّن ، كما قلت لك ، بأن ينغص على المتنبى حياته كلها فى مصر . فقد مات فاتك بعد أن سمع هذه اللامية بوقت قصير ، وحزن المتنبى عليه كما يستطيع أن يحزن ، ورثاه كما يستطيع أن يرثى فى قليل من الإجادة والتأثر ، وفى كثير من الكلام . فقد رثاه ثلاث مرات فى ثلاث قصائد ، ولكنه لم يظهر هذا الرثاء فيما أرجح إلا بعد خروجه من مصر ، وأكبر ظنى أن المرثية الأولى قيلت فى الفسطاط نفسها ، وأولى هذه المراثى عينيته التى مطلعها :

الحُزْنُ يُقلقُ والتَجمُّلُ يَرْدَعُ

والدَّمْعُ بَيْنَهُما عَصِيٌّ طَيِّعُ

والثانية ميميته التى أولها :

حَتَّامَ نَحنُ نُسارِى النَّجْمَ فى الظُلَمِ

وما سُراهُ عَلَى خُفٍّ ولا قَدَمِ

وقد قيلت فى الكوفة .

والثالثة ميميته التى قالها فى الكوفة وقد ذكره ببعض هداياه وأولها :

يُذَكِّرُنى فاتِكا حِلْمُهُ

وَشَىءٌ من النَّدِّ فيه اسْمُهُ

وليس فى هذا الرثاء كله ما يميزه من رثاء المتنبى إلا ما يشتمل عليه من هجاء كافور ، كما أن مدح المتنبى لفاتك لا يمتاز من سائر مدائحه بشىء .

فلندع هذا الشعر الذى لا يكاد يصور من حياة الشاعر إلا بارقة أمل لم تلبث أن أخلفت الأيام فيها ظنون الشاعر اليائس الحزين .

١١

وقد انتهى المتنبى بعد طول الانتظار إلى اليأس من كافور وخيبة الأمل فيه . وإذا صدق الديوان فقد أقام سنة كاملة فى مصر لا يرى كافورا ولا ينشده . وإذا صدق ما يقوله بعض الرواة ، فقد كان يظهر فى القصر ويسير فى المواكب ، ولكنه لا يمدح الأمير طوال سنة خمسين وثلثمائة . وأكبر الظن أنه كان يعيش عيشة المغضوب عليه ، الذى أخذت عليه طرق الفرار ، فهو حر فى ظاهر الأمر سجين فى حقيقته .

فى ذلك الوقت جعل المتنبى يتهيأ للهرب من جهة ، ويقول الشعر فى هجاء كافور ، والناس يكبرون هذا الهجاء ويكثرون الإعجاب به والكلام فيه . والمحدثون المعاصرون يختلفون فيه اختلافا كثيرا ، فمنهم من يرى أن المتنبى قد تجاوز كافورا بهذا الهجاء إلى مصر كلها والمصريين جميعا ، ومنهم من يرى أنه لم يرد مصر ولا المصريين ، وإنما

أراد كافورا ، ومن كان إليهم الحل والعقد من قادة الإخشيديين . وهم بعد ذلك يختلفون ، فمنهم من يعذر المتنبى ، ومنهم من يمقته ويسرف فى مقته ، ويكره من أجل هذا الهجاء شعره كله . وربما كان من الناس من يرى شيئا من الصدق فيما عاب المتنبى به المصريين . فمن الناس من يتمثل بقوله :

أغايةُ الدينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبكُمْ
يا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِها الأُمَمُ

وأكثر الناس يتمثل بقوله :

ومَاذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكاتِ
ولكِنَّهُ ضَحِكٌ كالبُكا

وربما تمثل بعضهم بقوله :

نامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعالِبِها
فَقَدْ بَشِمْنَ وما تَفْنَى العناقيدُ

وأنا أعترف بأنى لا أرى كل هذه الخصومة إلا لغوا لا خير فيه . فقد غضب شاعر من الشعراء على أمير من

الأمراء فهجاه ، بعد أن رضى عنه فأثنى عليه . وهـذا شيء يكون فى كل زمان ويكون فى كل مكان . وما ينبغى أن نحب الشعراء أو نبغضهم ، لأنهم مدحوا أو هجوا ، ولأنهم مدحونا نحن أو هجونا ، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح ، وهجوا فأجادوا الهجاء .

وقد رأينا أن مدح المتنبى لكافور كان مدحا معتدلا ، يجود حينا ويتوسط حينا آخر . وكان جزل اللفظ ، رصين الأسلوب ، أقرب إلى الرضى منه إلى السخط . وما أشك فى أن المتنبى قد وفق إلى الإجادة فى هجاء كافور والمصريين أكثر مما وفق إلى الإجادة فى المدح ، وليس يطلب إلى الشاعر حين يهجو أن يقول حقا ، وإنما يطلب إليه أن يتقن الإساءة إلى من يهجو ، ويبرع فى التشهير به والتشنيع عليه . فأما أن يكون صادقا أو كاذبا ، فأما أن يكون مرضيا للأخلاق أو مخالفا عن أمرها وقانونها ، فهذا شيء لا يعنى الفن بحال من الأحوال . وقد كذب الفرزدق على جرير ، وكذب جرير على الفرزدق ، وكذب غير

الشاعرين عليهما جميعا ، وقضى لهؤلاء الشعراء بالبراعة فى الهجاء .

فماذا أنكر المتنبى من كافور ؟ أنكر عليه خلقه أولا . رآه أسود دميما ، قبيح الشكل ، ضخم المشفر ، مشقوقه غليظ القدمين ، مشقوقهما أيضا ، خصيا ، ثم عيره هذا كله فى شعر مضحك لاذع من غير شك . ولكنه كان يعرف هذا كله من كافور حين كان يمدحه ويتملقه ، ويسرف فى التقرب إليه . فهو قد أضحك الناس من كافور ، ولكنه قد غض من نفسه عند الناس . والناس قد يضحكون من الرجل الدميم ذى الخلقة البشعة ، والشكل القبيح ، ولكنهم مع ذلك يكبرون عقله ، ويعجبون بأخلاقه ، ويحمدون مهارته فى السياسة ، وبراعته فى تدبير أمور السلطان . وكذلك ضحك الناس من كافور ، وما يزالون يضحكون منه إذا قرءوا أو سمعوا هجاء المتنبى له ، ولكنهم لا يزدرونه ولا يحقرونه ، وإنما يضحكون منه فى شىء من العطف وكثير من الإعجاب . فإذا أنكروا أحدا فهم ينكرون الشاعر الذى أعطى ثم أخذ ، ومنح ثم استرد ، وقال ثم كذب

نفسه . وهم حين يضحكون من هذا الشاعر لا يبخلون عليه بالإعجاب والإكبار . فهم يكبرون فنه وبراعته فى تصريف الكلام ، ولكنهم يصغرون رأيه ويحقرون خلقه ، ولا سيما حين يكون هذا الرجل مكبرا لنفسه كما كان المتنبى يكبرها .

والمتنبى يهجو كافورا بأصله ، وبأنه كان رقيقا تلعب فى رأسه يد النخاس . وهذا كلام يضحك الناس ويرضى العامة ، ولكنه لا يغض من كافور ، ولا يضع من قدره . فقد كان المتنبى نفسه يثنى عليه لأنه ارتقى من حاله تلك إلى أن أصبح يدبر ملكا واسعا وسلطانا بعيدا .

والمتنبى بعد هذا كله ينكر نفسه أشد الإنكار ، فما ينبغى للفيلسوف الحكيم الذى أنفق شبابه الأول ثائرا على النظم الاجتماعية ، منكرا لما تقوم عليه من الجور ، مؤمنا بالمساواة بين الناس جميعا أن يعيب رجلا بسواد الجلد ، أو أن يعيبه بنفس هذا النظام الذى كان ينكره ويثور به ، والذى كان يقسم الناس إلى السادة والعبيد ، وإلى الأحرار والأرقاء ، وإلى الأغنياء والفقراء .

فالمتنبى فى قصته مع كافور كلها صغير حقا ، صغير حين

مدح ، وصغير حين هجا . صغير حين رضى ، وصغير حين غضب . ولكن صغره هذا لا يمنعه من أن يهجو فيجيد ، ومن أن يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد . والحق بعد هذا كله أنه قد هجا كافورا فكان لاذع الهجاء . ولعله هجا المصريين فوفق إلى تصوير شيء من مواطن الضعف فيهم ، ومن ذا الذى لاحظ له من ضعف ؟ وأنا أعتذر — إذا لم يكن بد من الاعتذار — من الإعجاب ببعض هجاء المتنبى المصريين ، فكما أنه قد أحسن تصوير لون من ألوان الحياة المصرية حين ائتلف كافور ومولاه بعد اختلاف ، فهو كذلك قد أحسن تصوير لون من أخلاق المصريين حين وصف إذعانهم وخنوعهم لهذا الأسود الذى كانوا يرونه يضرب ويهان ويعبث به فى الأسواق ، ثم أصبحوا يرونه ملكا ويدينون له بالطاعة والخضوع . وما أكثر الظروف التى تدفعنا جميعا إلى أن نتمثل فى شؤون أنفسنا بالأبيات التى ذكرتها آنفا من شعر المتنبى دون أن يمسنا من ذلك أذى أو يلحقنا منه عار . والشعب الكريم كالفرد الكريم

خليق أن يعرف عيب نفسه ويجد فى إصلاحه ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولننظر فى نماذج من هجاء المتنبى لكافور كما نظرنا فى نماذج من مدحه إياه . ولنبدأ بهذه المقطوعة اليائية التى جاءت على نفس الوزن والقافية اللذين اصطنعهما فى أول قصيدة مدحه بها حين أنشده :

كفىَ بِكَ داءً أن تَرَىَ الموتَ شافيا
وحَسْبُ المنايا أَن يَكُنَّ أمانيا

ومن يدرى ؟ لعل المتنبى لو فرغ لكافور وكان منظم النفس منظم الحياة ، لقال فى هجائه بمقدار ما قال فى مدحه ، ولعارض كل قصيدة فى المدح بقصيدة فى الهجاء تشبهها فى الوزن والقافية ، وتنقض ما اشتملت عليه من ثناء .

ولكن المتنبى لم يفرغ حتى لهذا ، فهو كان مشغولا عن الفن الخالص ، لا يقول الشعر إلا حين يرغب أو يرهب ، وحين يحب أو يبغض . فأما الفراغ للفن من حيث هو فن فذلك شىء ليس من شأنه ، ولا هو من شأن كثير من شعرائنا ، ولا سيما فى هذا العصر العباسى .

قال المتنبى فى هجاء كافور :

أُريكَ الرِّضا لو أَخْفَتِ النفسُ خافيا
وما أنا عن نَفْسى ولا عَنْكَ راضيا
أَمَيْناً وإخْلافا وغَدْرًا وخِسَّةً
وجُبنا أَشَخْصاً لُحْتَ لى أمْ مَخازِيا
تَظُنُّ ابتسامانى رَجاءً وغِبْطَةً
وَما أنا إلاّ ضَاحِكٌ من رَجائيا

وقد أنصف المتنبى نفسه ، وأنصف منها فى هذه الأبيات حين لم يسخط على كافور وحـده ، بل سخط على نفسه أيضا وحين لم يضحك من كافور وحده ، بل ضحك مما ناط به من أمل وما عقد به من رجاء . ولـكن المهم أن نعلم ماذا كان يقول المتنبى فى كافور لو أنه لم يخيب أمله ، ولم يخلفه ما وعده . أكان يرى فيه كل هذه الخصال التى زعم أنه يراها فيه الآن ، وأنه كان يراها فيه حين كان ينشده المدح ويرفع إليه الثناء ، ولـكن البيت الثانى على

كل حال جميل ، ولا سيما قوله :

أَشَخْصاً لُحْتَ لِي أَمْ مَخازِيا

ثم يقول :

وتُعْجِبُنى رِجْلاكَ فى النَّعْلِ إنّنى
رأيْتُكَ ذا نَعْلٍ إذا كنتَ حافيا
وإنّك لا تَدْرِى أَلَوْنُكَ أَسوَدٌ
مِنَ الجَهْلِ أمْ قد صارَ أَبيضَ صافيا

وفى البيت الأول ظرف ، ولكن فى البيت الثانى مبالغة سخيفة فلم يكن كافور يظن به الجهل إلى هذا الحد .

ثم يقول :

ولولا فُضُولُ الناسِ جِئْتُكَ مادِحًا
بما كُنْتُ فى سِرِّى به لك هاجيا
فأَصبحتَ مَسرُورًا بما أنا مُنْشِدٌ
وإن كان بالإنشاد هَجْوُكَ غاليا

وهذا أبلغ فى تصوير الجهل فقد يظن بالرجل الغفلة

عن التفريق بين المدح والذم أكثر مما تظن به الغفلة عن التفريق بين البياض والسواد .

ثم يقول :

فإن كُنتَ لا خيرًا أفَدْتَ فإنّنى
أفَدتُ بِلَحْظِى مِشْفَرَيْكَ الملاهِيا

ومثلُك يُؤْتَى من بلادٍ بَعيدَةٍ
ليُضْحِكَ ربَّاتِ الحجالِ البَواكيا

وليس بهذين البيتين بأس ، فقد تكلف الشاعر فيهما عزاء عما احتمل من مشقة ، وما قطع من طريق ، وما أدرك من خيبة ، وكان عزاءه أنه ضحك من مشفرى كافور كما ضحك من رجليه .

ومن أجود هجائه لكافور هذه الأبيات الميمية التى بدأها هازلا ضاحكا ، ثم أخذ يجد شيئا فشيئا حتى انتهى إلى حزن فلسفى عميق ، ثم إلى غضب حمله على أن يحرض على كافور من يقتله . وذلك قوله :

من أيَّةِ الطُرُقِ يأتى مِثْلَكَ الكَرَمُ
أين المحاجِمُ يا كافورُ والجَلَمُ
جاز الأُلَى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدْرَهُمُ
فعُرِّفُوا بك أنَّ الكَلْبَ فَوْقَهُمُ
لا شَيْءَ أَقْبَحُ من فَحْلٍ لهُ ذَكَرٌ
تقُودُه أمةٌ لَيْسَتْ لها رَحِمُ
ساداتُ كُلِّ أُناسٍ من نُفوسِهِمِ
وسَادَةُ المُسلِمينَ الأعْبُدُ القَزَمُ
أغايةُ الدينِ أنْ تُحْفُوا شوارِبَكم
يا أُمَّةً ضَحِكَتْ من جَهْلِها الأُمَمُ
أَلا فتًى يُورِدُ الهنـــدِيَّ هامَتَهُ
كيما تزُولُ شُكُوكُ الناسِ والتُهَمُ
فإنَّهُ حُجَّةٌ يُؤذِى القُلُوبَ بها
مَنْ دينُهُ الدَهْرُ والتَعْطيلُ والقِـدَمُ
ما أقدَرَ اللهَ أن يُخزِى خَلِيقَتَهُ
ولا تُصـدِّقَ قوما فى الذى زَعَمُوا

وللمتنبى فى كافور مقطوعات أخرى يعرفها الناس ، يبلغ فيها الإجادة ، ولا يرتفع أحيانا فيها عن السخف . ولكنى أقف عند قصيدته الدالية التى قالها عند خروجه من مصر فى آخر سنة خمسين وثلثمائة . وهى خليقة بالعناية حقا ، ولا سيما القسم الأول منها ، لما فيه من هذا الغناء الحزين الذى أجاده المتنبى فى مصر كل الإجادة .

وانظر إلى هذه الأبيات الأولى ، وإلى هذه اللهجة القوية التى يملؤها الحزن واللهف والإشفاق . فهو يستقبل العيد جاهلا بماذا يعود عليه . أبهذه الهموم والأحزان التى تعوّد أن يلقاها فيه منذ أقام بمصر ؟ أم بشىء آخر يغير حاله السيئة هذه ، وينقله إلى حال خير منها ؟ وهو مع ذلك مبتئس بالعيد ، كاره له ، يتمنى لو بعد عنه ، لأن أحباءه منه بعيد ، وما يريد أن يستمتع وحده بالسرور . فمن هؤلاء الأحباء ؟ وأين يكونون ؟ أهم فى قصر سيف الدولة بحلب ، حيث لا يستطيع أن يذهب ؟ أم هم بالكوفة ، حيث يريد أن يستقر ؟

يظهر أنهم ليسوا هنا ولا هناك ، ولا فى أى مكان آخر ،

وإنما هم فى نفس المتنبى ، أو هم فى آماله التى لا يبلغها ، وأمانيه التى لا يستطيع لها تحقيقا .

فانظر إليه كيف يقول :

لولا العُلَا لم تَجُبْ بى ما أَجُوبُ بها
وجناءُ حَرْفٌ ولا جَرْداءُ قَيْدُودُ
وَكانَ أَطْيَبَ من سَيْفِى مُعانَقَةً
أشباهُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأمالِيدُ

فأحباؤه إذن ليسوا أشخاصا يقيمون فى حلب ، أو فى الكوفة ، وإنما هى أطماعه وأمانى نفسه التى لم يظفر بها قط ، ولن يجد إلى الظفر بها سبيلا .

واقرأ هذه الأبيات التى لا أعرف أجمل منها ، ولا أصلح للغناء :

لم يَتْرُكِ الدّهْرُ مِنْ قلبى ولا كَبِدِى
شيئاً تُتَيِّمُهُ عينٌ ولا جِيدُ
يا ساقِيَىَّ أَخَمْرٌ فى كُؤُوسِكُما
أم فى كُؤُوسِكُما هَمٌّ وَتَسْهِيدُ

أَصَخرةٌ أنا مالِى لا تُحَرِّكنى
هـذِى المُدامُ ولا هذِى الأغارِيدُ
إذا أُرَدتُ كُمَيْتَ اللونِ صافِيـةً
وَجَدْتُهـا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

أما أنا فمفتون بهذه الأبيات ، وبالثلاثة الأخيرة منها خاصة . وما أعرف أنى وجدت فى كل ما قرأت من الشعر العربى ما يشبهها جمالا وروعـة ، ونفاذا إلى القلب وتأثيرا فى النفس . ومهما أحاول فلن أستطيع تصوير ما يملأ نفسى من الحزن حين أسمع تحدثه إلى ساقييه وسؤاله إياهما عما فى كؤوسهما ، أخمر هو أم هم وتسهيد ؟ .

ومهما أقل فلن أستطيع أن أصور إعجابى بهذا البيت الذى يسأل فيه عن نفسه ، ما له لايطرب للخمر ولا يطرب للغناء . وما أعرف بيتا يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيرا من هذا البيت ، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت ، من أشد الشعر تحريكا للنفوس و إثارة للطرب الحزين فى القلوب .

ثم انظر إلى هذه الحسرة التى يصيح بها البيت الأخير ، صيحة اليأس والقنوط ، لأنه يبتغى المدام فيظفر بها ، ولكنه وحيد قد فقد حبيب نفسه ، فهو لا يستطيع أن يلهو وحده ، ولا أن ينعم بلذة وحيدا .

ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ، فقد أخذ الشاعر يوضح عما فى نفسه و يبين أسباب حزنه شيئا فشيئا :

ماذا لَقِيتُ من الدُّنيا وأعجَبُهُ
أنّى بما أنا باكٍ منه محسودُ
أَمسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خازِنا ويَداً
أنا الغَنِيُّ وأموالِي المَواعِيدُ

وهذا الشطر الأخير جميل رائع بما فيه من هذا الإيجاز ومن هذا الشىء الذى يشبه الطباق . فهو غنى ، ولكنه فقير ، لأن ثروته وُعود لم تتحقق . هذا الشطر الجميل الذى سار مسير الأمثال كذب كله . وكان المتنبى يعرف أنه كذب ، لأن هذه الإبل التى كانت تخدى بين يديه مثقلة بما كانت تحمل من الذهب والفضة والمتاع ، والتى كان

المتنبى حفيا بها ، حريصا عليها ، لا يتردد فى أن يقترف الإثم ذيادا عنها ، واحتفاظا بها . هـذه الإبل كانت خليقة لو استطاعت أن ترد عليه شطره هذا ، وأن تصيح به ، أنه خرج من مصر ، كما خرج من حلب ، ومعـه أموال أخرى غير المواعيد .

وقد وصل المتنبى إلى كافور وأصحابه ، فهجاهم بالكذب والغدر و إخلاف الوعد ، ومقتهم ومقت الجود معهم ، ولكن انظر إليه بعد قليل كيف يقول :

أَكُلَّما اغتالَ عبدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ
أو خانَهُ فله فى مِصْرَ تَمْهِيدُ
صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبِقِينَ بها
فالحرُّ مُسْتَعْبَدٌ والعبـدُ معبُودُ
نامَتْ نَواطِيرُ مصرٍ عن ثعالِبِها
فقـد بَشِمْنَ وَما تَفْنَى العَناقِيدُ

ولست أعرف أصدق فى مصر ولا أبرع فى تصويرها من هذا البيت الأخير .

وما أرى إلا أن المتنبى قد ألهم البلاغة والحكمة حقا ، حين وفق إلى هذا البيت الذى يختصر لونا من حياة مصر منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلى هذا العهد الذى نحيا فيه . ولو أن التاريخ أراد أن يحصى الثعالب التى عدت على مصر وأموالها ، فأخذت منها ما أطاقت وما لم تطق حتى أدركها البشم وما هو فوق البشم ، ونواطيرها نائمة ، وقادتها غافلون ، وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا تنفد ، ودول الثعالب يتلو بعضها بعضا ، ويقفو بعضها أثر بعض ، أقول لو أراد التاريخ إحصاء هذه الثعالب ، لما استطاع ، ولست أدرى ، أيأتى يوم يكذب فيه هذا البيت من شعر المتنبى ؟ فلا تنام نواطير مصر ، ولا تبشم الثعالب فيها ، ولا يعدو الماكرون الغادرون على أهلها ، الآمنين الغافلين . ثم يقول المتنبى بعد قليل :

ما كنت أحسَبُنى أحيا إلى زمَن
يُسِىءُ بى فيه كَلْبٌ وهُوَ محمودُ
ولا توَهَّمْتُ أنَّ الناسَ قد فُقِدُوا
وأنَّ مِثلَ أبِى البيضاءِ مَوجُود

وأنَّ ذا الأسْوَدَ المثقُوبَ مِشْفَرُهُ

تُطِيعُهُ ذى العضاريطُ الرَعادِيدُ

جَوعانُ يأكلُ مِن زادى ويُمْسِكُنى

لِكَىْ يُقالَ عَظِيمُ القَدْرِ مَقصُودُ

ثم يبلغ الغضب من الشاعر أقصاه حين ينتهى إلى هذا البيت ، فإذا هو يعلن عزمه على الهرب فى هذا البيت الذى يسبغه عليه اللون الحماسى القاتم فى الشطر الأول ، ولكنه لا يلبث فى الشطر الثانى أن يستحيل إلى فكاهة تثير الضحك والاستهزاء :

وَيْلُمِّها خُطَّةً وَيْلُمِّ قابِلِها

وإذن فالمتنبى ينكر هذه الخطة ويأبى ما تحمله من الضيم ، ولكن كيف يكون إنكاره وكيف يكون إباؤه ؟ لن يكون مقاومة ولا امتناعا ، ولكنه سيكون هربا وفرارا :

لِمِثْلِها خُلِقَ المهريّةُ القُودُ

والقصيدة متينة رصينة إلى آخرها ولعلها أجود ما قال المتنبى فى هذا الفن . ولم يتحدث عن هجاء المتنبى لكافور

من لم يرو هذه الأبيات الخالدة التى جاءت فى آخر مقصورته والتى ما أحسب مثقفا خليقا بهـذا الوصف جهلها أو يجهلها منذ شاع شعر المتنبى فى الناس :

ومَاذا بمصرَ منَ المُضْحِكاتِ
ولـكِنَّهُ ضَحِكٌ كالبُكا

بهـا نَبَطِيٌّ مِنَ اهْلِ السَّوادِ
يُدَرِّسُ أنْسابَ أَهْلِ الفَلا

وأســوَدُ مِشفَرُهُ نِصفُهُ
يُقالُ لَهُ أَنتَ بَدْرُ الدُّجى

وشِعْرٍ مَدَحْتُ به الـكَرْ كَدَنْ
نَ بَيْنَ القَريضِ وبينَ الرُّقى

فمـا كانَ ذلك مَدْحًا لَهُ
ولـكنَّه كان هَجْوَ الوَرَى

وقد ضَـلَّ قومٌ بأصنامِهم
وأَمَّا بزِقٍّ رِياحٍ فَلا

وَمن جَهِلَتْ نفسُهُ قَدرَهُ
رَأى غيرُهُ مِنــهُ ما لا يرى

وسواء أردنا أم لم نرد ، فإن لمصر على المتنبى فضلين لا يستطيع هو ولا نستطيع نحن أن ننكرهما . فهى قد رقت غناءه وعلمته الحزن الطويل العميق ، والتأمل الذى يكاد يرقى به إلى الفلسفة ، وأنطقته بأشد شعره حزنا وأبلغه فى النفس أثرا ، فى ميميته التى يذكر فيها مرضه ، وفى نونيته التى يشكو فيها الزمان . وهى قد علمته الهجاء اللاذع الممض الذى يبقى على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة .

فالمتنبى مدين لمصر بكثير من حكمته ، لأنه لم يعرف الحياة الهادئة التى تملؤها الهموم الملحة كما عرفها فى مصر . كان خليقا أن يعرفها فى السجن بعض الشىء ، ولكنه كان شابا قليل التجربة فأسرع إليه الضعف ، وكان خليقا أن يعرفها أثناء اضطرابه فى شمال الشام بعد خروجه من السجن وبعد فراره من بدر ، ولكنه كان كثير الحركة قليل الاستقرار ، مباعدا بينه وبين التفكير الطويل العميق . فأما عند سيف الدولة فقد كان مشغولا بالقصر والحرب ، وبالكيد

وجمع المال ، فلما انتهى إلى مصر واستقر فى ظل كافور أتيح له السكون والهدوء ، ولم يعرض له أحد بكيد ولا حسد ، ولم يضيق عليه فى حياته المادية ، وإنما وضع على نار هادئة من الوعد والإخلاف فنضجت نفسه نضجا بطيئا ، ولكنه نضج صحيح . وتعلم كيف يطيل التفكير فى الحوادث والخطوب دون أن تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء ، وانتهى إلى الاستهزاء بالحوادث والخطوب وبالذين يسلطون عليه هذه الحوادث ويغرون به هذه الخطوب فنبغ فى الهجاء واستطاع أن يرقى به من السخف والإقذاع إلى حيث يجعله أمثالا سائرة وحكمة تنفع الناس .

١٢

ولم يكن بد للمتنبى ، حين أزمع الرحيل من مصر ، من أن يقصد إلى العراق . فسبيل الشام مأخوذة عليه ، فى جنوبها ملك الإخشيديين وسلطان كافور ، وفى شمالها الحمدانيون الذين فارقهم قاليا لهم ، والذين لا يستطيع أن يصل إليهم حتى لو عاد بينهم وبينه الصفو ، إلا أن يمر بطريق مأهولة فى بلاد كافور يشتد فيها الطلب وتضيق فيها المراقبة .

وقد كان من الجائز أن يباعد المتنبى فى أسفاره نحو الغرب ، فيقصد إلى الفاطميين فى شمال أفريقيا . ولكن هذا لم يخطر له لسبب واضح جدا ، لأنه لو فعل لنفى نفسه عن العراق والشام نفيا مؤبدا كما يقولون ، لأنه كان يجعل ملك كافور بينه وبين مأمنه فى العراق والشام .

فلم يكن له بدّ إذن من أن يعود إلى العراق ، ومن أن يسلك إليه طريقا غير الجادة ، لا يمكن أن يدركه فيها الطلب أو يبلغه فيها البحث إلا بعد مشقة وجهد . وقد دبر المتنبى

أمره تدبيرا حسنا ، وأعانه على ذلك جماعة من أعراب مصر الذين يحسنون العلم بطرق الصحراء . فالديوان ينبئنا بأنه استعان برجل قيسى من بلبيس فأرسل إليه دليلا ، ومدحه المتنبى بالأبيات التى أولها :

جَزَى عَرَباً أَمستْ ببُلْبَيْسَ رَبُّها
بمَسْعاتِها تَقْرَرْ بذاكَ عُيونُها

وليس من شك فى أن الشاعر جد فى الهرب حتى أمن طلب كافور ، ثم رفق بنفسه وإبله وخيله وعبيده بعد ذلك فسار معتدلا ، ولم يبخل على قافلته ببعض الراحة من حين إلى حين ، حتى انتهى إلى الكوفة ، وقال مقصورته المشهورة فى ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلثمائة . وكان قد خرج من الفسطاط فى يوم عرفات سنة خمسين وثلثمائة ، فكأن هذه الرحلة قد اقتضته ثلاثة أشهر أو أقل أو أكثر قليلا .

وما كنا لنقف عند هذا الهرب ، ولا لنتحدث عن هذه الرحلة ، لولا أن فيها ظاهرتين خليقتين بالملاحظة والتفكير ، فأما الظاهرة الأولى فنستنبطها من هذه الحادثة

التى عرضت له حين نزل فى بعض طريقه بأعرابى من طيء يقال له وردان بن ربيعة ، فجعل هذا الأعرابى يفسد عبيده ، وجعل العبيد يسرقون له من متاع سيدهم . فلما شعر المتنبى بذلك وعرف أعظم عبيده حظا من هذا الشر ضربه بالسيف فأصاب وجهه وجدع أنفه ، ثم أمر غلمانه أن يجهزوا عليه ففعلوا .

وقد ذكر المتنبى هذه القصة فى مقطوعتين حفظهما الديوان وقد هجا الطائية فى أولاهما ، وهى التى يقول فيها :

لَئِنْ تَكُ طيّيءٌ كانَتْ لئاماً
فألأمُها رَبيعـــةُ أَو بَنُوهُ

وقال الثانية يفخر فيها بتلك الضربة التى أصابت وجه العبد ويذمه بعد موته وأولها :

أَعْدَدْتُ لِلغادِرِين أَسْـــيافا
أجـــدعُ مِنهُمْ بِهِنَّ آنافا

وليس لهذا الشعر فى نفسه خطر ، وإنما هو نحو من كلام الأعراب فى مثل هذه الحوادث الهينة فى ظاهر الأمر ،

إنما الشيء الخطير حقا ، هو إقدام المتنبى على القتل فى سبيل ما كان يسرق هذا العبد من متاعه . فذلك لا يصور بخله وحرصه على المال فحسب ، وإنما يصور ما هو شر من هذا ، يصور استهانته بالحياة الإنسانية ، واستباحته الدم الإنسانى فى سبيل متاع يقوم بالدراهم والدنانير .

وأقل ما يوصف به هذا الإثم أنه لا يصور نفسا شاعرة متحضرة رقيقة الحس متأثرة بالفلسفة ، فضلا عن الدين الذى لا يبيح دماء الناس فى مثل هذه الصغائر . ولو أن حياة المتنبى كلها خلت من النقائص والعيب ، لكانت هذه الحادثة وحدها خليقة أن تسبغ عليها لونا أحمر قانيا يبغضها ويبغض صاحبها إلى الناس .

الغريب أن المتنبى يفخر بهذا الإثم ، ويراه مظهرا من مظاهر البطولة والفتوة . وأغرب من هذا أن من الناس من أعجب بهذا الإثم ، وبشعر المتنبى فيه قديما وحديثا ، كأنه يكفى أن يقترف الإثم ويرتكب الفجور ليحمد الآثم بإثمه ويثنى على الفاجر بفجوره فى بيئات تتخذ الإسلام دينا ، وتتخذ الفلسفة والحضارة مقوما للعقل والقلب والشعور .

ولـكنها الفتنة بالمتنبى تصرف الناس حتى عن أبشع سيئاته وأشدها نـكرا .

أما الظاهرة الثانية فنراها فى هذه المقصورة التى أذاعها من الـكوفة ، ووصف فيها طريقه وهجا فيهـا كافورا ، وهى أن استرداد الشاعر لحريته قد رد عليه فتوّته الأولى ومرحه القديم وقتا ما ، وإذا نفسه الشابة تشيع فى هـذه القصيدة فرحة مرحة وخائلة تياهة لا تـكاد تسع نفسها ولا يـكاد يسعها الـكون ، وإذا الشاعر يعود إلى غروره القـديم فيفخر بنفسه فى غير قصد ولا اعتدال ، ويقول هذا الفخر فى شعر جميل سائغ محبب إلى النفس .

وليس من شك فى أن هذه المقصورة من أجود ما قال المتنبى من الشعر ، وقد أحبها الناس فى عصره واستنشدوه إياها ، وأعجبوا بها إعجابا شديدا . وهى خليقة بهذا الإعجاب ، لأنهـا تلائم نفس الشاعر أصدق ملاءمة وتلائم المعانى التى أراد الشاعر أن يذيعها فيها .

وأظهر ما يعجبنى أنا من هـذه القصيدة ملاءمة الشاعر بين موضوعها أو موضوعاتها ، وبين ما اصطنع فيها من الوزن

والقافيـة ، فهو قد أراد أن يصف هربا سريعا بعيدا ممعنا فى السرعة ، ممعنا فى البعد ، وأن يفخر بنفسـه فخرا يجب أن يذيع ويشيع ويملأ الآفاق فى أسرع وقت ، وأن يهجو عدوه هجاء لاذعا يجب أن يسـير ويطير فى أسرع وقت أيضا . فاصطنع لهذا كله هـذا البحر الذى يصور السرعة والعدو ، وهذه القافية المقصورة التى ينطلق بها حرف اللين إلى غير حد . وما أسرع ما سارت القصيدة وطارت حتى ملأت الآفاق ، وانطلقت بها الألسنة فى كل مكان .

وأول القصيدة وصف بدوى للطريق ، أو قل تسـمية بدوية للمواضع التى مر بهـا وأقام فيها من الفسـطاط إلى الكوفة ، وليس له من الجمال إلا بداوة اللفظ وعذوبته ، وهـذه الحركة السريعة التى تحسها فيه . وآخر القصيدة هجاء لكافور قد رأيته وعرفت قدره ، فأما وسط القصيدة فهو هذا الفخر الذى ذكرته آنفا ، والذى لا بد من روايته لتعجب بنشاطه وسرعته ، وبضخامته وخفته فى وقت واحد ، وإن كان درسه وتحليله ينتهيان إلى ما يؤلم ، ويثير العطف والإشفاق .

فيالكَ لَيْـــلاً عَلَى أعكُشٍ
أَحَمَّ البِـــلَادِ خَفِيَّ الضُوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيْمَـةَ فى جَوْزِهِ
وباقيـــهِ أَكثَرُ مما مَضَى
فلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَا
حَ بينَ مَكارِمِنا والعُـلَا
وَبِتْنا نُقَبِّلُ أَسْـــيافَنا
ونَمْسَـحُهَا مِنْ دِمَاءِ العِدَى
لِتَعْـلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ
وَمَنْ بِالعَواصِمِ أَنِّى الفتَى
وأنِّى وَفَيْتُ وأنِّى أَبَيْتُ
وأنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وما كلُّ مَنْ قال قَوْلاً وَفَى
ولا كلُّ مَنْ سِيمَ خَسْـفاً أَبَى
ومَنْ يَكُ قَلْبٌ كقَلْبِي لهُ
يَشُقُّ إِلَى العِزِّ قَلْبَ التَّوَى

ولاَ بُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلةٍ
ورَأْيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفا
وكلُّ طَرِيقٍ أَتاهُ الفتَى
عَلَى قَدَرِ الرِّجْلِ فيه الخُطَا

فهذا الفخر الرائع البديع كله ينحل إلى شىء يسير ، وهو أن الشاعر قد فرّ من مصر فرار اللص ، واندفع فى الصحراء اندفاع الصعلوك ، وقتل فى طريقه عبدا لأنه سرق بعض المتاع . فظاهر هذا الفخر معجب من غير شك ، وباطنه يحزن و يضحك من غير شك أيضا . ولكننا قد نزدرى الرجل ، وقد ينتهى بنا الازدراء إلى أن نرحمه دون أن يمنعنا هذا أن نعرف للشاعر حقه فى كثير من الإعجاب .

الكتاب الخامس

١

والمسألة التى تحتاج إلى بحث واستقصاء وتعجز النصوص ، إلى الآن ، فى رأيى ، عن حلها على نحو يرضى ويريح ، سواء فى ذلك ما حفظ الديوان من الشعر ، وما تحدث الرواة به من الأخبار ، هى ماذا كان المتنبى قد أضمر فى نفسه من رأى ، ورسم لنفسه من خطة حين فر من مصر قاصدا إلى العراق ؟

أما أحاديث الرواة فمختلفة مختلطة ، وما أحسب أنهم فكروا فى إلقاء هذا السؤال ومحاولة الجواب عليه ، ولكنهم رأوا أن المتنبى قد استأنف الاتصال بسيف الدولة ، وذهب إلى بغداد وعاد إلى الكوفة واتصل بسيف الدولة مرة أخرى ومرة ثالثة وقصد إلى ابن العميد ، ثم إلى عضد الدولة ، ثم قتل . وتناقلوا أخبارا متفرقة حول هذه الحوادث كلها فلم يحسنوا تلخيصها ولا استخلاص ما تدل عليه من المعانى ، إن كانت تدل من المعانى على شىء . وأما المحدثون

فقـــد اجتهدوا فى أن يستخلصوا من شعر المتنبى وسيرته وأحاديث الناس عنه معنى متسقا يلائم بعضه بعضا . فظنوا أن المتنبى كان يفكر فى الرجوع إلى سيف الدولة ويريد هذا الرجوع ، وأن سيف الدولة أيضا كان يتمنى هذا . ولـكن الأحداث لم تتح للأمير والشاعر أن يلتقيا . وما أدرى ، أكان هذا حقا أم لم يكن ؟ ولـكنى أفهم سيرة المتنبى منذ عاد إلى العراق على نحو يخالف ما ذهب إليـــه القدماء والمحدثون جميعا .

وأحب قبل كل شىء أن تذكر ما ألممت به فى بعض الحديث عن المتنبى عند سيف الدولة ، من أن الشاعر قد أساء فى حلب إلى والى الأمر فى العراق إساءة جارحة لم يكن من اليسير أن تنسى ، وأن تنسى فى سرعة وسهولة . والأشخاص الذين هجاهم تعريضا أو تصريحا كانوا ما يزالون أحياء ، وكان السلطان ما يزال إليهم . وقد رأيت أن المتنبى هجا الخليفة وهجا معز الدولة وعرض بوزيره المهلبى . وأنت تعلم أنه كان قد عرض بكافور أيضا ، ولـكن تعريضه بكافور كان يسيرا بالقياس إلى تعريضه بأولى الأمر فى بغـداد .

ومع ذلك فقد رأيت أن كافورا لم يأمن للمتنبي ولم يطمئن إليه ، وإنما أذله من جهة واستخدمه من جهة أخرى . وقد أظهرت تجربة كافور أن الثقة بالمتنبي سذاجة ، وأن الاطمئنان إليه حمق ، لأن المتنبي نفسه كان ساذجا وكان أحمق . طمع فى كافور وكان الحق عليه ألا يفعل ، وألح على كافور ، وكان الحق عليه أن يفهم استعداده لأول مرة لقيه فيها أو بعد انتظار قصير . ثم غضب على كافور وظل يمدحه مع ذلك حينا ، ثم فر من كافور فأطلق لسانه فيه وأنكر ما كان قد أسبغ عليه من ثناء .

فلم يكن من المنتظر ولا من المعقول أن ينخدع أولو الأمر فى العراق عن هذا كله . لم يكن من المعقول أن ينسوا ما قال فيهم ولا أن يتناسوه ، ولا أن يطمعوا المتنبي كما أطمعه كافور ، وقد رأوا نتيجة هذا كله واضحة بشعة . والمتنبي نفسه على سذاجته واعتداده بنفسه لم يكن يقدر أنه سيلقى من أهل العراق حفاوة به أو إقبالا عليه ، وقد قال فيهم ما قال . وما أحسبه كان مستعدا لأن يأمن لهم ويطمئن إليهم كما فعل مع كافور . فهو إذن كان يائسا من أن

يستأنف حياة الشاعر المادح مع أصحاب السلطان فى بغداد كما فعل فى الفسطاط . وما أراه كان يفكر تفكيرا صادقا فى العودة إلى سيف الدولة ، فلعله كان يحب الأمير ويكبره ويثق به ، ولكنه كان يعرف سلطان الحاشية وكيد القصر وضيق أسرة الأمير نفسها به ، وهو كان قد تعرض للموت مرة وأفلت منه بعد جهد ، فمن يدرى ؟ لعله كان يتعرض للموت ولا يفلت منه مرة أخرى .

وكانت أمور سيف الدولة قد أخذت تفسد ويسعى إليها الاضطراب والانحلال . فالروم يظهرون عليه من ناحية ، والمرض يأكل صحته من ناحية أخرى . وإذن فأيسر الحزم كان يفرض على المتنبى ألا يفكر فى حلب ، وألا يطمع فى بغداد . وما أظن إلا أنه قد انتهى إلى الكوفة وهو يريد أن يحيا فيها حياة الرجل الهادئ المطمئن ، الذى جمع من المال مقدارا ضخما يمكنه من أن يعيش عيشة أصحاب الثراء والجاه . وما أظن إلا أنه كان يريد أن يستمتع بهذه الحياة حينا من الدهر ، وأن ينتظر ما ستتكشف عنه الأحداث ، واست أدرى ، أأحس شيئا من الحنين حين عاد إلى وطنه ؟ ولست

أدرى ، أثارت فى نفسه ذكريات الصبا ؟ ففكر فى نشأته البائسة ، وفى جدته الكريمة ، كما يظن الأستاذ بلاشير . ولكن الذى نعلمه هو أننا لا نجد أثرا لشىء من ذلك فى شعره ، فهو لم ينشئ قصيدة ، ولا مقطوعة ، ولم يشر فى قصيدة ولا مقطوعة إلى هذا العهد القديم من حياته ، كما أنه لم ينبئنا فى قليل أو كثير من شعره بما أحدثت عودته إلى وطنه الأول من أثر فى نفسه .

والغريب أننا سنجد عنده حنينا ، ولكن إلى الشام ، وإدكارا ، ولكن لحمص ودمشق وصحارى الشام . فأما الكوفة وباديتها ، فقد رأيناه يذكرها شيئا ما حين كان مع سيف الدولة . أما بعد أن عاد إليها فقد أهملها الإهمال كله .

وإذن فقد نغلو إن ظننا ، كما ظن الأستاذ بلاشير ، أنه قد أحس شيئا من الألم والحزن حين رأى هذه المدينة العظيمة ، وقد أخذ الخراب يسعى فيها ، والانحطاط يسرع إليها . ولعله أحس شيئا من الكبرياء حين رأى نفسه يعود إلى الكوفة غنيا موفورا بعد أن خرج منها بائسا معدما ، لا يجد ما يحمله إلى بغداد . ولكن هذا أيضا لا يظهر فى

شعره ، ولعله شغل ، حتى عن هذا ، بغضبه على كافور وإذاعته الهجاء له .

على أنى أرجح أنه لم يطمئن إلى حياته فى الكوفة ، ولم يرض لنفسه هذا الخمول الذى لم يخلق له . فما هى إلا أشهر حتى ضاق بالكوفة ورحل عنها فى آخر سنة إحدى وخمسين وثلثمائة إلى بغداد .

رحل عنها ضيقا بها من غير شك ، فليس فيها أمير يمدح ، ولا قائد يتقرب إليه ، ولا غنى يطمع فى ماله . ولعله كان من أغنى أهلها حينئذ ، وهو كان قد علل نفسه بحياة العزلة التى يستمتع فيها بالحرية والاستقلال ، وبالراحة وفراغ البال ، ولكنه لم يكد يذوق هذه العزلة حتى ضاق بها ، وفر منها أشد الفرار ، لأنه لم يكن يعرف نفسه حق المعرفة أو كان يعرفها ، ولكنه كان قوى الحس ، سريع التأثر . فكان ذلك يخدعه عن نفسه ، ويغريه بالتغلب والاضطراب ، ويحول بينه وبين الهدوء والاستقرار .

وقد كان المتنبى فى عنفوان قوته فى الثامنة والأربعين

من عمره ، لم يبلغ بعد السن التى يحيل نفسه فيها على المعاش كما يقول المعاصرون . فلا غرابة إذن فى أن يضيق بالكوفة ويكره الإقامة فيها . وهو قد جرب حياة الشاعر المتصل بالملوك والأمراء ، المنقطع إليهم ، وقد زهد الآن فى هذه الحياة واستيأس منها . ولكن أمامه لونا آخر من ألوان الحياة الحرة المستقلة التى يملؤها مجد من طراز جديد ، وهى حياة الشاعر الفنى المستقل الذى لا يكسب حياته بالمدح ، ولا يغض من نفسه بالانقطاع لأمير أو وزير . ولكنه مع ذلك يحيا ظاهرا نابها معروفا ، ينشد شعره للطلاب ، ويفسره لهم على نحو أوضح وأجلى وأكرم مما كان يصنع فى حلب أو فى الفسطاط . وهو قريب من بغداد دار الخلافة ، ومركز الحضارة الإسلامية ، والتى لا يتوج المجد إلا فيها . وقد زار بغداد بائسا طريدا ، ثم خرج منها خائفا يترقب . فما له لا يعود إليها غنيا كريما يحتاج الناس إليه ولا يحتاج هو إلى أحد . وكذلك ارتحل المتنبى إلى بغداد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة لا راغبا ولا راهبا ، لا مريدا بأحد شرا ، ولا مريدا من أحد خيرا .

وما أظن إلا أنه أنفق الأشهر التى قضاها فى الكوفة مدبرا أمره وأمر أسرته ، مفكرا فى محنته المصرية ، منشئا للشعر فى هجاء كافور ورثاء أبى شجاع .

ولست أدرى أوصلت إليه هدية سيف الدولة فمدحه بقصيدته اللامية :

« ما لَنا كُلُّنا جَوٍ يا رسولُ »

فى هذا العام ، كما يظن الأستاذ بلاشير ، أم بعد رجوعه من بغداد كما يرى بعض الرواة . ولكنى أميل إلى الرأى الثانى وأرجحه بما فى هذه القصيدة من هجاء لأصحاب السلطان فى بغداد . فقد كان المتنبى أحمق ، ولكنى أتردد فى أن أراه من الحمق بحيث يهجو أولى الأمر فى بغداد وهو يهم بالرحيل إليهم .

وإذن فلم تصل إليه هدية سيف الدولة فى هذا العام ، ولم يفكر هو فى استئناف الصلات مع الأمير فى هذا العام أيضا . وهو كما رأيت لم يقل من الشعر فى هذه الأشهر إلا قليلا . ولم يكن فى حياته فى الكوفة ، ما يدفعه إلى قول الشعر . فالناس يرونه فيلسوفا مفكرا حكيما ، وكان

خليقا ، وقد خلا إلى نفسه وفرغ لفلسفته وتفكيره وحكمته أن يقول فى ذلك شعراً . ولـكنك عرفت من كل ما قرأت إلى الآن أنه كان شاعرا ، وشاعرا لا يقول إلا عن رغبة أو رهبة ، ولا سيما بعد أن انتهى عهد الشباب .

٢

ودخل المتنبي بغداد ، فأقام فيها سبعة أشهر أو ثمانية ، ولكنه لم يحدث فيها شعرا ، ولولا أن الرواة تحدثوا بقدومه إلى بغداد وانصرافه عنها ، وببعض ما جرى له من الأمر فيها ، لما عرفنا من قصته فى بغداد قليلا ولا كثيرا .

فهو كما رأيت لم يقل شعرا فى بغداد . ولما خرج منها لم يذكرها ، ولم يذكر إقامته فيها فيما قاله من الشعر . وقد يظن بعض الناس ، ومنهم الأستاذ بلاشير أنه صور بعض سخطه على بغداد فى الميمية التى رثى بها فاتكا ، والتى أولها :

حَتَّامَ نَحنُ نُسارِى النجْمَ فى الظُّلَمِ
وما سُراهُ عَلَى خُفٍّ ولا قَدَمِ

ولكنى أستبعد هذا كل الاستبعاد ، وأرجح أنه قال هذه القصيدة قبل أن يزور بغداد ، وأن ما فيها من الحزن والشكوى وإيثار السيف على القلم ، وذم الزمان والإخبار بأنه قد أدرك الدهر فى أوقات هرمه ، وأدركه القدماء فى

أوقات شبابه ، كل هذا لم تثره بغداد ، وإنما أثاره إخفاقه فى مصر ، وغضبه على كافور ، وحزنه على فاتك ، وضيقه بحياة البطالة والفراغ فى الكوفة . وإذا لم يكن بد من التماس إشارة إلى بغداد فى شعر المتنبى بعد خروجه منها ، فأنا ألتمس هذه الإشارة فى لاميته التى مدح بها سيف الدولة حين أهدى إليه ، والتى يحذر فيها الحمدانى من الروم الذين خلف ظهره فى مصر والعراق ، والتى يقول فيها معرضا بالسلطان فى بغداد :

ليس مَنْ عِنْدَهُ تُدَارُ المنايا
كالذى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمولُ

فهذه القصيدة ، كما رأيت منذ حين ، لم تقل إلا سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، بعد أن رجع المتنبى إلى الكوفة .

فزيارة المتنبى لبغداد إذن لا تكاد تعنينا ، لأنها لم توح إلى الشاعر بشىء ، ولم تترك فى شعره أثرا ما . فكأنها بالقياس إلى فنّه لم تكن . ومع ذلك فالناس يكثرون فيها القول ، وينوّعون فيها الأحاديث ولا يكادون يفقهونها على وجهها ، أو لا يكادون يفقهون ما جرى للمتنبى فيها

على وجهه . والأمر مع ذلك أيسر من كل هذا ، فلم يقصد المتنبى كما رأيت إلى بغداد ليفيد بشعره مالا أو مجدا عند الخليفة أو الأمير أو الوزير ، وإنما قصد إليها ليعيش فيها عيشة الشعراء والعلماء والنابهين من الأغنياء . ويقال إنه زار الوزير المهلبى وشهد مجلسه ، ورأى فيه جماعة من الأدباء والعلماء ، وشارك فى بعض ما كان بينهم من حوار . ولكنه لم يمدح الوزير فأسرّها له ، وأغرى به الهجائين والمجادلين . ولست أدرى ، أزار المتنبى الوزير المهلبى أم لم يزره ؟ ولكنى أرجح ، إن كانت هذه الزيارة قد وقعت ، أنها لم تكن إلا زيارة رسمية كما يقول المعاصرون ، قد أبرأ الشاعر بها ذمته ، ليأمن الكيد والغدر ، وليعيش هادئا مطمئنا فى بغداد . وما أظن أن المهلبى كان ينتظر منه مدحا ، وما أظن أن المتنبى فكر فى أن يجدد تجربته مع كافور . ويجب أن نلاحظ أن المتنبى كان لبقا مؤثرا للعافية ، ومسيطرا على نفسه أثناء إقامته فى بغداد ، لم يتح له أن يمدح معز الدولة ، ولا أن يمدح المهلبى ، ولا أن يصل إلى الخليفة . وما أشك فى أن كثيرا من سراة بغداد وأشرافها كانوا يودون لو يمدحهم

الشاعر ، ولعل الشاعر نفسه كان يود لو يمدح بعض هؤلاء السراة والأشراف . ولكنه لم يفعل اصطناعا للذوق — فما ينبغى أن يمدح أحدا من أهل بغداد (وهو لم يمدح خليفتها وملكها ووزيرها) — واحتفاظا بمكانته ، وضنا بمقامه أن يعيبه المقربون من السلطان بأنه لم يستطع أن يبلغ الرؤساء فاكتفى بمن دونهم .

آثر الشاعر العافية إذن ، وتجنب السياسة ، لأنه لم يكن يستطيع أن يدنو منها ، وتجنب الساسة لأنه لم يكن يحبهم ولم يكونوا يحبونه . وقد يظن — والأستاذ بلاشير يرى هذا الرأى — أن المتنبى أعرض عن مدح الرؤساء فى بغداد إبقاء على ما كان بينه و بين سيف الدولة من الود ، واحتفاظا بما كان قد دبر من الشخوص إلى حلب . وكانت العلاقات سيئة بين الحمدانيين والبويهيين ، فكان مدحه للبويهيين يفسد عليه خطته التى دبرها فى نفسه . ولكنى أستبعد هذا أيضا كل الاستبعاد ، لأنى لا أقطع بأن المتنبى فكر حقا فى الرجوع إلى حلب . وما أشك فى أنه لو وجد سبيلا إلى الرؤساء فى بغداد لما تردد فى سلوكها ، ولكن هؤلاء الرؤساء

احتملوا مقامه فى العراق ، ودخوله بغداد و إقامته فيها ، وهذا منهم كثير . فما كان للمتنبى أن يطمع فى أكثر منه .

وقد ظن الأستاذ بلاشير أن المتنبى كان يفكر فى السفر من بغداد إلى حلب ، ولكن غارة الروم على شمال الشام واقتحامهم حلب ، و إخراجهم سيف الدولة عنها و إقامتهم فيها وقتا ما ، كل هذا رد المتنبى عما كان قد عزم عليه . وكل هـذه فروض لا يرجحها نص ، بل لعل النصوص تباعد بينها و بين الحق . فقد دعا سيف الدولة شاعره إلى الرجوع إليه وأجابه المتنبى فى آخر سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة فى بائيته المشهورة بأنه سامع مطيع ، ولكنه لم يكد يمضى فى القصيدة حتى عرض بالاعتذار .

وقد أنفذ القصيدة إلى سيف الدولة من الكوفة فى ذى الحجة ، وخرج من الكوفة فى المحرم ، ولكن لا إلى حلب ، حيث سيف الدولة ، بل إلى أرَّجان ، حيث ابن العميد ، ثم إلى شيراز ، حيث عضد الدولة . فلم يكن المتنبى يقدر الرجوع إلى حلب أو يفكر فيه ، و إنما كانت له خطة أخرى سنراها بعد حين .

إذن ففى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، لم تكن نفس المتنبى قد أبلت من ضيقها بالملوك والأمراء ، ولم يكن قد زهد فى حياة الهدوء والاستقلال . ولم يكن يريد فى بغداد إلا هذا الهدوء والاستقلال ، ولكنه لم يظفر بهما لسبب يسير جدا ، فقد احتمله أولو الأمر فى العراق ، ولكن على أن يقيم بعيدا عن بغداد ، لا على أن يأتى فيقيم بين أسماعهم وأبصارهم ، ويستقر على صدورهم كأنه الكابوس ، لا يريدون أن يدنوه ، ولا يريد هو أن يدنى نفسه منهم . ولكنه مع ذلك مقيم بين أظهرهم يغدو ويروح ويختلف إليه الطلاب ، يروون عنه ويسمعون منه ، ويختلف إليه العلماء يحدثونه ويخوضون معه فى ألوان الجدال .

كل هذا كان كثيرا ، والحق أن المتنبى قد استمتع أمام السلطان السياسى فى جميع الأقطار التى زارها وأقام فيها بحرية غريبة بالقياس إلى ذلك العصر ، وبالقياس إلى ما كان مألوفا من الظلم والطغيان . فهو قد أغضب الأمراء ومن دون الأمراء ، ولم يتعرض لعقوبة ظاهرة رسمية ، وإنما كان آمنا مطمئنا فى حلب حتى خرج منها . ولما

ضاق به الحمدانيون لم يجاهروه بالعقوبة ، وإنما هموا باغتياله . ولجأ إلى مصر ، فلولا أنه طمع فى غير مطمع لما لحقه أذى من كافور . ومع ذلك فلم يلحق به كافور أذى ، وإنما حاول أن يمنعه من ترك مصر ليرد عن ملكه لسانه الحاد الطويل . ثم عاد إلى العراق ، بعد أن قال فى أصحابه ما قال فلم يردوه ولم يزعجوه ، وإنما تركوا له الحرية فى أن يقيم فى وطنه ما أراد . ثم هو لا يكتفى بهذا ، بل يذهب إلى بغداد نفسها وهو مع ذلك لا يتعرض فيها لأذى . فليس دمه مهدرا ، وليس السجن يدعوه ، وليست المراقبة تفرض عليه ، ولكنه مع ذلك لم ينعم بالحياة فى بغداد ، لأن خصومه السياسيين خلوا بينه وبين الشعراء والأدباء يحاربونه بالنقد ، أى يحاربونه بالسلاح الذى كان يحسن الحرب به لو أراد .

فالشعراء البغداديون يهجونه فيسرفون فى هجائه ، وابن لَنْكك فى البصرة يهجوه فيقذع فى هجائه ، وبعض الأدباء والعلماء يتعرضون له ، فيجادلونه فى شعره ، متحدين له ، مشنعين عليه .

والمتنبى يؤثر الصمت ، ويصطنع الحلم ، ويتكلف

الكبرياء ، ولكنه فيما أعتقد كان حذرا محتاجا ، يخاف أن يطلق لسانه فيتجاوز حده ، ويخرج عن طوره ، ويحفظ سلطانا لا يحتمله إلا فى شىء كثير من الحلم المتكلف ، والأناة المتصنعة . ولولا هذا لما صبر المتنبى على هذا الهجاء القبيح ، والتحدى الشنيع . وهو كما نعلمه ضيق الصدر ، عاجز عن إمساك لسانه فى فمه . بل لولا هذا لما سكت المتنبى حتى بعد خروجه من بغداد عن هؤلاء الذين آذوه بأقوالهم وأعمالهم . ولكن المتنبى مصمم على أن يعيش فى العراق ، ولا بد له من أن يؤدى ثمن المعيشة فى العراق ، فيحتمل ما كان ينكره حين كان يقول ، بعد أن فر من بدر ابن عمار :

واحتِمالُ الأذَى وَرُؤْيَةُ جانِيـ
ـهِ غِذاءٌ تَضْوَى بهِ الأجْسامُ

فلا بد له من أن يحتمل الأذى ويرى جناته ولا يدفعهم عن نفسه بيد ولا لسان . وأخرى لا ينبغى أن ننساها ، فقد كانت السياسة مبغضة للمتنبى فى العراق ، وكان الأدباء

الرسميون يصانعون السياسة ، ولـكن الأدب العراقى نفسه كان يضيق بهذا الشاعر الأجنبى الذى كسب فنه ومجده بعيدا عن العراق لأول مرة فى التاريخ الأدبى . فقد كان الشعراء فى القرون الثلاثة الأولى يظهرون وينبه ذكرهم فى العراق ، فإذا ظهروا فى قطر آخر ، فلم يكونوا يكسبون المجد ونباهة الشأن إلا فى العراق : فمروان بن أبى حفصة كان يعيش فى اليمامة ولولا أنه وفد بشعره على علماء البصرة وخلفاء بغداد لما عرفه الناس . وأبو تمام نشأ فى الشام وشب فى مصر وقال الشعر فى الغرب ، ولـكنه لم يعرف ولم يشتهر حتى وفد على العراق . والبحترى نشأ فى شمال الشام ، وقال الشعر فى مَنْبِج وما حولها ، ولـكنه لم يصبح شيئا إلا بعد أن وفد على العراق .

وهذا المتنبى يولد فى العراق وينشأ فيه ويبدأ فيه قول الشعر ، ولـكنه يغرِّب بشـعره ويطيل الاقامة فى الغرب وينبغ هناك ، ثم يعود إلى العراق كامل الفن ذائع الصوت باهر المجد . فمن حق الأدب العراقى أن يضيق به ، ومن حق الأدباء العراقيين أن ينكروه ويعدوه دخيلا .

وإذن فلم يكن التحالف بين السياسة والأدب على المتنبى غريبا فى بغداد ، وإنما كان الغريب ألا يتحالفا عليه ، ومع ذلك فقد وجد المتنبى عند شباب بغداد وعند جماعة من أدبائها وعلمائها ، بل عند جماعة من أغنيائها وسراتها ، حبا وإجلالا فتلقوه أحسن لقاء ، وأنزلوه أحسن منزل ، والتفوا حوله يسمعون منه ويكتبون عنه ويقومون دونه ما وسعهم ذلك ، ولكنهم كانوا قلة وكانوا مستضعفين .

ولم يكن بد من أن ينتهى الأمر بالمتنبى إلى إحدى اثنتين : فإما أن يتوب ويثوب إلى الذين هجاهم وآذاهم وأساء إليهم ، ومن يدرى ؟ لعلهم لا يقبلون توبته لأنهم لا يأمنونه ، وهل أمنه كافور ؟ وإما أن يترك بغداد ، ولكن إلى أين يتركها ؟ لا إلى سيف الدولة ، فهو لا يريد ، ولا يستطيع أن يعود إلى سيف الدولة لأنه لا يثق بقدرة سيف الدولة على حمايته من أعدائه وحاسديه .

ومن يدرى ؟ لعله لو هم بالعودة إلى حلب لوجد الطريق مأخوذة عليه ، فقد انتفع معز الدولة والمهلبى من قصة كافور . وما ينبغى أن يخلى بين المتنبى وبين الرجوع إلى

الشام ليطلق فيهما لسانه كما أطلقه فى كافور .

فليس له إذن إلا أن يعود إلى الكوفة ويستقبل أمره فيها بالروية والتفكير ؛ فإما أن يقنع بالحياة الهادئة ، وإما أن يجد طريقا إلى الصلح بينه وبين السياسة والساسة فى بغداد .

٣

وقد عاد إلى الكوفة فى السنة نفسها ، وهناك وصلت إليه هدية سيف الدولة فشكرها باللامية المشهورة ، وهناك نعيت له أخت سيف الدولة فرثاها بالبائية المشهورة ، وانقضى هذا العام ولا يحفظ لنا الديوان من الشعر الذى قيل فيه إلا هاتين القصيدتين . أقال المتنبى شعرا لم يحفظ لنا ؟ أم أعرض المتنبى عن الشعر لأن دواعى الشعر لم تكن موجودة فنام شيطانه حتى أيقظته هدية سيف الدولة ، ثم عاد إلى النوم حتى أيقظه موت ست الناس ؟

هذا هو الذى أرجحه ، لأنى كما قدمت لا أرى المتنبى يقول الشعر إلا حين تدفعه إليه الدوافع ، ولعله كان يقول الشعر فى هجاء البغداديين كما كان يقوله بمصر فى هجاء كافور ، ولكنه أشد احتياطا من أن يذيعه أو يظهر عليه حتى أخص الناس به ، وآثرهم عنده من الذين تبعوه إلى الكوفة .

استقبل المتنبى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة محزونا ،

كاسف البال ، متدبرا فى أمره ، ولـكن الحوادث أبت إلا أن تمتحنه امتحانا ليس أقل عسرا من الامتحانات المختلفة التى تعرض لها فى الشام ومصر . فهذه دعوة القرامطة تعود إلى الظهور فى الـكوفة ، ويكثر فيها الحديث ، وينشأ عنها لغط كثير ، وإذا فقراء المدينة والبائسون من أهلها يسرعون إلى الدعوة ويستجيبون للدعاة ، وإذا أغنياء المدينة وأوساط الناس فيهـا ينكرون الدعوة ، ويقاومون الدعاة . والمتنبى من الأغنياء طبعا ، ولـكنه كان قرمطى النشأة ، قرمطى الشباب ، وهو الآن كاره للسلطان العراقى ، كما كان مبغضا له فى صباه وشـبابه . فإلى أى جانبيه يميل ؟ أيميل إلى القرامطة فيرضى شهوته إلى الحركة والحرب ؟ أم يميل إلى السلطان فيحفظ ماله ، ولعله يصلح أمره مع هؤلاء الساخطين عليه فى بغداد ؟ مال المتنبى إلى السلطان ، وجحد القرمطية فى هذه المرة ، كما جحدها من قبل ، وإذا هو مع أغنياء الـكوفة وأوساط الناس فيهـا يقاومون دعوة القرامطة ، وإذا هو يبدأ هذه المقاومة بلسانه فيهجو داعية بدويا من دعاتهم ، ضبة بن يزيد الـكلابى ، بقصيدته البائية المشهورة التى أولها :

ما أَنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّهْ

وأُمَّـــهُ الطُرْطُبَّـهْ

وهى من أقبح شعر المتنبى وأقذع ما قال من الهجاء ، ولـكن دعوة القرامطة هذه لا تلبث أن تقوى ويخيل إلى الداعين أن الـكوفة قد نضجت ، وإذا هم يغيرون عليها ، وهنا تتم خيانة المتنبى للقرامطة . فهو لا يكتفى بما قدم من المقاومة باللسان ، ولـكنه ينهض ومعه غلمانه ، فيقاوم بالسيف والرمح ، وينجح فى هذه المقاومة ، ويشق لنفسه ولغلمانه طريقا حتى يتصل بحاكم المدينة .

وتعود الغارة على المدينة ، فيعود المتنبى وغلمانه إلى الاشتراك فى ردّ المغيرين ، وتوفق المدينة إلى إبعاد المغيرين عنها ، ولـكن الخبر كان قد وصل إلى بغداد ، وإذا هى ترسل جيشا على رأسه أحد قوادها ، دِلّير بن لَشْكَرَوَزْ . فلا يكاد هـذا القائد يصل إلى الـكوفة حتى يعرف الذين أبلوا فى رد القرامطة ، فيخلع عليهم ، ومنهم المتنبى . فإذا وصلت إليه الخلعة أنشأ قصيدة فى مدح القائد ، ثم ذهب

فأنشده إياها ، وهى اللامية التى أولها :

كَدَعْوَاكَ كلٌّ يَدَّعِى صِحَّةَ العَقْلِ
وَمَنْ ذا الَّذى يَدْرِى بما فيهِ مِنْ جَهْلِ

والتكلف أظهر شىء فى هذه القصيدة ، كأن الشاعر كان خجلا ، مستخذيا أمام نفسه وهو ينشئها ، ومهما يكن من شىء ؛ فقد أتم المتنبى انقلابه على القرامطة . أطلق فيهم لسانه ، وأعمل فيهم سنانه ، ومدح عدوهم ، وتلقى منه الجائزة . وهو بهذا قد صان ماله من جهة ، وخطا الخطوة الأولى إلى إرضاء السلطان العراقى من جهة أخرى .

ثم تريد الظروف ، التى تحب المزاح أحيانا ، أن تمتحن المتنبى للمرة الأخيرة ، فيصل إليه فى وقت واحد أو فى وقتين متقاربين ، كتابان : أحدهما من صديقه القديم سيف الدولة ، وقد كتبه بخطه يدعوه إلى حلب ، والثانى من فارسى صميم ، هو ابن العميد يستزيره فى أرجان .

وأكبر الظن أن المتنبى نظر فى الكتابين ، ثم نظر فيهما ، ثم رد عليهما بعد قليل من الروية . فأما سيف الدولة فقد أرسل إليه بائيته :

فهِمتُ الكِتَابَ أَبَرَّ الكُتُبْ

فَسَمْعاً لأمْرِ أمـــيرِ العَرَبْ

وأما ابن العميد فلم يرسل إليه كتابا منظوما ولا منثورا ، وإنما أرسل إليه نفسه ، وسافر من الكوفة فى المحرم سنة أربع وخمسين موجها نحو أرَّجان .

٤

وأى الرجلين بدأ بالكتابة إلى صاحبه ، أو التماس الوسيلة إلى صاحبه ، إن أردنا التعبير الصحيح ؟ أهو ابن العميد أم المتنبى ؟ أما إجماع الناس قديما وحديثا فمنعقد على أن ابن العميد هو الذى كتب إلى المتنبى يستزيره . والناس يقولون أيضا : إن ابن عباد كتب إلى المتنبى يستزيره الرى حين كان الشاعر ببغداد ، ولكن المتنبى لم يحفل به ولم يرد عليه ولم يتأخر عن الاستجابة لابن العميد حين دعاه إلى أرجان .

وقوام هذه الأحاديث كلها أن المتنبى كان شديد الكبرياء مزهوا بنفسه يترفع عن مدح الوزراء والكتاب ، ولا يريد إلا أن يمدح الملوك والأمراء الممتازين الذين لا يقلون امتيازا عن سيف الدولة وكافور .

ولكن هذا كله فيما أعتقد إن صور شيئا فإنما يصور حب أصحاب المتنبى للمتنبى وتصديق الناس لكل ما يقال .

فقد مدح المتنبي فاتكا فى مصر ، ولو امتدت بفاتك الحياة لاتصل مدح المتنبي له ولجاز أن يستجيره المتنبي وينقطع إليه . ولم يكن فاتك أميرا ولا ملكا ولا وزيرا ولا كاتبا ، وإنما كان قائدا غاضبا ، قد حرم السلطان فانحاز إلى إقطاعه فى الفيوم .

وكان ابن العميد عظيم الشأن نابه الذكر ، ولكنه على كل حال لم يكن ملكا ولا أميرا ، وإنما كان وزيرا لأمير من أمراء الفرس أو سلطان من سلاطينهم . وقد رأيت أنى لا أعتقد أن المتنبي ترفع عن مدح الوزير المهلبى ، وإنما أرجح أنه لم يجد سبيلا كريمة إلى هذا المدح . وطبيعة المتنبي وسيرته تصوران لنا الأمر على غير ما فهمه أصدقاء الشاعر ومؤرخوه . وأكبر ظنى أن الشاعر هو الذى سعى فى التقرب من عظماء الفرس ليصلح بهم أمره فى الشرق الإسلامى بعد أن فسد عليه أمره فى الغرب الإسلامى ، وأن المتنبي رغب فى أن يتقرب من ابن العميد ليقربه ابن العميد من ركن الدولة أو من عضد الدولة حتى إذا مدح هؤلاء العظماء وظفر برضاهم أولا ، وبجوائزهم بعد ذلك ، استطاع

أن يتقرب بهم إلى أصحاب السلطان فى بغداد أو أن يستغنى بهم عن أصحاب السلطان فى بغداد . وهذا من غير شك فرض من الفروض ليس فى النصوص ما يدل عليه ، ولكنه ملائم كل الملاءمة لطبيعة المتنبى وسيرته . فقد رأينا كيف ترك أرض الإخشيديين بعد خروجه من السجن ، وأنفق ما أنفق من الوقت فى شمال الشام ، ثم اتصل بمدر عدو الإخشيديين ، ثم فر منه وظل حينا مضطربا فى الأرض ، فلما عاد السلطان فى الشام إلى الإخشيديين جعل المتنبى يبتغى إليهم الوسائل متقربا من حكامهم وقادتهم حتى اتصل بأمير من أمرائهم ، ثم رأيناه ينتهز ظفر الحمدانيين فى شمال الشام فيسعى فى الاتصال بهم ويوفق إلى ما كان يريد من الانقطاع إلى سيف الدولة ، فإذا أخفق فى حلب لم يتردد فى أن يستأنف السعى ليعود إلى الإخشيديين وهو يظفر بما كان يريد أيضا فيتصل بكافور بعد أن كان قد عرض به وشنع عليه ، وهو قد أخفق عند كافور ففر إلى العراق . وما أشك فى أنه لم يدخله إلا بعد أن استأمن لنفسه فأعطى الأمان ، وقد كان يظن أنه يستطيع أن يحيا فى العراق

حياة الهدوء والاستقلال ، فرأى بعد التجربة أنه ما زال شاعرا محتاجا إلى من يظله ويتلقى مدحه . ولم يتيسر له ذلك فى بغداد ، فالتمسه أو التمس المعونة عليه فى الشرق . ولم يتردد ابن العميد فى أن يتلقى هذا الطامع فيه ، اللاجئ إليه ، المستعين به . فقد كان المتنبى أكبر الشعراء المعاصرين وأبعدهم صوتا من غير مراء ، وكان شعره كما قال لكافور قد شرق حتى ليس للشرق مشرق ، وغرب حتى ليس للغرب مغرب . وقد أغضبه الأميران المتسلطان فى الشام ومصر ، ولم يحسن اصطناعه الأمير المتسلط فى بغداد ، وما ينبغى أن تضيع هذه الفرصة ، ولا أن يموت أكبر شعراء العصر ، ولم يتغن البويهيين ، ولم يذع ذكرهم فى الأقطار العربية ، وما ينبغى أن يخلى بين هـذا الشاعر العظيم الضعيف وبين صاحب حلب الذى كان يغريه ويزين له العودة إليه .

انتهز ابن العميد إذن هذه الفرصة ، ولعله هيأ أسبابها وهونها على الشاعر تهوينا . وهذا المتنبى يرحل من العراق مشرقا فيصل إلى أرجان فى شهر صفر سنة أربع وخمسين وثلثمائة .

وقد تلقاه ابن العميد أحسن لقاء ، ومنحه من ظاهر الود والإكبار والإجلال ، ومن الهدايا والهبات ما أرضى كبرياءه وطمعه معا . وأقام المتنبى عند ابن العميد ، ومعه غلمانه وجماعة من أصحابه شهرين أو ما يقرب منهما ، وخرج من عنده ، وقد ظفر من المال بشىء كثير ، ولكنه ظفر بما هو خير من المال ، ظفر بالاتصال بعضد الدولة . والرواة يحدثوننا هنا أيضا بأن عضد الدولة دعا الشاعر فتردد ، ثم اعتذر ، ثم قبل . وهم يحدثوننا كذلك بأن ابن العميد أوحى إلى ابنه أبى الفتح أن يرغب الشاعر فى مدينة الرىّ ، حيث يقيم هو فى خدمة ركن الدولة ، فآثر الشاعر بعد التردد مدينة شيراز حيث يقيم عضد الدولة . وقوام هذا الحديث أيضا إظهار الشاعر مظهر الذى يتنافس فيه الملوك والأمراء فيمتنع عليهم ولا يستجيب لهم إلا كارها .

ولكنى أعتقد أن ابن العميد لم يكن إلا واسطة يراد منه أن يقرب المتنبى إلى أمراء البويهيين . ولعل ابن العميد قد تردد فى تقديم الشاعر إلى ركن الدولة الشيخ أو إلى ابنه عضد الدولة الشاب ، فاستقر رأيه على الثانية ، لشباب الأمير

المقيم فى شيراز ، ولما كان هذا الأمير يدبر لنفسه وما كان يدبر له من خطة فى العراق . فقد كان هذا الأمير الجرىء الذكى الطموح محتاجا إلى من يدعو له فى البلاد العربية ويمهد لقدومه على العراق حين تتاح له فرصة القدوم على العراق . وكان المتنبى أنفع أداة لهذه الدعوة وأقدر الناس على هذا التمهيد ، فوجه إذن إلى شيراز ، ولم يوجه إلى الرى .

على هذا النحو وحده أفهم تاريخ المتنبى فى العام الأخير من حياته . ويخيل إلى أن من السذاجة أن نقبل الأمور كما نقلها إلينا القدماء من رواة الشعر والأدب ، وأن نهمل أثر السياسة فى حياة شاعر كالمتنبى قد ارتفع شأنه وعظم أمره ، وأصبح عنصرا لا يقوم أثره الممكن فى نشر الدعوة السياسية .

ونحن نرى الآن ما تصنعه الحكومات مع الصحف ، وقد رأينا فى أول التاريخ الإسلامى ما كانت تصنعه الحكومات مع الشعراء ، بل رأينا ما صنعته الحكومات

الغربية مع المتنبى نفسه . فمن السذاجة أن نظن أن ابن العميد لم يرغب إلا فى شعر المتنبى ، وأن البويهيين المقيمين فى الفرس لم يريدوا إصلاح الخطأ الذى تورطت فيه بغداد حين تجهمت لهذا الشاعر العظيم .

٥

وقد مدح المتنبى ابن العميـــد بقصائد ثلاث ، أولاها الرائية التى أولها :

بادٍ هَواكَ صَـــبَرْتَ أم لم تصبرا
وَبُكاكَ إن لم يَجْرِ دَمعُكَ أو جَرى

والثانية الدالية التى أولها :

جاءَ نيروزُنا وأَنتَ مُرَادُهْ
وَوَرَتْ بالّذى أَرادَ زِنادُهْ

والثالثة الدالية التى أولها :

نَسيتُ وما أَنْسَى عِتاباً عَلَى الصـدِّ
وَلا خَفَرًا زادَتْ بهِ حُمرةُ الخـدِّ

وقد قالها مودعا للوزير حين ارتحل عنه إلى شيراز .

وقال المتنبى لابن العميد مقطوعة ســـينية ارتجلها فى مجمرة حشيت بالآس والنرجس ، فلم تكن ترى نارها إلا من خلال هذا الزهر ، وأولها :

أَحَبُّ امْرِىءٍ حَبَّتِ الأَنفُسُ
وأَطيَبُ ما شَمَّـــه مَعْطِسُ

وقال المتنبى أيضا مقطوعة دالية لأبى الفتح ابن الوزير حين كتب إليه يدعوه إلى الرى ، وأولها :

بِكُتْبِ الأنامِ كِتابٌ وَرَدْ
فَدَتْ يَدُ كاتِبِـهِ كلُّ يَدْ

وقراءة هذا الشعر كله تلقى فى روع القارئ أن المتنبى كان ضيقا بإنشائه ، يكلف نفسه منه ما لا تحب ، ويحملها منه على ما لا تكاد تطيق . وأكبر ظنى أن ابن العميد كان عظيما فى نفس المتنبى ، عظيما من ناحيته العقلية والأدبيـة والفنية معا ، عظيما بحيث ينبغى أن يحسب الشاعر له حسابا ، وأن يتقى نقده ويجتهد فى إرضائه . وقد يكون هذا سببا فى إجادة الشـاعر وظفره بالإتقان ، لأنه يدعوه إلى التأنق والتحفظ ، وتجويد الصنعة ، ولـكنه قد يكون سببا أيضا فى إخفاق الشاعر وعجزه وتهالـكه . فالطبع الفنى لا يستجيب إلى التكلف كلما دعى إليـــه ، ولا يعطيك الإجادة كلما

سألته إياها . وواضح جدا أن طبع المتنبى عصاه وامتنع عليه حين أخذ فى إنشاء الرائية ، فلم يصنع شيئا ، ولم يأت بما يلائم ابن العميد ولا بما يرضيه . وقد أشعر ابن العميد صاحبنا بأن هذه القصيدة لم تعجبه ، ولم ترض حاجته من شعر المتنبى . والرواة يزعمون لنا — معتذرين عن المتنبى فى أكبر الظن — أن الشاعر كان قد أنشأ هذه القصيدة فى مصر يمدح بها وزير كافور ابن الفرات ، ولكنه لم ينشده إياها ، فصرفها عنه إلى ابن العميد مع تغيير يسير فى بعض الأبيات . ولكنى أستبعد هذا كل الاستبعاد وأعتقد أن المتنبى كان أمهر وأشد احتياطا من أن يصنع هذا بابن العميد ، وإنما يصنع هذا بالجهال وأشباه الجهال ، لا برجل اعترف له الشرق الإسلامى بالتفوق فى العلم والأدب ، والفن والنقد .

والذى يعنينى من هذه القصيدة الضعيفة السخيفة قول المتنبى فيها :

مَنْ مُبْلِغُ الأعرابِ أَنِّى بَعْدَها
جالَسْتُ رِسْطاليسَ والإسْكَنْدَرا

وَمَلِلتُ نَحْرَ عِشارِها فأضافَنى
مَنْ يَنْحَرُ البِدَرَ النُّضارَ لِمَنْ قَرَى
وَسمِعتُ بطليمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ
مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرا
وَلقِيتُ كلَّ الفاضِلِينَ كأنّما
رَدَّ الإلٰهُ نُفُوسَهُمْ وَالأعْصُرا
نُسِقُوا لنا نَسَقَ الحِسابِ مُقَدَّما
وَأَتَى فذلِكَ إذْ أَتيتَ مُؤخّرا

فالمتنبى فى هـذه الأبيات يتكلف ازدراء الأعراب والغض منهم ، ويظن أنه يمدح ابن العميد بما يرضيه . والأعراب هنا هم سيف الدولة وأصحابه فى شمال الشام . ومن المحقق أن ابن العميد قد ابتسم لهـذا الكلام الذى لا يدل على شىء ولا يغنى شيئا ، ولا يمتاز إلا بما فيه من التكلف السخيف فى المعانى والألفاظ جميعا . وأجود ما قال المتنبى فى ابن العميد من غير شك إنما هى الدالية التى هنأه فيها بالنيروز . وإذا قلنا إنها أجود ما قال فى

ابن العميد فنحن نريد ما نقول .

فالقصيدة جيدة ، ولكنها ليست من روائع المتنبى . وقد أظهر الشاعر فيها جهدا وتأنقا نحسهما ، ونرثى له منهما ، وقد ارتفع فى قصيدته هذه عما كان قد انتهى إليه فى الرائية ، فلم يضعف ولم يسف . وأعانته متانة القافية ورصانة الوزن على هذا الارتفاع . ولعله وفق بعض التوفيق فى وصف العيد ، وافتخاره بالوزير ، وفى المقارنة بين هذا اليوم و بين غيره من أيام السنة . ولكن المهم فى هذه القصيدة اعتراف المتنبى بتقصيره فى الرائية واعتذاره من هذا التقصير وذلك حيث يقول :

هل لِعُذْرِى عِنْدَ الهُمَامِ أَبى الفَضْ
لِ قَبُولٌ سَوادُ عَينى مِدَادُهْ
أَنا مِن شِدَّةِ الحياءِ عَلِيلٌ
مَكْرُماتُ المُعِلِّهِ عُوَّادُه
ما كَفانى تَقْصِيرُ ما قُلْتُ فِيه
عن عُلاهُ حَتَّى ثَناهُ انتقادُه

إِنَّنى أَصْـــيَدُ البُزاةِ ولـكِنْ
نَ أَجَـــلَّ النُّجُومِ لا أصطادُه

رُبَّ ما لا يُعَـبِّرُ اللفظُ عَنْـــهُ
وَالذى يُضْـــمِرُ الفُؤادُ اعتِقادُه

ما تَعَوَّدْتُ أَنْ أَرَى كأبى الفَضْ
لِ وَهـــذا الذى أَتَاهُ اعْتِيادُه

إِنَّ فِي المَوْجِ لِلغريقِ لعُـــذرًا
وَاضحا أَنْ يَفُوتَهُ تَعْدَادُه

لِلنَّدَى الغَلْبُ إِنَّهُ فاضَ وَالشِعـ
ـرُ عِمادِى وَابنُ العَميد عِمـــادُه

فأما الدالية التى ودعه بها فليست أقل تكلفا وتصنعا من الرائية ، وإن كانت أقل منها ضعفا وتهالكا وإسفافا . والإنصاف يقتضينا أن نقول إن المتنبى أخذ من ابن العميد أكثر مما أعطاه ، فقد قصر الشاعر من غير شك عن مدح هذا الرجل الذى كان بعقله وأدبه وسياسته وكرمه زينة لمعاصريه .

٦

على أن المتنبى لم يكد يتقدم فى طريقه إلى شيراز حتى زال عنه الحرج وانحط عنه الثقل ، وحطم القيد الذى كان يمسك خياله ويمنعه أن يطير ، وإذا هو يبلغ من الشعر طبقة خليقة باسمه ، وخليقة بمكانه ، وخليقة بما قال من شعره الرائع فى سيف الدولة . لماذا ؟ ألأن عضد الدولة ألهمه أكثر مما ألهمه ابن العميد ؟ أم لأنه كان يحس الغربة فى بلاد الفرس ؟ ولم يكن له بد من بعض الوقت ليذوق هذه الحياة الجديدة ويسيغها ويتمثلها ، ويضطرب فيها حرا غير مقيد ولا مغلول ؟ أم لأن طبيعة البلاد الفارسية والحياة الفارسية قد أظهرته على لون جديد من الحياة والطبيعة ، لم يكن قد عرفه من قبل ؟ فألهمته شعرا قيما لم يقل مثله منذ عهد بعيد ، ولعل منه مالم يقل مثله قط .

أم لأن عضد الدولة كان أشد إطماعا للشاعر من ابن العميد لأنه ملك ، ولأن الشاعر قد عودنا أن يستجيب

للطمع أكثر مما يستجيب لأى شىء آخر .

أما أنا فأعتقد أن هذه الأسباب كلها قد تعاونت على إطلاق الشاعر من عقاله ، ورده إلى الجو الطلق الحر الذى تعود أن يحلق فيه .

ولم يقم المتنبى عند عضد الدولة إلا ثلاثة أشهر ، ولكنه مدحه فأكثر المدح ، والغريب أنه وفق إلى الإجادة فى كل ما قال . وقد حفظ الديوان لنا من شعره فى عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة ومقطوعة .

فأما القصائد فأولاها الهائية التى أولها :

أَوْهِ بديلٌ من قَوْلَتى واها
لِمَنْ نأتْ والبديلُ ذِكراها

والثانية النونية التى أولها :

مغانى الشِّعبِ طِيبا فى المَغانى
بِمَنْزِلَةِ الرَّبيعِ مِنَ الزمانِ

والثالثة اللامية التى أولها :

اثْلِثْ فإنا أيها الطَلَلُ
نَبْكى وَتُرْزِمُ تَحْتنا الإبِلُ

والرابعة الدالية التى يقول فيها :

أَزائرٌ يا خيـــالُ أَمْ عائِدْ
أَمْ عِنْـــدَ مَولاكَ أَنّنى راقِدْ

والخامسة البائية التى رثى بها عمة الأمير ، وأولها :

آخِرُ ما المَلْكُ مُعَـــزًّى بِهِ
هـــذا الّذى أَثّرَ فى قَلْبِهِ

والسادسة الكافية التى ودّعه بها ، وهى آخر ما قال من الشعر وأولها :

فِدًى لَكَ مَن يُقَصِّرُ عن مَدا كا
فَلاَ مَلِكٌ إذَنْ إلاّ فَدا كا

وأما الأرجوزة فطردية يقول فيها :

ما أَجْـــدَرَ الأيّامَ واللّيالِى
بِأنْ تَقُولَ ما لَه وَمالِى

وقال المقطوعة فى عيد الورد وأولها :

قَدْ صَدَقَ الوَرْدُ فى الّذى زَعَمَا
أَنَّكَ صَيَّرْتَ نَشْرَهُ دِيَما

فهذا الإحصاء اليسير يظهر كثرة ما قال المتنبى من الشعر فى عضد الدولة أثناء هذا الوقت القصير الذى أقامه فى شيراز . وما أعرف عهدا من عهود الشاعر فى حياته كلها نشط فيه شيطانه هذا النشاط ، إلا أن يكون عهد ثورته فى الشباب . ومع ذلك فلم يحفظ لنا الديوان من شعر ذلك العهد مثل ما حفظ لنا من شعر هذا الطور الأخير . ونشاط الشاعر لا يمتاز فى هذه الأشهر الثلاثة بالخصب وكثرة الانتاج فحسب ، ولكنه يمتاز أيضا بالتنوع والاختلاف ، فقد طرق المتنبى فى هذا الطور أكثر فنون الشعر من المدح والوصف والسياسة والرثاء والطرد ، ومن الحق أنه لم يتعمق فى شعره سياسة عضد الدولة ، كما تعمق سياسة سيف الدولة وسياسة كافور ، ولكنه مع ذلك قد ألم بطرف من أطرافها ، فوصف فى قصيدتين ثورة الأكراد على البويهيين وانتصار هؤلاء عليهم .

وما أعرف أن المتنبى أتقن وصف الطبيعة فى طور من أطوار حياته ، كما أتقنه فى هذا الطور . فوصفه لشعب بوان رائع حقا ، ولكنه إلى الغناء أقرب منه إلى الوصف الخالص

على حين تلتمس الغناء فلا تجده فى أرجوزته اللامية التى وصف فيها الصيد ، والتى أشرت إليها آنفا . وهذه الأرجوزة لها عندى خطر عظيم حقا ، فهى التى ارتقى فيها الشاعر إلى أرفع ما أتيح له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة . وهى التى امتزجت فيها نفس الشاعر بالطبيعة المادية امتزاجا مدهشا كاد ينسيه نفسه على قلة ما ينسى نفسه ، وكاد يصرفه عن عضد الدولة ، لولا أنه يقول الأرجوزة لعضد الدولة . وما رأيت طبيعة الشاعر أخذت بحظ من الخصب والغزارة ، والسهولة والجزالة ، والاندفاع معا ، كما رأيتها فى هذه الأرجوزة . وقد استعار الشاعر إطار القدماء فسلك وصفه فى نظم الرجز كما كان يفعل أبو نواس وابن المعتز ، وكما فعل هو عند الأوراجى ، وعند صاحب الرملة الإخشيدى ، ولكنه تجاوز ما كان مألوفا عند القدماء من فن الطرد ، واندفع مع الصائد والمصيد كأنه الريح أو النسيم الذى كان يضطرب فى تلك المروج ، فيشهد ما كان يجرى فيها من طراد وصراع . ثم يحتمله خياله العنيف القوى إلى أبعد من مروج فارس ، وإذا هو يعود إلى نجد ويرى وحشها خائفة تلتمس الأمان .

وليس يكفى أن ألم بهذه الأرجوزة إلماما سريعا كهذا ، ولكن هذا الحديث لا يتسع للدرس المفصل والبحث الدقيق . فلعلى أعود إلى هذه الأرجوزة فى غير هذا المكان . إنما أردت أن أدل على أن نفس الشاعر وملكاته قد استردت فى هذه الأشهر الأخيرة من حياته قوتها كلها ، وأضافت إليها قوة لم تكن تعرفها من قبل . وأكبر ظنى أن نفس الشاعر لم تمتلئ بالأمل فى وقت من الأوقات كما امتلأت به فى ذلك الوقت ، وما أستبعد أن يكون الشاعر قد وثق بالفوز آخر الأمر ، واطمأن إلى أنه بعد اتصاله بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير مدافع ، لا شاعر أمير فى شمال الشام أو فى مصر ، بل شاعر السلطان الأعظم . وما أستبعد أنه قد تمثل المستقبل المشرق ، فإذا هو يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمال الذى لا يكاد يبلغه الإحصاء ، والتأييد الذى لا حد له ، وعاد إلى بغداد مقربا إلى معز الدولة برغم المهلبى وأشياع المهلبى ، وإذا هو الشاعر الإسلامى الفذ ، الذى يقول من بغداد فيدوى صوته فى أرجاء الدولة الإسلامية كلها شرقا وغربا ، وإذا هو يملى على الدهر قصائده حقا .

هذا الأمل الواسع العريض هو الذى يفسر لى اندفاع الشاعر فى نشاط غريب ، لا نراه حتى فى مدحه لسيف الدولة ، لا نكاد نستثنى من هذا المدح إلا بعض قصائده الروميات . وأغرب من هذا كله أن هـذا النشاط قد محا عن الشاعر محوا تاما ما كان يشعر به من ضيق وحرج عند ابن العميد . بل رد إليـه حريته كاملة ، وإذا هو لا يتحرّج من أن يتغنى عربيته فى صراحة وجراءة ، لا حـدّ لها ولا رقيب عليها . فهو يتغنى حمص وما حولها فى فتوة تذكر بشبابه العنيف ، وهو يحمد شـعب بوان ويصف جماله ، ولـكنه لا يتردد فى أن يعلن حنينـه إلى دمشق وغوطتها ، وإلى الشعب العربى النازل فى الشام ، وفى أن يؤثر هذا الشعب الفصيح الـكريم على الشعب الفارسى الأعجمى ، الذى لا يقدر الضيافة ولا يحسن القرى .

بل هو يتجاوز هذه الحرية الشخصية ، إن صح هذا التعبير ، إلى حرية أخرى لغوية ، كان تعودها فى عصوره الأولى ، ولـكنه يسرف فيها الآن ، كأنه يريد أن يتخذها قاعدة . فاقرأ داليته التى أولها :

أَزَائِرٌ يا خَيَالُ أَمْ عائِدْ
أَمْ عِنْدَ مَوْلاكَ أَنَّنِى رَاقِدْ

واحص إعراضـــه فيها عن المألوف فى نصب الاسم المصروف ، فسترى أنه تجاوز المعقول واتخذ الضرورة أصلا . ولا تقل : إنه استجاز هذا متبعا للغة من اللغات أو مذهب من مذاهب النحويين ، فإن الرجل لم يحفل فى حقيقة الأمر بشىء من هذا ، وإنما أطاع فنه وأرسل نفسه على سجيتها واستذل النحو واللغـة للشعر ، وأعرض عما قد يكون من غضب النحويين أو رضاهم .

ثم قف عند هذه القصيدة نفسها ، فسترى أنه اصطنع فيها الحرية لا مع النحو وحـده ، بل مع أصول العروض والقافية أيضا . فقلما يصرع الشعراء فى القصـيدة الواحدة أكثر من مرة ، والمتنبى يصرع فى القصيدة الواحدة مرة أو مرتين ، أما فى هذه القصيدة فهو يصطنع التصريع مرات عدة ، كأنما هو يتبع فيه وحى الفن ، وكأنما لا يريد أن ينتقل من معنى إلى معنى دون أن يستأنف التصريع ليشعر بهذا الانتقال ؛ ولينبئ السامع بأنه سيخرج به من حديث إلى حديث .

وأخرى لا نكاد نجدها إلا فى شعر هذا الطور ، وهى تحرر الشاعر من القيود التى يأخذ الشعراء بها أنفسهم فى نظم القصيد . فهو ينسب حينا ويصف حينا ، وهو يتغنى دائما فى أوائل قصائده فى عضد الدولة . ولكن انظر إلى لاميتـــه التى يصف فيها انتصار الفرس على الأكراد ، والتى أولها :

اثْلِثْ فإِنَّا أيُّهـــا الطَّلَلُ
نَبْكى وتَرْزِمُ تَحْتَنَا الإبِلُ

فسترى كيف تبسط واصطنع حرية فى الحوار لم يكن يألفها ، ثم امض فى القراءة وانظر كيف خاص إلى الأمير من طريق بديعة فى شعره حقا ، حين تصور صاحبته وحيدة قد تحمل أهلها وحراسها ، ودهم الأمير ديارها ، وإذا هو يسألها ما يريد أن يسألها . أفتراها كانت تمنحه ما تعودت أن تضن به أم تراها كانت تبخل عليه بما يطلب إليها ؟ مع أن هذا البخل محال ، لأنه لا يكون حيث ينزل الأمير . وما أتردد فى الجهر بأن المتنبى لو أطال الإقامة فى فارس والاستمتاع بما كان يستمتع به فيها من الخفض والأمن

والنعيم ، لتغير مذهبه الشعرى تغيرا قويا جدا ، ولجاز أن يحدث فى الشعر العربى فنا جديدا لم يسبق إليه ، ولم يتح لأحد من العرب بعده أن يحدثه ، لأن نبوغه واستعداده لم يتاحا لشاعر عربى من الذين زاروا بعده هذه البلاد .

ومن هنا يدهشنى حقا ألا يكون النقاد قد التفتوا إلى ما يمتاز به شعر المتنبى فى شيراز من سائر شعره ، وأن ينظروا إليه كما تعودوا النظر إلى الشعر العادى لا يلتمسون فيه إلا ما تعودوا أن يلتمسوا من ألوان الجمال المألوف .

وأغرب من هذا أن الأستاذ بلاشير لم يكد يشعر بهذا التطور العميق الذى أحدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس فى شعره ، مع أن الأستاذ بلاشير أوروبى ، وكان خليقا أن يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبى وبين العقلية الأوروبية والفنية الأوروبية من تقارب ، ليس شديدا ، ولكنه واضح كل الوضوح .

وكم كنت أحب أن أطيل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبى ، فهو من الناحية الفنية الخالصة آثره عندى ، وأعجبه لى وأحبه إلى ، وهو خليق أن نقف عنده قصيدة

قصيدة ، وأن نفصله ونستخرج دقائقه ، ونضع أيدينا على مواضع التطور فيه . ولكن هذا شيء لا نفرغ منه إن أخذنا فيه إلا بعد إطالة لم يعد يحتملها هذا الكتاب .

وكل هذا الشعر مختار قد تصادف فيه بين حين وحين بيتا لا يعجبك ، ولكنك لا تستطيع أن تلغى منه قصيدة أو جزءا طويلا من قصيدة . وإذا كان لنا أن نأسف لشيء لا يغنى الأسف له ، فقد كنا نتمنى لو فر المتنبى فى شبابه إلى فارس لا إلى الشام . وقد كنا نتمنى لو سار عضد الدولة مع الشاعر سيرة كافور ، فأمسكه فى شيراز ولم يأذن له بالعودة إلى العراق ، وذاد عنه ، مع ذلك ، الشعور بأنه أسير لا يستطيع أن يذهب ويجيء كما يحب .

إذن لتغير شعر المتنبى تغيرا تاما ، ولوثب الشعر العربى فى القرن الرابع وثبة بعيدة المدى ، ولفتحت للشعراء بعد المتنبى أبواب جديدة يلتمسها الشباب من الشعراء الآن فلا يكادون يظفرون منها بما يبتغون .

٧

ولكن عضد الدولة لم يرد أن يشق على الشاعر ولا أن يمسكه فى شيراز ويحبسه عن العراق ، بل أضاف عطاء إلى عطاء ، وإحسانا إلى إحسان ، وخلى بين الشاعر وبين حريته . فاستأنف الشاعر سفره إلى العراق وهو يقسم جهد أيمانه ليعودن إلى الأمير . أكان صادقا فى هذا أم كان يذهب فيه مذهب الشعراء ، ومذهبه هو مع الذين ودعهم من الممدوحين ؟ مسألة ليس من اليسير أن نجيب عليها ، ولكنى كما عرفت من سياق هذا الحديث أميل إلى اعتقاد أن الشاعر لم يكن كاذبا ولا متكلفا ، وأنه كان يقدر فى نفسه أنه سيلقى الأمير مرة أخرى فى شيراز أو فى غير شيراز . والشىء الذى لا أشك فيه هو أن نفس المتنبى كانت قد خلصت للبويهيين ، ولعضد الدولة منهم خاصة ، وما أرتاب فى أنه لم يفصل من شيراز ، وفى نفسه الذهاب إلى الكوفة أو إلى حلب ، وإنما فصل منها وفى نفسه الذهاب إلى

بغداد ، والاتصال بمعز الدولة والانتصار على خصومه كما قدمت .

وهنا يحسن أن نقف لحظة قصيرة لنستخلص فى كثير جدا من الايجاز ، هذا التطور الأخير الذى طرأ على حياة المتنبى ، فانحرف بها عن طريقها وقلبها رأسا على عقب إن كان للحياة رأس وعقب . فقد رأينا الشاعر بعد محنته فى شبابه يدفع شيئا فشيئا إلى طريق الشعراء من قبله ، ويتهاون شيئا فشيئا فى الاحتفاظ بما كان له من مذهب ورأى . رأيناه يفرط فى القرمطية ، وإن احتفظ بشىء من الحنين إليها ، ثم رأيناه يمدح غير العرب حين تدعوه الضرورة إلى ذلك ، ثم رأيناه يتكلف الشعوبية فى مدح الروزبارى بدمشق ، ثم رأيناه يعود إلى عربيته حين يتصل بالحمدانيين ، ثم رأيناه بعد ذلك يعرض عن هذه العربية وينقطع إلى عبد زنجى أو نوبى فى الفسطاط ، فيمدحه ما امتدت له أسباب الطمع فيه ، ثم رأيناه يسترد عربيته ويعود إلى العراق ، وقد آثر الحيدة والهدوء ، ثم رأيناه آخر الأمر يغلب على قرمطيته وعلى عربيته معا ، فإذا هو يهجو القرامطة ويقاتلهم

بالسيف والرمح من جهة ، وإذا هو يمدح دلير ويؤثر ابن العميد وعضد الدولة على صديقه الحمدانى القديم من جهة أخرى . وهو يعود الآن إلى العراق ، وقد ضحى فى سبيل المال والمجد الشخصى بالقرمطية والعربية معا تحت أقدام البويهيين .

٨

وقد انتهى إلى واسط فيما يقول الرواة فى شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، بعد أن ألم بالأهواز . فلما انتهى إلى واسط نزل على صديق له يعرف بأبى نصر محمد الجبلى ، وهذا الصديق هو الذى كتب إلى الخالديين بما عرف من جلية أمر المتنبى ، بعد أن فارقه وخرج من واسط قاصدا إلى بغداد . وليس عندى ما يحملنى على الشك فى خبر أبى نصر الجبلى هذا . فالصدق ظاهر فيه ، وهو ملائم كل الملاءمة لطبيعة الأشياء . وخبر أبى نصر الجبلى هذا معروف ، فهو قد أنبأ الخالديين فى كتابه بأن فاتكا الأسدى ، خال ضبة القرمطى ، الذى هجاه المتنبى فى الكوفة قبل رحيله إلى ابن العميد ، قد نزل به قبل مقدم المتنبى على واسط بأيام ، وجعل يسأل عن المتنبى حتى ارتاب الجبلى بسؤاله ، ثم لم يشك فى أنه يريد به السوء لينقم لابن أخته ويرد عنه وعن نفسه عار ذلك الهجاء القبيح . وجعل الجبلى يرد فاتكا عن هذا الشر

الذى أضمره ، فلم يبلغ منه شيئا . فلما وصل المتنبى إلى واسط حذره الجبلى من فاتك هذا ، ونصح له أن يصطحب الأحراس ، فأبى مستكبرا ، وعرض عليه أن يتولى هو حراسته بإرسال نفر من أصحابه يسيرون بمسيره ، وينزلون بنزوله ، فأبى مستكبرا أيضا ، وخرج وليس معه إلا ابنه وغلمانه . فلما كان فى بعض طريقه إلى بغداد ، قريبا من دير العاقول ، تلقاه فاتك وأصحابه من الأعراب ، فكان بينهم شىء من قتال ، ثم كثره فاتك بأصحابه فقتلوه وقتلوا ابنه وغلمانه جميعا وأخذوا ما كان معهم من متاع وكتب ومال .

أكان فاتك ثائرا لابن أخته ولعرضه فحسب ؟ أم كان ثائرا لعرضه ولشىء آخر ؟

أما القدماء فلم يترددوا فى قبول الأمر كما قبله أبو نصر الجبلى ، وكما قبله الخالديان . فهم يرون ، ويرى معهم المحدثون أن المتنبى ذهب ضحية للسانه وتلقى الموت ثمنا لهذه القصيدة البائية التى هجا بها ضبة فى الكوفة ، على كره منه ، فيما يقولون . وقد يكون هذا حقا فهو ملائم للمألوف من عادات الأعراب ، ولكنى أحس من نفسى ترددا فى قبوله وأراها

تنبو عنه ولا تطمئن إليه ، وأرى خاطرا يلح علىّ ، ولا يكاد يفارقنى منذ درست شعر المتنبى وحياته فى شىء من التدقيق والتفصيل . وأنا أعرض عليك هذا الخاطر كما يعرض نفسه علىّ ، فإن شئت فاقبله ، وإن شئت فارفضه ، فإنى لا أجد بين النصوص ما يمكننى من ترجيحه فضلا عن القطع به . وهذا الخاطر يلقى فى نفسى أن المتنبى لم يذهب ضحية لهذه القصيدة ، ولا ضحية لجشع الأعراب ، فيما كان يسوق من مال ومتاع ، وإنما أدى بموته ، إلى القرامطة من جهة ، وإلى العرب من جهة أخرى ، ثمن هذه الخيانة التى اقترفها فى الكوفة ، وسجلها فى نفسه فى شيراز ، وعاد وفى نفسه أن يمعن فيها ويباهى بها ، ويملأ بها الأرض إذا انتهى إلى بغداد .

أما أن الذين قتلوه كانوا من القرامطة ، فشىء لا أستبعده[1] ، فقد كان الأعراب منتشرين فى بادية العراق

---

(١) لعل نصا ، فيما نقله البغدادى فى خزانة الأدب من كتاب « إيضاح المشكل لشعر المتنبى ، من تصانيف أبى القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى ، يقرب هذا ويؤيده . فهو يحدثنا بأن فاتكا لما أبى المتنبى ما عرض عليه من خفارته فى الطريق جمع له سبعين من رتوت الأعراب الذين يشربون دماء الحجيج فقتلوه وقتلوا من معه . وإنما كثر =

لذلك الوقت متأثرين بدعوة القرامطة أشد التأثر ، يظهرون ذلك إن أمكنتهم الفرصة ، فيغيرون على المدن والسواد ، ويخفون ذلك إذا ظهر بطش السلطان . وما أدرى ، إذا كان ضبة الكلابى داعية من دعاة القرامطة فى الكوفة فما الذى يمنع خاله الأسدى أن يكون متأثرا بهذه الدعوة أيضا .

والشىء الذى لا ينبئنا به الرواة هو مصير أصحاب المتنبى الذين رافقوه إلى أرجان ، ثم إلى شيراز . فقد كان معه جماعة من البغداديين ، منهم ابن جنى . فأين ومتى تفرق عنه هؤلاء الناس ؟ أرحلوا معه من شيراز ، ثم تخلفوا فى واسط ؟ أتأخروا عنه فى شيراز ؟ أسبقوه إلى بغداد ؟ لا ندرى ، ولكنا نعلم أنهم حزنوا عليه أشد الحزن وقالوا فيه كثيرا من الرثاء ، وعنوا بشعره يذيعونه ويفسرونه ، ولم يشهدوا موته ، ولم يعرفوا من لحظاته الأخيرة أكثر مما كتب به أبو نصر الجبلى إلى الخالديين .

= الاعتداء على الحجيج وفش ، وهان على الأعراب أن يستبيحوا دماءهم ويشربوها ، بعد أن اشتد تأثر البادية العراقية بدعوة القرامطة (انظر خزانة الأدب الجزء الأول صفحة ٢٨٩ .)

وكذلك أراد الله أن يعيش وحيدا ويموت وحيدا ذلك الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل الناس .

سالنش فى ١٥ يوليو سنة ١٩٣٦
كمبلو فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٦

بعد الفراغ

... والآن وقد فرغت من إملاء هذا الكتاب منذ أشهر ، وأتمت المطبعة صفحاته الأخيرة منذ ساعات ، أحب أن أسجل أشياء من الخير ألا تضيع . أولها : أنى حين أقبلت على صحبة المتنبى فى الصيف الماضى لم أكن جادا ولا صاحب بحث ولا تحقيق ، وإنما كنت عابثا ، أريد أن أداعب المتنبى أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعا . وليس أدل على ذلك من هذه الصفحات التى تقرؤها فى صدر هذا الكتاب . فهى لا تصور جدا ولا بحثا ، وإنما تصور عبثا ولهوا . ولكنى لم أكد ألقى المتنبى وآخذ فى الحديث معه ، أو الحديث عنه ، حتى صرفنى عن اللهو والعبث ، واضطرنى إلى محاولة البحث والتحقيق . وأى غرابة فى ذلك ؟ ولم يكن المتنبى صاحب راحة ولا ميالا إلى اللهو ، وإنما كانت حياته كلها جدا ، وجدا ثقيلا ، ينتهى به وبقرائه إلى الملل أحيانا .

ولست أدرى ماذا صنع المتنبى بى ، أو ماذا صنعت أنا

بالمتنبى ؟ فقد كنت أريد أن أمضى معه متباطئا ، وأتحدث إليه أو أتحدث عنه متثاقلا ، ولكنى لم أكد آخذ فى الإملاء حتى دفعت إليه ، ودفعت فيه دفعا عنيفا ، لم أستطع له مقاومة ولا عليه امتناعا ، وإذا أنا أجرى فى الإملاء أو أعدو فيه أشد العدو ، حتى لا يتابعنى صاحبى إلا بجهد كل الجهد ومشقة كل المشقة ، وإذا أنا أملى إذا أصبحت ، وأملى إذا أمسيت ، وأملى بين ذلك ، وأبغض الراحة أشد البغض ، ولا أكاد أنصرف عن المتنبى إلى أحد غيره أو إلى شىء غير حديثه ، حتى إذا انتهيت إلى حيث انتهيت ، وجدتنى مكدودا قد انتهى بى الإعياء إلى أقصاه ، ووجدتنى لم أقل للمتنبى ولم أقل عنه كل ما كنت أريد أن أقول . فطويت الصحف ، وأرجأت الحديث حتى أعود إلى القاهرة .

وكنت أريد أن أستأنف الحديث متى عدت ، فأفصل القول فى فن المتنبى بعد أن فرغت من تفصيل القول فى حياته ، وأقف بنوع خاص عند أشياء لم أزد على أن ألممت بها إلماما . ولكن الحياة المصرية كما قلت فى غير

موضع ، لا تلائم البحث الهادئ ولا الدرس المطمئن ، ولعلها لا تلائم بحثا ولا درسا . فما أكاد أبلغ القاهرة حتى تتلقانى الأعمال الجامعية ، فتستغرق أكثر جهدى ووقتى ، والحياة الاجتماعية ، فتستنفد ما بقى لى من وقت أو جهد ، وإذا أنا أصرف عن المتنبى صرفا عنيفا كما دفعت إليه دفعا عنيفا ، وإذا المعنيون بنشره لا يكادون يظفرون بى لحظة ، بين حين وحين ، ليسألونى عن هذه الكلمة أو تلك ، وليقرءوا على هذا الفصل أو ذاك .

ومع ذلك فما أكثر ما بقى فى نفسى من المتنبى . والله وحده يعلم ، أيتاح لى أن أشفى من حديثه نفسى ، أم تحول بينى وبين ذلك الحوائل والخطوب ؟

والأمر الثانى : أنى أبعد الناس عن حسن الرأى فيما أمليت ، ولا تظن أنى أريد أن أصطنع التواضع ، أو أن أغض من هذا الجهد الذى أنفقته حين كان ينبغى أن أستريح . وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صور شيئا ، فهو خليق أن يصورنى أنا فى بعض لحظات الحياة ، أثناء الصيف الماضى ، أكثر مما يصور المتنبى . وإنه

لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ ، أو بالعواطف والخواطر التى يثيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أو سجله فى كتاب ، ظن أنه صور الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغى أن يدرس ، على حين أنه لم يصور إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلا ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء .

وأكثر من هذا أنى أخذت أرى رأيا ما أظن إلا أن كثيرا من الناس سيضيقون به ، ولعلهم أن ينكروه علىّ ، وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسى ، ولكنى لم أزدد إلا إمعانا فيه واطمئنانا إليه ، وتعجبا من أنى قد انتظرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة ، قبل أن أفطن له أو أطيل التفكير فيه ، وهو أن شعر المتنبى لا يصور المتنبى ، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويرا كاملا صادقا يمكننا من أن نأخذهم منه أخذا مهما نبحث ، ومهما نجد فى التحقيق . وما أريد أن أطيل الاستدلال على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التى يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضا ، وإنما

أريد أن ألفتك إلى شيء يسير ، وهو أن ديوان المتنبى إن صور شيئا فإنما يصور لحظات من حياة المتنبى ، لا أكثر ولا أقل ، كما أن هذا الكتاب الذى بين يديك إن صور شيئا فإنما يصور لحظات من حياتى أنا ، لا أكثر ولا أقل ، فكما أنك لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعم أنك قادر على أن تستخرج من كتبى كلها صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، فأنت كذلك عاجز عن أن تخرج من ديوان المتنبى صورة صادقة تلائم حياة المتنبى كما كانت فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة .

وما أكثر ما أعجب ! وما أضحك أيضا ، حين أقرأ ما يكتبه الناس عنى بعد أن يفرغوا من قراءة هذا الكتاب أو ذاك من كتبى ، لأنهم يحصلون لأنفسهم ، ويعرضون على الناس صورا يزعمون أنها تمثلنى . ولست أدرى ، وليس المتصلون بى من قريب ، يرون أن بينها وبينى سببا . وما أشك فى أن المتنبى لو أنشر اليوم وقرأ هذا السخف الكثير

الذى نكتبه عنه منذ قرون لأنكر نفسه أشد الإنكار ، أو لأنكر هذا السخف أشد الإنكار ، ولرأى أننا لم نكتب عنه ، وإنما كتبنا عن أنفسنا ولم نصوره ، وإنما صورنا أنفسنا .

وإذن فقد يكون من الخير أن نقتصد ، وألا نتشدد فى هذه النظرية التى يحبها المحدثون ويشغفون بها ، وهى أن الشعر مرآة الشاعر ، وأن الأدب مرآة الأديب .

صدقنى أنى أصبحت لا أطمئن إلى هذه النظرية ، ولست أشك فى أن الشعر مرآة لشىء ، ولكنى لا أدرى ، أهذا الشىء هو نفس الشاعر أم هو شىء آخر غيرها ؟ ومهما أغل فى تصديق هذه النظرية ، وفى الثقة بنقد النقاد وبحث الباحثين ، فلن أتجاوز أن أقول : إن نقد الناقد إنما يصور لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر ، أو الأديب الذى عنى بدرسه . وإذن فما أقل ما نظفر به ، حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب .

وإذن فما أعرضه عليك فى هذا الكتاب ليس حياة

المتنبى كما كانت ، ولا هو حياة المتنبى كما أعتقد إنها كانت ، وإنما هو حياة المتنبى — أستغفر الله — بل لحظات من حياة المتنبى كما تصورتها فى أثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضى . ومن المحقق أنى كنت أرى فى المتنبى قبل إملاء هذا الكتاب آراء عدلت عنها أثناء الإملاء . ومن يدرى ، لعلى أرى فى المتنبى غدا أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبته فى هذا الكتاب . إنما نحن عبيد اللحظات لا نملكها ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا ردها عنا حين تقبل علينا . وهى تقبل علينا بشىء كثير لا نحصيه ، ولما تقبل علينا به آثار لا تحصى فى تهيئة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثر والتأثير .

ما أحق فكرة اللحظات هذه بشىء من العناية ، وما أجدر العناية بها أن ترد النقاد والأدباء الباحثين إلى شىء من التواضع ، هم فى حاجة إليه .

وشىء ثالث لابد من تسجيله وهو أنى مدين بأخلص الشكر وأجمله لصديقين ، أرى من الجحود ألا أسجل اسميهما فى آخر هذا الحديث . ومن يدرى لعلى أتخفف عليهما من

بعض التبعات ، ولعلى أسجل اسميهما إيثارا لنفسى بالعافية لا وفاء لهما ببعض الحق .

فأما أولهما فريد شحاته ، الذى تكلف فى هذا الكتاب جهدا ليس من اليسير تصويره ، فقد ضحى فى سبيله براحة الصيف كلها . كان يكتب حين كنت أملى أكثر النهار وطرفا من الليل ، وكان يختلس من ساعات نومه ما ينسخ فيه الصحف ليهيئها للمطبعة .

والآخر صديقى عبد العزيز احمد الذى قام على الطبع ونهض بأعباء التصحيح ، وإنها لثقال .

وقد قلدت أبا العلاء[1] منذ أعوام طويلة فى شكر الذين أعانوه على الكتابة والتأليف .

فلأجدد هذا التقليد ، إن صح هذا التعبير ، ولأشكر هذين الصديقين . فأنا كأبى العلاء رجل مستطيع بغيره ، وأنا مدين لهما بظهور هذا الكتاب .

الزمالك ٦ يناير سنة ١٩٣٧

---

(١) ذكرى أبى العلاء صفحة ١١ الطبعة الثانية .

استدراك

وقعت فى الكتاب أغلاط مطبعية بسيطة ننبه القارئ منها على ما يأتى :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٨	٦	من مضار بُها	من مضار بِها
١٢٢	٣	معروضة	مفروضة
١٤٢	٥	يا ابنِ	يابنَ
١٦٤	٤	كلابكمُ	كلابكمْ
١٧٨	٩	يا ابا دلْفِ	يا أبا دُلَفِ
٢٤٨	١٥	المدامةِ	المدامةَ
٢٩٢	١٤	وصيف	وصف
٢٩٣	٥	عنِّى	عنَّى
٤١٨	٨	وإن	إن
٤٣٥	٧	لَكَمْ	لَكُمْ
٤٨٨	٦	الفَضَل	الفَضْل
٤٩٩	٧	تركَتْنِي	تَرَكَتْنِي
٥٢٧	١٥	كان	كانت
٦٣٢	١٣	وهُو	وهْو

الفهرس

الكتاب الأول

صبى المتنبى وشبابه

صفحة

١ قبل البدء ٣

٢ نسب المتنبى : أبوه ٩

٣ : أمه وجدته — عربيته ١٨

٤ الحياة الاسلامية حين ولد المتنبى ٣٥

٥ صبى المتنبى فى العراق ٤٩

٦ إلى الشام ٩٢

٧ شعر المتنبى فى شمال الشام ٩٩

٨ شعره فى طرابلس ١٣٣

٩ « فى اللاذقية ١٣٩

١٠ « حين كان يستعد للثورة ١٥٣

١١ « فى السجن ١٧٧

١٢ « بعد خروجه من السجن ١٨٤

الكتاب الثانى

فى ظل الامراء

صفحة

١ مع الأوراجى ٢٠٧

٢ عند بدر بن عمار ٢٢٣

٣ إزعاجه عن بدر ٢٤٥

٤ فراره من بدر ٢٥٠

٥ عودته إلى الاضطراب ٢٦٢

٦ عند ابن طغج ٢٧٣

٧ عود إلى شمال الشام ٢٨٦

٨ عند أبى العشائر ٢٩٨

الكتاب الثالث

فى ظل سيف الدولة

١ شعر المتنبى فى سيف الدولة ٣٠٩

٢ بيئة سيف الدولة ٣٣٨

٣ مدح المتنبى لسيف الدولة ٣٤٣

٤ رثاؤه لأقارب سيف الدولة وخاصته ٣٧٥

صفحة

٥ وصفه لحروب سيف الدولة الداخلية ٣٩٩
٦ « لحروب سيف الدولة الخارجية ٤١٧
٧ تفصيل لهذا الوصف ٤٢٦
٨ تعريض المتنبى بأعداء سيف الدولة من أصحاب السلطان ٤٦٢
٩ شعر المتنبى فى فراغ سيف الدولة ٤٧٨
١٠ عتاب وفراق ٤٨٣

الكتاب الرابع

فى ظل كافور

١ فى طريق مصر ٥١٥
٢ فى الفسطاط ٥٢٥
٣ قضية المتنبى وكافور ٥٣١
٤ البيئة المصرية ٥٤٣
٥ المتنبى والبيئة الطبيعية فى مصر ٥٤٩
٦ شعره فى كافور ٥٥٤
٧ مدحه لكافور ٥٥٩
٨ شعره السياسى عند كافور ٥٨٤

صفحة

٩ غناؤه فى مصر ٥٩٧
١٠ المتنبى وفاتك ٦١١
١١ هجاؤه لكافور ٦١٥
١٢ فراره من كافور ٦٣٧

الكتاب الخامس

غنيمة الإياب

١ فى الكوفة ٦٤٧
٢ فى بغداد ٦٥٦
٣ عود إلى الكوفة ٦٦٧
٤ فى أرجان ٦٧٢
٥ شعره فى ابن العميد ٦٧٩
٦ فى ظل عضد الدولة ٦٨٥
٧ فى طريق العراق ٦٩٦
٨ خاتمة المطاف ٦٩٩
بعد الفراغ ٧٠٤

COLUMBIA UNIVERSITY
0026814323

893.7M98

DH
2 v. in 1

3358733

JUN 20 1947